دراسات قرآنية

دكتور
السيد عبد الغفار
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٩٤

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - إسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣

دراسات قرآنية

دكتور
السيد عبد الغفار
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٩٤

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - إسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣

مقدمة

الحمدلله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قيما لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسنا .

(الآيتان ١ ، ٢ من سورة الكهف .)

لم يكن القرآن إلا نعمة من نعم الله على خلقه، كتاب لا اعوجاج فيه ولا تناقض. مستقيما فى لفظه وفى معناه ، واضحا فى دلالته .

حمل القرآن رسالة السماء إلى البشر أجمع ، وقدم إليهم منهجا كاملا للحياتين . الدنيا والآخرة ، يلبى الحاجات والتطلعات والمعارف ، ويزكى الآمال ، ويمسح الجراح ، ويحقق الكفاية .

وحين يذكرنا الله تعالى بقوله ..

« ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين»

(من الآية ٨٩ من سورة النحل)

إنما يريد أن يوضح مكانة القرآن ، فهو فى بلاغته وبيانه يفى بكل متطلبات البشر ، ويعالج مايعن لهم من مشكلات ، يلمح إلى الهداية والنصيحة والعبرة ، يسوقها بين الحين والحين بوجوه متباينة وأساليب متنوعة ، فهو نمط وحده ، وأسلوب فرد ، جمع فأوعى ، وقدر فهدى .

ومن هنا أضحى القرآن - بحق - جديرا بالدراسة المستأنية الواعية المستمرة، مادام المخاطب به يفكر ويعقل .

وإن كان القرآن تعلو طبقة خطابه عن أسماع الناس وأفهامهم ، وتحتوى كلماته على أسرار ومشتملات ، إلا أنه لا يخلو من البيان الكاشف عن تلك الأسرار،

والتوضيح المبين لهذه المستغلقات ، فقد فصلت آياته تفصيلا ، إذا ما تدبره الناس، وعقلوه ، وفهموه ، واستجوبوه فيما هم فيه مختلفون .

وليس يخاف أن ظهور الكلام ، ووضوحه نمط من أنماط الفصاحة والبلاغة، أما إذا جاء الكلام غير دال على معانيه ، ولاموضح لها ، لانتفى الغرض فى أصل الكلام ، فإرادة الإفهام تقتضى بلوغ الغرض بإيضاح اللفظ .

ولقد كثرت وتنوعت الدراسات حول القـــرآن ، لاتزال تظهر مافيه من مكنونات ، وتكشف مااحتواه من أسرار لاتخلق ولاتنتهى .

والقرآن معطاء لايبخل ، ولايمنع إذا ماسعيت إليه واستوضحت مافيه .

فإذا أراد الناس أن يسلكوا طريق الفلاح ، عليهم أن يتلمسوا خطاهم نحـو شرعة الله التى أرادها لعباده ، فهى خير هاد ، وأفلح طريق .

فعلينا أن نتدبر القرآن ، ونعى ماجاء فيه بعمق النظر ، ووعى الفكر ، لنصل إلى معرفة مقاصده ، وإدراك غاياته .

فلاغرو أن الفهم والإصابة فى القـــرآن تتهيأ لمن طهر الله قلوبهم ، وصفى نفوسهم ، وقيض لهم حياة طيبة كريمة ، ونعوذ بالله من صرف قلوبنا عن فهم القرآن ومعرفته ، فتلك حال المتكبرين المعاندين ، إذ يقول تعالى ..

« سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير
الحق وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد
لايتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ... »
(من الآية ١٤٦ من سورة الأعراف)

والطريق إلى فهم القرآن عمل يحتاج إلى إعداد السبل، وتهيأة الأدوات اللازمة

لذلك ، فقد يتصدى للقرآن من يخطىء فهمه ، أو يتناوله فلا يدرك مافيه إدراكا واعيا ، أو ينبو عن أهداف آياته ومقاصدها .

وماحدث الآن فى مجتمعاتنا الإسلامية من انحرافات أو تطرف فى فهم القرآن لهو دليل على هذا الأمر ، وإنه لقرب شبه لما كان عليه المجتمع الاسلامى وقت أن تعددت الفرق الدينية والاتجاهات المذهبية ، إذ كانت التأويلات الضالة ـ لدى بعض الفرق ـ معولهم فى تطويع النصوص الدينية بما يوافق وجهتهم ، ويخدم مذهبهم ، وبما تمليه مبادؤهم واتجاهاتهم .

أضف إلى هذا أن ظاهرة النفور من اللغة العربية ، وقلة الاهتمام بها ، جعل منها لغة غريبة على الأسماع ، أدى هذا بدوره إلى الخلط فى الدلالات ، والعبث بالمفاهيم ، وقد وصل الأمر إلى خلق صعوبات باللغة بيننا وبين الادراك الكامل والواعى للاسلام المتمثل فى كتاب الله وسنة رسوله .

ولم يكن هذا نتيجة صعوبة كامنة فى المفاهيم الاسلامية ، أو جريرة غموض يحوط بالنص الدينى ـ كما يدعى المدعون ـ ولكنه عين التقصير من المسلمين أنفسهم .

ومن المعلوم أن اختلاف المفاهيم ـ لدى البعض ـ إنما هو حادث حول النص الدينى منذ زمن بعيد ، وقد يؤدى فى بعض الأحيان إلى فهم خاطىء لمراد الله تعالى من تشريعه ..

تدلنا على ذلك بعض المأثورات .. وحسبنا مثالا ، ماروى عن عمر ابن الخطاب ، عندما استعمل قدامة بن مظعون ، على بلاد البحرين . فعلم أن قدامة شرب فسكر ، فاستقدمه عمر ، وقال له : ياقدامة ، إنى جالدك لشربك . فقال : والله لوشربت ـ كما تقولون ـ ما كان لك أن تجلدنى . قال عمر : لماذا .. ؟

قال : لأن الله تعالى يقول :

«ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا ... »

(من الآية ٩٣ من سورة المائدة)

فأنا ممن ينطبق عليهم هذه الصفات .. فقال عمر : ألا تردون عليه قوله ..؟ ، فقال ابن عباس : إن هذه الآيات أنزلن عذرا للماضين وحجة على الباقين . قال عمر : صدقت . ... » (١) .

وهكذا يخطىء البعض فى فهم القرآن ، وإدراك مايرمى إليه ، سواء أكان عن قصد أم عن غير قصد . وكلا المنزعين يحتاج إلى وقفة نستوضح فيها مواطن الشبهات ، ونحذر من تلك المنزلقات التى تهوى بمجتمعاتنا الاسلامية إلى مسارب الغى والضلال ..

كما يحدث أيضا ــ فى بعض الأحيان ــ عند الاستشهاد بنص من نصوص القرآن ، أو طلب التعرف على قصد من مقاصده ، أن يستعين المستشهد ببعض الألفاظ ، أو بجزء من آية ، أو بآية لايتضح القصد من ورائها إلا بقرينة، وكلها مواقف تقود إلى الخطأ فى إصابة المعنى المقصود، لأن الآيات القرآنية قد لا تستقل بالمعنى الذى أتت من أجله إلا بضمها إلى آيات أخر ، أو استيعاب السياق الذى جاءت فيه ، فلا مناص من البحث والتقصى إذا أردنا المفهوم الصحيح للآية .

وقد حدث هذا لدى أصحاب المذاهب الإسلامية ، عندما كانوا يقتطعون من

---

١ ــ أبو اسحاق الشاطبى ، الموافقات فى أصول الشريعة ٣/٣٤٩ . المكتبة التجارية القاهرة .

النص مايوافق مبادئهم ، وإن كان — فى نفس الوقت — لاستقيم مع السياق العام ، أو المفهوم الكلى للنصوص القرآنية . .

ففى مجال الكلام عن « خلق أفعال العباد » وهو المبدأ الذى ينادى به الأشاعرة أو أهل السنة عامة ، يقول د. محمد يوسف موسى :

« ومن أجل هذا نجد أحد هؤلاء الأشاعرة يقول عن المعتزلة ـ بعد أن حكى اتفاقهم على أن أفعال العباد مخلوقة لهم ـ وقد فارقوا بهذه المقالة لسان الأمة ، فإن الأمة قبلهم كانوا يقولون لاخالق إلا الله . كما يقولون لا إله الا الله ، وخالفوا أيضا قوله سبحانه وتعالى « . . . قل الله خالق كل شىء . . . »(1).

(من الآية ١٦ من سورة الرعد)

وتبعيض الآية هنا لا يستقيم معه أخذ هذا الجزء شاهدا على ماقالوا ، إذ لو رجعت إلى الآية بكمالها وتمامها ، لوجدتها تقول « قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار » .

من الواضح أن الآية لاتقتصر على فهم الدلالة التى ذهبوا إليها ، بل هناك دلالات أخرى ، فعند قراءة الآيتين السابقتين عليها وهما : « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لايستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال . ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال » (١٤ ، ١٥ من سورة الرعد)

---

١ — د . محمد يوسف موسى : القرآن والفلسفة ص ١٠٤ ، ط . ثالثة ـ دار المعارف بمصر ١٩٥٨

ومن خلال ضم الآيات بعضها الى بعض يمكن أن نستدل على الغرض المقصود من ورائها ، حتى يستقيم فهم تلك الكلمات المقتطعة من الآية ١٦ ، وتظهر دلالتها من واقع السياق كله .

وعندما نتعرف على الغـــرض من وراء تلك الآيات ، نجدها تفيد بأن الله تعالى له وحده الدعاء والالتجاء ، أما الذين يدعون من دون الله لايستجيبون ولن يستجيبوا لدعائهم ؛ فشبههم بالعطشان الهائم الذى لايدرى مايفعل ؛ فيبسط كفيه الى الماء يدعوه لبلوغ فمه ، وماهو ببالغه ، ومادعاؤهم هذا الا خسران وضلال . ولله وحده يسجد أهل الأرض وأهل السماء كما تسجد ظلالهم ، وهو إخبار عن عظمة الله وسلطانه ، يدين له كل شيء ، وينقاد حتى ظلال الآدميين .

أما الآية — محل الاستشهاد — فهى تحمل سؤالا للتهكم والسخرية : أجعلتم لله شركاء وعبدتموهم من دونه ، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولاضرا ، وتسطع الحجة عندما يسوق لهم مثـــلا فى استواء الأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، وهو أمر مستحيل الوقوع ، فلايستوى المؤمن الذى يبصر ضياء الحق مع المشرك الذى عمى عن الرؤية .. فهل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة خلقوا مخلوقات كالتى خلقها الله ، فالتبس الأمر عليهم ، فلايدرون خلق الله من خلق آلهتهم .. وقد رأوا أن هذه الآلهة المزعومة لم تخلق شيئا .. أفبعد هذا كلـه يعبدونها من دون الله ؟!! .

ثم تأتى الآية ببيان واضح يدل على أن الله هو الخالق لجميع الأشياء لاخالق غيره ، وهو المنفرد بالألوهية الغالب لكل شيء .

والأمر هنا لايتعلق بخلق أفعال العباد ، أو أن العباد قد أوجدوها باختيارهم وقدرتهم . وتلك قضية لامحل لها فى هذه الآية ، بـل الأمر أجل من هـذا كله

وأخطر ، لأن الآية تحمل رداً على المشركين بأن آلهتهم لم تخلق شيئا ، وأن الله وحده خالق كل شيء .

وفيما يتعلق بهذه الآية يشير القاضي عبد الجبار بقوله . .

« وربما قيل فى قوله تعالى « قل هـل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء » ، ألا يدل ذلك على أنه الفاعل لكل شيء ، وعلى أن العبد لا يفعل ، وإلا كان يتشابه فعله بفعل الله .

وجوابنا : أن قوله تعالى « قل هل يستوى الأعمى والبصير » زجر للعاصى والكافر بأن شبهه بالأعمى ، وترغيب للمؤمن بأن شبهه بالبصير ، ونبه بقوله « أم جعلوا لله شركاء » على أن عبادة الأصنام بمنزلة العميان فى عبادتهم لها ، مع أنها لا تنفع ولا تضر ، فهو معنى قوله « خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم » ، ثم بين أنه الخالق للنعم التى يستوجب عندها العبادة ، فلا تليق العبادة إلا به ، ولا مدخل لأفعال العباد فى ذلك ... وقوله « خالق كل شيء » لا يدل إلا على أن المقدر من هذه الأجسام والنعم من قبله فلا وجه لإيراد ذلك ، وبين تعالى ما أراده بقوله من بعد « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها . . . »

(من الآية ١٧ سورة الرعد)فدل بذلك على مراده.» (١)

والملاحظ أن هذه الطريقة فى الاستدلال بإفراد آية، أو الاستشهاد بجزء منها ـ كما أشرنا من قبل ـ قد يأتى بما يتفق واتجاه المستدل بهـا، وتأويلها إلى دلالة بعيدة عن مفهوم السياق الذى جاءت فيه.

«والواجب فى التأويل للقرآن ملاحظة السياق الذى وردت فيه الآية، وعدم إكـــراهها على أن تؤدى وجهة نظر خاصة، ذلك أدنى للحق، وأليق بالقرآن.» (٢)

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على نوع من التطرف فى استخدام النص، وتحميله أكثر مما يحتمل، بعيداً عن الغاية المقصودة.

وهذه المواقف وماشابهها لأمر جدير بالملاحظة واللفت حتى يستقيم فهم النص، وإدراك حقيقة الأداء القرآنى، فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً، فلا يؤخذ مفككا أو مجزءاً بعضه عن بعض، لأنه حينذاك يفقد المعنى الكامل، ومراد الله تعالى المسوق إلى عباده.

وقد وصف أبو الأعلى المودودى هذا الأخذ المفكك بـ «الشذور المتناثرة»، فيقول:

---

١ ـــ انظر: القاضى عبد الجبار بن احمد: تنزية القران عن المطاعن. ص ٢٠١ دار النهضة الحديثة ـ بيروت.

٢ ـــ د. محمد يوسف موسى: القران والفلسفة. ص ١٠٥ ط. ثالثة ـــ دار المعارف بمصر ١٩٥٨م.

« وعدم الإدراك الكامل لكتاب الله ، قد يجعل القارىء يستسلم لفكرة (شذور متناثرة) ، فتصبح كل آية من آياته معزولة عن السياق العام ، وتعود مسرحا لابتكار المعاني التي تخالف مايريده العزيز ... » (١)

وقد حدا هذا بكثير من العلماء إلى القول بأن القران كالكلمة الواحدة التي جاءت تبين مراد الله تعالى .

فكتاب الله الكريم آخذ بعضه برقاب بعض ، يخلص من آية الى آية ومن كلمة إلى كلمة بما يلائم ارتباطها وتماسكها في ضـــروب من المعنى المتكامل حتى كأنه أفرغ في قالب واحد .

ومواقع الزلل كثيرة ، فقد يستتر على المتصدى للقران، دلالات تلك الألفاظ المكررة التى حفل القرآن بها ، وهى ألفـاظ — فى الواقع — لاتعنى الاتفـاق الكامل فى دلالاتها ، ولكن يختلف اللفظ فى معناه عن اللفظ الآخر المشابه له فى بناه، وذلك باختلاف موقع كل لفظ من الآية ، فتتعرض آنذاك الآيات القرآنية لسوء الفهم أو عدم الدقة التامة فى الوصول الى مضمونها اذا لم تتـدبر ذلك ونعى ظاهرة التكرار ، وتوافق معانى الألفاظ المكرره كل فى موقعه .

ومن ثم يلزمنا الاهتمام البالغ بإعداد وضبط الأدوات التى يقوم عليها التفسير وتسهم الى حد كبير فى تفهيم القرآن .

ولاتعدو علوم القران أن تكون أساسا يمكن الاعتماد عليه فى هـذا التفهيم وكشف الستر عن المعانى الدقيقة فى كتاب الله .

---

١ — أبو الأعلى المودودى — مقدمة ترجمة القرآن ص ٩ ومن مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية ١٩٧٦م.

ومن هنا أصبحت الحاجة ملحة فى البحث عن علوم القرآن وأظهارها ونشرها وتقديمها أداة يستعان بها فى دراسة القرآن وفهمه .

ومن هذا المنطلق أتناول بعض القضايا من علوم القرآن وبخاصة تلك التى لها علاقة وثيقة فى تفهيم النص ، وادراك أبعاده ، والوقوف على المقصد من ورائه ، فأصبح أمام ناظرى قسمين واضحين لعلوم القرآن .. وهما :ـ

أولا ـ القضايا التى تتناول الناحية التاريخية الوصفية للقرآن ، كالتعريف بالقرآن وأسمائه ، وظاهرة الوحى ، وتدوين القرآن وجمعه ، وأول مانزل وآخر مانزل .. وماشابه ذلك .

ثانيا ـ القضايا التى تتناول طبيعة النص القرآنى فى الأداء .. وأسباب النزول والمكى والمدنى ، والعام والخاص .. وماشابه ذلك .

وتلك الثانية هى موضوع البحث وقد لفت إليها كثير من الباحثين نظرا لأهميتها فى مجال الدراسات القرآنية .. يقول المودودى :

وكثيرا ماقذفهم بجهلهم بأساليب القرآن التعبيرية ، وأنماطه البيانية إلى معان غير مقصودة ، كما وقعوا فى ضروب من سوء الفهم لكثير من الآيات ، لأنهم ماعرفوا أسباب النزول ... غير أنه من الصعب على الإنسان أن يفهم الأسلوب البيانى للقرآن وترتيبه وأكثر مباحثه مادام لايعرف أسباب النزول » (١)

---

١ ـ أبو الأعلى المودودى : مقدمة ترجمة القرآن ص ٩ ، ١٤

وتلك مهمة أعطت علوم القرآن مكان الصدارة بين ما يجب توفره من أدوات لدى المفسر، فهي بمثابة أصول لعلم التفسير، كما حدث في مجال الفقه، إذ كان للمسائل الفقهية النشأة الأولى، ثم من بعد ذلك وضع علم «أصول الفقه».

«وقد يسمى العلم (أي علوم القرآن) بأصول التفسير، لأنه يتناول المباحث التي لابد للمفسرين من معرفتها للاستناد إليها في تفسير القرآن...» (١).

فلا تخلو مقالات العلماء في هذا المجال من بيان لأهمية علوم القرآن، وحاجة المتعرض للأسلوب القرآني إلى تلك العلوم حتى يستقيم الفهم، ويتم الإدراك:

يقول الذهبي:

«يجب على من يتعرض لتفسير كتاب الله تعالى أن ينظر في القرآن أولا فيجمع ما تكرر منه في موضع واحد ويقابل الآيات بعضها ببعض ليستعين بما جاء مسهبا على معرفة ما جاء موجزا وبما جاء مبينا على ما جاء مجملا وليحمل المطلق على المقيد، والعام على الخاص، وبهذا يكون قد فسر القرآن بالقرآن، وفهم مراد الله بما جاء عن الله، وهذه مرحلة لا يجوز لأحد مهما كان أن يعرض عنها ويتخطاها إلى مرحلة أخرى، لأن صاحب الكلام أدرى بمعاني كلامه، وأعرف من غيره» (٢)

---

١ ــ مناع القطان: علوم القرآن ص ١٢

٢ ــ محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون ٣٧/١ ط. ثانية ١٩٧٦ دار الكتب الحديثة ــ القاهرة.

فطبيعة النص القرآني لا تخلو من الإجمال والتبيين، والإطلاق والتقييد، والعموم والخصوص، والإيجاز والإطناب؛ فإن ماجاء موجزاً في مكان قد يبسط في مكان آخر، وماأجمل في موضع قد يبين في موضع آخر، وماورد مطلقا في ناحية يلحقه التقييد في ناحية أخرى، وماكان عاما يلحقه الخصوص، فمعرفة القرآن تنبع من القرآن نفسه.

وإن كانت علوم القرآن لاتقف عند حد القضايا التي أشرنا إليها، إلا أنها ضروب متعددة، نبه إلى ذلك الواحدي، عند قوله ..

« إن علوم القرآن غزيرة وضروبها جمة كثيرة، يقصر عنها القول وإن كان بالغا، ويتقلص عنها ذيله وإن كان سابغا. » (١)

ويذكر محقق الكتاب أن الواحدي تبين في أبناء عصره وعصره الرغبة عن علوم القرآن، فرأى أن يؤلف كتابا في أسباب النزول.

وهكذا يدرك الواحدي أن الناس قد تقاعسوا عن علوم القرآن، ولم تنل حظها من الاهتمام، على الرغم من شدة الحاجة إليها، وضرورة معرفتها للوصول إلى فهم صحيح للكتاب الكريم.

وهذا مادفعني أيضا إلى الكتابة في هذا الموضوع، إلا أنني سلكت فيه مسلكا جديدا ألا وهو مراعاة جانب التبسيط في عرض الموضوعات لتصبح سهلة التناول، ميسرة الإدراك، حتى تؤدي دورها في أوسع نطاق. وتلك صيحة

١- أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري: أسباب النزول ص٢ عالم الكتب — بيروت

ينادي بها المهتمون بالدراسات الإسلامية ، ومازال صداها يطلق بالآذان ، وهي المناداة بتدوين جديد للعلوم الاسلامية

« إن الأولى لإحياء الاسلام هو تدوين علوم القرآن والسنة وآثار الصحابة بأسلوب علمى بسيط ، وترك الأسلوب الفقهى الكلامى الصوفى للتاريخ . » (١)

وقد تجنبت كثرة التقسيمات والتفريعات والملحقات التى عهدناها فى مؤلفات علوم القرآن — هذا هو الأمر الأول — والأمر الثانى ، هو أننى حاولت إبراز أهميه علوم القرآن ، وكيفية استخدامها وتوظيفها، والاستعانة بها فى فهم النص، فإذا كان التفسير يتولى شرح الكلام وتوضيحه ، فإن علوم القرآن تعد بمثابة القاعدة التى تعين الدارس على فهم مااستشكل أو غمض عليه .

أما الأمر الثالث .. فهو العناية بالجانب التطبيقى ، إذ قمت بسرد العديد من الأمثلة ، وطرحها على القاعدة فى شكل قضية نصل من خلال حلها — بتطبيق تلك القاعدة — إلى الهدف والمقصد حتى يكون النص أقرب إلى الفهم ، وأوصل إلى الصواب .

---

١ — وحيد الله خان : نحو تدوين جديد للعلوم الاسلامية ص ٢١ ط . القاهرة ١٩٧٧ .

الموضوع الأول

العموم والخصوص

المحتوى ..

* مفهومه
* علامات العموم
* عام باق على عمومه
* عموم يراد به الخصوص
* العام المخصص ، وأشكاله
* الخاص الذى يراد به العام
* أغراض الخصوص والعموم
* الأهمية

مفهومه

إن السياق القرآني خصائص ، إذ يأتي النص دالا على العموم ، وقد يراد به غرض خاص ، وقد يأتي خاصاً يراد به العام .

وقد يكون النص واضحا تماما فيما يرمي إليه ، وقد يأتي محملا بعدد من الدلالات تحتاج إلى نظر وتأمل حتى نستوضحه ، وندرك أهدافه .

والأساليب تتنوع وتتلون في صيغة المخاطبة بما يناسب القصد ، وذلك لون من ألوان الإعجاز التي يزخر بها الكتاب الكريم .

وقضية العموم والخصوص تتعلق بذات النص القرآني ، فإذا كانت أسباب النزول ، والمكي والمدني يتعلقان بظروف النص ومناسبته ، فالعام والخاص يتناول مفهوم اللفظ ، وما يقصد إليه .

ومن هنا كان لابد أن تتوفر مثل هذه الدراسات في علوم القرآن للوقوف على الأساليب القرآنية ، ومعرفة أشكالها المتعددة وفهم ما ترمي إليه .

فعندما نقرأ قول الله تعالى ..

« يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون
أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون
الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم »

(الآية ٣٤ من سورة التوبة)

يتضح لنا أن الآية تتناول — بصفة عامة — من يكنز الذهب والفضة ولم ينفقها في سبيل الله . والإنفاق في سبيل الله يقصد به الزكاة ، وللزكاة شروط يجب أن تتوفر في المال المزكى فيه وبه ، ولكن لا يصلح أن نحتج بهذه الآية في

إيجاب الزكاة ، ولا في بيان النصاب الذي يجب فيه ، ولا المقدار المحدد للزكاة ، إنما يتضح فيها أن من ملك النصاب أو أقل ، أو أكثر إنما هـو داخل في جملة المتوعدين بالعذاب لعدم الإنفاق في سبيل الله ؛ فالعمومية — إذن — واضحة في الأسلوب . كما تظهر في الآية تلك الدلالة التي يشير إليها الزركشي (١) ، وهي إثبات الحكم عند ترك أداء الواجب من الزكاة سواء في الذهب أو الفضة ، كما أنها تحمل الدلالة على وجوب الزكاة فيهما ، ولكن دون تحديد ، بمعنى أن من امتنع عن أداء الزكاة وهو قادر على أدائها فبشره بعذاب أليم ،

كذلك قول الله تعالى ..

« قد أفلح المؤمنون » .. إلى قوله « والذين هم لفروجهم حافظون » (الآيتان ١ ، ٥ من سورة المؤمنون)

تتناول الآية دلالة عامة على كل الذين يصـونون فروجهم ، وتأتي الآية التالية .. « إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين » (الآية ٦ من سورة المؤمنون)

فتخصص ، وتبين من يحل لهن عند كشف عوراتهن ، وإن كانت لا تتناول تفصيل من يحل ومن لا يحل ، إلا أننا نجد تخصيصاً يبين المحرمات ويفصلها في قوله تعالى ..

« حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم .. الآية » (الآية ٢٣ من سورة النساء)

---

١ — الزركشي : البرهان في علوم القرآن ١٨/٢

وهى صورة واضحة تبين ما أجمله العموم ، وتشرح ما فيه من إبهام .

وعندما نقرأ قول الله تعالى ..

« أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن
لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم
تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن
باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا
واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط
الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ...
الآيـــة »

(الآية ١٨٧ من سورة البقرة)

تطالعنا دلالة العموم عند قوله « . . وكلوا واشربوا ... » ، وقد يتخذ هذا فى إباحة كل أنواع الأكل وأنواع الشرب ، وهو مفهوم يبعد الآية عن هدفها ، إذ يغفل منها — حينئذ — جانباً هاماً ، فهى لم ترد لبيان المحرم والحلال من مأكل ومشرب ، وإنما جاءت لجواز الأكل والشرب والمباشرة للزوجات أثناء الليل حتى إنتهاء موعد الصيام .

ولا تعدو أن تكون هذه المواقف وأمثالها عظيمة الأهمية والخطر — فى الوقت نفسه — عندما نتصدى لفهم كتاب الله .

والإهتمام بهذا الباب يفيد علما كثيراً يساعد على فهم الأساليب القرآنية ، ومعرفة مرامى الألفاظ ، وتحديد مقاصدها .

وللقرآن وجوه عديدة ، وعلى المتعرض له أن يحاول الفهم ، ويدق الملاحظة ، حتى يجد فيه ما يريد ، فهناك اتساع للاستنباط والتحصيل ، وينقل الزركشى ..

« قول أبي الدرداء « لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوهاً » ، وقول ابن مسعود (من أراد علم الأولين والآخرين فليثور* القرآن) . (1)

علامات العموم .

للعموم علامات تتمثل في تلك الألفاظ التي يعرف بها ، وهي التي تستغرق كل ما يصلح أن يندرج تحتها ؛ فهي ألفاظ خاصة بالعموم وتعرف بدلالتها عليه .

من هذه الألفاظ :

لفظ (كل) ، وتظهر دلالته في قول الله تعالى ..

(كل نفس ذائقة الموت ... الآية)

(من الآية ١٨٥ من سورة آل عمران)

والفظ هنا يستغرق كل ما يندرج تحته ، وهو المميز باللفظ المضاف إليه .

لفظ (الذي) ، في قول الله تعالى ..

(والذي قال لوالديه أف لكما ... الآية)

(من الآية ١٧ من سورة الأحقاف)

ويندرج تحت هذا اللفظ كل من صدر منه القول المشار إليه بدليل قول الله تعالى في الآية التالية .

---

* أي يبحث فيه ، ويفكر في معانيه وتفسيره ، وثور القرآن : بحث عن علمه

1 - انظر .. الزركشي البرهان ١٥٤/٢

(أولئك الذين حق عليهم القول ...)

(من الآية ١٨ من سورة الأحقاف)

ويدخل مع ألفاظ العموم هذه مؤنثها وجمعها .. وقد يكون لهذه الألفاظ دلالة خاصة تعني شخصا بعينه ، ويرجع ذلك إلى سياق الأسلوب ، وما يحتف بهذا السياق من قرائن .

ففي قول الله تعالى ..

(وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته ... الآية)

(من الآية ٢١ من سورة يوسف)

فلفظ (الذي) يدل على شخص بعينه وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر ، وهي دلالة خاصة لا عموم فيها .

وهكذا نرى أن صيغ العموم لم تكن مقتصرة على دلالة العموم فحسب ، وانما الاعتبار هو لسياق الأسلوب ، وما يتصل به من قرائن تحمل على عموميته ، أو أن يرد دليل يبين خصوصيته سواء أكان هـــذا الدليل من حجة العقل أم الكتاب أم السنة ..

ومن ألفاظ العموم كذلك .. لفظ (أي)

إذ يستعمل هذا اللفظ في الشرط .. كما في قوله تعالى ..

« قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعو فله الأسماء الحسنى ... الآية »

(من الآية ١١٠ من سورة الاسراء)

وقد يأتى للاستفهام .. فى قول الله تعالى ..

« فبأى آلاء ربكما تكذبان » (سورة الرحمن)

وكذلك لفظ (ما) الموصوله .. إذ يقول جل شأنه

« إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » (الآية ٩٨ من سورة الأنبياء)

أما غير الضمائر من موصولات وشرائط واستفهام ؛ فتأتى بعض الأسماء الدالة على العموم .. من ذلك لفظ (الإنسـان) وهو اسم جنس ، إذ يقول الله تعالى ..

(والعصر . إن الإنسان لفى خسر)

(الآيتان ١ ، ٢ من سورة العصر)

وتتضح عمومية لفظ (الإنسان) هنا من التخصيص الوارد فى الاستثناء المذكور فى الاية الثالثة من السورة نفسها .. وهو ..

(إلا الذين آمنوا ...) (من الآية ٣ من سورة العصر)

واللفظ عام يشمل جنس الإنسان ، وخصص منه (الذين آمنوا) ومنها كذلك (الجمع المضاف) كما فى قول الله ..

(والمطـلقات يتربصن بأنفسهم ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الاخر ... الاية)

(من الآية ٢٢٨ من سورة البقرة)

فلفظ (أرحامهن) جمع مضاف ، فيه دلالة على العموم .

ومن هذه الأسماء كذلك ما يأتي معرفاً (بأل) التي ليست للعهد ، كقول الله تعالى ..

(السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ... الآية)

(من الآية ٣٨ من سورة المائدة)

فلفظ (السارق والسارقة) يستغرق كل من يتصف بهذه الصفة .

وكذا الاسم النكرة الوارد في سياق النفي أو الشرط ، فمثال النفي ، قول الله تعالى ..

(الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث
ولا فسوق ولا جدال في الحج ... الآية)

(من الآية ١٩٧ من سورة البقرة)

أما مثال الشرط هو قول الله تعالى ..

(وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع
كلام الله ... الآية)

(من الآية ٦ من سورة التوبة)

ففي الآية الأولى (فلا رفث ولا فسوق) ، وفي الآية الثانية (وإن أحد من المشركين) ، لها دلالة عامة .

والعام دائم الاتصال بالخاص ، ولذا يقول العلماء .. ما من عام إلا وخصص ولكنني أرى ألا يؤخذ هذا القول على إطلاقه فهناك من العموميات ما لا يمكن تخصيصه ، ويظهر ذلك من خلال تقسيمهم للعموم والخصوص .. إلى : عام باق على عمومه ، وعام يراد به الخصوص ، وعام مخصص .

العام الباقي على عمومه :

هذا النوع لا يجوز فيه التخصيص .. كما في قول الله تعالى ..

« وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون »

(الآية ٥٦ من سورة الذاريات)

فالعمومية واضحة في الآية الكريمة ، ولا يمكن أن يلحقها التخصيص ، وهذا النوع وجوده نادر في القرآن ، إلا أن الزركشي (١) قد أشار إلى كثرته ، ومثل لذلك من قول الله تعالى ..

« ... إن الله بكل شيء عليم »

(من الآية ٧ من سورة المجادلة)

« إن الله لا يظلم الناس شيئاً »

(من الآية ٤٤ من سورة يونس)

« ... وجعلنا من الماء كل شيء حي ... »

(من الآية ٣٠ من سورة الأنبياء)

وهذا النوع من العموم يتمثل في السنن الإلهية التي لا تحتمل التخصيص ، أما قولهم بندرة هذا النوع فهو راجع إلى قلته بالنسبة لما يأتي عاماً ويلحقه الخصوص .

عموم يراد به الخصوص :

وهنا يأتي اللفظ عاما بصياغته ، إلا أنه يقصد به الخصوص من ناحية

---

١ — انظر .. الزركشي : البرهان ٢/٢١٧

الدلالة التي يحددها سياق الأسلوب ومقصده .

ويميز هذا النوع بعلامات يعرف بها ، وهى أن يأتى اللفظ غير شامل لجميع الأفراد التى تندرج تحته ، ويظهر ذلك من خلال المقصد والدلالة الأسلوبية ، إلا من ناحية الشكل أو الدلالة اللفظية . فالدلالة اللفظية فى مثل هذا النوع تكون عامة إلا أن السياق والمقصد يحدد دلالة خاصة .

كما يلحق هذا اللفظ دلالة مجازية تنقله عن وضعه الأصلى إلى وضع آخر ، وهنا تظهر الدلالة الخاصة بالقرينة العقلية التى تبحث فى ظروف النص وملابساته وتعتبر تلك القرينة من القرائن المتصلة بالنص ؛ فهى لا تنفك عنه إذ هى كامنة فيه أو محيطة به .

من هذا النوع قول الله تعالى . .

« هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك
ذرية طيبة إنك سميع الدعاء فنادته الملائكة وهو
قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيي مصدقاً
بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين » .

(الآيتان ٣٨ ، ٣٩ من سورة آل عمران)

وعل الشاهد فى الآيات هو لفظ (الملائكة) ؛ فهو بدلالته اللفظية يعنى كل نوع الملائكة بصفة عامة ، إلا أنه فى هـــذا الأسلوب يقصد به (جبريل) ؛ فاللفظ عام يراد به الخصوص .

إن دراسة هذا النص والتعرف على تفسيره ومناسبته ، واستبيان قصده ، لهى قرينة تساعد على إدراك تلك الخصوصية المقصودة فى الآية .

ومن ذلك أيضا قول الله تعالى ..

« والذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا
لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا
الله ونعم الوكيل »

(الآية ١٧٢ من سورة آل عمران)

يقول ابن كثير ...

« وقال مجاهد فى قوله تعالى « الذين قال لهم ... الآية » .
قال : هـذا أبو سفيان .. لمحمد صلى الله عليه وسلم ،
موعدكم بدر حيث قتلتم أصحابنا .. (١)

كما يقول الزركشى ..

« .. والمراد بالأول ، نعيم بن سعيد الثقفى
والثانى أبو سفيان وأصحابه ... » (٢)

ومعنى هـذا أن لفظى (الناس) فى الآية ، يقصد بكل منهما شخص واحد . وإن كان يشير الزركشى إلى أبى سفيان وأصحابه الا أن اللفظ به دلالة خاصة ، واللفظ فى حد ذاته ، لفظ عام ولكنه يراد به الخصوص ، وقد استدلوا على ذلك بما جاء فى الآية التالية ..

إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم

---

١ — تيسير العلى القدير لاختصار تفسير ابن كثير ٣٢٥/١ : محمد نسيب الرفاعى .

٢ — الزركشى : البرهان ٢٢٠/٢

وتخافون إن كنتم مؤمنين

(الآية ١٧٥ من سورة البقرة)

فالإشارة بلفظ « الشيطان » فى هذه الآية ، تدل على أن المقصود فى الآية السابقة إنما هو شخص مخصوص ، وصف بلفظة مفردة ، إذ لو كان لفظ « الناس » عاماً لقيل « الشياطين » ، ويقال إنما عبر بلفظ (الناس) عن شخص واحد لأنه يقوم مقام الكثرة فى تأثير ما يدعو إليه فى تثبيط همم المسلمين عن مصاحبة الرسول .

ومثل هذا — أيضا — نراه فى قول الله تعالى ..

« أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما »

(الآية ٥٤ من سورة النساء)

يقول ابن كثير ..

« يعنى بذلك حسدهم النبى على ما رزقه الله من النبوة العظيمة ... » (١)

كما يذكر صاحب (صفوة التفاسير) قول ابن عباس ..

« حسدوا النبى على النبوة ، وحسدوا أصحابه على الإيمان والمعنى : بل أيحسدون النبى والمؤمنين على النبوة التى

---

١ — تيسير العلى القدير لاختصار تفسير ابن كثير ٤٠٢/١ : محمد نسيب الرفاعى .

فضل الله بها محمداً ، وشرف بها العرب . . . »(١)

ولفظ (الناس) هنا يراد به محمد علية الصلاة والسلام إذ أخذوه بالحسد على ما آتاه الله من فضل النبوة ، مع أن الله تعالى قد منح آل ابراهيم (أسلاف محمد علية الصلاة والسلام) الكتاب والحكمة وآتاهم ملكا عظيما ؛ فأى عجب فى أن يعطى لمحمد مثل ذلك !! وقد كان التعبير بلفظ (الناس) على محمد صلى الله عليه وسلم إيماز بأنه هو المثل الاعلى من الآنسانية .

العام المخصص واشكاله :

ويأتى اللفظ فى هذا النوع عاماً ، ثم يخصص بمخصص منفصل عنه ، ومن علاماته المميزة . . أن يأتى اللفظ شاملا لجميع أفراده ، إلا أنه إن شملهم لفظا ؛ فإنه لا يشملهم حكما ، ويأتى هذا اللفظ بدلالاته الحقيقية . . أى يظل على وضعه الأصلى ، ولا يلحقه المجاز ـ كسابقه ـ .

والتخصيص فى هـــذا النوع يأتى عن طريق القرينة اللفظية ، وهى قرينة منفصلة ، وقد تكون قريبة من موضع اللفظ أو بعيدة عنه.

مثال ذلك قول الله تعالى ..

« والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة
شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم
شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون . إلا الذين

---

١ ـ محمد على الصابونى : صفوة التفاسير ٢٨٢/١ دار القرآن الكريم ـ بيروت .

تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور

رحيم »

(الآيتان ٤ ، ٥ من سورة النور)

فى الآية الأولى لفظ من ألفاظ العموم وهو (والذين) ، ويشمل كل المتصفين بصفة رمى المحصنات ، وقد حكمت الآية الكريمة عليهم بالفسق . أما الآية الثانية ؛ فقد استثنت منهم من تاب بعد ذلك ، ويعتبر هذا تخصيصاً للعموم المذكور فى الآية ، عن طريق الاستثناء ، والاستثناء هنا قرينة لفظية قريبة من موقع لفظ العموم ، إذ يرد فى الآية التالية مباشرة . وهكذا يأتى اللفظ عاماً ، ثم يخصص .

وقد يأتى التخصيص عن طريق الشرط ، كما فى قول الله تعالى . .

« وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله
من فضله والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم
إن علمتم فيهم خيراً . . . الآية »

(من الآية ٣٣ من سورة النور)

ويظهر العموم فى تلك الآية عند قوله تعالى « مما ملكت أيمانكم » وتلك هى (ما) الموصولة التى تشمل كل من ينطبق عليه هـذا الحكم ، ثم يأتى التخصيص عند قوله (إن علمتم فيهم خيراً) ؛ فيعين التخصيص من توفرت فيهم الأمانة والقدرة على الكسب لأداء مال الكتابة * . ومن الملاحظ أن التخصيص وارد فى

---

* كأن يكاتب العبيد والإماء على ألفين (مثلا) فى شهرين كل شهر ألف ، فإذا قال : قبلت .. وأداها فهو حر .

نفس الآية .

ويأتى التخصيص كذلك بحرف الغاية .. يقول الله تعالى ..

« ... وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض
من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل
... الآية »

(من الآية ١٨٧ من سورة البقرة)

ويتضح العموم فى الألفاظ (كلوا واشربوا) ، ثم يأتى التخصيص .. عند قوله تعالى (حتى يتبين ..) ، وهى قرينة تدل على تخصيص الوقت وتحديده ببداية الفجر الصادق .

وقد تأتى المخصصات بعيدة عن موقع ألفاظ العموم ، كأن تكون فى آية أخرى .. كقول الله تعالى ..

« حرمت عليكم الميتة ..الآية »

(من الآية ٣ من سورة المائدة)

ويدل لفظ الميتة هنا على العموم ، لاتصال (أل)ــ التى ليست للعهد ــ به ؛ إلا أن التخصيص يرد فى آية أخرى .. هى قول الله تعالى ..

« أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم
وللسيارة .. الآية »

(من الآية ٩٦ من سورة المائدة)

فصيد البحر من الميتة ولكن لا يجرى عليه الحكم السابق وهو التحريم ، لخروجه بهذا التخصيص ، وبيان حله .

ويظهر هذا أيضا فى الحديث الشريف ..

« .. عن أبى هريرة ، يقول : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله : إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء ، فإن توضأنا به عطشنا ، أفنتوضأ به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو الطهور ماؤه الحل ميتته .. » (١)

ومن هذا أيضا قول الله تعالى ..

« حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به .. الآية »

(من الآية ٣ من سورة المائدة)

ويظهر العموم هنا فى تحريم الدم ، ولكننا نجد التخصيص بتحديد نوع الدم المحرم ، نقرأ قول الله تعالى ..

قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا ..

(من الآية ١٤٥ من سورة الأنعام)

فجاء التخصيص فى قرينة مبينة ، تبعد كثيراً عن موقع لفظ العموم ، إلا أنها تتعلق به .

وقد لا يرد التخصيص فى القرآن بل تتولاه السنة الشريفة ، من ذلك قول الله تعالى ..

---

١ ــ الصنعانى : سبل السلام ١/١٥ مطبعة الحلبى ــ القاهرة .

وأحل الله البيع وحـــرم الربا .. الآية

(من الآية ٢٧٥ من سورة البقرة)

إذ يأتى لفظ البيع عاماً ، وتقوم السنة بمهمتها فى بيان أنواع البيوع ، حلها وحرمتها .. مثال ذلك ما جاء فى صحيح مسلم بسنده ..

... عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه نهى عن
بيع حبلة الحبلة ، (١)

وبيان هذا البيع هو أنه كان بيعا يتبايعه أهـــل الجاهلية ، وظل يمارس فى الإسلام ، إذ كان الرجل يبتاع الجـــزور إلى أن تنتج الناقة ، ثم تنتج التى فى بطنها (٢) .

وهناك أنواع كثيرة من البيوع تكفلت السنة ببيانها ، ولك أن ترجع الى كتب السنه فى ذلك .

وكذلك آيات المواريث التى جاءت فى القرآن الكريم قامت السنة بتخصيص ما جاء فيهامن عموم ، اذ يذكر الترمذى حديثابسنده .

... عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

---

١ ـــ صحيح مسلم : الجزء الثالث (كتاب البيوع ـ باب تحريم بيع حبلة الحبلة)

٢ ـــ راجع .. فتح البارى فى شرح صحيح البخارى ٣٥٦/٤ (كتاب البيوع لابن حجر . باب بيع الغرر) مطبعة الحلبى القاهرة ١٩٥٩

القاتل لا يرث (١) .

وهكذا تتولى السنة بيان وتخصيص الذين يستحقون الميراث .

الخاص الذي يراد به العام

نظراً لارتباط العموم بالخصوص في القرآن الكريم ؛ فقد رأينا ـ فيما سبق ـ ما يأتي من العموم إما مراداً به الخصوص ، وإما مخصصاً بقرينة منفصلة ، فلا غرابة ـ إذن ـ أن يأتي الخاص ويراد به العام . من ذلك قول الله تعالى ..

« يا أيها النبي إذا طلقتم النساء .. الآية » .

(من الآية ١ من سورة الطلاق)

الخطاب في الآية موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن يراد به كل من يملك الطلاق ، وتظهر قرينة التعميم في قوله (طلقتم) ، إذ تدل على عمومية الحكم للنبي ولأمته ، وإنما خص النبي بالنداء على سبيل التكريم والتعظيم .

أغراض العموم والخصوص

قد يأتي الخاص في النص القرآني لبيان أهمية الشيء ، أو تعظيم قدره ؛ فقول الله تعالى ..

« والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع
أجر المصلحين »

(الآية ١٧٠ من سورة الأعراف)

---

١ ـ سنن الترمذي : تحقيق شاكر . الجزء الرابع (باب ماجاء في إبطال ميراث القاتل) حديث رقم ٢١٠٩ ـ مطبعة الحلبي القاهرة ١٩٦٥ .

تدل الآية على التمسك بكتاب الله بشكل عام ، وتشمل تلك العمومية كل ما فى الكتاب من عبادات ، بما فى ذلك الصلاة وغيرها ، ثم نجد تخصيصاً بعد (واو العطف) فى (وأقاموا الصلاة) والتخصيص هنا يبين مرتبة الصلاة بين العبادات ، وأهميتها باعتبارها عماد الدين . وينقل صاحب البرهان :-

« عن أبى جعفر بن الزبير ، أنه يقول : إن هذا العطف يسمى بالتجريد ، كأنه جرد من الجملة ، وأفرد بالذكر تفصيلا » (١)

ويأتى التفصيل هنا عن طريق التخصيص ، بتعظيم قدر تلك العبادة من بين العبادات ذكرها فى كتاب الله .

.. وأسلوب التخصيص بعد التعميم يأتى فى باب الإطناب البلاغى ويشير إليه أصحاب البلاغة بأنه يعمل على الإيضاح بعد الإبهام فيقولون ..

« ذكر الخاص بعد العام للتنبيه على فضله حتى كأنه ليس من جنسه تنزيلا للتغاير فى الوصف منزلة التغاير فى الذات . كقوله تعالى (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ..) » (٢)

ومن ذلك يتضح أن المعطوف ذو مزية ، وعندئذ تظهر أهمية الخاص فى ذكره بعد العام ، فيتضح قدره وفضله .

---

١ — الزركشى : البرهان ٤٥٦/٢

٢ — عبد المتعال الصعيدى : بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح فى علوم البلاغة ١٢٧/٢ ط. القاهرة ١٩٧٢

من ذلك أيضا قول الله تعالى ..

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف
وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون »
(الآية ١٠٤ من سورة آل عمران)

فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر داخل ضمن أعمال الخير ، إلا أن تخصيصه بالذكر بعد الكلام عن أعمال الخير عامة هو بيان لأهميته وقدره بين أعمال الخير ، وهو تفصيل وتوضيح لأبرز أعمال الخير.

وكذلك قول الله تعالى ..

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على
محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيآتهم وأصلح
بالهم » (الآية ٢ من سورة محمد)

تشير الآية فى مستهلها إلى .. الذين آمنوا .. وهى إشارة تفيد العموم ، واستغراق كل من آمن ، ويأتى بعدها تخصيص لمن آمن بما نزل على محمد ، مع أن الإيمان لابد أن يكون بما نزل على محمد ، وما نزل على من قبله من الرسل .

والتخصيص هنا يعمل على فضل الإيمان بما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وبيان أهميته وقدره ..

ومن الملاحظ أن التخصيص فى الآيات السابقة قد جاء عن طريق العطف « بالواو » ، وقد يأتى بحرف العطف « أو » كما فى قول الله تعالى ..

« ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلى
ولم يوح إليه شىء ... » (من الآية ٩٣ من سورة الانعام)

ويظهر العموم فى الآية لشموله كل من رمى نفسه بالسوء افتراء بالكذب على الله ، ثم خصص من أنواع الافتراء - وهى أشدها سوء - من قال أوحى إلى ولم يوح إليه ، ويبين التخصيص هنا أن هذا العمل فيه مزيد من القبح والضلال، كما ينبه إلى أن مقترف هذا القول عليه مزيد من الإثم والعقاب .

ومع هذا لم تكن ظهور أهمية الشيء وفضله مقتصرة على ذكر الخاص بعد العام ، ولكنها قد تأتى فى ذكر العام بعد الخاص أيضا . وفى هذا النوع يقول الزركشى . .

« وهذا . . أنكر بعض الناس وجوده ،
وليس بصحيح . . »(١)

ويظهر هذا الأسلوب فى قول الله تعالى . .

« قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله
رب العالمين »

(الآية ١٦٢ من سورة الأنعام) .

ففى الآية الكريمة يأتى لفظ «نسكى» وهو لفظ عام يشمل العبادة من صلاة وغيرها ، وقد جاء بعد لفظ خاص بعبادة الصـــلاة وهو «صلاتى» ومن جانب آخر يوضح هذا - أهمية العبادة الشاملة فى مجموعها ، وهكذا كما يأتى الخاص مبيناً للأهمية والقدر يأتى العام كذلك فى بعض الأحيان ، فكما أن الصلاة لها أهميتها من بين العبادات ، فإن العبادات فى مجموعها لها أهميتها أيضا فى مفهوم الدين .

---

١ — الزركشى : البرهان ٢/٤٧١

ومنه أيضا قول الله تعالى ..

« ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم »

(الآية ٨٧ من سورة الحجر)

فلفظ (القرآن) عام القرآن كله ، وقد أتى ذكره بعد الخاص وهو (المثانى)، وتعنى بعضا من سور القرآن يطلقها العلماء على مايثنى فى الصلاة مثل الفاتحة .

وذكر العام هنا بعد الخاص يبين شمول الفضل لآيات القرآن كله ، وإبراز جلاله وفضله .

وهكذا يأتى الخاص بعد العام أو العام بعد الخاص مبيناً وموضحاً لقصد الآى ، ومايريد الله تعالى أن يظهره لعباده .

وقد يأتى من خلال السبب الخاص مفهوم عام .. كما فى قوله تعالى ..

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا »

(الآية ٥١ من سورة النساء)

تشير الآية إلى اليهود والنصارى بوجه خاص ، وتتناول تشنيع الخيانة والخائنين فيهم ، والمبالغة فى النهى عند تلك الخيانة للنبى والمؤمنين ، إذ جعلوا المشركين أهدى سبيلا من المؤمنين . وفى الوقت نفسه تؤدى مفهوماً مؤداه أن الإنسان لايمدح نفسه أو غيره ؛ فهو أمر منهى عنه فى الكتاب والسنة ، ففى تزكية النفس وامتداحها يقول الله تعالى ..

« .. فلاتزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى »

(من الآية ٣٢ من سورة النجم)

أى تمدحوها وتشكروها ، وتمنوا أعمالكم .

وكذا فى امتداح الغير يشير الحديث مما أورده ابن كثير ..

« وفى الصحيحين عن أبى بكرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يثنى على رجل .. فقال : ويحك ، قطعت عنق صاحبك .. ، ثم قال : إن كان أحدكم مادحاً صاحبه لامحالة فليقل أحسبه كذا .. ولا يزكى على الله أحداً (١)

والقرآن يأمر برعاية الأمانة ووجوب أدائها ، والإقلاع عن الخيانة ، فيأتى قول الله تعالى ..

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ... »

(من الآية ٥٨ من سورة النساء)

يأمر بالأمانة بشكل عام ، وإن كانت الآية السابقة (٥١ من سورة النساء) تشير إلى أمانة خاصة ، فيظهر مفهوماً عاما عند الربط بين الآيتين ، وما أحكم الصلة بينهما عندما يتحد الغرض فى رعاية الأمانة ، ومن خلال هذا الربط ، وما يهدف إليه يتضح لنا أن السبب خاص ، وقد يؤدى مفهوماً عاما ، لأن الأمانة الخاصة لاشك أنها تندرج فى سلك الأمانة العامة .

وقول اليهود والنصارى للكافرين بأنهم أهدى سبيلا من الذين آمنوا أمانة لازمة لهم ولكنهم لم يؤدوها ، فتشير الآية التالية (٥٨ من سورة النساء) فى تناولها للغرض نفسه، وأداء الأمانات إلى أهلها سواء فى ذلك أهل الكتاب وغيرهم.

---

١ — تيسير العلى القدير لاختصار تفسير ابن كثير ١/٤٠٠ محمد نسيب الرفاعى

نوفى كتاب الله ما يأتى مخصصاً لعموم السنة . وهو عزيز فى القرآن الكريم كما يشير إلى ذلك صاحب « الإتقان » (١)

ومن أمثلته . . قول الله تعالى . .

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر
ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين
الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية
عن يد وهم صاغرون »

(الآية ٢٩ من سورة التوبة)

وفيما يتعلق بهذا الأمر تأتى السنة بأسلوب عام ، يظهر فى قول النبى صلى الله عليه وسلم .

« أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الا الله . . . » (٢)

الأهمية

إن لظروف النص وملابساته ، والقرائن التى تتصل به عقلية كانت أم نصية ، عمل كبير فى التعرف على توجيه النص ، وبيان الغرض الذى يرمى إليه إن عاماً أو خاصاً . فإن اجتمعت مثل هذه العوامل مؤيدة دلالة النص على العموم ، ولم يأت دليل يدل على خصوصه لا من حجة عقل ، ولا كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا عادة ، فيبقى كما هو دالا على عمومه .

---

١ — انظر : السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن ١٨/٢

٢ — أخرجه الترمذى بسنده عن جابر بن عبد الله . سنن الترمذى ٤٣٩/٥ ط . أولى تحقيق وتعليق إبراهيم عطوه . مطبعة الحلبى — القاهرة ١٩٦٥ م

ويكون الأسلوب خاصاً إذ دلت الدلائل على ذلك . والمنهج القرآني هو من الوضوح والإبانة بحيث لاتختلط فيه المفاهيم،ولاتختفى ، ولا يجوز أن يخاطب الله تعالى عباده بما يوجب العموم ، وهو يريد الخصوص ، وهنا يتضح دور الدلائل والقرائن ؛ فتبين بقاء العام على عمومه ، أو تخصيص العام ، أو تعميم الخاص ؛ فنستوضح من خلالها مقصد الله تعالى من آياته . .

وكما يقولون . .

« . . . فإذا جاء العقل أو الكتاب أو السنة أو الإجماع ، أو العادة بدليل على تخصيص ماعم ، أو تعميم ماخص اتبع ذلك ، إذا كان تخصيص العام ، وتعميم الخاص بوضع أدلة على ذلك جائزاً غير منكر »(١)

وبيان ذلك قول الله تعالى . .

« إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لهـــا واردون » (الآية ٩٨ من سورة الأنبياء)

« ولقد قال قوم . . . قد عبدت الملائكة ، وعبد المسيح ؛ فوجب أنهم معذبون ، وأغفلوا ما فى عقولهم من الدليل على تخصيص ماعم » (٢)

والمقصود هنا هم المشركون ومايعبدونه من دون الله من أوثان وأصنام ؛

---

١ — آرثر جفرى : مقدمتان فى علوم القرآن ص ٢٠٠ (مقـــدمة كتاب المبانى ، ومقدمة ابن عطيه — تصحيح آ ثر جفرى — القاهرة ١٩٧٢ .

٢ — المرجع السابق ص ٢٠٠

فقرينة العقل بتدبر السياق وما يهدف إليه هي التي تؤدي إلى ذلك .

وهكذا يظهر لنا أن التعرف على حقيقة العموم والخصوص كما يهدف إليه النص القرآني يساعد على إدراك المعنى المقصود ، ويعصم المتعرض للقرآن من الوقوع في الخطأ أو الزلل .

وإن كان القاضي عبد الجبار في كتابه «المغني» يشير إلى ..

«.. أن لفظة الخاص إذا أطلقت لم تتناول الموضوع للعموم ، وكذلك العام إذا أطلق لم يتناول ما وضع للخصوص ، فلا يصح في الحقيقة أن يكون العام خاصاً ، ولا الخاص عاماً ... »(١)

وقد يكون هذا القول مقبولا من ناحية النظر إلى اللفظة في حدود دلالتها اللفظية الظاهرة . إلا أن اعتبار مقصد المتكلم له دخل كبير في توجيه الدلالة . فاللفظة التي تدل على الخصوص ، أو التي تدل على العموم لها تلك الدلالة حال إفرادها . أما من خلال الأسلوب ، ومقصد المتكلم ، قد يدل الخاص على العام أو العام على الخاص ، وتلك الأساليب ليست غريبة على الكلام العربي ؛ فاللغة العربية فيها من التوسع ما يستوعب مثل هذه الأساليب وغيرها .

ولفظ العموم قد يراد به بعض ما يتناوله دون بعض ؛ فيدل ذلك على الخصوص .

---

١ ــ القاضي عبد الجبار : المغني ٢٥/١٧ تحقيق الأهواني ومدكور ط. أولى وزارة الثقافة ــ مصر ١٩٦٢

التخصيص والتعميم إذن يرجع إلى قصد المتكلم، وما يحتف بالأسلوب من قرائن تساعد في التعرف على توجيه العام إلى خاص، أو توجيه الخاص إلى عام. وهذا هو قول الله تعالى :

« إن هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً »

(الآية ٣ من سورة الانسان)

ظاهر اللفظ هنا يتضح فيه الخصوص، ولكن المقصود هو عموم جنس الإنسان، وهو من قبيل الخاص الذي يراد به العموم.

ويفيد التخصيص كثيراً في إدراك المعنى المقصود، وتحديده وإظهار مايرمي إليه، كما أن معرفة العموم والخصوص يعين على بيان الجانب التطبيقي التطبيقي للأحكام، فقد تأتي الآية بلفظ خاص، وهي ترمي إلى تطبيق حكم عام.

وإلى هذا يشير ابن تيمية :

« وقد يجيء كثيراً من هذا الباب قولهم : هذه الآية نزلت في كذا .. لاسيما إن كان المذكور شخصاً، كأسباب النزول المذكورة في التفسير، كقولهم : إن آية الظهار نزلت في امرأة ثابت بن قيس، وإن آية اللعان نزلت في عويمر العجلاني أو هلال بن أمية وإن آية الكلالة نزلت في جابر بن عبد الله . وإن قوله تعالى « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك ... » ، وقد نزلت في يهود بني قريظة والنضير . وإن قوله تعالى « ومن يولهم يومئذ

دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ، نزلت في بدر . . ونظائر هذا كثير مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين بمكة أو في قوم من أهل الكتاب من اليهود والنصارى أو في قوم من المؤمنين ؛ فالذين قالوا لم يقصدوا أن حكم الآية مختص بأولئك الأعيان دون غيرهم ، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق .(١)

ويبدو في كلام ابن تيمية أنه يعني عمومية الأحكام في تلك الحالات التي جاء التنزيل فيها خاصاً ، ويعقب ابن تيمية تأكيداً لذلك أنه لم يقل أحد من علماء المسلمين إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين ، وإنما تختص بنوع ذلك الشخص وتشمل في عمومها ما يشبهه . وإن تناولت الآية سبباً معينا أمراً كان أو نهياً مدحاً كان أو ذماً ، فهي لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته .

---

١ ــ ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير ص ١٤ ومابعدها
تحقيق عدنان زرزور بيروت ١٩٧٢

الموضوع الثانى

الإطلاق والتقييد

المحتوى ..

* التقييد المبين للمطلق
* التقييد التفسيرى
* التقييد الوارد على الغالب
* التقييد المتقدم على الاطلاق
* المفهوم المخالف للتقييد

إن قضية المطلق والمقيد من قضايا علوم القرآن التي تتعلق بطبيعة اللغة القرآنية، وتتصل إلى حد كبير بالسياق القرآني، فمن الأساليب ما يرد مطلقاً في حكمه دالاً على العموم والشيوع، ومنها ما يرد مقيداً بأداة تفيد تحديداً أو تخصيصاً للمعنى المطلق.

وليس يخاف أن ظاهرة الإطلاق لون من ألوان البلاغة العربية التي تتمثل في مراعاة مقتضى الحال، وهو أصل اعتمد عليه البلاغيون في تحديد البلاغة، إذ يقولون «وبلاغة الكلام راجعة في الأصل إلى مطابقته لمقتضى الحال، فمقام الإطلاق يباين مقام التقييد» (١).

وما من منازع في أن القرآن هو قمة البلاغة العربية، وقد جاء بلسان القوم إلا أنه سلك أصفى الموارد وأعذبها، وأعلاها بلاغة، وأفصحها بياناً.

ولنا أن نستعرض هنا الآيات القرآنية التي تظهر فيها كيفية التقييد والإطلاق فالدلالة اللفظية في الإطلاق تختلف عنها في التقييد، إذ يرد في التقييد عوامل كالشرط أو الصفة تؤدي بدورها إلى التحديد والتخصيص، كما يأتي التقييد أيضا بالمفهوم العقلي بمعنى أن يكون القيد واضحاً عقلاً من خلال الأسلوب.

ففي قول الله تعالى:

«فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن
بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله
ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن

---

١ — عبد المتعال الصعيدي: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة. ١/٢٦ ط السادسة القاهرة ١٩٧٢

يتق الله يجعل له مخرجا »

(الآية ٢ من سورة الطلاق)

تشير الآية هنا إلى لزوم شرط العدالة ، إذ تتقيد الشهادة بأن تكون من شاهدى عدل ، ويتضح أن التقيد يأتى عن طريق الوصف بأن يكون الشاهد عدلا .

وفى آية أخرى يقول تعالى

يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذ حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم .

(من الآية ١٠٦ سورة المائدة)

نلحظ فى هذه الآية قيد العدالة فيمن يقوم بالشهادة . وهكذا نجد الشهادة على إطلاقها ، ثم يأتى التوضيح الذى يحدد كيفية أدائها عن طريق القيد المبين لصفة القائم بها . وإذا انتقلنا إلى آية أخرى تتناول نفس الموضوع .

وهى قول الله تعالى

« . . . فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء . . . »

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

وتلك الآية على طولها تتناول السلوك المتبع ، وما يجب توافره من إجراءات فى حالة الدين . وحالة الشهادة قد جاءت خلواً من الشرط الواضح فى الآيات السابقة ، فالشهادة هنا مطلقة وليست مقيدة بصفة العدالة ، أما إذا أعملنا العقل

فى مفهوم الآية أدركنا أن ذكر «ممن ترضون من الشهداء» ، إنما تدل على اشتراط العدالة فى الشهود ، كما أشار المفسرون أيضا إلى ذلك ..(١)

ويقول الزركشى «إن العدالة شرط فى الجميع ، إذ يمكن حمل المطلق على المقيد» (٢)

وإن لم يكن القيد اللفظى واضحاً كما فى حالة الصفة والشرط ، إلا أن الأسلوب العربى ليس غريبا عليه هذا الاستعمال ، فإن العرب من مذهبها استحباب الإطلاق اكتفاء بالقيد فى عمومه ، وطلباً للإيجاز والاختصار ، كما فى قول الله تعالى

«وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ...»

(الآية ٩ سورة النحل)

أى من السبل سبيل جائر ؛ إذ الكلمة الأولى تدل على الثانية ، ومن تلك الأساليب أيضا قول الله تعالى

«إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد»

(الآية ١٧ سورة ق)

ويراد به عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد ، ولم تذكر الأولى لدلالة الأخيرة عليها .

---

١ — أنظر : تيسير العلى القدير لاختصار تفسير ابن كثير ؛ محمد نسيب الرفاعى ١/٢٤٢

٢ — الزركشى : البرهان ٢/١٥

وفى هذا يقول السيوطى « والضابط أن الله إذا حكم فى شىء بصفة أو شرط ثم ورد حكم آخر مطلقاً ، نظر فإن لم يكن له أصل يرد إليه إلا ذلك الحكم المقيد ، وجب تقييده به » (١).

وهذا ما حدث فى الآيات السابقة عند الاستدلال بصفة العدالة فى الشهود.

وفى مثال آخر .. يقول الله تعالى..

« يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أودين .. »

(الآية ١١ سورة النساء)

وفى الآية التالية:

« ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أودين ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أودين .. »

(الآية ١٢ سورة النساء)

والواضح فى الآيتين ،هو عدم التصرف فى الميراث طبقاً للأنصبة المحددة.

---

١ — السيوطى : الإتقان ٢١/١

إلا بعد الوفاء بما يلزم من وصية أو دين وهو التقييد المذكور فيها . أما فى قول الله تعالى..

« يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شىء عليم » (الآية ١٧٦ سورة النساء)

فتأتى الآية خالية من الشرط الوارد فى سابقتيها وهو الوفاء بالدين والوصية أولا ، ولكن يحمل المطلق على المقيد ، فلابد من إنفاذ الوصية ، ووفاء الدين عند الميراث ، إذ ليس لوارث شىء إلا بعد الوفاء بهما .

وفى آية أخرى يقول الله تعالى .

« وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيماً »

(الآية ٩٢ من سورة النساء)

وفى الآية الكريمة يظهر القيد عند ظهور الصفة ، والقيد هنا هو « الرقبة المؤمنة » أى المتصفة بهذه الصفة إلا أننا نجد فى آية أخرى إطلاقاً غير مقيد بشرط وهو قوله تعالى :

« لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم . . . »

(الآية ٨٩ من سورة المائدة)

فتحرير الرقبة هنا - كفارة عن الأيمان - مطلق ، ولم يرد شرط أن تكون الرقبة مؤمنة ، كما جاء فى الآية السابقة .

ويشير «القرطبى» فى تفسيره « لا يجوز عندنا إلا إعتاق رقبة مؤمنة كاملة ليس فيها شرك لغيره ، ولا عتاقة بعضها ، ولا عتق إلى أجل . . . » وقال أبو حنيفة : يجوز عتق الكافرة لأن مطلق اللفظ يقتضيها ، ودليلنا أنها قربة واجبة فلا يكون الكافر محلا لها كالزكاة ، وأيضا فكل مطلق فى القرآن من هذا فهو راجع إلى المقيد فى عتق الرقبة فى القتل الخطأ » (١) . وهكذا يحمل المطلق على المقيد ، فيشترط أن تكون الرقبة مؤمنة . ونفس الحالة نجدها فى آية أخرى وهى آية الظهار عند قول الله تعالى :

« والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا . . . »

(الآية ٣ من سورة المجادلة)

والواضح فى كل هذه الأحوال أن تكون الرقبة كاملة سليمة من كل عيب ، ومن كمالها اسلامها .

---

١ - القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ٢٢٧٧/٤ ، ٧٨ دار الشعب - القاهرة

كذلك نلحظ قيداً وإطـــلاقاً فى آيتى النساء، والمائدة السابقتين ، فيما يتعلق بتتابع الصيام ، وذلك عندما أشار الله سبحانه وتعالى إلى بديل الكفارة لغـــير المستطيع فى العتق ؛ فيقوم بصيام شهرين متتابعين فى الآية الأولى كفارة عن القتل الخطأ ، وصيـــام ثلاثة أيام كفارة عن الايمان فى الآية الثانية دون تقييدها بأى قيد .

وفى هذا يقول صاحب صفوة التفاسير «واشترط الأحناف والحنابلة التتابع فى الأيام ، وقال الشافعى ومالك لا يجب التتابع ، واختار الطبرى أنه كيفما صامهن متفرقة أو متتابعة أجزأه »(١) .

والمفهوم من تلك الآراء ألا يحمل المطلق على المقيد ، إذ يظل المقيد على قيده ، والمطلق على إطلاقه ، فى مثل هذه الحالات ؛ ذلك لأن الموقف يختلف فى الحالتين ؛ ففى الحالة الأولى يعظم الأمر وتجل خطورته ، وقد طالت مدة الصيام وتتابعت تمشياً مع فداحة الفعل وهو القتل . أما فى الحالة الثانية ؛ فتقل مدة الصيام بشكل ملحوظ ولا تقيد بالتتابع ، وهكذا يظهر التفاوت فى القيام بالكفارة . أما فى تحرير الرقبة فلا تفاوت ولا إختلاف إذ الكفارة واحدة فى الحالتين ولا تعدد فيها كما فى حالة الصيام، ولذا حمل المطلق على المقيد فيها . والأمر هنا يتفق مع المعالجة التشريعية فى القرآن الكريم ورعايته للمواقف المختلفة .

وفى قول الله تعالى :

« . . . ومن يكفر بعد الإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين »

(من الآية ٥ سورة المائدة)

---

١ ـــ الصابونى : صفوة التفاسير ٣٦٣/١

وفى آية أخرى :

« ... ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (من الآية ٢١٧ سورة البقرة)

ففى الآية الأولى نرى أن الإحباط (فقد حبط عمله) مطلق ولم يعلق بالوفاة ، بمعنى أن من ارتد عن دينه فيكفر بعد الإيمان ، فقد بطل عمله وفسد .

أما الآية الثانية ففيها: أن من ارتد عن دينه فكفر بعد الإيمان ،ومات على الكفر، فقد بطل عمله ، وهكذا يبدو أن بطلان الأعمال وفسادها لمن يظل على الكفر ويمت عليه . وهو التقييد الواضح فى هذه الآية .

ومن هنا ثار التساؤل والاختلاف بين العلماء .. هل يستتاب المرتد أم لا .. ؟وهل يحبط عمله بنفس الردة أم لا ، إلا على الموافاة على الكفر .. ؟

ومرد هذا الاختلاف هو ما جاء من إطلاق وتقييد حول هذا الموضوع فى الآيتين السابقتين ، وقد دفعهم ذلك إلى « القول بأن المرتد يستتاب وإلا قتل ، وقول آخر أنه لا يستتاب بل يقتل . أما القول المشهور عندهم أن المرتد لا يقتل حتى يستتاب . وقال الشافعى : إن من ارتد ثم عاد إلى الإسلام لم يحبط عمله ، ولا حجه الذى فرغ منه ، بل إن مات على الردة فحينئذ تحبط أعماله . » (1)

---

١ — أورد هذه الأقوال القرطبى فى تفسيره .. مجلد ٢ ص ٨٥٦ ط. دار الشعب

وقول الشافعي يتفق مع ما أشـــار إليه الزركشي « بأنـه يجب رد الآية المطلقة إلى المقيدة وألا يقضى بإحباط الأعمال إلا بشرط الوفاة على الكفر »(١)

وهنا نلحظ الدور الهام الذى تقوم به علوم القرآن فى مجال التفسير ؛ لأن التقييد بالوفاة على الكفر هو الذى أوعز إليهم القول بالاستتابة لمن ارتد. كما يظهر أيضاً تحديد هذا الموقف فى الآية المقيدة التى أوضحت أن إحباط العمل هو لمن كفر بعد الإيمـان وبقى إلى أن مات على الكفر .

وقد غدا حمل المطلق على المقيد عاملا موضحـاً للمعنى المقصـود من الآية المطلقـــة .

وكذلك نجد أن معرفة المطلق والمقيد تبعث على فهم الأحكام وتحديدها ، وإزالة ما قد يتوهمه القـارىء من غموض يحوط بالنص ، ولن يتأتى ذلك إلا بدراسة الموضوع كله كوحدة متكاملة، إذ لا يجزى الاكتفاء بالآية المنفصلةعن مثيلاتها فى أى موضع آخر .

ففى قول الله تعالى :

« إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم »

(الاية ١١٥ من سورة النحل)

وفى موضع آخر يقول تعالى:

«قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون

---

١ ــ الزركشي : البرهان ١٦/٢ .

ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير . . . »

(من الآية ١٤٥ سورة الأنعام)

ففى الآية الأولى أطلق «الدم»، ولم يتضح فيها صفة ذلك الدم المحرم . أما الثانية فقد وصفت الدم بأنه الدم المسفوح ، وعلى هذا يحمل المطلق على المقيد لمعرفة نوعية الدم المحرم حتى لايدخل فيه غيره . وهو أمر - كما رأينا - لا يمكن التوصل إليه إلا بالتعرف على أطراف الموضوع فى الآيات المختلفة .

كما يعمل المطلق والمقيد فى توضيح المواقف وجلائها . .

كما يقول الله تعالى :

يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين »

(الآية ٦ من سورة الحجرات)

فالأمر بالاستبيان هنا إنما هو قيد يحض على التثبت من صحة الخبر الذى يأتى من مخبر غير موثوق فى صدقه وعدالته ، ويوجب التبين والفحص .

وكما يأتى القيد لتحديد المطلق وتوضيحه ، فإنه يأتى كذلك على السبب الغالب والأعم .

إذ يقول الله تعالى :

« حرمت عليكم أمهاتكم . . . إلى قوله وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم . . . »

(من الآية ٢٣ من سورة النساء)

فعند قوله تعالى « وربائبكم اللاتى فى حجوركم » يرد القيد فى تلك الصفة وهى « فى حجوركم » ، وقد تمسك بها أصحاب الظاهر واشترطوا أن تكون الربيبة فى حجر زوج أمها ، فإذا لم تكن فى حجره فهى حلال له ، وهذا موافق لظاهر النص ، إلا أن « مذهب العلماء كافة أنها حرام سواء أكانت فى حجره أم لا ... قالوا ... والتقييد إذا خرج على سبب لكونه الغالب ... فلا يتقيد الحكم عليه »(١)

وينسحب التقييد هنا على سبب غالب ، إذ الربيبة غالبا ما تكون فى حجر زوج الأم .

ونظير ذلك قوله تعالى :

« ولا تقتلوا أولادكم من إملاق »

(من الآية ١٥١ من سورة الأنعام)

ويأتى قيد « الإملاق » على الغالب ، ولكنه معلوم أن القتل محرم بغير ذلك. ولم يأت القيد هنا للشرط ولكنه أتى لبيان فظاعة الأمر وشناعته ، كما فى قول الله تعالى :

« ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً »

(من الآية ٣٣ من سورة النور)

إذ الأصل فى المملوكة أن عصمتها سيدها أما أن يأمرها بالزنى وتمتنع ، وتريد العفة ، فذلك منتهى الخسة والدناءة ، وهو موافق لحالة الإكراه فهى تريد التحصن ، ويكرهها هو على البغاء .

---

١ ـــ صحيح مسلم بشرح النووى ١٠/٢٦ نشره محمود توفيق ط. القاهرة.

كما نجد فى الآية — محل الشاهد — قيداً آخر ، عند قوله تعالى « وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم » ؛ فقيد الأبناء بأنهم من الأصلاب ، وليس مطلق الأبناء . ويمتنع دخول الابن بالتبنى ، وذلك واضح وصريح فى القرآن لقوله تعالى « وماجعل أدعياءكم أبناءكم » (من الآية ٤ من سورة الأحزاب)

ويدخل الابن من الرضاع ؛ فالقيد هنا يأتى على السبب الغالب بمعنى أن الغالب فى الأبناء أنهم من الأصلاب .

ويشير صاحب تفسير المنار إلى قول أئمة الفقه « أن ابن الرضاع تحرم حليلته إما لدخوله فى الأبناء هنا ... وإما استناداً الى ماجاء فى الحديث أنه يحرم من الرضاع مايحرم من النسب* » (١).

ومن حالات الإطلاق والتقييد ، مايأتى التقييد فيها متقدماً على الإطلاق ، ويظهر ذلك فى قول الله تعالى :

« وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة »
(من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة)

إذاً تعتبر حالة التخيير بين الكتابة أو الرهان المقبوضة لصاحب الحق وثيقة لدينه ، ويجرى تقييد هذا الإجراء بحالة السفر خاصة ، وهذا تقييد مقدم على

---

* ورد فى كتاب فتح البارى بشرح صحيح البخارى - الجزء الخامس - كتاب الشهادات : باب الشهادة على الأنساب . حدثنا مسلم بن ابراهيم ، حدثنا همام ، حدثنا قتادة عن جابر بن زيد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال النبى .. فى بنت حمزه ... لاتحل لى . « يحرم من الرضاع مايحرم من النسب » .. هى ابنة أخى من الرضاع .

١ — محمد رشيد رضا : تفسير المنار للشيخ محمد عبده ٣٩٢/٤

الإطلاق ، لأن الكاتب قد يعدم فى هذه الحالة ، وقد لايتوفر . ولاحرج فى أن يأتى القيد متقدماً على المطلق خلافاً المألوف الذى يأتى القيد فيه عقب الإطلاق أو بعده ، وهكذا يبدو أن الأجناس البلاغية التى حفل بها القــــرآن قد تتنوع فى أساليبها وتتعدد فى أشكالها ، حاملة مايظهر الموقف ويوضحه .

ومن أنواع القيود أيضا ، مايستفاد منه القيد فى المفهوم المخالف « ، كما فى قول الله تعالى

« أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرماً واتقوا الله الذى إليه تحشرون »

(الآية ٩٦ من سورة المائدة)

تشير الآية الكريمة إلى تحريم صيد البر فى حالة الإحرام ؛ فقيدت التحريم فى حالة بعينها ، وهى حالة الإحرام ، ويستفاد من ذلك ألا تحريم لصيد البحر فى حالة الإحرام، وهو المفهوم المخالف القيد ، وهو عند الأصوليين مايعرف بمفهوم المخالفة .

الموضوع الثالث

الإجمال والتبيين

المحتوى ..

* الإجمال الذي يحمل أكثر من معنى
* الإجمال في المعنى
* التبيين المتصل والمنفصل

من المعلوم أن القرآن فيه من الأساليب ما هو ظاهر المعنى ، وعلى درجة من الوضوح بحيث يستطيع القارىء أو السامع أن يتفهمه دون عناء فكر ، أو مشقة بحث .

ومن الأساليب ما يحتاج إلى تدبر وتفهم ومعرفة حتى يمكن الوصول إلى قصد الآية ، وما ترمى إليه ، وذلك لاحتمالها أكثر من معنى . وتلك هى أساليب المجمل — موضوع قضيتنا — وهو ضرب من ضروب المتشابه .

وهذا النوع يستلزم استيعاب النص ، والتفكير حوله ، وحصول دلالاته المتعددة . والله تعالى قد أمر بتدبر القرآن وفهمه . فليس بدعا أن تقف أمام النص لنتعرف على دلالاته التى يحتويها .

وكما يقال إن المتشابه أمر نسبي ؛ فقد يلتبس الأمر عند شخص لا يلتبس عند الآخر . ومن هنا فإن غموض المعنى أو خفاءه إنما هو راجع إلى المتصدى للنص ، وليس من النص نفسه .

والإجمال لون من هذه الألوان يرجع إلى عدة أمور : إما لاحتمال اللفظ أكثر من معنى ، وإما لغرابة فى اللفظ أو غرابة فى الاستعمال ، وإما لشبهة فى نفس المتصدى للنص تمنعه من معرفة الحقيقة ، خاصة وأنه أمام دلالات مجملة وغير محددة أو مخصصة .

وإن كان المجمل يحمل أكثر من معنى ، إلا أن تلك المعانى لا تخالف ما يفهم من النص ، أو تنبو عن مقصد النص .

ولم يختلف أحد من العلماء فى أن المجمل فى القرآن يفهم معناه ، ويعرف ما فيه من معان مجملة ، وهذا القول لا بد أن يكون محل اعتبار لكى لا ندع مجالا

لباطل التأويلات عندمن يبتدعون المفاهيم والتفاسير الخاطئةلآيات القرآن الكريم بحجة روغان المعنى المستهدف بين الدلالات المتعددة .

وإذا اجتمع حول المجمل أكثر من معنى ؛ فإن هـذا لا ينفي معرفة المعنى المطلوب . والقرآن ذو وجوه – لا شك في ذلك – ولن يتفقه القرآن إلا من عرف تلك الوجوه .

ويقول السيوطي إن المجمل ما لم تتضح دلالتـه ، وهو واقع في القرآن (١) وهو يعني بعدم اتضاح الدلالة،أنه لم تحدد فيه المعنى أو تخصص ؛ إذ المجمل هو ما اجتمع فيه أكثر من معنى دون ترجيح لأيها على الآخر ، وكلها معان محتملة .

واللغة في عمومها لا تخلو من هذا الضرب ، فدلالة اللفظ على أكثر من معنى أمر واقع في اللغة العربيـة ، كدلالة الألفاظ المشتركة التي يشترك في دلالتها أكثر من معنى .

وكما تعودنا أن نهتم بالجانب التطبيقي أو التحليلي في تلك القضايا ، فهناك العديد من الآيات التي يرد فيها الإجمال، من ذلك قول الله تعالى:

« إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنـة إذ أقسموا
ليصرمنها مصبحين. ولا يستثنون . فطاف عليهم
طائف من ربك وهم نائمون. فأصبحت كالصريم.
فتنادوا مصبحين »

(الآيات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ من سورة القلم)

---

١ – السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ١٨/٢ دار المعرفة – بيروت ط. الحلبي – القاهرة .

والاجمال هنا فى لفظة «كالصريم» إذ هى من الألفاظ المشتركة وتعنى هنا أن جنتهم أصبحت كالنهار مبيضة لا شيء فيها أو كالليل مظلمة لا شيء فيها ، لاحتراق ما بها من مزروعات .

ومن الواضح أننا إذا حملنا اللفظ على أى معنى منها ؛ فإنه لا يتعارض مع مفهوم الآية . لأن مفهومها يعنى أن بساتينهم أصبحت خالية من كل أنواع الزروع التى كانت بها ، فإذا أريد ظلام الليل الخالص فإنما ذلك لاسوداد المكان وإذا أريد بياض النهار الخالص فلنقاء الارض وخلوها من الشجر والزرع .

والإجمال هنا لا يخل بالمعنى المقصود إذا ما صرف المفهوم إلى أى معنى من تلك المعانى .

وكذلك من الالفاظ التى تحمل أكثر من معنى ، قول الله تعالى :

« ... ولا يضار كاتب ولا شهيد ... »

(من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة)

فكلمة « يضار » فى الآية يمكن أن تحمل على البناء للفاعل ، كما تحمل على البناء للمفعول .

والبناء للفاعل يكون بمعنى .. لا يضارر بكتم شهادته ، أو بتحريف مايكتب والبناء للمفعول بمعنى .. لا يضارر من قبل صاحب الحق بما لا يليق فى الكتابة أو الشهادة ، وكلا المعنيين يمكن أن يحمل اللفظ عليهما مع استقامة المعنى ، إذ المقصود من وراء النص هو عدم وقوع الضرر لا من الكاتب أو الشهيد أو عليهما .

ومن الملاحظ أننا لسنا بصدد تضارب فى المعنى أو تناقض فى مفهومه ، وإنما هو حث على إعمال الفكر ، والبحث وراء المعانى المستفادة من النص .

من ذلك أيضا قول الله تعالى :

« والوالدات يرضعن أولادهن حولين
كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى
المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف
لا تكلف نفس إلا وسعها لا تضار والدة
بولدها ولا مولود له بولده . . . »

(من الآية ٢٣٣ من سورة البقرة)

والإجمال أيضا فى لفظ لا تضار إذ يحتمل هذا اللفظ أكثر من معنى ؛ فيحمل على البناء للفاعل وعلى البناء للمفعول؛فالبناء للمفعول يدل على أن . . لا تضارر والدة بولدها كأن تكره على إرضاعه إن امتنعت عن ذلك،أو يؤخذ منها ولدها بعد رضاها بإرضاعه ، ورغبتها فى إمساكه ، وشدة محبتها له ، أو يمنعها الوالد شيئاً من الكسوة والرزق؛فلا تكره على شئ من ذلك ،أو يلحقها الضرر بإجبارها على ما لا ترغب فيه .

أما على البناء للفاعل ؛ فإنه يعنى أن لا تضارر غيرها، بأن تلقى الوالد بتكليفه ما لا يستطيع .

والمعانى كلها تدور حول رفع المضرة ، لأن عدم المضرة مقطوع به فى جانب الوالد والوالدة .

ومن لمح القرآن التى تسمو به على أى نص آخر هو ذكر لفظ (الولد) عندما يقول جل شأنه « لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده » ؛ فهو تكرار يعمل على تحريك العاطفة ، وتذكر هذه العلاقة التى تتمثل فى الأمومة والأبوة والبنوة . مما يعمل على استبعاد الضرر الذى قد يلحق بأى طرف منها .

وهكذا نرى اللفظ عند احتماله اكثر من معنى ، فإنه لا يقتصر على معنى دون غيره ، بل يعلم أنه يصلح لهذا .. ولهذا.

ويرد الإجمال كذلك فى الألفاظ التى تحمل معنى مضاد كما فى قول الله تعالى

« والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس »

(الآيتان ١٧ ، ١٨ من سورة التكوير)

واللفظ المجمل هنا هو (عسعس) ؛ فهو يعنى (الخفة) ولكنها مع لفظ الليل غدت تحمل معنيين متضادين ، وهما : خفة الليل عند إقباله ، وخفة الليل عند إدباره .. فإلى أى منها ينصرف مفهوم الآية ..؟

ولا ضير أن تحمل على أى معنى منها معاً ، فالقسم فى الآية يشير إلى بداية الليل ، أو إلى نهايته ، وكلاهما آية من آيات الله التى تبرهن على قدرته تعالى فى تسيير الكون طبقا لنظام أودعه إياه ، ففى الليل خفتان .. خفة يبدأ بها ، وخفة ينتهى بها ، وهو فى نفس الوقت تنبيه إلى تلك الحركة المحكمة التى لا تختل ولا تضطرب .

ويورد القرطبى ما نصه « ... قال الفراء : أجمع المفسرون على أن معنى (عسعس) أدبر ... قال المبرد : هو من الأضداد والمعنيان يرجعان إلى شىء واحد وهو ابتداء الظلام فى أوله وإدباره فى آخره » (١) .

وفى هذا القول يشير الفراء إلى معنى محدد ، والمبرد إلى معنى مشترك .

أما المعنى المحدد الذى أجمع عليه المفسرون — كما يقول — وهو الإدبار

---

١ — القرطبي : الجامع لأحكام القرآن المجلد ١٠ ص ٧٠٢٩ ط. الشعب . القاهرة .

ربما يرجع إلى قرائن ومرجحات عملت على تحديده ومـــن تلك المرجحات ما تستهل به الآية التالية « والصبح إذا تنفس » ، فإن الصبح يتنفس من مخفة الليل عند الإدبار ، وقد حدا بهم ذلك إلى القول بمعنى « الإدبار » ، وإن كان حمل اللفظ على المعنيين — كما ذكرت — لا يثير تناقضا .

ومن حالات الإجمال ما جاء في قول الله تعالى :

« وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد
فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن
يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح . . . »

(من الآية ٢٣٧ من سورة البقرة)

والإجمال في قوله « الذي بيده عقدة النكاح » ، فهل هـــذا يعني الزوج فيسوق إليها المهر كاملا ، أم « الولي » إذا كانت الزوجة صغيرة أو غير جائزة التصرف فيترك نصيبا للزوج .

وحول تفسيرها يقول القرطبي « . . روى الدار قطني مرفوعا من حديث قتيبة ابن سعد،حدثنا ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولي عقدة النكاح الزوج . . . كلهم لا يرى سبيلا للولي على شيء من صداقها للإجماع على أن الولي لو أبرأ الزوج من المهر قبل الطلاق لم يجز ، فكذلك بعده ، وأجمعوا على أن الولي لا يملك أن يهب شيئاً من مالها والمهر مالها . والدليل على أن المراد الولي أن الله سبحانه وتعالى قال في أول الاية « وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة » ، فذكر الأزواج وخاطبهم بهذا الخطاب ، ثم قال (إلا أن يعفون) فذكر الزوجات ، (أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح) فهو ثالث ، فلا يرد إلى الزوج المتقدم

إلا لولم يكن لغيره وجود ، وقد وجد وهو الولى ، فهو المراد (١).

ونلاحظ هنا أن كل فريق يحاول أن يحدد معنى (التى بيده عقدة النكاح) إما بصرفه إلى الزوج ، أو بصرفه إلى الولى ويسوق كل أدلته بما يوافق المعنى الذى يريد تحديده .

وهكذا يتعرض الإجمال فى بعض الأحيان لمثل هذه المواقف التى يحاول العلماء من ورائها ترجيح معنى من تلك المعانى المجملة ، وإن كانت المعانى المجتمعة حول المجمل لا تتناقض فيما بينها مع مفهوم الآية .

ولى تعليق حول هذا النص .. وهو ..

قد يبدو أن النص يدل على أن المقصود بمن بيده عقدة النكاح هو الزوج ، لأن الآية تشير إلى عفو الزوجة فى قوله (إلا أن يعفون) ثم يأتى الكلام بعد ذلك عن الزوج (أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح) إذ لا دخل للولى هنا ، وليس ثمت ما يدعو إلى هذه الدلالة لأن الكلام يتعلق بالزوج لا بالزوجة .

ولكن عندما نمعن النظر مرة أخرى نجد أن الإجمال أسلوب يقتضيه هذا الموقف ، وهو أبلغ بكثير من غيره ، وأفسح مجالا فى مفهوم الآية ، ففى قوله (إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح) فيه إحتواء وشمول وبيان لكل جوانب الموقف ، إذ يعنى هذا القول عفو الزوجة إذا كانت أهلا لذلك ، فإذا لم تكن أهلا لذلك فلوليها أن يعفى . وكذلك للزوج أن يعفى ، وبهذا فإن القول يشمل الزوجة ووليها ، ويشمل الزوج أيضا ، وفى ذلك جلاء لما قد يكون

---

١ ـ القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ـ المجلد الثانى ص١٠٥٤،١٠٥٢

محل استفسار أو استيضاح. فمعرفة مواطن الإجمالى ودراستها على هذه الصورة هى جانب من جوانب التفسير، وفهم ما قد يكون مستغلقا من الآيات.

ويأتى الإجمال كذلك عندما يتردد الضمير بين أكثر من عائد إليه. كما فى قول الله تعالى «... إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ...»
(من الآية ١٠ من سورة فاطر)

فضمير الفاعل المستتر فى (يرفعه) إما أن يكون عائداً على (العمل الصالح) بمعنى أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، أو عائداً على (الكلم الطيب) بمعنى أن الكلم الطيب يرفع العمل الصالح، أو يعود إلى ما يعود إليه الضمير فى (إليه) وهو الله سبحانه وتعالى .. بمعنى أن الله تعالى يقبل الكلم الطيب والعمل الصالح؛ فالضمير هنا متردد بين عوائد ثلاثة لكل مفهومها.

ونلحظ كذلك إجمالا آخر فى عود ضمير المفعول فى (يرفعه) وهو الهاء الواقعة فى آخر الفعل، وهى إما أن تعود على (الكلم الطيب) أو (العمل الصالح) أى أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب أو العكس.

وإذا تناولنا الآية محتملة لكل هذه المعانى لا تضح مفهومها فى أن الله تعالى يتقبل الأعمال الصالحة، والكلم الطيب جزء منها، ومرد القبول إلى اعتبار أن ذلك تنفيذ لما أمر الله به. والعمل الصالح، والكلم الطيب يساند كل منهما الآخر، وهما محل قبول عند الله تعالى، والله تعالى لا يقبل الأعمال القبيحة؛ فهى عصيان وتمرد عليه.

ويبدو أن تردد الضمير بما يحمله من دلالات متعددة لا يحدث تناقضاً فى مفهوم الآية، وإدراك المقصد من ورائها.

وفى تردد هذا الضمير يقول الأنبارى « الهاء فى (يرفعه) تعود على (الكلم)، والتقدير .. والعمــــل الصالح يرفع الكلم ، وقيل التقدير .. والعمل الصالح يرفعه الله . وقيل التقدير .. والعمل الصالح يرفعه الكلم؛ فالهاء تعود على العمل، ولو كان كذلك ، لكان الوجه الأوجه أن ينصب العمل الصالح ... »(١)

وفى قول الانبارى أيضـا نلحظ أن الضمير متردد بين مايعود إليه، وعندما أراد أن يحدد عود الضمير فى (يرفعه) على العمل الصالح، وهو ضمير المفعول، قال : من الأوجه أن ينصب (العمــل الصالح) ، وهـذا تأويل يؤيد ما ذهب إليه . إلا أن (العمل الصالح) أتت مرفوعة فى الآية . ولا زال الضمير متردداً ولا ترجيح لمعنى على آخر .

وقد يأتى الإجمال غرضا بلاغياً .. كالحذف ــ مثلا ــ ؛ فيرد الأسلوب معه حاملا أكثر من معنى ، كما فى قوله تعالى ..

« ويستفتونك فى النســـاء قل الله يفتيكم فيهن وما تيلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللآتى لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتـامى بالقسـط وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً »

(الآية ١٢٧ من سورة النساء)

ففى قوله تعالى (وترغبون أن تنكحوهن) يحتمل الرغبة فى النكاح بتقـدير الحرف (فى) أى (وترغبون فى أن تنكحوهن) ، كما يحتمـل الرغبة عن النكاح

---

١ ـ أبو البركات بن الانبارى : البيان فى غريب إعراب القرآن ٢٧٨/٢ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر . القاهرة ١٩٧٠

بتقدير الحرف (عن) أى (وترغبون عن أن تنكحوهن) ، فالأولى تفيد الإقبال على النكاح ، والثانية تفيد الصد عنه .

والآية قد نزلت فى أمر النساء وأحكامهن فى الميراث ، وهى تتعلق باليتيمة التى فى حجر وليها ، فيعجبه مالها وجمالها ، فيريد أن يتزوجها من غير أن يقسط لها أو يعدل فى صداقها ، فنهى عن زواجهن إلا أن يقسطوا لهن ، ويبلوا بهن أعلى سنتهن من الصداق ، وهنا يمكن أن يكون التقدير على (وترغبون فى أن تنكحوهن) بمعنى إذا رغبتم فى النكاح فعليكم الوفاء بسنتهن من الصداق.

والمعنى الثانى أن الأولياء يعزفون عنهن لدمامتهن ، ويعضلونهن أى (يمنعونهن أن يتزوجن) طمعا فى ميراثهن . « قالوا : فكان الرجل فى الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقى عليها ثوبه ، فإذا فعل بها ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً ، فإن كانت جميلة وهويها تزوجها وأكل مالها ، وإن كانت دميمة منعها الرجال أبداً حتى تموت ، فإذا ماتت ورثها ، فحرم الله ذلك ، ونهى عنه »(١) .

ويمكن أن يكون المعنى الثانى على تقدير (وترغبون عن أن تنكحوهن) وواضح أن السياق القرآنى يحتمل المعنيين معاً ، ليوضح الحالتين اللتين نهى القرآن عنها ، وتلك مهمة الإجمال فى تقديمه أكثر من معنى ومن أقصر طريق ، وليس ثمة حذف بالمعنى المفهوم من الحذف ولكنه أسلوب بلاغى يحمل فى كلمات قليلة عدداً من المعانى التى يهدف القرآن إلى بيانها ، وهو أمر يحتاج إلى دقة البحث ، وتدبر النص .

---

١ ــ الطبرى : جامع البيان عن تأويل القرآن ٥/٢-٣ تحقيق شاكر . دار المعارف القاهرة .

وهذه الأنماط التي أشرنا إليها، وما يشابهها، يأتي فيها اللفظ، أو الأسلوب حاملا لأكثر من معنى، هي القسم الأول من المجمل.

أما القسم الثاني فيأتي فيه الإجمال في المعنى إذ يعتريه خفاء — إذا صح لي أن أسميه خفاء مؤقتاً — إما لغرابة في اللفظ أو بلاغة في الأسلوب.

وهذا التقسيم الذي أذكره لم يأت واضحاً في كتب علوم القرآن (كما عند السيوطي في إتقانه، أو الزركشي في برهانه)، فقد جاء عندهم تحت تعريف واحد، وهو أن المجمل ما يحتمل أكثر من معنى.

إلا أن السيوطي قد أورد تعريفاً لابن الحصار «... أن المجمل اللفظ المبهم الذي لا يفهم المراد منه ...» (١).

وليس هذا هو كل المجمل، ولكنه قسم منه، كما أطلقت عليه آنفا، وهو قسم من المجمل يأتي لخفاء في المعنى.

ففي هذا القسم قد يأتي الإجمال ويختفي وراءه معنى إلا أنه يحمل غرضاً بلاغياً، كالحذف*، من ذلك قول الله تعالى

«... وآتينا ثمود الناقة مبصرة ...».

(من الآية ٥٩ من سورة الإسراء)

فليس المقصود في الآية أن (الناقة مبصرة)، وإنما مفهومها أن (الناقة آية

---

١ - راجع: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن ٢/٢٤.

* قد يأتي الحذف ضمن القسم الأول وهو احتمال الأسلوب لأكثر من معنى وليس لخفاء المعنى كما أشرنا سابقا.

مبصرة) على تقدير حذف (آية) ، فظلم قومه أنفسهم بقتلها . فقد يختفى المعنى المقصود عند النظرة الأولى ، ولكنه سرعان ما يظهر المعنى عند أدراك الهدف من وراء السياق ، فيتضح المراد من النص ، وينفض الاجمال ويستقيم المعنى.

ويأتى الإجمال كذلك فى أسلوب بلاغى غاية البلاغه ، ومن خلال تركيب قد يغرب معه المعنى لعلو فصاحته . من ذلك قول الله تعالى:

« ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم
ولا هدى ولا كتاب مبين . ثانى عطفه
ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه
يوم القيامة عذاب الحريق »

(الآيتان ٨، ٩ من سورة الحج)

فمستهل الآية الثانية قد يخفى وراءه معنى ، وهو حال المجادل والمكابر فى الإيمان بغير علم عنتاً وإنكاراً ... فهو يثنى رقبته ذات اليمين وذات اليسار فى استعلاء . وقد أتى التعبير كناية عن هذا الموقف .

ومن ذلك أيضا ما يأتى فى حالة التقديم والتأخير ، فلا يظهر فيه المعنى بسهولة .. كقول الله تعالى :

«.. يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ..»

(من الآية ١٨٧ من سورة الأعراف)

ففى قوله (... كأنك حفى عنها) فيها تقديم وتأخير، يعوزنا إلى تقدير للاسلوب ، وهو (يسألونك عنها كأنك حفى بها) أى يستفسرون عن قيام الساعة ، متوهمين أنك عالم بها .

ولا شك أن التركيب القرآني يهدف إلى أبعد من ذلك ، إذ يظهر غرضاً معيناً من خلال التقديم والتأخير ، فتقديمه (كأنك حفي) بيان لفرط إنكارهم وخطورة ما توهموه من أن الرسول عليه الصلاة والسلام عالم بالساعة وميقاتها مهتم بها ، عارف بأخبارها ، وإنما علمها عند الله .

ومنه أيضا قول الله تعالى :

« ولو لا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى »

(الآية ١٢٩ من سورة طه)

والآية على تقدير (ولو لا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاماً) ولتوضيح المعنى علينا أن نذكر قول الله في الآية السابقة عليها وهو ..

« أفلم يهدلهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولي النهى »

(الآية ١٢٨ من سورة طه)

والمعنى : ألم يعتبر هؤلاء بما حدث للأمم السالفة ، ولو لا كلمة سبقت من ربك بتأخير العذاب إلى يوم القيامة لكان العذاب لازماً وواقعاً عليهم لعدم اعتبارهم وغفلتهم ، ويتضح أيضا أن (أجل مسمى) معطوفة على (كلمة) .

ومعروف أن التقديم والتأخير لون من ألوان الفصاحة في الأسلوب ، وله ما له من الأغراض البلاغية .. كبيان الاهتمام بالشيء وإظهار ضرورته ..

ويأتي الإجمال في المعنى — كذلك — نتيجة تكرار اللفظ القاطع للكلام في الظاهر .. كما في قول الله تعالى

« ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض وما يتبع

الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون الا الظن
وإن هم إلا يخرصون »

(الآية ٦٦ من سورة يونس)

فلفظ (إن يتبعون) مكرر وهو قاطع لموصول الكلام فى ظاهره ، إلا أن هذا التكرار يسهم فى إيضاح المعنى ، بحيث يبين الغرض المقصود عندما يطول الأسلوب ، فيلفت إلى هذا الغرض حتى لا يتصرف الذهن إلى غيره .

ويأتى هذا اللون من الإجمال فى غريب الألفاظ ، وقد أفرد له العلماء كتباً تتناول شرحه ،أو إعرابه بما يعين على فهمه ، فابن قتيبة قد ألف فى « تفسير غريب القرآن » ، كما ألف الزجاج فى « البيان فى غريب إعراب القرآن » . .

ومن هذا قول الله تعالى :

« وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن
ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف . . . »

(من الآية ٢٣٢ من سورة البقرة)

فلفظة (تعضلوهن) من الألفاظ الغريبة لندرة استعمالها ، وهى تدل على (الحبس) ، يقال « عضل الرجل أيمه ، إذا منعها من التزويج » (١) .

ويقولون . . . إن (العضل) هو التضييق والمنع ، وهو راجع إلى الحبس . في أسباب نزول الآية يأتى «الواحدى النسابورى» بخبر بسنده . . . عن معقل

---

١ — ابن قتيبة : تفسير غريب القرآن — ص ٨٨ تحقيق السيد احمد صقر — دار إحياء الكتب العربية . القاهرة ١٩٥٨

ابن يسار أنها نزلت فيه . قال : كنت زوجت أختاً لي من رجل فطلقها ، حتى إذا انقضت عدتها جاء يخطبها ، فقلت له : زوجتك وأفرشتك واكرمتك فطلقتها ، ثم جئت تخطبها .. لا والله لا تعود إليها أبداً ،قال : وكان رجلا لا بأس به ، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه ، فأنزل الله هذه الآية » (١) .

وقد يكون الإجمال فيما يأتي غريبا في الاستعمال ، كقول الله تعالى :

« ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون »

(الآية ٥٧ من سورة الزخرف)

يقول ابن قتيبة : « يصدون .. أي .. يضجون . يقال : صددت أصد صداً .. إذا ضججت » (٢) . وهذا هو المعنى الذي يشير إليه المفسرون .

والمعنى الشائع لكلمة (صد) هو .. أعرض أو منع وصرف، وليس هو المعنى المقصود في الآية ، وعلينا أن ننظر في تركيب الاسلوب ، ونتعرف على طريقة الاستعمال ، وكيف نقصد معنى (يضجون) من هذا اللفظ .. ؟

إن كلمة (يصدون) في الآية ، والمسبوقة بلفظ (منه) لا يتأتى معها معنى (الإعراض) ، وإنما يوافقها — تماماً — معنى (الضجيج) ، وهو ما يوافق — أيضا — مفهوم الآية ، لأنهم (يضجون منه) .

أما إذا كان المعنى (يعرضون) ، فيقال (عنه يصدون) أو (يصدون عنه) ، وليس (منه يصدون) أي باستعمال (عن) وليس باستعمال (من) . والتعرف

---

١ — الواحدي النيسابوري: أسباب النزول ص٤٣ مطبعة الحلبي . القاهرة ١٩٥٩ .

٢ — ابن قتيبة : تفسير غريب القرآن ص ٨٨

على المعنى المقصود يدعو إلى دقة النظر فى طريقة استخـدام الألفاظ .

.. وحكاية الآية : أن المشركين تعلقوا بأمر عيسى ، وقالوا :

يريد محمد أن نتخذه إلهاً كما اتخذت النصارى عيسى بن مريم إلهاً ،

وفى هذا يقول الله تعـالى « وأسأل من أرسلنا من قبلك من

رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون »

(الآية ٤٥ من سورة الزخرف)

ويشير القرطبى(١) إلى أن ضارب هذا المثل هو عبد الله بن الزبعرى السهمى حالة كفره ، لما قالت له قريش .. إن محمداً يتلو

« إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم .... »

(من الآية ٩٨ من سورة الأنبياء)

فقال : لو حضرته لرددت عليه ، قالوا : وما كنت تقول له .. ؟ .

قال : كنت أقول له هـذا المسيح تعبده النصارى ، واليهود تعبد عزيراً .. أفهما حصب جهنم ؟ ؛ فعجبت قريش من مقـــالته ورأوا أنه قد خصم ، وذلك معنى قوله (يصدون) .

فقد كانوا يضجون كضجيج الإبل عند حمل الأثقال ، وهو دليل إعجابهم . يقول : ابن الزبعرى ، إذ هيىء لهم أنه قد احتج وخاصم » ا . هـ .

والإجمال يأتى فى القـرآن على صور متعددة ؛ والإجمال ضرب من ضروب البـــلاغة ، ولون من ألوان البديع ، يطلق عليه البلاغيـون ..

---

١ — راجع .. القرطبى الجامع لأحكام القرآن مجلد ٩ ص ٢٢٠٥٩٢٢

« التوجيه ، وهو إيراد الكلام محتملا لوجهين مختلفين » (١)

. ولا شك أن القرآن مليء بما يتضمن التوجيه واللفت إلى الموعظة وإلى النصيحة والإرشاد ؛ فحرى بالإجمال أن يحمل لوناً من ألوان البلاغة التي يحفل بها القرآن الكريم .

أما المبين ؛ فإن الكلام عن المجمل يدعو — بطبيعة الحال — إلى الكلام عن المبين .

فإن ما يرد في القرآن مجملا في مكان ، قد يأتي ما يبينه في مكان آخر .

والمبين هو المفسر في نفسه والمفسر لغيره ، وهو الذي يتناول تبيين أمر غير واضح ، ويأتي على هيئة قرينة موضحة .

ويأتي التبيين كقرينة لفظية تتصل بالنص — أي في نفس الآية التي فيها موضع الاجمال ، ويظهر بها المراد من اللفظ الخفي (المجمل) ، وذلك كما في قول الله تعالى :

« ... وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ... »

(من الآية ١٨٧ من سورة البقرة)

وقد يرجع عدم الوضوح إلى الوقف عند (حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود) ، إذ لو ترك النص هكذا لأصبح مفهومه غير واضح وغير

---

١ — عبد المتعال الصعيدي: بغية الايضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة . .
٤٦/٤ ط . القاهرة .

محدد . وسبب نزول هذه الآية وعن أبي حسان قال حدثني أبو حازم عن سهل بن سعد قال: نزلت هذه الآية (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود)، ولم ينزل — من الفجر — وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود ؛ فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين له زيها ؛ فأنزل الله تعالى بعد ذلك — من الفجر — فعلموا أنما يعنى بذلك الليل والنهار، رواه البخاري عن ابن أبي مريم .» (١)

وتعتبر كلمة — من الفجر — مبيناً ، وهي من القرائن اللفظية التي أظهرت المعنى المقصود من الآية ، وأوضحت المراد بها ..

« ولولا هذه القرينة الواردة في قوله تعالى (من الفجر) لبقي الكلام الأول على تردده وإجماله » . (٢)

ومن أمثلة ذلك أيضا قول الله تعالى :

«فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم»

(الآية ٣٧ من سورة البقرة)

وفي الآية يتضح أن الله تعالى قد ألهم آدم كلمات .. فما هي تلك الكلمات ؟ ، ولا شك أن النص يدعو إلى التساؤل والاستفسار !! وتلك سمة المجمل ، ثم يأتي التفسير في آية أخرى ..

---

١ — راجع .. الواحدي النيسابوري : أسباب النزول ص ٢٧، ٢٨ مطبعة الحلبي . القاهرة ١٩٥٩

٢ — الزركشي: البرهان في علوم القرآن ٢/٢١٥

« قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين »

(الاية ٢٣ من سورة الأعراف)

تلك هي الكلمات التي ألهمها الله تعالى آدم ، فالمبين هنا قرينة لفظية منفصلة بمعنى أنه جاء في سورة أخرى ، وفصل بينه وبين المجمل فاصل ، إذ الإجمال في آية من آيات سورة البقرة ، والمبين في سورة الاعراف ، ولم يكن التبيين مقتصراً على النص القرآني فقط ، وإنما يأتي التبيين عن طريق السنة أحيانا ، ومن مهام السنة أنها توضح ما جاء مجملا في كتاب الله .. ففي قوله تعالى :

« وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين »

(الآية ٤٣ من سورة البقرة)

أتت السنة بما يبين الصلاة ويفصل هيئتها ، كما بينت أيضا الزكاة وحددت مقاديرها .

وقد يأتي التبيين في شكل قرينة معنوية ، وهي واقعة في القرآن الكريم في مواطن متعددة يصعب حصرها ، إذ يقول الزركشي « وأما القرائن المعنوية فلا تنحصر » (١) .

والفرق بين القرينة اللفظية ، والقرينة المعنوية ، أن اللفظية يأتي بها لفظ يبين المعنى المقصود في المجمل ، وقد يكون اللفظ قريبا من المجمل أو متصلا به ، فتكون القرينة متصلة ، وقد يكون اللفظ بعيداً ، فتكون القرينة منفصلة — كما أوضحنا ذلك في الأمثلة السابقة .

---

١ — الزركشي البرهان ٢/٢١٦

أما القرينة المعنوية،فتكمن فى ظروف النص وملابساته والتعرف على أسبابه، ويرجع ذلك كله إلى تعقل النص وتدبره ، ودراسة كل جوانبه وما يتصل به ، وهى قرينة متصلة دائماً .

مثال ذلك قول الله تعالى:

والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء . . . »

(من الآية ٢٢٨ من سورة البقرة)

فالصيغة فى هذه الآية تأتى فى أسلوب خبرى ، والأسلوب الخبرى يقتضى أن يتربصن ، وألا يتربصن ؛ فإذا حمل الخبر على حقيقته هنا ؛ فإنه يأتى على خلاف المقصد منه . فلابد من حمل الخبر على الأمر ؛ حتى يوافق الخبر الغرض الذى جاء من أجله ، وهو أن على المطلقات أن يتربصن . . وهذا هو الأمر ، ليس مجرد الخبر .

الموضوع الرابع

الإشكال أو توهم الاختلاف

المحتوى ..

* الخبر الوارد على أحوال مختلفة
* إثبات الخبر ونفيه
* اختلاف اللفظ بين الحقيقة والمجاز
* تقدير حذف المضاف
* إتيان المفهوم على وجهين واعتبارين مختلفين
* الأخبار المتنافية
* الأخبار المتضاربة

إن قضية المشكل فى القرآن من أخطر القضايا وأهمها ، إذ تتناول هذه القضية ما يوهم الإشكال او الاختلاف ، وقد أضحى هذا المجال ذريعة للمؤولين الذين أساءوا التأويل ، والطاعنين الذين يثيرون الشكوك حول القرآن .

وتلك مواطن جديرة باللفت والمعـــالجة ، إذ لا تفتأ العقول الضالة تسيء استخدام النص ، وتصرفه إلى غير مقصده .

ولا ريب فى أن العناية بمثل هذه المجـالات فى دراسة كتاب الله تعـالى من خلال علوم القرآن ، والتعرف على قضـايا النص فيه ؛ هى عناية تسهم إلى حد كبير فى الوصـول إلى فهم الكتاب فهما صحيحاً ، وإدراك ما يوهم اللبس ، أو يوقع فى الخطأ ، كما تعمل على إدراك طرق المعالجة . وهنا تنشأ مواقف للتصدى والدفاع عن رمى القرآن بأية شبهة من الشبهات .

فليس ثمت تناقضات أو مشكلات حول استقامة النص القـرآنى الذى يتمثل فى نسيج متلاحم لا خلل فيه ولا اضطراب .

إن موضوع المشكل أو ما يوهم الاختلاف فى القرآن يمثل — فى الواقع — تباين آراء الناس حوله ، وتزييفهم — فى بعض الأحيان — لما جاء فى القـرآن وراء ستار هذا المشكل ، كما أن تناول هذه القضية ليس علاجاً لذات الكتـاب ، وإنما هو إظهار لإحـكامه وإتقانه فيما أتى فيه ، ومحاولة لنفى الاختـلافات التى تحدث نتيجة لعدم إدراك هذا النوع من المفاهيم القرآنية .

وتلك القضية — فى طبيعتها — تختلف عن غيرها من القضايا إذ العموم والخصوص (مثلا) يتصل اتصالا وثيقا بطبيعة اللفظ القرآنى ، وما يشير إليه هذا اللفظ من خلال التراكيب . وكذلك الإطلاق والتقييـد ، وكذا الإجمال والتبيين . كما أن معرفة أسباب النزول ، ومكى القرآن ومدنيه ، تعين على فهم النص القرآنى ، والتعرف

على كافة الظروف المحيطـــة به . أما قضية المشكل فهى ليست من طبيعـة اللفظ القرآنى بل هى نظرة غير فاحصة أو متأنية ألقيت على النص، وألحقت به ما ليس فيه ؛ فألبس الحق بالباطل ، وعمى النظر وراء المتشابه من القرآن تتناوله أفهام كليلة ، وبصائر عليلة تسىء إليه وتعبث بمفاهيمه .

وقد تناول كثير من علماء المسلمين موضوع المشكل ، منهم من أثاره ضمن علوم القرآن كما عند السيوطى ،والزركشى ، ومنهم من أفـرد له كتبا خاصـــة كابن قتيبة فى كتابه « تأويل مشكل القرآن » ، أو القاضى عبد الجبار فى كتابه « تنزيه القرآن عن المطاعن » .

وفى معرض المعالجة لهذه القضية علينا أن نتلمس مواطن الإشكال أو خفاء المعنى ، بعرض الأمثلة والتطبيق عليها ـــ كما تعودنا ذلك فى القضايا الأخرى .

من ذلك : الخبر الوارد على أحوال مختلفة .

فالآيات التى تخبر عن الخلق تتعدد فيها أحوال النشأة ، يقول تعالى..

« كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون »

(الآية ٥٩ من سورة آل عمران)

وفى هذه الآية نجد الإخبار عن أصل الخلق وأنه من التراب ، وعندما نتتبع هذا الموضوع فى آيات أخرى يطالعنا قول الله تعالى . .

« إنا خلقناهم من طين لازب »

(الآية ١١ من سورة الصافات)

فأخبر هنا عن أصل الخلق من نوعية أخرى غير التراب وهو «الطين اللازب»، وذاك نوع من التراب يختلط بالماء فيصير ليناً ، وهو طين لزق .

كما نجد أصلا آخر للخلق عندما يقول جل وعلا . .

« ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون »

(الآية ٢٦ من سورة الحجر)

فتلك حالة ثالثة لأصل الخلق ، وهى من « الطين اليابس » الذى يسمع له صوت لشدة صلابته ، ويرجع هذا الطين أصلا إلى الطين الأسود الذى يصبح كالفخار .

والواضح أن هذه الآيات كلها تخبر عن أصل الخلق مع ملاحظة عدم الإبقاء على أصل واحد ، بل هو متغير من حال إلى حال ؛ فالصلصال غير الحمأ ، والحمأ غير التراب ، وتلك هى الأحوال الثلاثة التى تعرضت لها الآيات ، فإذا أمعنا النظر واحتكمنا إلى العقل وإلى تدبر هذه الآيات لوجدنا أن الأحوال الثلاثة ترجع إلى أصل واحد وجوهر واحد ، وهو التراب ، ومن التراب درجت كل هذه الأحوال ؛ فالأصل واحد وتلك النوعيات التى أشارت إليها الآيات القرآنية ، إنما هى أحوال متغيرة ومرتبطة — فى ذات الوقت — بالأصل الأول .

أما الإشكال فقد يزال توهمه عند تدبر تلك الآيات جميعها ، وتعقل ما جاء فيها ؛ فليس هناك تنافر أو تضارب ؛ فهى حالات لا تختلف بعضها عن بعض إلا فى الشكل فقط .

وفى موضع آخر يقول الله تعالى . .

« فألقى عصاه فإذا هى حية تسعى »

(الآية ١٠٧ من سورة الاعراف).

تدل تلك الآية على المعجزة التى تحققت على يد موسى (عليه السلام) ، وأن

عصاه أصبحت حية عظيمة تلقف ما أتى به سحرة فرعون .

وفى نفس الموضوع تأتى آية أخرى يقول الله تعالى فيها ..

« وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب ... »

(من الآية ١٠ من سورة النمل)

فكيف نوفق بين هذين الخبرين ..؟ إذ الأول يفيد أن العصا قد تحولت إلى ثعبان ، والثانى يفيد أن العصا قد تحولت إلى جان .

والموقف فى كلا الحالين واحد ، وهو تحول عصا موسى - عندما ألقاها - .. فإلى أية صورة تحولت .. ؟

إذا عدنا إلى معنى كلمة (جان) فى اللغة ، وجدنا أن « الجان اسم جمع الجن ، وحية أكحل العين ، لا تؤذى ، كثيرة فى الدور » (١) .

وهكذا — بشىء من التدبر والبحث — نعلم أن صورة العصا التى ظهرت بها لم تتغير من آية إلى أخرى ؛ فهى فى كلتا الحالتين أصبحت ثعباناً ، وليس ثمت اختلاف أو تضاد بين الموقفين ، وإنما عبر القرآن عن المعنى بلفظين مختلفين .

وموطن آخر من مواطن الإشكال نرى الشىء مثبتاً فى موضع ومنفياً فى موضع آخر .. كما فى قول رسول الله تعالى ..

« وقفوهم إنهم مسئولون »

(الآية ٢٤ من سورة الصافات)

---

١ — الفيروز آبادى : القاموس المحيط (مادة جنن)

إذ تقرر الآية وتثبت سؤالهم عن جميع أقوالهم وأفعالهم فى الآخرة .

وفى موضع آخر نجد قول الله تعالى . .

« فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان »

(الآية ٣٩ من سورة الرحمن)

يظهر فيه نفس المسألة . يقول المفسرون حول هذه الآية . .

« أى فى ذلك اليوم الرهيب يوم تنشق السماء لا يسأل من المذنبين من الإنس والجن عن ذنبه ، لأن للمذنب علامات تدل على ذنبه كاسوداد الوجوه ، وزرقة العيون — قال الإمام الفخر :

لا يسأل أحد عن ذنبه فلا يقال له أنت المذنب أو غيرك . ؟ ، ولا يقال من المذنب منكم . ؟ بل يعرفون بسواد وجوههم وغيره » (١) .

وهنا يستشكل الأمر على القارىء . . كيف يسألون — وفى نفس الوقت — لا يسألون ! !

يقول السيوطى « وقيل إن السؤال المثبت سؤال تبكيت وتوبيخ ، والمنفى سؤال المعذرة وبيان الحجة » (٢) ، كما يشير أيضاً بأن فى القيامة مواقف كثيرة ، ففى موضع يسألون ، وفى آخر لا يسألون .

ويبدو أن مفهوم التبكيت والتوبيخ — الذى يشير إليه السيوطى — فى التساؤل المثبت (وقفوهم إنهم مسئولون) يرجع إلى الآية التالية له وهو قول الله تعالى . .

---

١ — راجع د. محمد على الصابونى : صفوة التفاسير ٢٩٨/٣

٢ — السيوطى : الإتقان فى علوم القرآن ٢٩/٢

« ما لكم لا تناصرون »
(الآية ٢٥ من سورة الصافات)

أى مالكم لا ينصر بعضكم بعضا وأنتم هنا جميعا . ؟ وهو سيـــاق يفيد التقريع والتوبيخ ، لان الله تعالى يعلم أفعالهم ولم يكن فى حاجة إلى سؤالهم .!

وحول التساؤل المنفى يقول القاضى عبد الجبار « المراد أنهم لا يسألون على وجه التعرف لان ذلك مكتوب معلوم، وإن كانوا قد يسألون على غير ذلك»(١).

فالإثبات والنفى ليس تضارباً ، وإنما هو اختلاف مواقف ، إذ ليس المثبت هو نفس المنفى ، ولكنها أحوال متعددة قد تحدث تساؤل فى بعضها،وفى البعض الآخر لا يحدث التساؤل .

أو أن الإثبات والنفى قد أتى لاغراض بلاغية قد يفهم منها تقرير التساؤل، وأنه لا مفر من المحاسبة . أو يفهم منها تعنيف وتبكيت على ما أتى به الناس من أعمال قد يخيل إليهم أنهم لن يحاسبوا بشأنها ، وإنما هى محصية عليهم ثابتة فى علم الله تعالى .

ومن المواطن التى قد توهم بالتناقض والاختلاف على غـرار تلك المسألة ، ما جاء فى قول الله تعالى . .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون »
(الآية ١٠٢ من سورة آل عمران)

---

١ ــ القاضى عبد الجبار :تنزيه القرآن عن المطاعن ص٢٢٨ المكتبة الأزهرية القاهرة ١٣٢٩ هـ .

مع قول آخر ..

« فاتقوا الله ما استطعتم ... »

(من الآية ١٦ من سورة التغابن)

فتارة نجد الأمر بالتقوى، ولم يكن أمراً فحسب بله أمر مؤكد ، ومرة أخرى نجد الأمر بالتقوى قدر الاستطاعة . فهل فى هذا تناقض واختلاف .؟ (أى ما يوهم بالتناقض والاختلاف) . ؟

والتوفيق بين النصين ، قد يكون الامر بالتقوى (حق التقوى) هو الالتزام بعقيدة التوحيد التى يجب أن تنال حقها،فطبيعة الموقف هنا ليست داخلة فى قدر الاستطاعة. وقد يعضد هذا المفهوم ويسانده ما جاء فى الآية السابقة عليها — وفى نفس السورة — هو قول الله تعالى :

« وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله
وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى
صراط مستقيم »

(الآية ١٠١ من سورة آل عمران)

إذ الأمر يتعلق بما هو فيصل بين الكفر والايمان ،وتلك هى العقيدة (عقيدة التوحيد) التى تستلزم صدق الطاعة،وحق التقوى باعتبارها فارقاً رئيسياً بين الكفر والإيمان .

أما فى النص الثانى ؛ فالمطالبة بالتقوى تتعلق بأمور الدين ، وأمور الدين هى السلوكيات التى يقوم بها الإنسان ، وسلوكيات الدين الاسلامى تتميز باليسر والمرونة ، والتكليف بها يخلو من التعسف والقسر ؛ فهى تؤدى بما يناسب الطاقة الانسانية ، وأن تكليف التعسف والقسر ضرب من العبث والتخيل الذى

لا يمكن تحقيقه، وهو أمر بعيد كل البعد عن التصور الإسلامى .

وعلى هذا فإن العقيدة أمر حتمى يجب التمسك به ، والشريعة تكليف يقوم به الإنسان حسبما يستطيع . وقد دعا هذا علماء الأصول إلى القول عن « الرخص الشرعية » كإسقاط الصيام - (مثلا) وهو أحد العبادات — عن المريض أو المسافر حالة مرضه أو سفره لعدم توفر الاستطاعة ، وهو امتثال — أيضا — لقول الله تعالى :

« فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من
أيام أخر . . . »

(من الآية ١٨٤ من سورة البقرة)

ومن تلك المسائل — أيضا — التى تثبت فى مكان وتنفى فى مكان آخر . . هو قول الله تعالى :

« وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها
ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها
تدميرا »

(الآية ١٦ من سورة الإسراء)

وعند النظرة الأولى يظهر لنا أن الآية تحمل الأمر بالفسق ، وهو أمر مخالف لحكم الكتاب إذ يتضح هذا الحكم فى قول الله تعالى :

« وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله
أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على
الله ما لا تعلمون »

(الآية ٢٨ من سورة الأعراف)

فالآية تشير إلى أن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء أو الفسق ، وهذا محال فى حق الله تعالى .

وعند النظر فى الآيتين نجـــد أن الأولى تأمر بالفسق، والثانية لا تأمر به ، وهكذا يشتبه الموقف عندما ينسب الأمـــر بالفسق إلى الله تعالى ، وتلك شبهه لا تستقيم مع العقل، ولا تستقيم مع الدين ، والله تعالى هو المشرع لهذا الدين يأمرنا بالمعروف وينهانا عن المنكر ، وعلى هذا يمكن القول بأنه ليس ثمت أمر شرعى يطلب الفحشاء ، ولا غرو فإن الآية الأولى تتعلق بالأمر الكونى المتعلق بأعمال الناس إذ يأمرهم الله تعالى بالطاعة إعذاراً وإنذاراً وتخويفاً ، فيخرجون عنها عاصين أمر الله فيحق عليهم القول بالوعيد فيدمروا تدميراً ، بمعنى أن جاءهم أمر الله ليمتثلوا له ، لكنهم تركوه وراءهم ظهريا ، وساروا فى طريق الفسق والفجور ، فأخذهم الله بأعمالهم .

ومن تلك المواضع — أيضا — ما يأتى فيها الفعل مختلفا فى جهتيه أى يكون منفيا ثم مثبتاً فى نفس الوقت . وقد يثير هذا تساؤلا ، كيف يثبت الفعل وينفى فى آن واحد ؟

يقول الله تعالى :

« فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ
رميت ولكن الله رمى وليبلى المؤمنين منه بلاء
حسناً إن الله سميع عليم »

(الآية ١٧ من سورة الأنفال)

ففى تلك الآية الكريمة نفى القتل ، ثم أثبت ، وكذلك نفى الرمى ثم أثبت !! .

ولإيضاح القضية ــ كما أشار الزركشي (١) ــ أن الفعل جهتين ، جهة اكتساب الفعل والقيام به ، وجهة تأثير الفعل ، كما لو قيل (ما هديته ولكن الله هداه) ، كأن يقوم إنسان بنصح آخر ، وهذا هو اكتساب الفعل والقيام به ، ولكنه لا يدري ما إذا كان سينتصح هذا الآخر أم لا ! ، وقد يريد الله تعالى أن يؤثر هذا الفعل على المتلقي النصيحة فينتصح بها . فللفعل - هنا وجهان : وجه القيام بالفعل (إحداثه) ، ووجه التأثير .

ومناسبة الآية ــ التي ذكرناها ــ هو أن الآية موجهة إلى المؤمنين في معركة بدر بأنهم لم يقتلوا المشركين بقوتهم ؛ فقد كانوا قليلي العدد والعدة ، بيد أن المشركين كانوا أكثر عدداً وعدة ، وعلى الرغم من هذا فإن الله تعالى هو الذي أظفر المؤمنين عليهم ، مصداقاً لقوله تعالى :

« ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون »

(الآية ١٢٣ من سورة آل عمران)

وقد قام المؤمنون بالقتال ،والقيام بالقتال جهة من جهتي الفعل، أما أثر الفعل بانتصارهم على المشركين فهو من عند الله تعالى .

فالآية أثبتت للمؤمنين القيام بالفعل ، ونفت عنهم جانب التأثير ، ونفي الفعل بإحدى الجهتين لا يعارضه إثباته بالجهة الأخرى (٢) ، فالمنفي في الفعل هو أحد جانبيه ، والمثبت هو الجانب الآخر ، ولا إشكال في ذلك ، إذ ليس النفي والإثبات في جانب واحد .

---

١ ــ راجع .. الزركشي : البرهان في علوم القرآن ٥٨/٢ ومابعدها.
٢ ــ الزركشي : البرهان في علوم القرآن ٥٩/٢

وكذلك فعل (الرمى) . . . أنه صلى الله عليه وسلم كان يرمى يوم بدر ، والله تعالى بلغ برميته المقاتل ؛ فلذلك أضافه الله تعالى إلى نفسه ، كما أضاف الرمية أولا إليه (صلى الله عليه وسلم) بقوله (إذ رميت) ، والكلام متفق بحمد الله » (١) .

وفى تفسير ابن كثير « . . . ثم قال الله تعالى لنبية فى شأن القبضة التى قبضها من التراب وحصب بها وجوه الكافرين يوم بدر حين خرج من العريش. بعد دعائه وتضرعه واستكانته ، فرماهم بها ، وقال : شاهدت الوجوه ، ثم أمر أصحابة أن يصدقو الحملة إثرها ففعلوا ، فأوصل الله تلك الحصباء الى أعين المشركين ، فلم يبق أحد منهم الا ناله منها ما شغله عن حاله ، ولهذا قال (وما رميت . . . الآية) أى هو الذى بلغ ذلك إليهم وكبتهم بها .. لا أنت (٢).

وفى هذا يقول الطبرى « وهى الدليل على أن الله خالق لأفعال العباد ، فإن الله تعالى أضافه إلى نبيه ثم نفاه عنه ، وذلك فعل واحد لأنه من الله تعالى التوصيل اليهم ومن نبيه بالحذف والإرسال ، واذا ثبت هذا لزم مثله فى سائر أفعال العباد المكتسبة ، فمن الله تعالى الإنشاء والإيجاد ومن الخلق الاكتساب بالقوى » (٣) .

وعلى هذا يكون النفى متعلقا بالجانب التأثيرى للفعل لمن قام به ، ومثبتاً جانب القيام بالفعل فقط ، ولا تعارض فى هذا النفى والاثبات .

---

١ ــ القاضى عبد الجبار : تنزيه القرآن عن الطاعن ص ١٤٤

٢ ــ محمد نسيب الرفاعى : تيسير العلى القدير لاختصار تفسير ابن كثير المجلد الثانى ص ١٧٣ بيروت ١٩٧٢

٣ ابن جرير الطبرى : جامع البيان عن تأويل القرآن ١٣٥/٩

وقد يأتى اللفظ مختلفا بين الحقيقة والمجاز ، ومترددا بينها ، مما يثير توهما بالإشكال ، وذلك كما فى قول الله تعالى :

« يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت
وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس
سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله
شديد »

(الآية ٢ من سورة الحج)

والإشكال فى قوله (ترى الناس سكارى وما هم بسكارى) ؛ فكيف يكونون سكارى ، ولكنهم غير سكارى ؟ ! .

يقول القاضى « أليس ذلك تناقضاً ؟ » (١) ، ولكن لا شك أن الآية توضح أنهم قد بلغوا فى الحيرة إلى حد السكر ، وإن لم يكن هناك سكر ؛ فهم سكارى من الخوف والحيرة ، . ما هم بسكارى من الخمر ، والأسلوب يعد غاية فى الفصاحة فكيف يعد متناقضاً ! ؟ .

ولتوضيح الموقف لا بد أن ننظر فى تقدير المضاف إليه ،فكلمة (سكارى) الأولى واردة على المجاز ، لأن تقدير المضاف اليه (سكارى من شدة الهول) ، وكلمة (سكارى) الثانية واردة على الحقيقة ؛ فتقدير المضاف اليه (سكارى من الشراب) ، وهذا طرف من أطراف البلاغة العربية فى الأسلوب القرآنى ، يطلق عليه البلاغيون (المجاز بالحذف) ؛ فتقدير المحذوف يعمل على توضيح ما هو وارد على المجاز ، وما هو وارد على الحقيقة ، وبهذا يمكن أن تصل إلى المفهوم الحقيقى للآية ، أو الآيات المماثلة .

---

١ ـ القاضى عبد الجبار : تنزيه القرآن عن المطاعن ص ٢٣٩

ومما يعضد المفهوم الذى أشرنا إليه هو ما جاء فى نهاية الآية ، من قول الله تعالى « ... ولكن عذاب الله شديد » إذ تشير تلك الكلمات إلى أن وصفهم (بسكارى) إنما هو لخوفهم من هذا العذاب الشديد ، ولم يكن سكرهم نتيجة شراب أو غيره ..

ومن جانب آخر قد يأتى الإشكال عند حذف المضاف من أسلوب المخاطبة القرآنية ، وإن لم يكن حذفاً وإنما على تقدير الحذف . كما فى قوله تعالى :

« الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون »

(الآية ١٥ من سورة البقرة)

فالمتبادر إلى الفهم .. أن الله يمدهم فى الطغيان، ويزيدهم فيه ضلالا و كفراً، وتلك أمور مستبعدة من جانب الله تعالى ، ولا يصح إسنادها إليه جل شأنه .

فإذا قدرنا المضاف فى هذا التعبير .. وهو (أن الله يمدهم فى عقوبة طغيانهم فإذا طغـوا وتكبروا ؛ فإنه سبحانه وتعالى يمهلهم علهم يعودون إلى رشدهم وصوابهم .

ويقول المفسرون « إن الله يزيدهم — بطرق الإمهال والترك — فى ضلالهم وكفرهم يتخبطون، ويترددون حيارى لايجدون إلى المخرج منه سبيلا »[1] ؛ فلم يكن مـدداً فى الطغيان ، ولكنه فى الإمهال والترك . وكما يقولون (إن الله يمهل ولا يهمل) .

وهنا يعمل تقدير المضاف على إزالة اللبس المتوهم فى الآية . ومن قبيل هذا أيضا .. قول الله تعالى :

---

١ — محمد على الصابونى : صفوة التفاسير ٣٧/١ .

« أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون
أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط
بالكافرين » .
(الآية ١٩ من سورة البقرة)

ويغمض المعنى فى مستهل الآية ، وعندما نقـــدر المضاف وهو (كأصحاب صيب) ينكشف هذا الغموض .

ويمكن الاستدلال على ذلك بما جاء فى الآية نفسها (... يجعلون أصابعهم) وهؤلاء هم أصحاب الصيب الذين جاءهم مطر شديـــد أظلمت له الأرض ، وأرعدت له السماء مصحوب برعد وبرق وصواعق .

وكذلك قول الله تعالى :

« ... وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم ... »
(من الآية ٩٣ من سورة البقرة)

والمخاطبة هنا تعنى بنى اسرائيل ، وما أخذه الله عليهم من عهود ومواثيق باتباع ما جاء فى التوراة من التوحيد ، وما ورد فيها من أحكام ، وعندما عصوا أمر الله كاد الجبل أن يقع عليهم ، وقد غشيهم كأنه ظلة ، وظنـــوا أنه واقع بهم ولكن الله كشف عنهم عنـدما أظهروا التوبة والرجوع إليه ، إلا أنهم تولوا بعد ذلك ونقضوا عهودهم ، وعادوا إلى عبـادة ما صنعته أيديهم (وهو العجل) ؛ فكأنه اختلط بهم لشدة تمكهم به وبعبادته ، فأشار القرآن إليهم بهـذا التعبير (وأشربو فى قلوبهم العجل) أى (أشربوا حب العجل) وذلك عـلى تقدير المضاف المحذوف ، وهو أسلوب فى غاية البلاغـة ، إذ يقصد الأسلوب إلى أن العجل قد خالط حبه قلوبهم ، حتى نكصوا مواثيق الله تعالى ، وتغلغل حب

العجل فى سويداء قلوبهم ، وامتزج بدمائهم .

فمن الواضح — إذن — أن تفسير ألفاظ الآيات وحده لا يكفى لإدراك المراد منها ، وعندما يتدخل درس علوم القرآن هنا فإنه يعمل على كشف الغموض المتوهم ، ويمهد إلى فهم المعانى الداخلية فى النص ، وبيان مقصده .

ومن مواطن الاشكال ما يأتى فيه مفهوم الآيات على وجهين واعتبارين مختلفين ، كما فى قول الله :

« لقد كنت فى غفلة من هـذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد »

(الآية ٢٢ من سورة ق)

وفى آية أخرى :

« وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى ... »

(من الآية ٤٥ من سورة الشورى)

والموقف فى الآيتين من مواقف الآخرة ؛ فكيف تصف الآية الأولى البصر بالحدة والقوة ، بينما تصفه الثانية بالضعف والمسارقة ؛ فكيف يكون الجمع بين هذه المفترقات ؟ .

وعندما تتفحص النصوص هنا وتتدبرها تجد أن المراد بقوة البصر هو قوة الإدراك والمعرفة ، حيث يرى ما كان مستوراً عنه فى الدنيا ، مع تشبيه هذه القوة بالحديد لشدتها ، ولأن معرفتهم فى الآخرة ضرورية . ومثال ذلك .. لو قلنا (بصر بالشىء) نعنى أنه (علمه) ، وليس المراد رؤية العين ،

ودليل ذلك ما ذكر قبله (فكشفنا عنك غطاءك) أى أزلنا عنك غفلتك ؛ فأصبحت مدركا لكل أعمالك .

أما فى الآية الثانية ؛ فإنه عند عرض الكافر على نار جهنم يصبح فى حالة خوف وفزع ، خاشعاً ، حانى الرأس من الذل ، يسترق النظرات .

وهكذا يأتى كل من النصين على وجه واعتبار لموقف من المواقف ؛ فلا تعارض ولا اختلاف .

ومن ذلك أيضا ما جاء فى قول الله تعالى :

« الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب »

(الآية ٢٨ من سورة الرعد)

مع قوله فى آية أخرى :

« إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم »

(من الآية ٢ من سورة الأنفال)

والوجل خلاف الطمأنينة ، ومعناه (الخوف) ، ويشير القاضى عبد الجبار « أن الطمأنينة المذكورة هنا المراد بها المعرفة وسكون النفس إلى المجازاة مع الوجل والخوف من المعاصى فالكلام متفق » (١) والآية الأولى تشير إلى اطمئنان المؤمن عند ذكر الله ، والثانية تشير إلى وجله وخوفه ، والمقصد من وراء الآيتين أن الطمأنينة إنما تكون بانشراح الصدر بمعرفة التوحيد ، والوجل يكون عند خوف الزيغ والذهاب عن الهدى . ويجمع الله تعالى بينهما فى قوله :

---

١ — القاضى عبد الجبار : تنزيه القرآن عن المطاعن ص ١٨٢

« الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابهاً مثانى
تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين
جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى
به من يشاء ومن يضلل فما له من هاد » .

(الآية ٢٣ من سورة الزمر)

والقرآن إذا ما تأمله المرء وقع به موقع الكفاية ، وأدرك ما أودعه الله هذا الكتاب من حيث لا تفاوت ولا تباين ولا إختلاف بل له المثل الأعلى ، فهو ليس من كلام البشر الذى قد يضطرب فى مجاريه أو يلحقه الخلل فى معانيه .

وهناك لون آخر من الآيات التى تحمل أخباراً ترد كأنها متنافيه وتبدو كأن بها إشكال .

من ذلك قول الله تعالى :

« وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون »

(الآية ٢٧ من سورة الصافات)

وفى آية أخرى :

« فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم
يومئذ ولا يتساءلون »

(الآية ١٠١ من سورة المؤمنون)

وفيها يقول الراغب «وقد رأينا فى القرآن أخباراً متنافية ، فلا بد من أن يكون أحدهما صدقاً والآخر كذباً » (١) .

---

١ ـــ الراغب الاصفهانى : مقدمة التفسير ص ٤١١ (ملحقة بكتاب تنزيه القرآن) ط. أولى ١٣٢٩ المكتبة الأزهرية ـ القاهرة .

وما من شك فى أن الخبر الواحد إذا جاء منفياً مرة ومثبتاً مرة ، لابد من صدق أحدهما ، وكذب الآخر ، إذ لا يجتمع النفى والإثبات فى خبر واحد .
وعند استيضاح الموقف هنا نجد أن الآية الثانية تفيد ألا أنساب بينهم يتفاخرون بها، ولا يتساءلون عنها خلافاً لما كان عليه حالهم فى الدنيا وذلك لانشغالهم بعظم الموقف فى الآخرة ، وفى مواقف أخـــرى قد يفيقون؛فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون ـ كما ذكر فى الآية الأولى .

ويمكن القول بأن الخبر ليس واحداً ، فيتوهم فيه صدق أحدهما وكذب الآخر !! ولكن تختلف الأخبار باختلاف المواقف فى الدار الآخـــرة ، ففى موقف يتساءلون ، وفى موقف آخر لا يتساءلون .

وإلى هذا يشير ابن قتيبة « فإنه إذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، تقطعت الأرحام وبطلت الأنساب ، وشغلوا بأنفسهم عن التساؤل ، (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) ، (الآية ٦٨ من سورة الزمر) فإذا نفخ فيه أخـرى ، قاموا ينظرون ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون (قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) (الآية ٥٢ من سورة يس) (١) » .

وهكذا تختلف المواقف ، فتختلف فيها الأحـــوال ، وتختلف كذلك موضوع الإخبار عنها فى القرآن الكريم ، ودليلنا فى ذلك هو القرآن نفسه كما أشار ابن قتيبة مستدلا ببعض الآيات فى مختلف السور القرآنيـة ، تعتبر قرائن

---

١ ـ ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ص ٦٧ تحقيق السيد احمد صقر ط. الثانية ـ دار التراث القاهرة ١٩٧٣

فى الوقت نفسه — يستعان بها على التوفيق بين تلك الايات التى قد يتوهم فيها الإشكال ، أو يتصور التناقض . ومن هذه الأخبار — أيضا — ما جاء فى قول الله تعالى :

« قال لا تختصموا لدى وقد قدمت اليكم بالوعيد »

(الآية ٢٨ من سورة ق)

وفى آية أخرى :

« هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون » .

(الآيتان ٣٥ ، ٣٦ من سورة المرسلات)

وتحمل الآيات هنا ما يفيد عدم المجادلة أو الكلام ، ثم تأتى آيات أخرى تشير إلى ما ينفى هذا الخبر ، كما فى قول الله تعالى

« ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون »

(الآية ٣١ من سورة الزمر)

وكذلك قوله تعالى

« ... قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »

(من الآية ١١١ من سورة البقرة) .

فالآيات الأولى تفيد أن هذا يوم لا ينفع فيه الخصام ، فقد تقدم الوعيد فى الحياة الدنيا ، وأن هناك عذاب فى الآخرة لمن لم يؤمن بالله، ويعتصم بدينه . أعمالهم معروضة عليهم شاهدة على ما قدمته أيديهم ، فلا إذن لهم حينئذ ولا اعتذار .

أما الآيات الأخرى ، فقد يختصمون فيما بينهم من المظالم ، ويحاولون إلقاء تبعات أعمالهم على غيرهم من أوليائهم ، نادمين على ما فعلوا . وليس ذلك بمغن عنهم ، ولا هو نافع أو شافع لهم . ويورد ابن قتيبة خبراً عن هذه المواقف « روى عبد الرزاق عن معمر ، عن قتادة ، أن رجلا جاء إلى عكرمة ، فقال : أرأيت قول الله تعالى « هذا يوم لا ينطقون » ، وقوله « ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون » فقال : إنها مواقف ، فموقف منها أن تكلموا واختصموا ثم ختم على أفواههم فتكلمت أيديهم وأرجلهم فحينئذ لا يتكلمون (١) فالأخبار هنا تتناول مواقف تختلف فيما بينها ، منها ما يتكلمون فيه ، ومنها ما لا يتكلمون فيـــه .

ويذكر « الراغب » توجيهاً لهذه المسألة يقول فيه « إن الخبرين اللذين نفى أحدهما وأثبت الآخر إنما يتناقضان إذا استويا في الخبر والمخبر عنه ، وفي المتعلق بهما ، وفي الزمان والمـــكان وفي الحقيقة والمجاز . أما إذا اختلفا في واحـد من ذلك فليس بمتناقضين . . . ومن أمثـال ذلك كثير في لغة العرب ، وفي القرآن الذي جاء على أساليبهم ، فقد يقال (رجل لين العود) وقول آخر (رجل ليس بلين العود) ، وقد يراد بالأول (السخاء) ، ويراد بالثانية (الشجاعة) ، وهو مما ليس مستغرباً على اللغة العربية » (٢) .

وقد لاحظنا أن الأخبار التي حملتها الآيات السابقة كل خبر فيها يختلف عن الآخر ، إذ يكون أحدها في مكان ، والثاني في مكان آخر ، فيختلف المـــكان ، أو

---

١ — ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ص ٦٦

٢ — الراغب الاصفهاني : مقدمة التفسير ص ٤١٣ (ملحقة بتنزيه القرآن)

يختلف الزمان فيما بينها ، كما يختلف الخبر — أيضا — فى المخبر عنه، أو المتعلق به ، فلا تناقض — إذن — فى هذه الأخبار ، إذ المراد بأحدها غير المراد بالآخر.

وفى غير مجال النفى والإثبات ، قد تأتى الأخبار فى آى القرآن توهم بإحداث تضارب فيما بينها .

من ذلك قول الله تعالى :

« شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان . . . »

(من الآية ١٨٥ من سورة البقرة)

وقوله تعالى فى آية أخرى..

« إنا أنزلناه فى ليلة القدر »

(مفتتح سورة القدر)

وفى آية ثالثة..

« وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا »

(الآية ١٠٦ من سورة الإسراء)

وهنا يبدو التضارب بين هذه النصوص ، فالآية الأولى تدل على نزول القرآن فى شهر رمضان، والثانية تدل على نزوله فى ليلة القدر ، أى ليلة مباركة وقيمة الشرف ، والثالثة تدل على نزوله مفرقا وعلى فترات،فهل نزل القرآن فى شهر رمضان ، أم نزل فى ليلة القدر ، أم نزل على فترات استغرقت أعواما . . ؟

وتثبت الحقائق التاريخية المتواترة أن أول آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يتعبد فى غار حراء وكان فى سن الأربعين ثم توالى الوحى

بعد ذلك على مدى ثلاث وعشرين سنة فى مكة والمدينة ، حتى توفى الرسول عليه السلام وهو فى سن الثالثة والستين .

وهذا يعنى أن القرآن لم ينزل فى شهر واحد ، أو فى ليلة واحدة ، بل نزل منجما ، واستغرق نزوله ثلاثا وعشرين سنة .

وقديما أثارت هـــذه الآيات تساؤلا أورده «السيوطى» فى خبر بسنده « ... وأخرج ابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات من طريق السدى عن محمد عن ابن أبى المجالد عن مقسم عن ابن عباس أنه سأله عطيه بن الأسود فقال له : أوقع فى قلبى الشك قوله تعالى « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ... » ، « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » ، وهذا نزل فى شوال ، وفى ذى القعدة ، وفى ذى الحجة ، وفى المحرم وصفر ... فقال ابن عباس : إنه أنزل فى شهر رمضان فى ليلة القدر جملة واحدة ، ثم أنزل على مواقع النجوم رسلا فى الشهور والأيام ... » (١) ويظهر فحوى رأى ابن عباس عند بعض المفسرين كابن كثير عندما يتعرض للآية الكريمة « وقرآنا فرقناه ... » ، يقول فى تفسيرها : أما قراءة التخفيف (فرقناه) أى فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ... » (٢) .

إلا أننا عندما نتدبر تلك النصوص إظهاراً للتوافق الموجود بينها ، نجد فى الآية « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس ... » الدلالة الواضحة

---

١ – انظر السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن ١/٤٠ .

٢ – راجع تيسير العلى القدير لاختصار تفسير ابن كثير ١/٥٦٠ محمد نسيب الرفاعى .

التى تبين موعد نزول القرآن إلى الناس وإبلاغهم به ، لأنه لن يكون هدى أو بياناً يفرق بين الحق والباطل إلا إذا طرق أسماعهم ، ووعته عقولهم، وأفهامهم وفى ذلك دلالة أيضا على بداية النزول وأن الليلة التى نزل فيها لها من عظيم الشرف ورفيع القدر ما لهـا .. وكيف لا .. ؟ وهو حدث جلل له خطره وأهميته فى حياة الناس ... شرعة تفضل الله بها على عباده لتحقق لهم الخير كل الخير .

ولفظ (القرآن) كما يطلق على الكتاب كله ، فإنه يطلق أيضا عن بعضه ، حتى أن اللفظ الواحد فى الكتاب الكريم يسمى (قرآنا)

وقوله تعالى « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ... » أى نزلناه على مهل حتى تقرأه على الناس ليجنوا ثماره طبقا لمقتضى الحال ومجريات الأحداث ، محققا فى ذلك منهج التعليم والإرشاد .

فمفهوم الآيات أن القران قد بدأ إنزاله فى ليلة عظيمة من شهر رمضان ، ثم تتابع إنزاله بعد ذلك على مدى الشهور والأيام. فلا تضارب بينها ولا إشكال، أو بين ما يأتى من النصوص القرآنية على هذا النمط ، ولا شك فى أن القران منزه عن هذا كله .

إن ما يأتى فى القرآن موهما الاختلاف أو التضارب ،هو من قبيل المتشابه الذى يرد وكأنه أخفى معنى ، أو ستر مفهوما قد يوهم بوجود إشكال ، إلا أن هذا ضرب من أروع ضروب البـلاغة العربية ، ولا يظهر جمال اللغـة العربية وروعتها وفصاحتها إلا مع هذا المتشابه ، إذ يتمثل فيه الكثير من أنواع البلاغة العربية من مجازات وكنايات وإرشارات وتلويحات ، وهو أسلوب مستملح عنـد العرب ، حتى يكون القرآن متحدياً بطبيعته فى أى من نوعيه :

الواضح منه ، أو المشكل فيه .

وعندما يأتي الكلام على خلاف ما يقتضي الظاهر ، فإن ذلك لون من ألوان البلاغة يقتضي إعمال الفكر وتنشيطه ، ويدعو إلى التدبر ، وسبر أغوار النص لاستخلاص المعنى المقصود ، والوصول إلى ما يهدف إليه. ومن هذا المنطلق يظل القرآن مجالا رحبا للبحث، والتقصي، والنظر الثاقب في تدبره وفهمه.

وكما يقولون عن مواطن الإشكال تلك إنها « ابهامات كما تبدو للتأمل ، تختلف اختلافا ربما تبلبلت به الخواطر، وتفاقمت به الريب حول معاني القرآن، غير أن الذي لا ينبغي أن يغرب عن خواطر المؤمنين ، وأن يكون أبداً لزاما لأفكارهم هو أن يفرقوا بين الرأي المتزمت ، والرأي الأحمق ، والرأي الجاهل وبين الرأي المتروي الذي يلتزم حدود اللغة ، ويستصحب مقاصد الشريعة »(١)

---

١ — أحمد حسن الباقوري : مع القرآن ص ٨٠ المطبعة النموذجية القاهرة ١٩٧٠

الموضوع الخامس

الإظهار والإبانة

المحتوى ..

* تقديم
* أسلوب العطف
* رفع اللبس
* التكرار
* التدرج والترتيب
* الفواصل
* ترابط السور

بلغ القرآن فى وضوحه أعلى منازل البيان ، وجمع وجوه الحسن فى نظمه وموقعه فى السمع ، وسهولته على اللسان .

وصور مشاهده على جهة تحل محل البرهان فى نفس السامع والقارىء . ولم يكن فى سياقه ما يوصف بالالتواء أو الغموض أو التناقض ، بل جاء فى إطار من الوضوح ، وتحديد المعالم ، وبيان المفاهيم بحيث لا يمكن أن يجد أحد سبيلا إلى رميه أو الطعن فيه ،وإن كانت قد وجهت إليه طعون الحاقدين وأعداء الدين ، ولكنها طعون مردود عليها.

تجمع فى القرآن إشراق العبارة فى ألفاظ فصيحة متأنقة ، تتساوق فيها المعانى ، وتتلاحم الفكر .

ولقد تنوعت الأساليب فى النص القرآنى تحمل الحقيقة ظاهرة دون مواربة، ولن يخاطب الله عباده إلا بأسلوب يدركونه ، ويفهمون مراميه ، لأن القرآن تناول الحياة الإنسانية كلها ، وتعرض لمناحيها المختلفة .. تناول مسائل العقيدة، والتعاليم الخلقية ، والأحكام ، والدعوة والنصيحه ، والعبرة والعظة ، والحجج والشواهد ، والقصص التاريخية . والاشارات إلى آيات الكون ، والزجر، والتخويف ،والترغيب، كل هذا فى أسلوب بين لا يغرب عن الفهم ، ولا يغرب عن الإدراك .وفى سياق عربى يجرى مجرى الأساليب التى يستخدمونها ،ويفهمون مراميها . .

« ومهما يكن هذا الكتاب الكريم معجزاً أفحم الفصحاء ، وأخضع أعناق البلغاء ، فإن ذلك لا يخرجه عن كونه عربيا جاريا على أساليب كلام العرب ، ميسراً للفهم عن الله ما أمر به ونهى عنه ، إذ لو خرج بالاعجاز عن

إدراك العقول لمعانيه ، لكان الخطاب به من تكليف ما لا يطاق ، وذلك مرفوع برحمة الله عن هذه الأمة ، وهذا من جملة وجوه الاعجاز فيه » (١)

وبهذا المعنى ينادى كل من تعرض لكلام عن الأسلوب القرآنى ، إذ لم يكن إعجاز القرآن فى خروجه عن المألوف ، أو الالتواء فى سياقه وأسلوبه ، أو صعوبة خارقة فى نظمه . ولكنه إعجاز لا يحول بين تناولين الوصول الى فهمه ، واستيعاب مضامنه .

ولم يتحد القرآن بما هو حوشى الكلام أو غريبه ، وإن كانت قد طالعتنا مؤلفات العلماء فى غريب القرآن ومشكله ، إلا أنها لم تكن غرابة يستغلق فهمها بل هى غرابة بلاغة وفصاحة أسلوب ، فما يتصف بالغرابة ، والإشكال فيه ليس مستنفراً ، ولا خارجاً عن اللسان العربى وأسلوب التخاطب .

وعندما يصنف « ابن قتيبة » كتابه فى غريب القرآن ، فإنه لا يجد غضاضة أو نفوراً يحتويه اللفظ ، ولكنها لغة العرب فى فصاحتها وبلاغتها ، فيقول .. « وكتابنا هذا مستنبط من كتب المفسرين ، وكتب أصحاب اللغة العالمين . لم نخرج فيه عن مذاهبهم ، ولا تكلفنا فى شىء منه بآرائنا غير معانيهم ، بعد اختيارنا فى الحرف أولى الأقاويل فى اللغة وأشبهها بقصة الآية . » (٢)

ودعوة القرآن واضحة فى تدبر آياته ومحاولة فهمه ، فألفاظه وأساليبه لم تكن مستعصية على الفهم والإدراك .

---

١ — احمد حسن الباقورى : مع القرآن ص ٦٩ مطبعة الآداب القاهرة ١٩٧٠

٢ — ابن قتيبة : تفسير غريب القرآن ص ٤ (المقدمة) تحقيق السيد احمد صقر دار إحياء الكتب العربية — القاهرة ١٩٥٨

ويحاول الجرجاني أن ينفي تلك الغرابة في الأسلوب القرآني ؛ فيقول « لو كان أكثر ألفاظ القرآن غريباً لكان محالا أن يدخـــل ذلك في الإعجاز ، وأن يصح التحدي به » (١) .

ولم يكن عبثاً قول الله تعالى :

« يوم نبعث في كل أمـة شهيـداً عليهم من
أنفسهم وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ونزلنا
عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة
وبشرى للمسلمين »

(الآية ٨٩ من سورة النحل)

والعديد العديد من الآيات التي تصف القرآن بالبيان والوضوح ، وإقرار الحقائق الواقعة في حيـاة البشر . حتى يتم القضاء عـلى كل وهم وخرافة ، وحتى يقطع الله بوضوح القرآن حجة البشر ، إذ يقول تعالى:

« لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل
وكان الله عزيزاً حكيما »

(من الآية ١٦٥ من سورة النساء)

وهكذا كان وضوح القرآن وواقعيته تحريراً لعقول الناس من التقليد والجمود وإبعاداً عن مغبة التخيل والوهم .

وتلك هي سمـــة المنهج الذي وضعه للعقل خالق العقـل ومكونه ، العليم بطاقاته وقدراته .

---

١ ــ الامام عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ص ٣٠٤ مطبعه المنار القاهرة ١٣٦٧ هـ .

وإذا كانت آيات القرآن تتلى ولا تفهم ، فإن ذلك تعطيل لها ، وضرب من ضروب العبث والهراء ، وتعالى الله عن ذلك ، وتعالت كلماته علواً كبيراً .

ويكفينا فى هذا المقام أن حقائق الاسلام من خلال كتاب الله لا تصطدم مع العقل السليم،والمنطق الصحيح ، إذ لا نزاع بين المنهج القائم على الحقائق العلمية المعقولة الواضحة، وبين شريعة الإسلام .

وما من شك فى أن الغموض والتناقض لا يتمخض إلا عن خلط وتمزق ، وإثارة للشكوك ، وهذا ما حدث بين رجال الكنيسة وعلماء أوربا فى العصر الوسيط حينما تضاربت واستغلت تعاليم الدين وهى كلمات الله التى حرفوها وشوهوا جلاءها ووضوحها ، وعبثوا بمواضعها ، فانتهى الأمر بهم إلى نزاع طويل مرير أدى إلى عدم القبول والرضا ، وإلى سيطرة نزعة الشك ، فكان أن هجر الناس الدين ، ولجأوا إلى الإلحاد . وظل رجال الكنيسة ينظرون فى توجس وخيفة وحذر إلى العمل العقلى والمسائل العلمية .

وهذا هو مآل الدين إذا تعارضت فيه المفاهيم ، وتضاربت فيه التعاليم ، وأصبح طقوساً وقوالب بعيده عن الفهم والإدراك .

أما إذا نظرنا إلى القرآن عندما كان يتنقاه الرسول عليه الصلاة والسلام ، وجدنا أن المشركين لم يلجأوا إلى إيذاء الرسول وصحبه إلا عندما قدم لهم القرآن البرهان ، وأقام بينهم الدليل واضحاً وضوح الشمس وسط النهار ، وكانت مذاهبهم ودياناتهم حينذاك تقوم على الخرافة والأباطيل ، فعجزوا عن المقارعة والمحاجة ، وسلكوا طريق المحاربة والقتال .

إن آيات القرآن التى قيض الله لها أن تخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وأن تفرق بين الحق والباطل ، وبين الحقيقة والوهم ، لن يكون لها ذلك إلا بما

حملت من قوة البيان واشعاعات الوضوح ، وإن التحدى الذى صرح به القرآن هو تحد بلفظ القرآن نفسه ، فى نظمه ، وبيانه، لا بشىء خارج عنه. ولم يكن البيان إلا إظهار المعنى وتوضيحه، وفيه يقول الجاحظ . . . « والدلالة الظاهرة المعنى الخفى هو البيان الذى سمعت الله عز وجل يمدحه ، ويدعو إليه، بذلك نطق القرآن ، وبذلك تفاخرت العرب ».

وبيان القرآن المتمثل فى وضوحه ، وجـــلاء بتدبر آياته ، وتفحص ألفاظه ، وتناول ذلك كله بدراسة متأنية واعية.

وفى كيفية بيان القرآن يعقد « الراغب الأصفهانى » فصلا فى مقدمة التفسير ، إذ يقول « إن البيان المشترط فيه إنما هـــو بالإضافة إلى أعيان أهل الكتاب (أى إلى من كان أهلا لتناول القرآن وفهمه) ، لا إلى كل من يستمعه ممن دب ودرج ، فقد علمنا أن ذلك ليس ببيان لمن ليس من أهل العربيـة ، ثم أحوال أهل العربية مختلفة فى معرفته ، ولو كان البيـان لا يكون بياناً حتى يعرفه العامـة لأدى إلى أن يكون البيان فى كلام السوقى والعامى ، أو إلى ألا يكون بياناً بوجه إذ كل كلام بالإضافة إلى قوم بيان ، وبالإضافة إلى آخرين ليس ببيان . . . ثم إن القرآن وإن كان فى الحقيقة هداية للبرية ، فإنهم لن يتساووا فى معرفته ، وإنما يختصّون به بحسب درجاتهم واختـــلاف أحوالهم . . . وقد علم أن الإنسان بقدر ما يكتسب من قوته فى العلم تتزايد معرفته بغوامض معانيه » (٢).

---

١ ــ الجاحظ : البيان والتبيين ٧٥/١ تحقيق عبد السلام هارون ط. الخانجى القاهرة .

٢ ــ أبو القاسم الراغب الأصفهانى : مقـــدمة التفسير ص ٤ ، ٥ (ملحقة بكتاب تنزيه القرآن عن المطاعن) ط. الجمالية ــ القاهرة ١٣٢٩ هـ

وكلام «الراغب» لايخرج القرآن من دائرة البيان والوضوح ، ولكنه يشير إلى أن وضوح القرآن ، والتعرف على ما فيه من أسرار، لن يتأتى إلا لمن تقرب إليه واجتهد فى الوصول إلى معرفته ، وإدراك كنهه ، وفض أسراره ، وهو أمر لن يتكشف أمام العوام من الناس ، فقد يؤدى هذا بدوره إلى هبوط البيان من بين قمم الفصاحة إلى كلام السوقى والعامى .

المشكلة — إذن — فيمن يتصدى للقرآن، ويجد صعوبة فى إدراك المعنى ومعرفة المقصد ، وهو أمر راجع إلى عدم أهليته ، أو عدم تسلحه بالأدوات اللازمة للفهم والمعرفة ، وليس فى ذات القرآن .

أضف إلى ذلك اختلاف مستويات الفكر واختلاف المدارك حول فهم القرآن . فالناس ليسوا سواء فى الفهم والإدراك ، فمنهم من يتناوله بفكر سطحى مكتفياً بالنظرة العابرة ، غير فاحص أو متأن ، يستخلص نتائجه على عجل ويرضى بالقليل منها غير عابىء بتفحص الأمر وتدبره . ومنهم من يتناوله بفكر متعمق ، يسبر أغوار النص ، ويتعرف على مكوناته وعلاقته مع غيره ، ليدرك كوامنه ومراميه ، ويصل إلى نتائج دقيقة و اضحة ، ويلم بالأمر كله ويستوعبه .

وعندما نتدبر القرآن ، ونعى نصوصه ، ونجتهد فى معرفته، نجد أن أساليب البيان فيه قد تعددت وتنوعت تعدد وتنوع مجالات الإظهار فيه .

ولنتناول — كما درجنا — الجانب التطبيقى فى إيراد الأمثلة التى تكشف لنا أسلوب القرآن، ومدى مساهمة نظمه فى قضية البيان وطريقة الإحكام .

من هذه المواطن أسلوب العطف ..

يظهر ذلك في قول الله تعالى :

« ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا
يخاف ظلماً ولا هضماً »

(الآية ١١٢ من سورة طه)

تظهر القيمة البيانية هنا في أسلوب العطف (ولا هضما) اذ لو جاء الأسلوب خلواً منها لما أدى إلى هذا الوضوح والبيان .

فالذي يقدم العمل الصالح وهو مؤمن – إذ لا يقبل العمل بغير إيمان – فلا خوف عليه ولا نقصان لحقه ، فإن كلمة (ظلماً) تعني انتقاصاً لثواب طاعته . أما أسلوب العطف (ولا هضما) تفيد أحقيته في الثواب ، لأن (الهضم) هو النقص . والفرق بين الظلم والهضم .. أن الظلم : المنع من الحق كله ، والهضم : المنع من بعضه ، والهضم ظلم وإن افترقا من وجه ، والله تعالى يريد أن يبين حق المؤمن في جلاء ووضوح ، وأن يقر له ذلك الحق ويطمئنه عليه .

إذ لا يخاف ظلماً بزيادة سيئاته ، ولا بخساً ونقصاً لحسناته ، بل يوفى حقه كاملا لا نقصان فيه .

ومنه قول الله تعالى :

« وما أدراك ما سقر . لا تبقي ولا تذر »

(الآيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة المدثر)

فأسلوب العطف (ولا تذر) يوضح الصورة الكاملة للهلاك .. أي لا تترك عظماً ولا لحماً ولا دماً إلا أحرقته ، كما أن العطف هنا يؤكد هول نار جهنم وشدة إحراقها .

ويشير المفسرون إلى تلك الصور المستوحاة من هذا التعبير فيقول القرطبي :

« لا تبقى منهم شيئاً ، ثم يعادون خلقاً جديداً ، فلا تذر أن تعاود إحراقهم ، وهكذا أبداً ، وقيل : لا تبقى من فيها حياً ، ولا تذره ميتاً » (١) .

وفى موضع آخر يقول جل شأنه :

« ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى
نسفا . فيذرها قاعاً صفصفاً . لا ترى فيها
عوجاً ولا أمتا »

(الآيات ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ من سورة طه)

الواضح فى هذه الآية أن الجبال الشم، والمرتفعات الشاهقة على أديم الأرض ستصبح مستوية ملساء ، وقد أفاد العطف (. . . ولا أمتا) استكمال معنى الاستواء ، وظهر ووضح حينما قضى على كل واد وربوة فى الأرض ، ويورد القرطبى « قول ابن عباس فى معنى كلمتى (عوجاً - أمتا) : فيقول « عوجاً : وادياً ، أمتا : رابية » (٢) .

والأمت فى اللغة « هو المكان المرتفع ، والتلال الصغيرة والارتفاع والانخفاض ، والاختلاف فى الشىء » (٣) .

والقرآن هنا يقدم صورة واضحة للاستواء الكامل دليلا على قدرة الله التى لا تعلوها قدرة ، ويسوقها فى أسلوب تتضح فيه القوة والشدة ؛ فمن المعروف أن

---

١ — القرطبى : الجامع لأحكام القرآن المجلد العاشر ص٧٧ دار الكتاب العربى - القاهرة ١٩٦٧ .

٢ — راجع .. القرطبى : الجامع لأحكام القرآن المجلد السادس ص ٢٤٥

٣ — الفيروزابادى : القاموس المحيط مادة (أمت)

تلك الآيات من المكي الذي جاء بألفاظ تقرع مسامع القوم لتكون رادعة زاجرة حيث المماراة واللجاجة فى القول . وما زال القوم فى جاهلية تصم آذانهم وتعمى أبصارهم ؛ فمن عبـادة الأصنام تارة ، واشراك بالله تارة ، وإنكار للوحى ، وما من شك فى أن يكون البيان هنا قوياً ، وواضحاً ، وشديداً ، حتى يتصدى لهذا الجو المملوء بالعناد والجحود .

وقد يأتى العطف فى أسلوب التكرار . . كما فى قول الله تعالى :

« أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى »

(الآيتان ٣٤ ، ٣٥ من سورة القيامة)

والآيتان هنا.. الغرض منها الزجر والتعنيف ، وقد بينت الآيات السابقة على هاتين الآيتين هذا الموقف المعنف :

« فلا صدق ولا صلى . ولكن كذب وتولى
ثم ذهب إلى أهله يتمطى »

(الآيات ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ من سورة القيامة)

أما الآيتان محل الشاهد ، فإن التعبير (أولى لك) هو اسم فعل (وليك ما تكره) واللام هنا للتبيين ، (فأولى) أى . . فإن هذا أولى بك من غيرك لتمردك وعصيانك ، والآية الثانية (ثم أولى لك فأولى) تأكيد ، ويقال إن أصلها (أفعل تفضيل) من (وليه الشيء) إذا قاربه ودنا منه على أن يكون المعنى . . وليك الشر وأوشك أن يصيبك فاحذر واتنبه لأمرك ، ويعد العطف بالتكرار أيضا مبالغة فى التهديد والوعيد . كما يتضح أيضا أن مقصود الآية . . ويل لك مرة بعد مرة ، دعاء عليه أن يليه ما يكرهه ولاء متكرراً متضاعفاً .

ومن خلال الأسلوب يتضح معنى التشدد ، بأن يليه شر بعد شر ، مؤكداً

على ذلك فى أسلوب العطف المتكرر ، مبينا أن هذا هو جزاء أعداء الله .

ويقول المفسرون أيضا إن « هذه العبارة فى لغة العرب ذهبت مذهب المثل فى التخويف والتحذير والتهديد » (١) .

ومن ذلك أيضا قول الله تعالى :

« فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر »

(الآيتان ١٩ ، ٢٠ من سورة المدثر)

وأقرأ معى تلك الآيات السابقة عليها :

« ذرنى ومن خلقت وحيدا . وجعلت له
مالا ممدوداً . وبنين شهوداً . ومهدت له
تمهيداً . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان
لآياتنا عنيداً . سأرهقه صعوداً . إنه
فكر وقدر »

(الآيات من ١١ — ١٨)

تأتى فى معرض التهديد والتخويف ، وذلك عندما بسوم صناديد قريش برسول الله ، وضاقت عليهم الحيل، واتهموه بالسحر تارة، وبالجنون تارة أخرى وحزن الرسول عليه السلام لذلك ، فجاءت الآيات لردعهم ، وأراد الله تعالى أن يبين لهم سوء تقديرهم ، واختلاقهم الأكاذيب على رسوله ، ولعنتهم كيف قدروا ذلك الافتراء الذى يكذبهم وجدانهم فيه .

---

١ — محمد على الصابونى : صفوة التفاسير المجلد الثالث ص ٤٨٨ دار القرآن الكريم - بيروت ١٩٨٠

أما العطف — الذي أشرنا إليه — فهو تكرير يبالغ في التعجب ، وقد اعتيد فيمن عجب غاية التعجب أنه يكثر من التعجب ويكرره ، وهو غاية البيان في أمر اقترفوه، ويريد الله أن يوضح خطورة هذا الأمر وعواقبه ، والآية الثانية التي تكررت في أسلوب العطف بليغة في سياق التعجب عاملة على ظهوره وإيضاحه ، وكذلك العطف بحرف العطف (ثم) يدل على تفاوت الرتبة ، فكأنه قيل .. قتل بنوع ما من القتل، ثم قتل بأشده وأشده ، وهنا يستساغ العطف في تأكيد المعنى المقصود من الآية .

وفيه يقول الزمخشري « ... فيه ثلاثة أوجه .. إحداها :

أن تكون تعجيبا من تقديره ، وإصابته فيه المحز (غليظ الكلام) ، ورميه الغرض الذي كانت تنتحيه قريش . ثانيها : ثناء على طريقة الاستهزاء به ، إذ المقصود بهذا القول هو المعاند والمكابر (الوليد ابن المغيرة) فقد أعجب القوم بموقفه المعادي للرسول . ثالثها : حكاية لما كرروه من قوله (قتل كيف قدر) تهكما بهم وبإعجابهم بتقديره ، واستعظامهم لقوله .. كما لو قيل (أخزاه الله ما أشعره)»(١) .

والوليد بن المغيرة — بعد أن عجب لما جاء به القرآن من أسلوب معجز ، وأنه ليس بكلام شاعر أو مجنون أو كاهن أو كاذب ، فكر قليلا — وهو بين قومه — ثم قال .. ما هو إلا ساحر . وقد أبدى القوم إعجابهم بهذه الفكرة وهذا الوصف وهللوا لها .

وفي حالات أخرى ، قد يأتي العطف بين المترادفين .. كما في قول الله تعالى :

---

١ — الزمخشري ، الكشاف ١٨٣/٤ دار الفكر ـ بيروت .

« الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا
فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب »
(الآية ٣٥ من سورة فاطر)

وكلمة (النصب) معناها : التعب ، (واللغوب) معناه : الإعياء — وهو من التعب أيضا — إلا أن اللفظين هنا يؤدى كل منهما المعنى المنوط به ، فالجمع بين المترادفين يدل على معنى لا يتواجد عند انفراد أحدهما ، والتركيب على هذا النحو يأتى بمعنى زائد يتضح فيه نفى كل ما من شأنه المساس بإقامتهم فى جنة الخلد وجعلها مقراً وسكنا .

« وإنما سميت الجنة (دار المقامة) لأنهم يقومون فيها ويمكثون ولا يخرجون منها . والنصب (تعب الأبدان) ، واللغوب (تعب النفس الناشىء عن تعب البدن » (١).

ويحمل العطف هنا — الجامع بين الكلمتين — استبعاد كل أنواع التعب نفسية كانت أو جسدية ، حتى يظهر القصد من وراء الآية فى نفى كل المتاعب وإبعادها ، وإيضاح حال هؤلاء السعداء الأبرار وما هم فيه من أمن لا ينالهم أى أذى .

وقد يأتى العطف بين صفتين . .
إذ يقول الله تعالى :

« والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل

---

١ — أبو القاسم الغرناطى : التسهيل لعلوم التنزيل ١٥٩/٢ تحقيق محمد عبد المنعم ، وابراهيم عطوه دار الكتب الحديثة — القاهرة .

من قبلك وبالآخرة هم يوقنون »

(الآية ٤ من سورة البقرة)

تحمل الآية صفة المؤمنين ، وهم المذكورون فى الآية السابقة عليها فى قوله تعالى :

« الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة

ومما رزقناهم ينفقون »

(الآية ٣ من سورة البقرة)

ويتصفون بالإيمان بالغيب ، والسياق يحمل عطف الصفة على الصفة ويفيد زيادة فى التعريف بهم، وإيضاح هويتهم بتعدد مايتصفون به من إيمان بالغيب، وبما أنزل على محمد ، وما أنزل من كتب سابقة .

ويقول الزركشي « إن شرط العطف فى الصفات أن تكون متغايرة فلا تقول جاء زيد العالم والعالم ، وإنما تقول : جاء زيــــد العالم والشجاع . وفى الآيتين الكريمتين .. المعطوف عليه هـــو (الذين يؤمنون بالغيب) ، والمعطوف (والذين يؤمنون بما أنزل اليك ...) . والمنزل هـــو الغيب بعينه ، فتكرر الغيب هنا فى المعطوف والمعطوف عليه ، وليس هذا من قبيل عطف الصفة على الصفة » (١) .

وهنا يثير الزركشي اعتراضاً.. وهو أن العطف الوارد فى الآية ليس من عطف الصفة على الصفة ، ويمكن الرد على هـــذا الاعتراض بأن المعطوف عليه وهو (الغيب) إنما ذلك مطلق الغيب ، والمعطوف وهو (بما أنزل اليك) إنما

---

١ ــ الزركشي : البرهان فى علوم القرآن ٤٧٤/٢

هو غيب خاص ؛ فيكون من عطف الخاص على العام ، وهكذا تختلف الصفتان في مضمونهما ، فتعملان على زيادة الإيضاح والبيان للمتصفين بها. إذ تتناول الغيب في عمومه كما تتناول نوعا خاصا من أنواعه .

ومن أساليب الإظهار — أيضا — ما يأتي لرفع اللبس .. فقد يأتي في الأسلوب القرآني ما لم يتضح فيه الغرض ، كما في قول الله تعالى :

« وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء
مقطوع مصبحين »

(الآية ٦٦ من سورة الحجر)

واللبس يقع في (ذلك الأمر) ؛ فيأتي التوضيح بعدها لإزالة اللبس وبيان الموقف ؛ إذ أوحى إلى لوط أن أولئك المجرمين سيستأصلون عن آخرهم ؛ فإذا دخل الصباح قد تم إهلاكهم حتى لا يبقى منهم أحد . ويتضح ذلك من استقراء الآيات السابقة واللاحقة لهذه الآية .

فيظهر المعنى عندما نتعرف على قصة لوط التي ساقها القرآن من خلال الآيات التي سبقتها والتي جاءت بعدها . وهو أمر يلح علينا في القول بأن القرآن لا تستفرد آياته ، فلا يتعرف على معنى الآية إلا من خلال الموضوع كله .

وإنما وقوع النظر على المبهم يثير في النفس تشوقا ورغبة وتوقا في الإيضاح، وعندما يأتي البيان بعد ذلك فإنه يقع من النفس موقع الإشباع في التوصل إلى المعرفة، وإدراك المعنى المراد، وفيه يقول الزركشي « إن ذلك أوقع في النفس من الإتيان به مفسرا من أول الأمر ، ولذلك وجب تقدمه (أي تقدم المبهم)

وتفيد به الجملة المراد تعظيما له ، (١) .

ومن الأساليب ما نجد فيه الإيضاح مقدماً على الإبهام . يظهر ذلك فى قول الله تعالى :

« يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقى ربه
خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من
رأسه قضى الأمر الذى فيه تستفتيان »

(الآية ٤١ من سورة يوسف)

فإذا وصفنا هذا الأسلوب (قضى الأمر) بأنه مبهم لما ساغ لنا ذلك حيث قد تم إظهاره ، ومعرفة ما يعنيه بداية ، إلا أننا نجد مع هذا تأكيداً للقول السابق ، وحسماً للموقف الذى كان يشغل ذهنيهما على أثر رؤية منامية ، وإعلان لنهايتها حتى تنقشع تلك الحيرة التى تعتمل فى نفسيهما ، وأنه قد تم قضاء الله صدقا أم كذبا ، فهو واقع لا محالة .

ومهما اختلف نظام التراكيب اللفظية إلا أنها تعطى بيانا وإيضاحاً لمن يتدبرها ، ويعى سياقاتها .

والتنسيق اللفظى فى كلا المثالين يأتى فى غاية المناسبة ، إذ استخدم اسم الإشارة (ذلك) فى الآية الأولى ، لأن الإيضاح سيأتى بعد ، فعليك أن تتبع الآيات حتى تدركه ، إذ يقال (ذلك الأمر) بيانه .. كذا .. وكذا .

كما يستخدم الاسم الموصول (الذى) مع كلمة (الأمر) فى الآية الثانية لأن

---

١ ــ الزركشي : البرهان ٢/٤٧٨

البيان قد سبقها ، فالاسم الموصول مطابق للأسلوب لأن فيه عـــود الصلة على ما سبق إظهاره وبيانه . إذ تقول (الأمر الذى) كان بيانه .. كذا .. وكذا ولا شك أنه تنسيق يقع غاية فى البيان المعجز .

وفى إزالة اللبس أيضا يأتى قول الله تعالى :

« وواعدنا موسى ثلاثين ليـلة وأتممناهـا
بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة ... »
(من الآية ١٤٢ من سورة الأعراف)

وتدل الآية على مواعـــدة موسى للمفاجأة بعد مضى ثلاثين ليلة ، وأتممت بعشر ليال ، فكانت المفاجأة بعد أربعين ليلة .

فإتمام الثلاثين ليلة بعشر ليال أخر يكون فى مجموعه أربعين ليلة ، فلا داعى إذن — لذكر (أربعين ليلة) بعدها .

ولكن الأسلوب جاء على هذه الصورة لإزالة اللبس ورفع الإبهام ، إذ قد يتوهم أن المواعدة مقتصرة على ثلاثين ليلة فقط ، فقد يرد الخاطب أن المواعدة غير الإتمام فيلتبس عنده الأمـــر ، وهنا جاء ذكر (أربعين) بعدها حتى يتم الإعلام ، ويتضح الموقف بأن الأربعين كلهـا للمواعدة .

فياله من أسلوب يثير فى المتأمل خواطره ، ويصل به فى النهاية إلى مفهوم واضح ، يأتى فى سياق مركب من نسب لفظية تتحدى أى مقدرة مبدعة .

ومن جهة أخرى نجد أن ذكر (عشر) بعد الثلاثين إنمـا هو لفت للانتباه بقرب انقضاء المواعدة حتى يكون موسى متأهباً ، بجتمع الرأى ، حاضر الذهن معداً لتلقى كلمات ربه . وكما يذكر الزركشى ، أنه لو ذكر (لفظ الأربعين فقط)

أولا لكانت متساوية ، فإذا جعل العشرة فيها إتماماً لها استشعرت النفس قرب التمام ، وتجدد بذلك العزم ، (١)

وهكذا نرى دقة البيان التى يتضمنها النص القرآنى تنتظم فى نسق لفظى يعمل على أداء المعنى فى جلاء وإحكام .

ومن مواضع البيان إتيان الضمير بـدل الظاهر .. كما فى قول الله تعالى « قل هو الله أحد » يأتى الضمير فى هذه الآية عاملا على زيادة التبيين فى تأكيد الوحدانية لله تعالى ، وأنه لا شبيه له ولا نظير ، فهو جـل وعلا واحد أحد ، فاصدع بهذا يا محمد . ولوكان الاقتصار هنا على الظاهر دون الضمير (قل الله أحد) .. لما أدت تلك المعانى التى تقصر الوحدانية على الله تعالى ، وأنه لا ثانى معه ، إذ أن وجود الضمير ينفى وجود التعدد والمماثلة .

ومن الواضح أيضا أن تفسير الضمير بالإسم الظاهر أوقـع فى أداء المعنى المقصود ، وأكثر وضوحاً من الإتيان بالمفسر بداية ، كما أن إتيان الضمير مقدماً يفيد التعظيم اللائق بجلال الله تعالى وتأكيد وحدانيته .

ومن ذلك أيضا قول الله تعالى :

« ومنهم الذين يؤذ ون النبى ويقـولون هو
أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن
للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين
يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم »

(الآية ٦١ من سورة التوبة)

---

١ — الزركشى : البرهان ٧٤٩/٢

فقد ذكر فى آخر الآية اللفظ الظاهر (رسول الله) بدلا من الإضمار ، إذ يمكن أن يقال (يؤذونه) ، وإن كان الضمير يعمل على ربط الجملتين ، وفيه عود إلى لفظ (النبي) فى أول الآية . .

إلا أن الإتيان بالظاهر فيه استقلال للجملتين ، كما أن فيه زيادة تقرير وبيان ، فمن المعروف أن الكلام إذا طال يستحسن استخدام الظاهر بدلا من المضمر حتى لا يخفى المعنى ، أو يختلط الأمر فى تحديد عود الضمائر ، ولا مرية فى أن القرآن يسلك أوضح الطرق وأنقاها فى التعبير عن المعنى .

وفى آية أخرى يقول الله تعالى :

« أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل
وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً »

(الآية ٧٨ من سورة الإسراء)

فيأتى الظاهر هنا بدلا من المضمر ، فلم يقل (إنه كان مشهودا) لأن إحلال الظاهر بيان فى تعظيم العمل ، وإظهار قيمته ، وقرآن الفجر عمل تشهده الملائكة كما جاء فى الحديث الشريف ، من حديث أبى هريرة قال : سمعت رسو الله صلى الله عليه وسلم يقول : .. تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر ، ثم يقول أبو هريرة : فاقرأوا إن شئتم إن قرآن الفجر كان مشهودا » (١) .

وهذا بيان يؤكد حسن الجزاء . ومن ثم جاء فى سياق آخذ بمزيد من الاهتمام بوضع الظاهر بدلا من المضمر .

---

١ — الامام البخارى : الصحيح ص ١٦٦ المجلد الاول (باب فضل صلاة الفجر) مطابع الشعب ـ القاهرة

ويأتى هـــذا الأسلوب فى معرض بيان التحذير عندما يقترب الخطر ، وما أنسب التحذير عند وقوع الخطر .!

يقول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنـــوا لا تتبعوا خطوات
الشيطان ومن يتبع خطولت الشيطان فإنه
يأمر بالفحشاء والمنكر ... »

(من الآية ٢١ من سورة النور)

فعندما ذكر حادث الإفك فى الآيات السابقة على هـــذه الآية أتبعت بالتحذير من سلوك طريق الشيطان بما أوعز إليهم بإشاعة الفاحشة ، والإصغاء إلى ما دار من تلك الشائعات حول السيدة / عائشة (رضى الله عنها) فى حادثة الإفك والتى اتهمت فيها كذباً وبهتانا . وعبر القرآن عـــن ذلك بالتعبير (خطوات الشيطان) فى أسلوب الظاهر بدلا من المضمر (ومن يتبع خطواته) ، والتعبير بالظاهر أجدى فى البيان ، وأقوى فى أخـذ الحيطة والحذر والإثارة من حيث اجتناب عنصر الإهانة الذى يلحق بهم إذا سلكوا مسلك الشيطان .

كما يأتى الظاهر لرفع اللبس فى عود الضمير ، فعندما يقول الله تعالى :

«ويعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين
والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم
دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم
وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا »

(الآية ٦ من سورة الفتح)

فإذا لم يذكر الظاهر فى الآية وهو (دائرة السوء) وذكر الضمير (عليهم

دائرته) لتردد الضمير إلى ما يعود إليه..هل هو عائد على لفظ الجلالة (بالله)، أو عائد على (ظن السوء) ، ويحدث هذا التردد إلتباساً يقع فى النص.

وبذكر الظاهر وهو لفظ (السوء) الثانية ، يزول الإلتباس الذى قد يسببه المضمر إذا ما حـــل محله . فيصبح الأسلوب ظاهراً وواضحا لاغموض فيه ولا تردد .

ومن هذه الأساليب — أيضا — قول الله تعالى :

« فبـــدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيـــه ثم
استخرجها من وعاء أخيه ... »

(من الآية ٧٦ من سورة يوسف)

ويبدو اللفظ الظاهر فى الآية عند قوله تعالى (وعاء أخية) الثانية،واستخدمت هنا بدلا من الضمير ، إذ لو ذكر الضمير لقيل (ثم استخرجها من وعائه) ، فيتردد الضمير بين الأخ ويوسف ، وهـــذا التردد يحدث لبسا فى البحث عن متعلقه ، وذكر الظاهر يرفع هـــذا اللبس ويعمل على وضوح المعنى ، وتحديد دلالته .

ومن جانب آخـــر فإن تكرار اللفظ يشعر بالحسن والإحكام فى سياق الأسلوب .

وأقرأ معى أيضا قول الله تعالى :

« يوم ترجف الأرض والجبال وكانت
الجبال كثيبا مهيلا »

(الآية ١٤ من سورة المزمل)

والله تعالى يشير إلى توقيت العذاب ، فهـــو ذلك اليوم الذى ترجف فيه الأرض والجبال . والإتيان بالظاهر هنا فى ذكر لفظ (الجبال) الثانية، يعمل على توضيح المعنى المقصود ، إذ لو كان ضميراً لما تحدد المعنى الذى تشير اليه الآية ، فالمقصود هو أن الجبال ستصبح تلا من الرمال متناثراً سائلا بعد أن كانت صلبة شامخة .

واطباق ذلك على الجبال مناسب فى ظهور المعنى، إذ الأرض لا تحتاج إلى هذا التغيير الذى يلحق بالجبال ، فيأتى الظاهر ليبين قصر هذا التغيير على الجبال دون الأرض .

وفى مواضع أخرى يأتى الظاهر بدلا من الضمير ،حتى يمكن جريان الصفة عليه . من ذلك قول الله تعالى:

« قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له
ملـــك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت
فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته
واتبعوه لعلكم تهتدون »

(الآية ١٥٨ من سورة الأعراف)

ومن الممكن أن يقال (فـآمنوا بالله ربى) ، لأن الرسول هو المتكلم عن الله تعالى ـــ اكتفاء بذكر الضمير ، خاصة وأن لفظ (الرسول)قد سبق ذكره فى أول الآية . بيد أن الضمير لا يصلح لجريان الصفات عليـــه ، فجاء لفظ (الرسول) حتى يمكن وصفه بالأمى الذى يؤمن بالله وكلماته . وتأتى الصفات لبيان غرض بعينه ، وهو أن الذى يجب الإيمان به،وأتباعه هو من وصف بتلك الصفات، وحتى لايظهر أن هناك تعصباً من الرسول لنفسه ، كما أن مهمة الرسالة

لا تعفيه من الإيمان والخضوع لرب العالمين .

وهكذا يكون البيان — بأساليبه المتعددة — عاملا من عوامل التوضيح ، وبيان مقصد الشارع فى خطابه لعباده .

والبيان بضروبه المختلفة هو أمر مستملح عند العرب ، فجاء القرآن بهذه الأساليب التى تجرى على ألسنتهم .

ومن أساليب البيان ما يأتى مكرراً لتوضيح وتأكيد ما جاء فى النص ، ففى قول الله تعالى :

« وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً »

(الآية ١٠٥ من سورة الإسراء)

بيان بأن الله هو الحق ، والحق لا يوحى إلا بالحق ، والقرآن من عند الله ولو كره الكافرون، أو أنكر المنكرون. جاء فى جملته ليحق الحق ويبطل الباطل . والله تعالى أراد أن يبلغ عباده على لسان نبيه بما أراد ، فالقرآن حق فى مجيئه من عند الله .

ويبدو أن استعمال كلمة (أنزلناه) تفيد تكليف الوحى به، بمعنى الإصدار من المنزل ، ودليل على أن القرآن ليس من عند الرسول ، ولكنه من عند الله تعالى عن طريق الوحى ، فصدره هو العلى القدير ، فلو جاء من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ، ولما كان الإتيان به حقا كما تشير الآية إلى ذلك وتؤكد عليه .

أما التكرار (وبالحق نزل) ، فهو يفيد أن كل كلمة فيه إنما هى كلمة الحق

والصدق ، عاملة على الإصلاح القائم على أسس عادلة ، وتنظيم الحياة فى واقعية ثابته ، وحركة محكمة . والفعل (نزل) هو المناسب فى هذا المقام ، إذ يأتى المعنى ملائماً لحمل الرسول له وتبليغه للناس ، بلاغاً حقاً مبينا . كما أن الفعل (أنزلناه) فى أول الآية يوحى بالقوة الدافعة من مصدر الإنزال ، وبتأكيد صفة الحق أيضا . والفعل (نزل) يشعر بطريقة الإنزال : أى سقناه إليك يا محمد من مصدر حق وبطريق حق .

ولا تفوتنا هنا الإشارة إلى تكرار استعمال حرف (الواو) : (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) ؛ فإنه يشعر — أيضا — بإقرار وتأكيد الحق فى هذا التنزيل !! ألا ترى أن الأسلوب حينئذ يتطلب الكلمتين المكررتين حتى تتضح تلك الصورة التى عرضناها فى تأكيد المعنى المقصود ، والذى يفيد أن القرآن حق فى كل خطواته . والقضية تنطق بالقوة والتصدى ، وتعتبر سنداً لنبوة محمد، وأنه مرسل من عند الله ، وأن ما جاء به إنما هو الحق الذى لا يمارى فيه أحد .

ومن ألوان البيان ما يأتى موضحا علة الحكم ، يظهر ذلك فى قول الله تعالى « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون »

(الآية ٢١ من سورة الأنعام) .

أى لا أحد يتصف بالظلم ، أو يكون أشد اعتداء ، وأخطأ فعلا وأخطل قولا ، ممن يكذب على الله افتراء .

وجاء ذكر (لا يفلح الظالمون) فى آخر الآية ؛ لفت إلى أن علة عدم الفلاح التى تشير إليها الآية هى (الظلم)؛ إذ لو قيل (إنهم لا يفلحون) ولم يصرح بكلمة (الظالمون) لأصبح الحكم غير محدد كأن يقع على (المفترين) أو (المكذبين)

لاحتمال عود الضمير إليهم .

ومن ذلك أيضا قول الله تعالى :

« والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين »

(الآية ١٧٠ من سورة الأعراف)

فجملة (إنا لا نضيع أجر المصلحين) خبر لكلمة (والذين) فى أول الآية ؛ وفيه بيان لإتمام الفائدة التى تنبه إلى علة الحكم، فعلة الحكم فى عدم ضياع الأجر، هى (الصلاح) ، والله تعالى لم يقل فى بيانه (إنا لا نضيع أجرهم) فلو كان كذلك لخلت الآية من البيان، وتحديد المستحقين لأجر الله وثوابه .

وكذلك قول الله تعالى :

« من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين »

(الآية ٩٨ من سورة البقرة)

يقول الزمخشرى « أراد (عدواً لهم) ، فجاء بالظاهر (عدو للكافرين) ليدل على أن الله إنما عاداهم لكفرهم » (١)

وعلة حكم العداء هنا، هى (الكفر)، والإتيان بالظاهر، ووقوعه موقع الضمير، إنما هو بيان لحالهم وتنبيه إلى معاداة الله، وما فى ذلك من الوعيد والتهديد للكافرين .

---

١ ــ الزمخشرى : الكشاف ١/١٢٧

أما قول الله تعالى :

« ... واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا
رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل
إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ... »

(من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة)

يظهر فيه تعدد النساء الذى يرجع إلى نسيان إحداهما ، فتذكرها الأخرى لنقص الضبط فيهن ، وتلك هى العلة فى وجوب الاثنتين حال الشهادة .

والضلال غير النسيان ، فالنسيان هو أغفال الأمر كلـه ، أما الضلال فهو نسيان جزء وتذكر جزء ، ويبقى المرء حائراً بين ذلك ضالا ، فالحكمة فى وجود الثانية هى تذكير الأخرى بما غفلت عنه . والإتيان بتكرار لفظ (إحداهما) إنما هو لون من الإطناب البلاغى الذى يعمل على تعادل الـكلم ، وتوازن الألفاظ فى التركيب .

ويشير الزركشى إلى ذلك « إن هذا التركيب أبلغ من الترصيع البديعى ، فإن الترصيع البديعى توازن الألفاظ من حيث صيغها ، وهذا من حيث التركيب فكأنه ترصيع معنوى ، وقلما يوجد إلا فى نادر الـكلام » (١)

ويبدو البيان والوضوح من خلال هذا التركيب اللفظى ، كما يظهر هذا أيضا من خـلال التناسق التركيبى فى الأفعال الواردة فى النص ، إذ تتضمن الآية (الضلال) ، و (التذكير) وأسند كل من الفعلين (تضـل) ، و (تذكر) إلى ظاهر بدلا من إسناده إلى ضمير ، حتى يظل التركيب جمـاله وحسن تنسيقه ،

---

١ ـ الزركشى : البرهان ٤٩٦/٢

فالفعل الأول لازم ، وقد أتى الفعل الثانى أيضا على صورته (أى على صورة اللازم) بتجريده من المفعول (الضمير) وذلك هو غاية البلاغة فى التنسيق ووضوح الهدف فى بيان جلى محكم .

ويرد كذلك البيان فى صورة يأتى الظاهر فيها مؤكداً للعموم ، كما فى قول الله تعالى:

« وما أبرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء ... »

(من الآية ٥٣ من سورة يوسف)

تأتى الاية بتكرار لفظ (النفس) فى صورة الظاهر ، وليس ثمة ما يمنع من استخدام الضمير ، كأن يقال (إنها لأمارة بالسوء) ، فيحل محل لفظ (النفس) الثانية .

والله سبحانه وتعالى أراد أن يبين مبدأ عاماً ، تنبيها البشرية وتأكيداً بأن النفس فى عمومها أمارة بالسوء ، وميالة إلى الشهوات .ولما كانت العبارة على لسان يوسف عليه السلام ، أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه لئلا يكون لها مزكيا وعالما معجبا ومفتخراً » (١) .

والإتيان بالظاهر رفع هذا كله بيانا وتوضحيا لما يكون عليه الرسول من الاخلاقيات ، كما يشمل هـذا البيان لفتا إلى طبيعة النفس البشرية ، حتى يتم الانتباه إليها ، والحرص من زلاتها .

أما فى ذكر الضمير فلن نستخلص كل هذه المعانى ؛ ونستبين تلك الإيضاحات تلك التى تسطع من خلال التركيب القرآنى ، ولا يخبوضوؤها إلا على كل قاصر

---

١ ـ الزمخشرى : الكشاف ٢/٤٨٠

نظر، وعاجز فكر . وهكذا يبدو التنسيق اللفظي في الأسلوب القرآني جديراً بالاهتمام والعناية حتى تصل إلى ما تهدف اليه الآيات من أغراض ومقاصد .

وفي موضع آخر يأتي النص القرآني مؤكداً الخصوص ، وقاصدا إليه ، يقول الله تعالى:

« ... وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها النبي ان أراد
النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين ... »

(من الآية ٥٠ من سورة الأحزاب).

أي وأحللنا النساء المؤمنات اللاتي وهبن أنفسهن لك ، ورغبت أنت في نكاحهن ، والنص يظهر فيه الخصوص للنبي وحده ، ويؤكد هذا ويحدده اللفظ الظاهر (للنبي) ، فلو ذكر الضمير بأن قيل (وهبت نفسها لك) لأصبح مفهوما جواز ذلك له ولغيره ، ولكن سياق الآية يدل على أن ذلك خالص له من دون المؤمنين ، إذ التزوج بدون مهر مسألة خاصة بالرسول ، والتخصيص الواضح في الآية يؤكد رفع الحرج عن النبي - أيضا - فيما يتعلق بهذا الأمر، ومن جانب آخر يفيد هذا التخصيص أن التزوج لا يحل بدون مهر لسائر المؤمنين ولا تصح الهبة لهم .

الملاحظ - فيما تعرضنا له من أمثلة - أن اللفظ الظاهر عندما يأتي مكررا بدلا من الإضمار يأتي بنفس اللفظ السابق عليه ، ولكن هذا ليس شرطا ، ففي قول الله تعالى:

« ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين
أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من
يشاء والله ذو الفضل العظيم »

(الآية ١٠٥ من سورة البقرة)

نجد أن لفظ الجلالة (الله) جيء به على ظاهره مكررا ، ولكن ليس بنفس اللفظ السابق عليه وهو (ربكم) ، فاللفظان المكرران يختلفان من ناحية البنية وإن أتيا بنفس المعنى على الترادف .

ولكن التركيب هنا لم يأت عبثا ، ولا من قبيل الإتيان بمعروضات لفظية وإنما يهدف إلى بيان مقصد ، فى تناسق من التركيب اللفظى ، وتجانس فى إيراد المعانى ، فجاء لفظ (ربكم) بعد الإعلام بإنزال الخير ،لتعلقه بالربوبية أكثر؛ فالربوبية أوسع مجالا ، وأرحب مدى ، تكتنف الخلق كل الخلق .

ثم أعيد اللفظ بظاهر آخر وهو لفظ الجلالة (الله) ، على غير صورة اللفظ الأول ، وذلك لأن تخصيص الرحمة والخير لبعض الناس دون غيرهم إنما هو من خصائص الألوهية .

ومن طرق الإظهار والبيان ما يأتى به القرآن فى صيغة إجابات كافية شافية لا تدع مجالا للإلحاح فى التساؤل ، وطلب التفسير . كما فى قول الله تعالى :

« ويسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج .. »

(من الآية ١٨٩ من سورة البقرة)

وفى مناسبة هذه الآية يقول الواحدى « روى أن بعض الصحابة قالوا يا رسول الله : ما بال الهلال يبدو دقيقا مثل الخيط ، ثم يزيد حتى يمتلىء ويستوى ، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ ؛ لا يكون على حالة واحدة كالشمس . فنزلت ... » (١)

وتأتى الآية هنا فى إجابة واضحة ، وبيان عن الشىء المستفسر عنه ، والجواب

---

١ ــ الواحدى : أسباب النزول ص ٢٨

الوارد فى الآية (قل هى مواقيت الناس والحج ...)

ويبدو أنه ليس جوابا على تساؤلهم فحسب ، وإنما هو بيان لحكمة فى هذا الأمر — أيضا — إذ يشير المفسرون الى أن « هذا النوع من البديع يسمى (الأسلوب الحكيم) ، فقد سألوا الرسول عن الهلال ، لم يبدو صغيرا ، ثم يزداد حتى يتكامل نوره ... ؟ ، فصرفهم إلى بيان الحكمة من الأهلة ، وكأنه يقول .. كان الأولى بكم أن تسألوا عن حكمة خلق الأهلة لا عن سبب تزايدها فى أول الشهر ، وتناقصها فى اخره » (١)

ولم يكتف الجواب ببيان ما استفسروا عنه ، وإنما جاء بزيادة إيضاح يلفت النظر إلى مايجب أن يكون عليه السؤال .

إذ الإجابة بأن تلك الأهلة مواقيت للنـــاس ، لاتتناول مايتعلق بتزايد الأهلة أو تناقصها فحسب ، وإنما يشير أيضا إلى الحكمة من وجودها ، وأنها علامات فى تحديد الأزمنه ، وهكذا يعلم الله الانسان مالم يكن يعلمه فى صورة كاملة واضحة .

وفى مواطن أخرى يأتى الجواب فى صورة شاملة ، وفى بسطة من المعارف التى يريد الله تعالى أن يسوقها لعباده وأن يبينها لهم . يقول الله تعالى :

« قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ... »

(من الآية ٦٣ من سورة الأنعام)

ويأتى الجواب فى الآية التالية :

---

١ — محمد على الصابونى : صفوة التفاسير ١/١٢٧ .

« قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون »
(الآية ٦٤ من سورة الأنعام)

مع أن الإجابة قد تكون كافية لو قيل (قل الله ينجيكم منها) ولكن تطرق الأسلوب إلى ماهو أكثر من هذا ، وأجدر بالانتباه ، فجاءت الآية بما يبين لهم عناية الله ورعايته التي لم تقتصر على نجاتهم من ظلمات البر والبحر ، وإنما من كل مايحل بهم من كرب ، وماينزل بهم من غم .

كذلك في معرض الشرط يأتي الجواب بفيض من المعارف التي تزيد عن متطلبات الشرط في حد ذاته . ففي قول الله تعالى :

« قل إن تخفوا ما في صدوركم أوتبدوه يعلمه الله ويعلم
ما في السموات ومافي الأرض والله على كل شيء قدير »
(الآية ٢٩ من سورة آل عمران)

نجد جواب الشرط عند قوله (يعلمه الله) ، ولكن الله تعالى يريد أن يبين لعباده أن معرفته لاتقف عند حد ، وليست محصورة في علم ماتكنه صدورهم أو تخفيه ، بل هو علم أشمل من ذلك وأوسع يحتوي كل ما في السموات ومافي الأرض . كذلك تفيد فاصلة الآية أن علمه هذا يستتبعه قدرة إلهية تحذر من الإنتقام عن يخالف أمره ويعصي حكمه ، وهو أمر واقع لامناص منه، كما يحمل المعنى تهديداً لمن تسول له نفسه عصيان الله ومخالفته . وهكذا يأتي الجواب هادياً إلى معارف ترمي السامع إلى مرامي بعيدة تسلك في نفسه ، وتدخل إلى قلبه .

ويأتي البيان كذلك باستعمال الفعل الذي يتطلب المقام التعبير به ، فعندما يشير القرآن إلى فضل الذين ينفقون أموالهم في اليسر والعسر ، يقول تعالى:

« الذين ينفقون أموالهم فى السراء والضراء ... »

(من الآية ١٣٤ من سورة آل عمران)

فاستعمال الفعل (ينفقون) مناسب كل المناسبة فى موقعه هذا ؛ لأن الفعل ـ فى صيغته المضارعة ـ يدل على التجدد والحدوث ، ولم يقل (المنفقون) وهو تعبير بالاسم (وهو ايجاز للاسم والفعل معاً فى لفظى « الذين ينفقون ») ، وإنما لجأ القرآن إلى التعبير بالفعل لأن الإنفاق أمر فعلى من شأنه أن يحدث ويتجدد من وقت لآخر سواء أكان فى الشدة أم فى الضيق ، ولن يتأتى هذا المعنى الذى تهدف الآية إليه إلا مع استعمال الفعل .

ومن جانب آخر يأتى القرآن بالاسم فى الموقع الملائم له أيضا .

وفى ذلك يقول تعالى:

« إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ... »

(من الآية ١٥ من سورة الحجرات)

فمن المسلم به أن الايمان له حقيقة ثابته ؛ فأتى لفظ (المؤمنون) على الأسمية، ولم يأت على الفعلية ، لأن حقيقة الإيمان قائمة مادامت مقتضياتها قائمة ،واستعمال اللفظ على صيغة الإسم يدل على الثبوت والاستمرار ، وهـــو موافق لطبيعة الإيمان ؛ فهو ليس حدث متجدد أو متغير . والآية جاءت فى معرض الرد على وفد من بنى أسد ، قدموا المدينة فى سنة مجدبة ، وأظهروا الشهادتين ، وكانوا يقولون لرسول الله : أتيناك بالأثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنوفلان ، وبنوفلان .. يريدون الصدقة ، ويمنون على الرسول (كما تشير كتب أسباب النزول إلى ذلك) . ويقول المفسرون إن هؤلاء هم الأعراب الذين عبر القرآن عنهم ، وهم ليسوا منافقين ، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمـــان فى

قلوبهم (١).

وأراد الله تعالى أن يبين لهم أن الإيمان حقيقة ثابتة بالتصديق ، واطمئنان القلب ، وليس لفظا يقال باللسان ،وليس مناً على الرسول لغرض من الأغراض فجاءت الآية فى صيغة لفظية تحمل تلك المعانى .

أما التكرار فى الأساليب والألفاظ ـ باعتباره ضرباً من ضروب البيان ـ ظاهرة تفرد القرآن بها ، على هذا النحو الذى نلحظه ، وتعرض القرآن لمستويات رائعة فى النظم وجمال الأسلوب . والتكرار ظاهرة لاتخلو منها أساليب الخطاب فى اللغة العربية إلا أن القرآن سلك بها طريقاً غير مألوف عند العرب ، ونحى بها مناحى متعددة جاءت على غير مقاييس اللغة ، وحملت فى سياقاتها نبضات تثير كوامن النفس ، وتلمس حبات القلوب ، وتلك معجزة أسلوبية استقل القرآن بها.

يقول ابن الأثير وبالجملة فاعلم أنه ليس فى القرآن مكرر لافائدة فى تكريره؛ فإن رأيت شيأ منه تكرر من حيث الظاهر ؛ فأنعم نظرك فيه ؛ فانظر إلى سوابقه ولواحقه ؛ لتنكشف لك الفائدة منه » (٢) .

وأسلوب التكرار فى القرآن أسلوب جدير باللفت والانتباه ، ولايعدو هذا الأسلوب أن يكون لوناً من ألوان التمكين لخطاب الله تعالى ، يعمل على تعميق المعنى المقصود فى أذهان الناس .

---

١ ــ محمد على الصابونى : صفوة التفاسير ٢٣٧/٣ .

٢ ــ ضياء الدين بن الأثير : المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ٨/٣ ط. النهضة ـ القاهرة ١٩٦٢ .

وهو أسلوب بارع يبدو دائما فى حلل بيانية تظهر المعنى وتؤكده. بيد أن البلغاء أنفسهم تناولوه بحرص وبحذر شديدين ـ عند استعماله ـ خوفاً من وقوع الاضطراب والفساد فى صناعة الأسلوب ؛ فإن التكرار لو وقع فى كلام الناس قد ينزل به عن درجة البلاغة ، ويخل بمقتضيات الفصاحة ، ويكتنف الكلام برودة وسماجة ، مما يؤدى إلى تأبى النفس أحيانا فى قبوله .

أما فى القرآن فنجد فيه بلاغة الإطناب ، وبيان الإشباع الذى يملأ النفس ، ويأتى فى تجاوب واتساق وائتلاف .

ومواضع التكرار فى القرآن كثيرة تعمل على إظهار الغرض والتأكيد له ، والتشييد من أمره ، كما تثير الانتباه الى المكرر ، وإدراك أهميته ، ومعرفة الهدف الذى كرر من أجله .

ومن الآيات التى تحمل هذا التكرار ، قول الله تعالى :

وإذا يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون »

(الآيتان ٧، ٨ من سورة الأنفال)

ونلاحظ أن التكرار يقع فى قوله (يحق الحق ... ليحق الحق) فى آيتين متتاليتين ، وهو تكرار لألفاظ متماثلة فى مبناها ومعناها ... فما دلالة هذا التكرار .. ؟

إذا أمعنا النظر فى هذا الاسلوب ، وجدنا أن تلك الألفاظ تحمل معنى

مناسباً للآية التى وقعت بها ..

ففى الآية الأولى يعمل التكرار على التمييز بين إرادتين :

الأولى .. هى رغبة المسلمين فى أن تكون لهم طائفة غير ذات الشوكة أى (العير) ، لتكثر غنائمهم ، وتظهر خفة الحرب أمامهم وهو موقف عرض زائل .

الثانية .. إرادة الله فى أن يتصدوا النفير ، ولاتلويهم تلك الغنائم ، إذ يفيد الأسلوب هنا (يحق الحق) التعريض بكراهتهم للقتال ، ويلفت انتباههم إلى أن التصدي للنفير إنما هو من مواقف الأقوياء المتفق مع المبدأ الذى يدافعون من أجله وهو إظهار الدين الحق .

فأضحى الأمر ظاهراً أن الله تعالى يريد لهم أن يترفعوا عن سفساف الأمور ، وعن تلك الفائدة العاجلة التى تتمثل فى الحصول على الغنائم الفانية الزائلة . وأن يكون اهتمامهم بعظيم الأمر لابحقيره ، وهو عمارة الدين ونصرة الحق وعلو الكلمة ، وإظهار قوة الدين بقوة رجاله ، عندما يتصدى المقاتلون لذات الشوكة (النفير) ، وهذا موقف مليء بالحدة والقوة .. وشتان مابين المرادين!!.(إرادة العير وارادة النفير) .

ثم يأتى التكرار فى الآية التالية (ليحق الحق ويبطل الباطل) مؤكداً إرادة الله تعالى فى أن وعده بإحدى الطائفتين إنما هو وعد بذات الشوكة (النفير) ليحق الحق ويثبته ويقره وهو الاسلام ، ويبطل الباطل فيزيله ويمحقه وهو الشرك ، حتى يحسم هذا التردد الذى يراودهم (وإن كانت رغبتهم فى العير أكثر والله تعالى يعلم ذلك) ،وقد وعدهم بالنصر إظهاراً للطائفة المؤمنة على الكافرين وأنه سيريهم رأى العين كيف يظهر الاسلام على الشرك .

ومن الملاحظ أن الآية الأولى عرضت عليهم الأمرين حتى تهيأ لهم مجال التفكير السليم وحسن الاختيار ، ثم أظهرت لهم محاسن الأمر ومساوئه ، وأوضحت طريق الغلبة على أعداء الدين ، ومافى ذلك من عزة وأنفة للمسلمين. وأن طريق البشر فى الاختيار هو طريق قاصر — مهما كان الأمر — وأن الله تعالى يعلم مالا يعلمون . ومن بعد ذلك تنفذ إرادة الله وهى المصلحة بعينها .

ألم يأن لنا بعد ذلك أن ندرك مدى مايوحى به التكرار فى الأسلوب القرآنى من بيان وتفصيل، لم نكن نتوصل إليه إلا من خلاله ، ولا أن ندرك مايرمى إليه إلا بتدبر ووعى لمواطنه التى جاء فيها .

ولقد لفت هذا النظم القرآنى أنظار الكثير من المفكرين ، وفى ذلك يقول عبد الكريم الخطيب « النظم القرآنى يعرض المشاهد بأبعادها وأعماقها وحركاتها وسكناتها ، ونطقها وصمتها ، وبوسوسة خواطرها ، وهجسات نفوسها ، وخلجات قلوبها ، ثم لايكون ذلك كله إلا بعدد محدود من اللقطات ، ولايكاد يتجاوز أصابع اليد عداً »(1)

ولايعدو التكرار أن يكون لوناً من ألوان النظم الوارد فى القرآن وقد رأينا فى المثال السابق ما أوحى به التكرار من معان ومفاهيم ، وما أظهره من توضيح وبيان لمقصد النص وأهدافه ، وتلك هى الدقة البالغة فى تركيب الألفاظ وسياقها ، إذا ما تأملناها واستقصينا فيها النظر، أدركنا أنها تقدم صورة

---

١ — عبد الكريم الخطيب : من قضايا القرآن ص ١٤٤ دار الفكر العربى القاهرة ١٩٧٢.

كاملة واضحة ، وتلك هي غاية البيان ومطمعه ، ومقطع الحق في إعجاز القرآن بلا مراء .

ولقد تعرض ابن الأثير لصورة من صور التكرار في قول الله تعالى:

« فأصبح في المدينة خائفاً يترقب فإذا الذي استنصره
بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوي مبين . فلما
أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال ياموسى أتريد
أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ... »

(الايتان ١٨، ١٩ من سورة القصص)

فقوله تعالى (فلما أن أراد أن يبطش) بتكرار (أن) مرتين ، دليل على أن موسى لم تكن مسارعته إلى قتل الثاني كما كانت للأول . بل كان عنه مبطئاً في بسط يده إليه ، فجاء تعبير القرآن موضحاً لتلك الصورة »(١)

وهنا يشير ابن الأثير إلى أنه قد جرت مفاوضة بينه وبين رجل من النحويين حول هذه الاية .. إذ قال له : (أن) الأولى زائدة ، ولو حذفت فقيل (فلما أراد أن يبطش) لكان المعنى سواء . ألا ترى إلى قوله تعالى :

« فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه.. »

(من الآية ٩٦ من سورة يوسف)

وقد اتفق النحاة على أن (أن) الواردة بعد (لما) وقبل الفعل زائدة . فقال له : إن النحاة لاقتيالهم في مواقع الفصاحة والبلاغة ، ولاعندهم معرفة

---

١ — ضياء الدين بن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ١٣/٣ مطبعة نهضة مصر ١٩٦٢

بأسرارهما من حيث إنهم نحاة ، ولاشك أنهم وجدوا (أن) ترد بعد (لما) وقبل الفعل فى القرآن الكريم ، وفى كلام فصحاء العرب ؛ فظنوا أن المعنى بوجودها كالمعنى إذا أسقطت ، فقالوا : هذه زائدة ، وليس الأمر كذلك ، بل إذا وردت (لما) وورد الفعل بعدها بإسقاط (أن) دل ذلك على الفور ، وأنه هم وأسرع إلى قتله ، وإذا لم تسقط لم يدلنا ذلك على أن الفعل للفور ، وإنما كان فيه تراخ وإبطاء ، وقد جاء بهنا القرآن دالا على وقوع التمهل فى الفعل . (انتهى كلام ابن الأثير)

وهكذا يتضح أن ماتوحى به اللغة من خلال الأساليب التى ترد فيها لاتخضع للقاعدة النحوية بقدر ماتخضع للحس اللغوى . والأسلوب الذى أشرنا إليه مع وجود (أن) بعد (لما) وقبل الفعل يوحى بأن هناك تباطؤ فى الإيقاع اللفظى ، ومن ثم فإن هذا التباطؤ يحمل التراخى فى تنفيذ الفعل ، وأن (أن) ليست زائدة كما يشير النحاة ولكنها جاءت لمعنى .

ألا ترى معى أن الأسلوب القرآنى جاء بأفصح بيان يدركه كل من طرق باب النص ، وتدبر معانيه ، وتلك هى عظمة القران فى أن يجمع بين البيان والإعجاز ، كما نجده فى حالات الإطناب بالتكرار يسوقها فى بلاغة تنقطع دونها أنفاس البلغاء ، وتقصر عن التعلق بها أيدى أصحاب البيان .

ومن التكرار ما جاء فى قول الله تعالى :

« وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم
سبيل الرشاد . ياقوم إنما الحياة الدنيا متاع
وإن الآخرة هى دار القرار »

(الآيتان ٣٨ ، ٣٩ من سورة غافر)

تكرر لفظ (يا قوم) فى آيتين متتاليتين . وهو نداء كرره مؤمن آل فرعون نصحاً لهم بعد تلك المراوغة التى لقيها من فرعون ، ودعا قومه إلى الإيمان بالله الواحد الأحد ، وأنه يهديهم إلى سبيل الرشاد ، بعد أن انتشرت بينهم أكاذيب فرعون ، وتعددت فتنه وضلالاته . وأخذ يبين لهم تلك المتعة الزائلة فى حياتهم الدنيا والتى صدتهم عن الإيمان بما جاء به موسى . وجاء التكرار فى الآيتين مؤديا غرضا يظهر فيه زيادة التنبيه لهم ، وإيقاظهم من سنة الغفلة .

كما أن تكرار اللفظ (يا قوم) يوحى بفضيض حبه لهم وأنهم قومه وعشيرته ، وهم فيما هم فيه من الضلال ، وهو يعلم وجه خلاصهم وأن نصيحته لهم واجبة عليه ، إذ يتحزن لحالهم هذا ، ويتلطف بهم ، وأن سرورهم سروره ، وغمهم غمه.ويأتى التكرار أيضابصورة توضح التأكيد لهم بالنزول على نصيحته .

ويشير ابن الأثير إلى أن « هذا التكرار أبلغ من الإيجاز ، وأشد وقعاً من الاختصار » (١) .

فلو لم يأت التكرار لما ظهر فى الأسلوب كل هذه المعانى ، ولما وضحت هذه الصورة الكاملة التى تناسب الموقف ، إذ يستشعر — أيضا — من خلال هذا التكرار تلك الصرخة العالية المدوية ، وهذه الدعوة الملحة ، لأن يعود القوم إلى سبيل الرشد والهداية ، وإنه لواجب يتحتم على المنادى إذا أشفق على قومه من طائلة العذاب عندما يتمادون فى غيهم ، وينصرفون عن جادة الحق ، وهو موقف يبلغ من الإشادة به أن سميت السورة التى جاءت بها تلك الآيات (وهى

---

١ — ضياء الدين بن الأثير : المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ١٩/٢

سورة غافر) سميت أيضا (سورة المؤمن) شعاراً لهـذا الموقف التقى الذى قام به .

ويأتى التكرار فى شكل متتابع ، وفى سلسلة طويلة تنتظم السورة كلها ، كما فى سورة الرحمن ، إذ تكرر قول الله تعالى « فبأى آلاء ربكما تكذبان » ، وهذا التكرار المتعدد لم يكن يحدث اضطرابا فى الأسلوب أو ثقلا على السمع ، كما يظهر ذلك فى الأساليب العادية ...

تكررت هذه الآية كثيراً ، فأتت عقيب بضع آيات فى أول السورة ، ثم عقيب كل آيتين ، أو كل آية .

وسورة الرحمن تعديد نعم الله الظاهرة التى لا يحصيها عد . وآثاره العظيمة التى لا تخفى على أحد . وتحدثت كذلك عن دلائل قدرته الباهرة فى تسيير الأفلاك وتسخير السفن التى تغمر عباب البحار . وتلفت — أيضا — إلى نهاية هذه الحياة ، وتلاشى الخلائق بأسرها ، ولا يبقى إلا الحى القيوم (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) ، ثم تتناول بعد ذلك عرضاً لمشاهد يوم القيامة وحياة الآخرة الخالدة وما فيها من نعيم المتقين ، وفزع شديد للأشقياء .

ويأتى تكرار الآية (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فى تعدد يربو على ثلاثين مرة ، ومع هـذا نجدها تترى فى أسلوب متجانس متماسك ، فى أروع بيان وأحكمه ، لفتا إلى نعم الله التى سخرها للبشرية كلها ، فكلما ذكر الله تعالى نعمة من نعمه ، جاءت الآية المكررة تقررها وتذكر بالاعتراف بها ، وفى هذا التكرار تحريك لذهن السامع بين آن وآخر ، وبوقع تتفتح له الآذان، وتعد نفسها لاستقباله . ولا شك أن ذلك ضرب من ضروب البيان والإظهار لآلاء الله تعالى

ولو جاء هذا العرض لنعم الله بأسلوب يخلو من هذا التكرار لغفل عنها كثير من الناس ، وربما كان الإلتفات إليها بنفس فاتره وعقل شارد .

وفى ذلك يقول عبد الكريم الخطيب «وسورة الرحمن التى تكرر فيها : فبأى آلاء ربكما تكذبان ، معرض متكامل لنعم الله ، ولقدرة الله ، ولرحمة الله ولجلال الله وعظمته . . فإذا طوف بالإنسان فى هذا المعرض ولم يكن معه الدليل الذى يشير له إلى كل ما ضم عليه هذا المعرض من خير ، وينبهه إلى ما ينبغى أن يتزود به من هذا الخير..فلربما طاف ما طاف ثم خرج صفر اليدين . . لم يحمل من المعروضات إلا صوراً وخيالات لا تلبث أن تزول . فكأن قوله تعالى (فبأى آلاء ربكما تكذبان) هو الدليل الذى يصحب قارئ السورة أو سامعها من أولها إلى آخرها ، كلما عرضت آية من آيات الله أو تجلت نعمة من نعمه ، طالع عليه هذا الدليل يقول له هذا القول الكريم (فبأى آلاء ربكما تكذبان) دون أن يتغير وجهه أو صوته حتى يكون ذلك آلف لقارئ السورة أو سامعها ، فإنه طوال الرحلة لا يتغير عليه وجه الدليل . . . وفى ذلك ما فيه من تأثير نفسى ، واطمئنان قلبى لا يجده المرء لو طلع عليه - فى كل خطوة من رحلته تلك - وجه جديد ، وصارخ جديد »(١) .

ويعتبر التكرار عاملا من عوامل الإظهار ، إذ يتضح من خلال التنقل بين تلك الايات المكررة أنها تحمل تنبيهاً إلى آيات الله التى سخرها لعباده ، ولفت للأنظار إليها ، وأنه تعالى يقرر أمام ناظرهم تلك المقدرة التى تفرد بها تعالى فى الخلق والإبداع .

---

١ - عبد الكريم الخطيب : من قضايا القرآن ص ١٢١ ، ١٢٢ دار الفكر العربى ١٩٧٣ .

وفى ذلك - أيضاً -

يقول ابن قتيبة « ثم أتبع ذكر كل خلة وصفها بهذه الآية وجعلها فاصلة بين كل نعمتين ، ليفهم النعم ويقررهم بها ، وهذا كقولك . . . ألم أبوئك منزلا وأنت طريد ؟ أفتنكر هذا ؟ » (١)

فأفاد التكرار معنى زائداً عن المعانى التى تحملها الألفاظ ؛ إذ يفهم منه تعدد النعم وتأكيدها .

وفى سورة (الكافرون) تكررت الآيات ، وحسن تكرار النفى فيهما وإن كان يجوز ذكره مرة واحـــدة ، إلا أن التكرار يحمل إيضاحات ومفاهيم لا تتأتى بدونه .

وقد ذكر العلماء وجوها فى هذا التكرار ودلالته ؛ فابن قتيبة . . يرجع ذلك إلى أن القرآن لم ينزل دفعة واحدة ، وإنما كان نزوله شيئاً بعد شيء . . « فكأن المشركين قالوا له : أسلم ببعض آلهتنا حتى نؤمن بإلهك ؛ فأنزل الله (لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد) ، ... ، ثم غبروا مـدة من المدد، وقالوا : تعبد آلهتنـا يوماً أو شهراً أو حولا ، ونعبد إلهك يوماً أو شهراً أو حولا ، فأنزل الله (ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد) . على شريطة أن تؤمنوا به فى وقت وتشركوا به فى وقت » (٢)

وقد ذكر « المرتضى » فى أماليه أن طعوناً وجهت إلى كلام ابن قتيبة الذى يعنى

---

١ - ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ص ١٨٦ تحقيق السيد احمد صقر - مكتبة الحلبى - القاهرة

٢ - نفس المرجع ص ١٨٥

به (أنكم إذا كنتم تعبدون إلهى على هذا الشرط ، وهو عبادة آلهتكم يوماً أو شهراً أو حولا ، فإنكم لا تعبدونه أبداً) وهذا الكلام يقتضى شرطاً لا يدل عليه ظاهره ، وأن ما نفاه الرسول عن نفسه (ولا أنا عابد ما عبدتم) مطلق غير مشروط ، فكذلك ما عطف عليه مطلق غير مشروط .

ويقول المرتضى « إن هذا الطعن غير صحيح ، لأنه لا يمتنع إثبات شرط وإن لم يكن فى ظاهر الكلام ، ولا يمتنع عطف المشروط على المطلق » ثم يذكر ثلاث إجابات :

أولها .. ما حكى عن أبى العباس ثعلب أنه قال : « إنما حسن التكرار ، لأن تحت كل لفظة معنى ليس هو تحت الأخرى ، وتلخيص الكلام .. قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون الساعة وفى هذه الحال ، ولا أنتم عابدون ما أعبد فى هذه الحال أيضا ، فاختص الفعلان منه ومنهم بالحال ، وقال من بعد .. ولا أنا عابد ما عبدتم فى المستقبل ، ولا أنتم عابدون ما أعبد فيما تستقبلون ، فاختلفت المعانى ، وحسن التكرار لاختلافها .. ثانيها .. جواب «الفراء» أن يكون التكرار للتأكيد .. كقول المجيب مؤكداً .. بلى بلى ، والممتنع مؤكداً .. لا لا .

ثالثها .. أن النبى قال للكفار لا أعبد آلهتكم ، ومن تدعونه من دون الله ، ولا أنتم عابدون إلهى ، فإن زعمتم أنكم عابدون إلهى فأنتم كاذبون ، إذ كنتم من غير الجهة التى أمركم بها تعبدونه ، فأنا لا أعبد مثل عبادتكم ، ولا أنتم — مادمتم على ما أنتم عليه — تعبدون مثل عبادتى ... » (١)

---

١ — انظر .. الشريف المرتضى : أمالى المرتضى .. غرر الفوائد ودرر القلائد ١٢٠/١ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ دار إحياء الكتب العربية القاهرة ـ ١٩٥٤

وكما يرد التكرار فى الاسم الظاهر ، فإنه يأتى كذلك فى الضمائر ، كما فى قول الله تعالى :

« أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم فى الآخرة
هم الأخسرون » (الآية ٥ من سورة النحل)

وجاء تكرار الضمير ليحقق الخسارة ويؤكدها ، فالضمير الأول (وهم) يفيد تعيين هؤلاء الذين لهم سوء العذاب ، والضمير الثانى يعمل على تأكيد إلحاق العذاب بهم ، وتحقيق الخسارة . وإلى جانب مايفيده التكرار من معانى التأكيد والتحقيق، فإنه يضفى انتظاماً فى سياق الأسلوب ، وقد يختل النظم بدون هذا التكرار .

وإذا خلى هذا الأسلوب من التكرار ، فإنه يبعد مفهوم التأكيد الذى أراد الله أن يبينه لعباده ، عندما ينكرون الآخـــرة ، وهو أمر يقتضى أن يقابل بالتأكيد والتشديد .

والتكرار أهداف وأغراض يرمى إليها ، فهو « يخدم غرضاً أصيلا من أغراض الدعـــوة ، وهو تثبيت القلوب على الحق، وإقامتها على الشريعة التى تحملها تلك الدعوة ، فالتكرار من شأنه أن يعمق جذور الفكرة التى تحملها العبارة المكررة ، ويمكن لها فى كيان الإنسان ، ويقيم منها خاطراً ملماً يتردد فى صدره ويهمس بها فى ضميره ... وقد يعلو همسه حتى يكون صراخاً أو هتافاً أو دوياً » (١) .

---

١ ــ عبد الكريم الخطيب : من قضايا القرآن ص ١٣٤ دار الفكر العربى القاهرة ١٩٧٣

وكلها أغراض تأتى عند تثبيت المعنى وتعميقه ، وتلك صورة من صور الإظهار والوضوح ، فالتكرار يأتى بالتأكيد العامل على بيان المعنى المقصود .

ومن الملاحظ أن التكرار آت باللفظ والمعنى ، وواقع إما فى آية واحدة ، أو فى آيات متجاورة ..

وقد يأتى التكرار على غير هذه الصورة ، إلا أنه لا يعتبر من قبيل التكرار الذى نحن بصدده ...

فمثلا فى قول الله تعالى :

« وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل
نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم
لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » .
(الآية ١٧٠ من سورة البقرة) .

وقوله تعالى :

وإذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله وإلى الرسول
قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان
آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون »
(الآية ١٠٤ من سورة المائدة)

والسورتان تفصل بينهما سورتا آل عمران، والنساء، وهما من طوال السور، إلا أن السورتين تأتيان بأسلوب مكرر ، ففى السورة الأولى (بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) .

ومن مفهوم هذا الأسلوب أنه ليس ثمة ما يمنع من رجوعهم عن اتباع

آبائهم ، إذ لم يبلغوا الدرجة القصوى فى دعوى إيمانهم بالأوثان ، فاستعمل القرآن — فى نفى هدايتهم — أسلوباً يناسب حالتهم التى لم تكن تبلغ النهاية فى الرجوع عن اتباع آبائهم . والآية تنادى باتباع ما أنزل الله ، وهم يريدون أن يتبعوا ما وجدوا عليه الآباء والأجداد ، وهو موقف غير محسوم ، فقد ينتظر منهم أن يرجعوا عما هم عليه ، ويتبعون ما أنزل الله . خاصة وأن الآية تسألهم .. أيتبعون آباءهم حتى ولو كانوا أغبياء لا عقل لهم ، لم يبلغ النهاية فى اليقين ؟ ! ..

أما التكرار فى الآية الثانية (قالو حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون) ، فالأسلوب فيه يفيد أن الكفار قد بلغوا النهاية فى الاعتداد بالأوثان ، ولذلك أظهر الأسلوب أنهم قد قطعوا طريق العودة على أنفسهم (قالوا حسبنا) كما استعمل الأسلوب فى نفى هدايتهم، نفى العلم عن آبائهم (أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ...) ، وقد أشار « الكرمانى » إلى هذا اذ يقول « إن نفى العلم أبلغ فى درجات اليقين من نفى العقل ، لأن العلم فوق العقل فى حالة اليقين » [1] .

والتعقل قد يؤدى الى قبول الشىء أو رفضه ، وهى مرحلة تردد بين هذا وذاك ، بينما العلم بالشىء حالة من حالات التيقن والاقتناع ، والانقياد له .

فالتكرار هنا ضرب من ضروب المناسبة فى استعمال الألفاظ ، فلكل حالة أسلوبها الذى تقتضيه ، ولا غرو فى ذلك فالقرآن أدق وزناً لمعانى الألفاظ ، وأكثر مراعاة لمناسباتها .

١ — أنظر .. الكرمانى : أسرار التكرار فى القرآن ص ٢٤٨ تحقيق عبد القادر عطا دار الاعتصام ـ القاهرة ١٩٧٨

واذا كانت تلك الألفاظ قد تشابهت فى أشـكالها ، فإنها قد أدت معانى ومفاهيم تختلف باختلاف مواقعها ، ومناسبتها ، وهكذا يأتى تكرار اللفظ دون المعنى .

ويشير ابن الأثير إلى عدم الدقة فى تناول ظاهرة التكرار إذ يقـول: « ولربما أدخـل فى التكرار ... ما ليس منه ، وهو موضع لم ينبه عليه أحد سواى » (١) ، ثم يسوق بعض الآيات ... كما فى قول الله تعالى:

« ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من
بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم »
(الآية ١١٩ من سورة النحل)

فالتكرار فى لفظ (إن ربك) ، يبين أن ذلك أدل على المغفرة ، وكذلك قوله تعالى:

« لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا
بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب »
(الآية ١١٨ من سورة آل عمران)

والتكرار فى (لا تحسبنهم) جاء للفت الانتباه ، وقد يظن أن ذلك من باب التكرار ، وهى ليست كذلك .

ويقول ابن الأثير ، وقد أنعمت نظرى فيها فرأيتها خارجة عن حكم التكرير، وذلك أنه لما طال الفصل فى الكلام ، وكان أوله يفتقر إلى تمام لا يفهم إلا به ؛

---

١ — انظر .. ابن الأثير : المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ١٦/٢ ومابعدها مطبعة نهضة مصر — ١٩٦٢

فالأولى فى باب الفصاحة أن يعاد لفظ الأول مرة ثانية ، ليكون مقارناً لتمام الفصل ، كى لا يجىء الكلام منثوراً ، لا سيما فى (إن وأخـواتها) فإن وردت (إن) وكان بين اسمها وخبرها فسحة طويلة من الكلام ؛ فإعادة (إن) أحسن فى حكم البلاغة والفصاحة ، وكذلك يجـرى الأمر إذا كان خبر (إن) عاملا فى معمول يطول ذكره ؛ فإن إعادة الخبر ثانية هو الأحسن . وعلى هذا جاء قول الله تعالى :

« وإذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت
أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم
لى ساجدين » (الآية ٤ من سورة يوسف).

فلما قال (إنى رأيت) ، ثم طال الفصل ، كان الأحسن أن يعيد لفظ الرؤية، فيقول (رأيتهم لى ساجدين) ، (١)

ومن ذلك نرى أن اللفظ قد يكرر ليكون مناسباً الموقع الذى جاء فيه ، أو يأتى فى أسلوب طال فيه الفصـل ؛ فيتبه إلى الارتباط به حتى لا يتفكك الأسلوب ، وكلها أمور تدخل فى باب الفصاحة والبلاغة .

وإن كانت لا تدخـل فى باب التكرار — كما ذكرنا — إلا أنها لون من ألوان البيان ، تعمل على إظهار المعنى ومعرفة المقصود من ورائها .

ومن ناحية أخـرى فإن التكرار يأتى فى اللفظ والمعنى ، ولا يعد تكراراً ما جاء فى المعنى دون اللفظ .

---

١ — المرجع السابق

كما فى قول الله تعالى :

«ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ....»

(من الآية ١٠٤ من سورة آل عمران)

فالدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف معنيان مكرران ، ولكننا نقصد فى هذا الباب التكرار فى اللفظ وفى المعنى معاً .

ومن ألوان الإبانة والإظهار التدرج والترتيب الوارد فى ألفاظ الآيات القرآنية ؛ ففى الآية الكريمة:

« حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيما »

(الآية ٢٣ من سورة النساء)

تحمل الآية بياناً المحرمات من النساء ؛ فتقرر فى نفثة من الوحى تشريع الزواج بكل تفاصيله ؛ فينتظم السياق فى كلمات مرتبة تتفق مع الغرض الذى سيقت من أجله .

وبنظرة فاحصة نلحظ أن الآية قد احتوت حصراً كاملا يستوعب كل الحالات التى أشارت إليها ، فى ترتيب ينتظم درجات القرابة حسب أهميتها ؛ فقد عددت الآية ثلاث عشرة حالة ، إذ نرى فى النص ترتيبا للحالات المحرمة

بدرجة القرابة العصبية ، ويشير « مالك بن نبي »(1) إلى أن الآية بدأت بالأم والبنت والأخت .. ثم بنت الأخ وبنت الأخت (من القـــرابة المباشرة) ، والمرضعة وأخت الرضاعة (من القرابة الرضـــاعية) ، وأم الزوجة أو ابنتها وزوجة الابن والجمع بين الزوجة وأختها (ودرجة القرابة هنا مقيسة بالنسبة للمرأة) ، ويلاحظ من خلال الآية فى تصنيفها للمحرمات أفضلية رباط الذكر على رباط الأنثى ، فابنة الأخ تذكر قبل ابنة الأخت ، والقرابة المتصلة بالزوج قبل القرابة المتصلة بالزوجة مع أسبقية رباط الذكورة .

والترتيب يوضح لنا درجات القرابة فى انتقالات يظهر فيها أهمية كل درجة ، فالتدرج والترتيب — فى ذاته — باعث على إثارة مفاهيم وإيضاحات لا تستشعر من خلال الألفاظ بدونه ، فقوله تعالى (حرمت عليكم أمهاتكم) يشمل كذلك الجدات من قبل الأب أو الأم ، كما أن لفظ (بناتكم) يشمل بنات الأولاد ، ولفظ (أخواتكم) على إطلاق هذا اللفظ إنما يشمل الأخت الشقيقة أو التى تكون من أب ، أو تكون من أم .

وفى ذكر (بنات الأخ وبنات الأخت) إنما يدخل فيه أولادهم أيضا ، وهؤلاء هن المحرمات بالنسب ، ثم يأتى بعد ذلك التحريم بالنسبة لصلة الرضاع ، وإن نزلت منزلة النسب ، الا أنها تليها فى الدرجة ، فجاء الترتيب مشعراً بذلك ، وبعد ذلك تذكر الآية المحرمات بالمصاهرة (وأمهات نسائكم) ، فكأن ترتيب الألفاظ على هذا النمط يوحى بمعان زائدة على الدلالات اللفظية ذاتها ، فالتدرج اللفظى فى الآية يبين درجات القرابة والنسب من الأعلى إلى الأدنى ، وهو معنى مستفاد من الترتيب .

---

١ — انظر .. مالك بن نبى : الظاهرة القرآنية ص ٢٢٦

ويشير الباقلانى إلى أن « الاعتبار هنا هو نظم الخطاب وظهور الحكمة فى الترتيب والمعنى ، وذلك حاصل فى هذه الآية ... ألا ترى أنه بدأ بذكر الأم لعظم حرمتها ... ؛ فهى أصل لكل من يدلى بنفسه منهن، ولأنه ليس فى ذوات الأنساب أقرب منها . ولما جاء إلى ذوات الأسباب ألحق بها حكم الأم من الرضاع ، لأن اللحم ينشره اللبن بما يغذوه ، فيتحصل بذلك أيضا لها حكم البعضية ، فنشر الحرمة بهذا المعنى وألحقها بالوالدة . وذكر الأخوات من الرضاعة ،فنبه بها على كل من يدلى بغيرها وجعلها تلو الأم من الرضاع ... فلم تنفك هذه الآية من الحكم التى تخلف حكمة الإعجاز فى النظم والتأليف والفائدة التى تنوب مناب العدول عن البراعة فى وجه التوصيف » (١)

وها نحن نرى أن الترتيب اللفظى فى النص القرآنى يحمل معنى ، ويسوق لنا دلالات لم نكن نعرفها اذا أغفلنا مغزى هذا الترتيب ؛ فكأن الترتيب كنمط من أنماط النظم القرانى ، إنما هو وسيلة يتوصل بها إلى إدراك كثير من المعانى التى تحملها الالفاظ القرآنية . وإن كانت هذه المعانى لا تدل عليها الألفاظ بمبناها ، فهى ملتفة حول اللفظ وكامنة فى السياق الذى تأتى فيه .

وفى آية المواريث :

يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن
كن نساء فوق أثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت
واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منها السدس

---

١ - البلاقلانى : إعجاز القرآن ص ٢٠٧ تحقيق السيد احمد صقر دار المعارف ١٩٦٣ - القاهرة .

مما ترك إن كان له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن
كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها
أو دين آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم
نفعاً فريضة من الله إن الله كان عليما حكيماً »
(الآية ١١ من سورة النساء)

نجد أنها تناولت بيان أنصبة الميراث ، وقد تقدم فيها ذكر الأولاد على من عداهم إظهاراً لتلك المسئولية المباشرة وهى مسئولية الوالد عن أولاده . وحقهم فى الإرث مقدم على حق أى قرابة أخرى ، كما أن وجود الولد (الإبن أو البنت) يقلل من نصيب الوالدين اللذين يأتى ذكرهما بعد الأولاد .

فكأن الترتيب بذكر الأولاد قبل الوالدين ، يعمل على ظهور المعنى المستفاد من هذا الترتيب وهو أحقيتهم الميراث فى المقام الأول ، وأن لهم فيه النصيب الاوفر .

أما الوالدان فهما فى الدرجة التالية فى الميراث بعد الأولاد ، وقد عمل هذا الترتيب على ظهور القاعدة الشرعية فى أن الفرع مقدم فى الإرث على الأصل ، بمعنى أن الولد مقدم فى الإرث عن الجد ، ويتضح هذا فى الآية التى ذكرناها.

ثم يأتى فى الآية بعد ذلك التسلسل حسب درجات القرابة ومقدار الأنصبة، رعاية للمصلحة ، وتحقيقاً للنفع .

وإن كنا لم نتعرض لتفسير تلك الآية إلا أن هناك معايير بينة واضحة تظهر من وراء التدرج اللفظى والانتقال من نقطة إلى أخرى فى ترتيب غاية فى الإعجاز .

ولا ريب أن المتتبع لهذه الظاهرة يلحظ تواردها فى الآيات القرآنية بعامة ؛ فكذلك الآية التى تتناول بيان أوجه الإنفاق فى الخير ، يقول الله تعالى فيها :

ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغـــرب
ولكن البر من آمـن بالله واليوم الآخــر والملائكة
والكتاب والنبيين وآتى المـــال على حبه ذوى القربى
واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب
وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا
والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين
صدقوا وأولئك هم المتقون ،

(الآية ١٧٧ من سورة البقرة)

تأتى الآية بترتيب أوجه الخـير حسب أهميتها ؛ فتبدأ بالإيمان بالله وهو قمة أعمال الخير وأولها ، ويلى ذلك التصديق بالغيب وهو الإيمان باليوم الاخر ، وبالملائكة ، وهو تصديق لا يصل العقل إلى الاقتناع به إلا إذا ثبت الإيمـان بالله أولا وامتلك هذا الإيمان على الإنسان كل جوارحه . ولا يخـلو أن يكون التصديق بالغيب درجة من الإيمـان ؛ فكان الاحق أن يذكر الإيمان بالله أولا . ثم يأتى بعد ذلك ذكـر الكتاب قبل ذكر الأنبياء ، فالتصديق بالكتاب منهـج للهدى بشكل عام وهنا قدم على ذكر الأنبياء ، لأن الكتاب وحى من الله وهـو أداة النبوة ، فكان الكتاب أولا ، وتبليغ الأنبياء تال عليه. ثم ينتقل بنا التسلسل اللفظى إلى الأعمال السلوكية التى تعتبر ترجمة للأمور العقائدية المتركزة فى قلوب المتقين ، فتصبح علاقة دالة عليهم .

انفاق المال — على حب الإنسان له وحرصه على اقتنائه — يكون للأقارب

بداية ، فهم أولى بالمعروف من غيرهم ، ومن بعدهم يأتى ذكر المستحقين حسب مقدار الحاجة ، فتشير الآية إلى اليتامى (وهم الذين فقدوا آباءهم) ، وانقطع بهم المصدر المكلف بالإنفاق عليهم ، ثم تذكر المساكين (وهم الذين لا مالهم)، وهناك فرق بين اليتيم والمسكين ، فالأول انقطع به مصدر الإنفاق، وأصبح فى حاجة ملحة إلى مساعدته ، يستحق المعونة قبل غيره . والثانى انعدم المال من بين يديه إلا أن مصدر الانفاق ما زال موجوداً ، وقد يتمكن من الإنفاق فى يوم ما ، ولذا فهو يلى اليتيم فى درجة الحاجة، وتأتى بعد ذلك بذكر ابن السبيل (وهو المسافر الذى انقطع عنه المال) ، ثم يأتى ذكر من يسألون بدافع الحاجة وهم (السائلين) ، ثم تخليص الأسرى والأرقاء بالفداء ، فأظهرت الآية ترتيب ملحة الحاجة من الكثرة إلى القلة .

وتأتى الآية بعد ذلك بذكر أنواع العبادات ، لأن العبادات لا تظهر قيمتها إلا فى السلوك الطيب والعمل الخير ، وهو من وجوه البر أيضا . يأتى ذكر الصلاة قبل غيرها من العبادات نظراً لأهميتها ، فهى سلوك تعبدى لا يسقط عن الإنسان كغيرها من العبادات التى لا يكون التكليف بها إلا فى ظل ظروف معينة ، فالزكاة لا تجب إلا بتوفر النصاب والمدة ، والحج لا يكون الا على المستطيع . والصلاة هى عماد الدين ، ومن أقامها فقد أقام الدين ، ولذا فقد قدمت على غيرها من العبادات . ويأتى بعد ذلك — فى الآية الكريمة — الوفاء بالعهود ، وتلك صفة يلتزم بها المرء إذا ما تأصل فيه الأداء التعبدى الذى يغرس فيه خاصية الوفاء والقيام بالواجب ، فأتى ذكرها بعد ذكر العبادات .

وقد تأتى الآية القرآنية تتناول موقفا من المواقف ، وتأتى كذلك الألفاظ فى الآية ترتب أحداثه ، وتنظم مواقعه ، كما فى قول الله تعالى :

وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير
فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله
وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب
الصابرين »
(الآية ١٤٦ من سورة آل عمران)

تشير الآية إلى موقف المقاتل فى حالاته المتتابعة ، فحالة الهزيمة أمام الأعداء تبدأ بالجبن وهو الرجوع عن مواجهة العدو ، وهى حالة عبرت عنها الآية الكريمة بكلمة (الوهن) أى فتور الهمة عند القيام بالعمل وهو نوع من الجبن، وهذا التعبير (فما وهنوا) يفيد أنهم لم يجبنوا، ولم تضعف هممهم لما أصابهم من القتل والجراح ، وتلك هى الحالة الأولى التى تعترى المقاتل .

أما إذا توافرت حالة الوهن هذه عند المقاتل تراجع عن الجهاد ، وأصبح ضعيفاً غير قادر على المواجهة ، فتكون الحالة الثانية المترتبة على الموقف الأول هى حالة الضعف التى عبرت عنها الآية (وما ضعفوا) ، ثم تذكر الآية الموقف الأخير (وما استكانوا) ، والاستكانة هى الذل والخضوع للعدو ، وهو أمر واقع لا محالة إذا ما وهن المقاتل وضعف، وعلى هذا يتضح لنا أن أولى خطوات الهزيمة هى الرجوع عن المواجهة والتصدى للعدو جبناً ، ثم التراجع عن الإقدام ضعفاً ، ثم الهزيمة والخضوع . ومن الواضح أن الآية نفت عنهم تلك المواقف التى تؤدى إلى هزيمتهم ، وهى أحوال إذا ما تخلص المقاتل منها كان النصر نتيجة متوقعة له . وفى نهاية ترتيب ألفاظ الآية تأتى الفاصلة المناسبة (والله يحب الصابرين) أى هؤلاء الذين استطاعوا أن يتحملوا الشدائد والأهوال فى سبيل الله ونصرة الأنبياء .

وهكذا تأتى الآية، يتنقل المعنى بين ألفاظها فى ترتيب وتنظيم، بحيث يكون المعنى الأول سبباً يؤدى إلى المعنى الثانى وهكذا ... تأتى المعانى فى كلام آخذ بعضه برقاب بعض ؛ فيأتى الموقف بيناً، واضحاً دون قطع أو استئناف ، وإنما انسياب فى اللفظ والمعنى معاً . وذلك أيضا لون من ألوان الفصاحة والبلاغة فى بيان القرآن ، يسميه البلاغيون (التخلص) ، وهو الانتقال مما ابتدىء به الكلام إلى المقصود على وجه سهل بحيث يتم الانتقال من معنى إلى معنى آخر فى دقة وسيولة، ولا يشعر السامع بهذا الانتقال من المعنى الأول إلا وقد جاءه المعنى الثانى فى يسر وسلاسة لشدة الالتئام بين تلك المعانى ؛ فيسرى المعنى المطلوب فى تماسك وتمازج لا عثرة فيه، ولا انقطاع فى سياقه.

وإلى هذا التخلص يشير ابن الاثير ، إلى قول المتنبى عند مدحه لأبى أيوب أحمد بن عمران .

ومطالب فيها الهلاك أتيتها	ثبت الجنان كأننى لم آتها
ومقانب * بمقانب غادرتها	أقوات وحش كن من أقواتها
أقبلتها غرر الجياد كأنما	أيدى بنى عمران فى جبهاتها
الثابتين فروسة كجلودها	فى ظهرها والطعن فى لباتها
فكأنها نتجت قياماً تحتهم	وكأنهم ولدوا على صهواتها
تلك النفوس الغالبات على العلا	والمجد يغلبها على شهواتها
سقيت منابتها التى سقت الورى	بيدى أبى أيوب خير نباتها

فالنظر إلى هذين التخلصين البديعين ــ فى كلام المتنبى ــ فالأول خرج

* مقانب جمع مقنب .. وهو الطائفة من الخيل تجتمع للغارة .

به إلى قوم الممدوح ، والثانى خرج به إلى نفس الممدوح ، وكلاهما قد أغرب فيه كل الإغراب ، (١) .

وقد ذكر ابن الاثير أن هذا اللون البلاغى قد استخدمه الأدباء ولكنهم لم يوفقوا فيه تمام التوفيق ، وكذلك الشعراء متفاوتون فى هذا الباب ، وقد يقصر عنه الشاعر المفلق المشهور ، بالإجادة فى إيراد الألفاظ واختيار المعانى كالبحترى ، فإن مكانه من الشعر لا يجهل ، وشعره هو السهل الممتنع الذى تراه كالشمس قريباً ضوؤها بعيداً مكانها ، وكالقناة ليناً مسها ، خشناً سنانها وهو على الحقيقة قينة الشعراء فى الإطراب ، وعنقاؤهم فى الإغـراب .. ومع هذا فإنه لم يوفق فى التخلص من الغزل إلى المديح بل اقتضبه اقتضاباً .. (إنتهى كلام ابن الاثير) .

وهكذا فإن الأدباء والشعراء على قدر فصاحتهم، وتمكنهم من اللسان العربى إلا أنهم اختلفوا وقصروا فى حسن التخلص ، والموقف هنا تعلو فيه الشهادة بالإعجاز القرآنى فى فصاحته وبيانه ، فعندما تسلك الآيات هـذا المسلك ، تنساب الكلمات فى عقد منتظم انتقالا من غرض إلى غرض فى وحـدة تؤدى بالضرورة فكرة واحدة ، وأحياناً مجموعة من الفكر المنتظمة فى أسلوب تتماسك فيه حلقات هذه الفكرة ، وتتضح فيه العلاقة القائمة بين تلك الحلقات .

ويقول الزركشى « إن من أحسن ما جاء فى هذا الباب (وهو التخلص) قول الله تعالى :

« الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها

---

١ ـــ انظر : ابن الأثير : المثل السائر ١٢٥/٢ .

مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى
يوقد من شجـرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية
يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار نور عـلى نور
يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس
والله بكل شئ عليم » .

فإن فيه خمس تخلصات ، وذلك أنه جـاء بصفة النور وتمثيله ، ثم تخلص منه إلى ذكر الزجاجة وصفاتها ، ثم تخلص منه إلى ذكر الشجرة ، ثم تخلص من ذكرها إلى صفة الزيت ، ثم تخلص إلى صفة النور وتضاعفه ، ثم تخلص إلى نعم الله بالهدى على من يشاء » (١) .

وعندما تنظر إلى تلك الآية تدرك أن المعانى الواردة بها متآلفة خلصت إلى تمثيل الهداية بالنور عندما جرت مجرى المثل فى آخر الآية ، وهذا نوع من التخلص يدور حول فكرة واحـدة .

وقد تأتى بعض الآيات تتناول أكثر من فكرة ، يتضح ذلك فى قـول الله تعـالى :

ولو أن أهـل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا
عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنـات النعيم .
ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل
إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن
تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم
ساء ما يعملون »

(الآيتان ٦٥ ، ٦٦ من سـورة المائدة)

---

١ ــ الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ٤٣/١

فانظر كيف يتعلق الكلام بعضه ببعض، ولم يكن على تمامه فى الآية الاولى؛ فتأتى الآية الثانية مكملة للغــرض، ومفسرة له ويظهر أيضا الارتباط فى إتيان الثانية على سبيل التأكيد كذلك .

الآية الأولى تتكلم عن الوعد فى زيادة تقرير للموعود به ، وتأكيد لوقوعه، ثم يقتضى حسن التخلص أن ينتقل إلى بيان الوعيد وهو الجزاء الواقع على طائفة الكفر والتكذيب ، ولا غرو فإن المقــابلة أوقع تأثيراً فى النفس البشرية ، تعتبر حافزاً على العمل عندما يظهر جـزاء الأعمال الصالحة والأعمال الطالحة .

وقد يأتى «التخلص» فى شكل جواب يرتبط بما قبله ، كما فى قول الله تعالى :

« قال انظرنى إلى يوم يبعثون . قال إنك من المنظرين »

(الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الاعراف)

ففى الآية الأولى يبدو التساؤل الذى يحتاج إلى رد شاف واف ؛ فتتناول الآية بعدها هذا الجواب .

ويؤدى كذلك حسن التخلص والانتقال إلى ترابط بين الآيات بعضها مع بعض ، كما فى قـول الله تعالى :

وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً . ولهديناهم

صراطاً مستقيماً »

(الآيتان ٦٧ ، ٦٨ من سورة النساء) .

ويظهـــر الارتباط فى هاتين الآيتين فى شكل عطف الثانية على الأولى ، والعطف هو لون من ألوان الاشتراك فى الدلالة ؛ فيظهر من خــلاله الترابط والتماسك بين الآيتين . وهذا يعنى أن الكلمة القرآنية مترامية متماسكة ، وكذلك الآيـات .

وفى بعض الأحيان يظهر هذا التماسك فى علاقة التضاد ، كذكر المغفرة والعذاب فى قول الله تعالى :

وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم »

(الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة المائدة) .

فتشير الآيتان إلى الرغبة والرهبة فى مقابلة يظهر فيها موقف كل من الفريقين من الذين آمنوا،والذين كفروا ، وفيه تشير الآيتان إلى جزاء العمل الذى يستحقه كل منهم .

وهذه العلاقات على اختلاف أنواعها تعمل على زيادة توضيح المعنى ،وبيان المقصود من وراء النص .

وقد تأتى الآيات ، ولكن لا يظهر فيها هذا الارتباط — الذى أشرنا إليه — بشكل واضح ، فيحدث ما يشكل الأمر على القارئ أو السامع ، إلا أنه إشكال سرعان ما يزول إذا تدبرنا تلك الآيات ، وأمعنا النظر فيما تشير إليه من معنى .

وعندئذ يحتاج الأمر إلى شرح وإيضاح ، (وكما قلنا) ليس الخفاء فى النص، ولكن الخفاء عند من يتصدى لهذا النص .

فمن ذلك قول الله تعالى فى مطلع سورة الإسراء :

«سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله لنريه من

آياتنا إنه هو السميع البصير . وآتينا موسى الكتاب
وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ألا تتخذوا من دونى
وكيلا . ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً
شكورا »

(الآيات ١ ، ٢ ، ٣ من سورة الاسراء)

ويبدو الإشكال فى العلاقة،أو الترابط بين الآية الأولى وما بعدها.إذ تخبر الآية الآية الأولى بأمر الإسراء ، بينما تتحدث الثانية عن أمر موسى عليه السـلام وما أنزل إليه ، .. فما العلاقة إذن بين هذين الموقفين .. ؟

وعندما نتدبر هذه الآيات نجـد أن الله تعالى أسرى بمحمد عليه الصلاة والسلام ليطلعه على أشياء من الغيب يراها بعينى رأسه ، ويقدم بين يديه وقائع خلت ومضت فيخبره بها بياناً .

حتى تكون أخباره عن تلك المعجزة برهانا عليها وتصديقا بوقوعها .. ، وهكذا كان اطلاعه على بعض الآيات ، حتى يمكنه أن يقد ذكراً بين قومه ، ومن بين تلك الأخبـار السالفة موسى وقومه، فتحدثت الآية التالية عما حدث حتى يكون إخبار محمد عليه السلام لتلك القصة آية أخرى من آيات النبوة .

والعلاقة هنا بين تلك الآيات — عندما نعيها وندركها — نجد أنها عامل من عوامل التوضيح ، إذ أنها أظهرت موقفا من مواقف الرسول عليه السلام حين أسرى به ، وما رآه من أشياء لم يكن ليعلمها لولا أن أطلعه الله عليها .

وهناك توضيح آخر يشير إليه الزركشى وهو « أنه أسرى بمحمد كما أسرى بموسى من مصر حين خرج منها خائفا يترقب ، ثم يذكر بنى إسرائيل بنعمته

عليهم قديما حين نجاهم من الغرق ... إذ لو لم ينج آباهم من أبناء نوح لما وجدوا » (١) .

والزركشي يتناول العلاقة بين الآيات هنا من جانب المشابهة والمماثلة بين الحدثين ، فكلاهما يمثل الانتقال من مكان إلى مكان ، بيد أن التشابه — بين انتقال محمد وانتقال موسى تشابه مع الفارق ، الا أنه لون من ألوان الربط بين الآيات .

ويشير بعض المفسرين إلى هذه العلاقة في قولهم « لما ذكر الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ؛ فعندما ذكر المسجد الأقصى ، وهو قلب الأرض المقدسة التي أسكنها الله بني اسرائيل ، جاء الحديث عنهم في مكانه المناسب من سياق السورة »(٢)

ومهما اختلفت الآراء أو تنوعت حول توضيح نوع الارتباط بين هذه الآيات ، إلا أننا نلحظ توافقاً على وجه ما ، وترابطاً بينها ، وقد يظن صاحب النظرة الخاطفة والسريعة أن هناك تباعداً بين الأحداث التي تتناولها تلك الآيات وإن بدا هذا التباعد من الناحية اللفظية على أثر تلك النظرة السريعة من القارئ العادي ؛ ولكن تدبر الآيات ، ومحاولة دراسة ظروف النص ، وسبر أغوار المعنى ، ينفي أي تنافر أو تباعد بين الآيات ، وسرعان مايطمئن المرء إلى وجود صلة ، ووقوع علاقة ، وتوفر مناسبة . وفي ذلك يقول القاضي أبوبكر الباقلاني « ... هذا خروج لو كان في غير هذا الكلام لتصور في صورة المنقطع ،

---

١ — الزركشي : البرهان ٤٢/١

٢ — محمد علي الصابوني : صفوة التفاسير ١٥٤/٢

وقد تمثل فى هذا النظم لبراعته وعجيب أمره وموقع مالا ينفك منه القول(١)، مشيراً بذلك الى إلترابط والتلاحم الموجود فى النظم القرآنى .

فواصــل الآى :

وموضوع الترابط فى النظم القرآنى ، يدعونا إلى الكلام عن مــدى توافق فاصلة الآية مع ما تحمله تلك الآية من معانى ودلالات .

فن بديع ما نرى من أمر هـــذا التلازم والتوافق والتعانق بـين الألفاظ القرآنية ، تلك الفواصل التى تنتهى بها الآيات ، ومـــدى ملاءمتها لسياق الآية القرآنية ، ومساهمتها فى استكمال الفكرة فيها ، وتوضيحها لهدف الآية ومقصدها .

وفى التعريف بها يقول الباقلانى « وأما الفواصل ، فهى حروف متشاكلة فى المقاطع ، يقع بها إفهام المعانى ، وفيها بلاغـة »(٢) وهكذا نجد أن الفاصلة فى الآية القرآنية إلى جانب ما تضفيه من جمـال وروعة فى التعبير القرآنى ؛ فإنهـا أيضاً عامل من عوامـــل إظهار المعنى ، تعمل على إظهار المعنى الوارد فى الآية وتلائمه تمام الملاءمة .

انظر قول الله تعالى

« ورد الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً

---

١ — أبوبكر الباقلانى : إعجاز القرآن ص ٢٠٩ تحقيق السيد احمد صقر دار المعارف ١٩٦٣ — القاهرة .

٢ — أبوبكر الباقلانى : إعجاز القرآن ص ٢٧٠ تحقيق السيد احمد صقر دار المعارف ١٩٦٣ — القاهرة .

وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً »

(الآية ٢٥ من سورة الأحزاب)

وفى ذلك يقول الزركشى « ... فإذا لم تكن الفاصلة (وكان الله قوياً عزيزاً) واقتصر الكلام على قوله (وكفى الله المؤمنين القتال) لأوهم ذلك بعض الضعفاء موافقة الكفار فى اعتقادهم أن الريح التى حدثت كانت سبب رجوعهم .. وأن هذا أمر اتفاقى . ولكن الله تعالى أخبر فى فاصلة الآية عن نفسه بالقوة والعزة ليبين للمؤمنين ويزيدهم يقيناً وإيماناً على أنه الغالب الممتنع ، وأن حزبه كذلك . وأن تلك الريح التى هبت ليست اتفاقاً ؛ بل هى من إرساله سبحانه على أعدائه كعادته ، وأنه ينوع النصر للمؤمنين ليزيدهم إيماناً وينصرهم مرة بالقتال كيوم بدر ، وتارة بالريح كيوم الأحزاب ، وتارة بالرعب كبنى النضير ، وطوراً ينصر عليهم كيوم أحد تعريفاً لهم أن الكثرة لا تغنى شيئاً ، وأن النصر من عنده كيوم حنين » (١) .

والآية تفيد أن الله تعالى رد الأحزاب الذين تألبوا على غزو المدينة ، ولم ينالوا شيئاً،بل أرسل الله عليهم الريح والملائكة حتى ولوا الأدبار منهزمين .

ومن الواضح أيضا أن الفاصلة تابعة للمعانى التى وردت فى الآية،فتعمل على بيانها وإيضاحها ، وتساهم فى فهم المقصد من ورائها ؛ فتقع من الآية موقع المناسبة . كما تعمل الفواصل فى الآيات القرآنية على تقديم الأسلوب

---

١ ــ الزركشى : البرهان ٧٩/١

القرآني في إيقاع جميل يحفز الهمم ويثير الانتباه عند متلقيه ، وهــو لون من ألوان التعبير الذي يؤثر في مستمعه .

وقد استعمل الكهان عند العرب القدماء السجع - وهو لون من ألوان الإيقاع اللفظي — في لغة وثنية يؤثرون بها على النـاس ويحاولون تضليلهم ، إلا أن إيقاع الفواصل القرآنية إيقاع يثير الهمم ، ويحفز إلى تلقي دعوة الحق لا الضلال، كما نلحظ أن الفاصلة في الآية القرآنية لها دور في تفهيم النص القرآني؛ فهي كما تثير الانتباه في إيقاعات داخل الأسلوب القرآني ، تعمل كذلك على زيادة الإيضاح أو التأكيد لما جاء من مفاهيم في الآية القرآنية .

والقرآن قد نزل منجما ؛ فتمثلت طبيعته في وحدات متتالية ، وجاءت تلك الوحدات في فواصل جديرة بالنظر والاهتمام .

ولا شك أن كتاب الله — من هذه الوجهة — يباين سائر الكلام ففي آخر كل آية تأتي الفاصلة في أسلوب فريد ، خــــروج عن العادة المألوفة في النظم ، وبطريقة تقع بها موقعا جميلا ، وهو النظم الذي اختص القرآن به ، وهو وجه من وجوه الإعجاز فيه .

ويقول الرماني ، والفواصل بلاغة ، والأسجاع عيب ، وذلك أن الفواصل تابعة للمعنى ، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها ، (١) وهو قــــول أشار اليه الباقلاني أيضا ، فالمشتغلين ببلاغة القرآن يلتقون دائما إلى تلك الطبقة العليا التي يحتلها القرآن في مجال البلاغة والفصاحة .

ولم تكن الفواصل من قبيـل المنمقات اللفظية والترصيعات البديعية التي

---

١ -- الرماني والخطابي : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٩٧ تحقيق خلف الله ، د. زغلول سلام دار المعارف بمصر ١٩٦٨

تعنى بالشكل دون المضمون ، ولكنه امتزاج بين اللفظ والمعنى ، وتآلف لايعصى فيه أحدهما على الآخر ، ولا يتمرد فيه اللفظ على المعنى أو العكس .

والفاصلة تختلف عما هو مألوف فى السجع،إذ السجع يظهر فيه التكلف دائما وينصاع فيه المعنى لمتطلبات الأشكال اللفظية .

وقد عارض ابن سنان الخفاجى هذا الحكم على السجع بأنه عيب ، والفواصل بلاغة،وأن السجع تتبعه المعانى ،والفواصل تتبع المعانى، وأشار بألا يؤخذ بهذا الحكم على إطلاقه . وفى ذلك يقول ابن سنان « الذى يجب أن يحرر فى ذلك أن يقال : إن الأسجاع حروف متماثلة فى مقاطع الفصول ، والفواصل على ضربين ضرب يكون سجعاً وهو ما تماثلت حروفه فى المقاطع ، وضرب لا يكون سجعا وهو ما تقابلت حروفه فى المقاطع ولم تتماثل ، ولا يخلو كل واحد من هذين القسمين ـ أعنى المتماثل والمتقارب من أن يأتى طوعا سهلا وتابعا للمعانى وبالضد من ذلك ، حتى يكون متكلفا يتبعه المعنى ، فإن كان من القسم الأول فهو المحمول الدال على الفصاحة وحسن البيان ، وإن كان من الثانى فهو مذموم مرفوض . فأما القرآن فلم يرد فيه إلا ما هو من القسم المحمود لعلو فصاحته » (١) .

ويبدو أن أساس الاعتراض هنا يدور حول تبعية المعنى ؛ فإن كانت المعانى تابعة للأسجاع أو الفواصل فهذا هو العيب ، وأما إذا كانت الأسجاع والفواصل تابعة للمعانى ؛ فإن ذلك من بليغ الكلام وفصيحه .

---

١ ــ ابن سنان الخفاجى : سر الفصاحة ص ٩٦ شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدى القاهرة ١٩٦٩

والشهادة ثابتة قاطعة بأن نظم القرآن من هـذا الضرب البليغ ، ولسنا هنا بصدد المقارنة بين نظم القرآن وغيره من النظم لنصل إلى تفرد القرآن فى بلاغة أسلوبه ، وإعجاز نظمه، فتلك مسألة تناولها العلماء قديماً وحديثاً وأصبحت فى تواترها وشهرتها لا يختلف حولها أحد .

والذى يعنينا هنا هو القول بأن الفاصلة تابعــة للمعنى الوارد فى الآية ، والتبعية راجعة إلى توضيح ما جاء فى الآية وبيانه والتأكيد عليه .

من الأمثلة الدالة على ذلك ، قول الله تعالى :

« إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل
شىء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها
يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم
الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا
يهتدون . ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء
فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما
تعلنون . الله لا إله إلا هــو رب العرش
العظيم »

(الآيات من ٢٣ — ٢٦ من سورة النمل)

فى الآية الأولى تدل الفاصلة على ذلك القدر العظيم الذى كانت عليه ملكة سبأ وما لها من سطوة وسلطان فى قومها ، ويقــول الطبرى (١) فى تفسير « العرش العظيم » إنه العظيم فى قدره وخطره ، وهكذا تبين الفاصلة ما كانت عليه تلك

---

١ — انظر .. الطبرى : جامع البيان عند تأويل آى القرآن ١٩/٩٢

الملكة من شأن عظيم وخطير بين قومها ، والفاصلة توافق كذلك ما يأتى فى الآية التالية؛ ففيها إشارة أشد وأخطر ألا وهى عبادتها،وقومها،للشمس من دون الله ؛ فالسجود لغير الله أشد وأعتى فى الضلال والجحود ، وهو انتقال يظهر فيه توجيه التبكيت والتوبيخ ، كما لو قلت لشخص : إنك رجل عظيم الشأن وتقوم بهذه الأعمال الدنية .

فهى ملكة لها من الجاه والسلطان والسيطرة ما لها ، وإنما العجب كل العجب هو أن ينعدم عندها وعند أتباعها التمييز بين الحق والباطل وأنهم يتيهون فيما زينه لهم الشيطان ، وصرفهم عن عبادة الله . ثم تأتى فاصلة الآية الثانية (فهم لا يهتدون) دليل على أن عبادتهم للشمس إنما هى غواية الشيطان ، وصده لهم عن الطريق القويم ؛ فأضحوا بعيدين كل البعد عن الهدى ودين الحق ، والهداية هى الامتثال لله تعالى . . فما أنسب الإتيان بلفظ الجلالة فى مطلع الآية الثالثة (ألا يسجدوا لله) مع اقتران لفظ الجلالة بما يستحق من العبادة والاتجاه إليه وحده ؛ فكيف بهم يسجدون للشمس ، ولا يسجدون لله الخالق العظيم الذى يعلم ما يخفى وما يظهر وما يسر وما يعلن . والفاصلة موافقة لهذه المعانى تمام الموافقة .

وفى مطلع الآية الأخيرة تكرر ذكر (الله) تأكيداً لعبادته ؛ وأنه هو الإله الواحد الأحد ، المتفرد بالعظمة والجلال ، وهو رب العرش العظيم . كررت الفاصلة الأخيرة ذكر (العرش العظيم)؛ حتى يتأكد فى نفوس هؤلاء هدف المخاطبة الإلهية فى معرفة الخالق الذى لا يعبد سواه . . فشتان ما بين عرشك أيتها الملكة،المصنع والمكلل بالجواهر واللآلىء . . من عرش الله تعالى .

من هذه الآيات يتضح لنا ترابط الفواصل مع المعانى السابقة عليها واللاحقة

بها ، فى مناسبة بديعة وحسن تخلص ، ووقع يعمل على تماسك المعنى وزيادة الوضوح فيه .

وتأتى الفاصلة كذلك فى تآلف وانسجام بين الآيات .. لم تعهد ذلك فى أسلوب غير الأسلوب القرآنى ، وإن كانت المناسبة اللفظية أمر مستحب فى سياق الأسلوب ، إلا أنها فى الأسلوب القرآنى تأتى فى أبلغ معنى، وفى أجمل صورة ، كل لفظ مستقر فى مكانه ، مطمئن فى موضعه ، غير نافر ولا قلق .

يتعلق اللفظ باللفظ، والمعنى بالمعنى، فى سمت رائع يخالط القلوب والأفكار .

وفى آية أخرى نرى قول الله تعالى :

« قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك
ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا
ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد »

(الآية ٨٧ من سورة هود)

فاصلة الآية هنا تقع موقع المناسبة ، وتسهم فى إيضاح المعنى المقصود ؛ فقد أتت الفاصلة (الحليم الرشيد) على لسان قوم شعيب وتعنى السخرية والاستهزاء ، وأن ما أمرهم به شعيب لا يصدر عن عاقل — كما يزعمون — فكيف يأمرهم شعيب بترك ما كان يعبد آباؤهم وأجدادهم — وهو طريق الجادة فى نظرهم — ويريد أن يصرفهم عن دينهم الذى يزعمونه وهو الرجل العابد الناسك الذى يستحق ثقتهم . وأنت يامن تتصف بالعقل والأناة ، وبالمقدرة على التصرف والتمييز، تأمرنا بترك ما وجدنا عليه الآباء والأجداد .. ولما كانت الآية تأتى بذكر العبادة ، وذكر التصرف فى الأموال ، اقتضى ذلك أن يأتى ذكر الحليم والرشيد، على توالى تلك الألفاظ، فى ترتيبها ليناسب اللفظ الأول

مقام العبادة ، ويناسب اللفظ الثاني موضوع التصرف في الأموال . وهكذا نرى تناسقاً وتناسباً بين المعاني الواردة وبين الفاصلة .

وفي موضع آخر يقول الله تعالى :

« أو لم يهـــد لهم كم أهلكنا من قبلهم من
القـرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك
لآيات أفلا يسمعون . أو لم يـــروا أنا
نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به
زرعا تأكل منـــه أنعامهم وأنفسهم أفلا
يبصرون »

(الآيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة السجدة)

تأتي الآية الاولى في مجال العبرة والعظة .. أو لم يرشد هؤلاء ما يسمعونه عن كان قبلهم وكذبوا بالرسل ؛ فأهلكناهم ودمرناهم ، وكان في إهلاكهم دلالات عظيمة على قدرتنا . وما من شك في أن العبرة والعظة نصيحة تلقى على الاسماع .. فتأتي الفاصلة (أفـــلا يسمعون) ، وهي تناسب الموقف غاية المناسبة .

أما الآية الثانية فتأتي مبينة كمال قدرة الله ، إذ تلفت النظر الى رؤية الماء وهو يسقي يابس الأرض ، فينبتها ، وهو موقف يستدعي الرؤية البصرية ، فتكون الفاصلة (أفلا يبصرون) وعلى هذا النمط يأتي التوافق والتناسب بين الآيات وفواصلها .

ويذكر السيوطي في هذا الباب قول الله تعالى :

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين

ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا
النطفة علقة فخلقنا العلقـة مضغة فخلقنا
المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه
خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين »

(الآيات من ١٢ — ١٤ من سورة المؤمنون)

ثم يقول السيوطى « إن فى هذه الفاصلة التمكين التام المناسب لما قبلها ، وقد بادر بعض الصحابة حين نزل أول الآيات إلى ختمها ، قبـل أن يسمع آخرها ، فأخرج ابن أبى حاتم عن طريق الشعبى عن زيد بن ثابت ، قال : أملى على رسول الله صلى الله عليه وسلم هـذه الآيات (ولقد خلقنا ... إلى قوله ... خلقا آخر ...) ، قال معاذ بن جبل : فتبارك الله أحسن الخالقين . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له معاذ : مم ضحكت يا رسول الله .. ؟ ، قال : بها ختمت » (١).

ويطلقون على مثل هذه الصورة الاسلوبية (المطمع) بضم الميم الأولى، وكسر الميم الثانية - لأن صدرة مطمع فى عجزة (٢) .. ، وأى مناسبة تلك التى تحفز بالسامع إلى النطق بما هو منتظر. وإن دل هذا فإنما يدل على توافق النظم القرآنى وترابطه، وتماسك ألفاظه، حتى إن اللفظه تستدعى اللفظة، والمعنى يستدعى المعنى.

وأنظر أيضاً قول الله تعالى :

« هـو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه

١ — السيوطى : الاتقان ١٠١/٢

٢ — الزركشى : البرهان ٩٥/١ (القول منسوب الى القاضى أبو بكر محمد ابن خلف المعروف بوكيع ، وله مصنفات فى علوم القرآن).

شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم
به الزرع والزيتون والنخيـــل والأعناب
ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقـــوم
يتفكرون ،

(الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة النحل)

تأتى الآيتان تكمل إحداهما الأخرى فى أسلوب يوضح لنا قدرة الخالق .. وما أسبغ نعمه على خلقه ! . . . وجاءت الفاصلة فى الآية الثانيـة (لقـــوم يتفكرون) لتسوق فى كلمتين اثنتين موقفا من أخطر المواقف وأهمها ، وهو التفكر والتدبر فى آيات الله . وإذا انصرف الناس عن تدبر آيات الله، وتناولوها بفكر سطحى ، كأن يرجعون تلك الحوادث أو الظواهر مـــن إنزال الماء أو نبت الأشجار إلى طبائع الفصول وحـــركات الشمس والقمر .. كأصحاب المذهب الطبيعى ، فإن الفاصلة التى انتهت بها الآية قد قامت بطرح القضية أمام النظر والفكر للتأمل ..

فإن كانت تغيرات الظواهر والحوادث مرتبطة بحركات الأفلاك .. ألا يثير هذا تساؤلا :. وهو .. كيف حدثت حركات الأفلاك هذه . . ؟ ألم يكن حدوثها بسبب أفلاك أخرى .. والأفلاك الأخـــرى بسبب أفلاك غيرها .. وهكذا يلزم التسلسل ، وهو تعليل باطل (١) .

أما إن كان هذا كله بسبب خالق قادر حكيم ، لتوصلنا إلى الغاية الأولى ،

---

١ ـ انظر السيوطى : الاتقان ١٠١/٢ (بتصرف)
الزركشى : البرهان ٨٤/١

وهى وجـــود الله تعالى الخالق المـدبر الذى يسير الأفلاك ، وإليه يرجع الأمر كله .

وبالنظر إلى الآية التى بعدها، نجد أنها تؤكد وتوضح ما يتوصل إليه الفكر الواعى من طريق الحق والصدق معترفاً بالله تعالى ، وتلك هى قول الله تعالى :

« وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر
والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات
لقوم يعقلون »

(الآية ١٢ من سورة النحل)

ففى فاصلة الآية عرض للقضية على أصحاب العقول ، والعقل هـــو الأداة المميزة عند الانسان ؛ فإن كان الفكر هو مجال النظر ؛ فان العقل هو الذى يميز ـــ من خلال هـذا المجال ـــ الصواب من الخطأ ، والحق من الباطل وكأنما يقال .. إن كنت عاقلا فاعلم أن التسلسل باطل ، ولذا وجب انتهاء الحركات إلى حركة يكون الاله القادر هو موجدها . وهنا يشير السيوطى بقوله « ... ومن جهة أخرى .. إذا نسبنا تأثير الطبائع إلى جميع أجـــزاء ورقة النبت الواحدة من الورد (مثلا) ، لكان التأثير واحداً من ناحية الشكل واللون ، ولمـا وجد تفاوت فى أوراق نبتة الورد ، إلا أننا نجد فى الوردة وجهاً فى غاية الحمرة ، والوجه الآخـــر فى غاية السواد ، فلو كان المؤثر موجباً بالذات لامتنع هذا التفاوت ـ كما قلنا ـ ولكن المؤثر قادر مختار ، يوضح ذلك أيضا قوله تعالى فى الآية بعد ذلك :

« وما ذرأ لكم فى الإرض مختلفاً ألوانه إن
فى ذلك لآية لقوم يتذكرون »

(الآية ١٣ من سورة النحل)

« كأن الفاصلة أيضا فى هذه الآية تقول .. تذكر ما رسخ فى عقلك ؛ وراجعه بينك وبين نفسك متدبراً متذكراً أن الواجب بالذات والطبع لا يختلف تأثيره ، ولا يتفاوت ، أما عندما ترى اختلاف التأثيرات وتفاوتها ، علمنا أن المؤثر لم تكن الطبائع ، ولكن هو الله الذى خلق كل شىء مختلف الألوان والطعوم رب الكون كله تنزهت ذاته وتعالت قدرته » (١) .

وهكذا ترى أن معرفة دور الفواصل فيما تحمله من معنى متفق تماماً مع سياق الآية ، وموضح لما جاء فيها ، وهو من العوامل التى تساعد على فهم وإدراك مقصد الآية القرآنية . وقد تحمل الفاصلة طاقات دلالية يمكن أن نتعرف عليها إذا دققنا الفهم وأمعنا النظر ، وبالتالى فإن ذلك يساعد على جلاء الأمر ومعرفة ما ترمى اليه الآية ..

أقرأ معى قول الله تعالى :

« إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم
فإنك أنت العزيز الحكيم »

(الآية ١١٨ من سورة المائدة)

يتضح أن الآية تحمل فى مضمونها معنى الغفران ؛ فمن المناسب أن تكون الفاصلة (الغفور الرحيم) ، ولكننا إذا تدبرنا الآية ، وأدركنا المقصد الذى جاءت من أجله ، عرفنا أنه لا يغفر لمن استحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه ، وهو الله العزيز الغالب ، والحكيم الذى يضع كل أمر فى نصابه ؛ فجاءت الفاصلة موافقة لذلك (العزيز الحكيم) ، فكلمة (الحكيم)

---

١ السيوطى : الاتقان ١٠٢/٢

لون من ألوان الاحتراس الحسن ، بمعنى إن تغفر لهم - مع أنهم يستحقون العذاب - فلا اعتراض عليك فى ذلك ، والحكمة كل الحكمة فيما فعلت ..

وفى سورة أخرى يقول الله تعالى :

« وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون »

(الآية ٣٧ من سورة يس)

أى إذا غربت الشمس انسلخ النهار من الليل وزال ، فظهرت الظلمة . يقول المفسرون « سئل ابن عباس ، هل الليل كان قبل أو النهار . ؟ فقال : أرأيتم إلى السموات والأرض حين كانتا رتقا هل كان بينهما إلا الظلمة .. ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار » (١) .

إذ الظلمة هى الأصل والنور عارض ، وتقرر الفاصلة هذا المعنى فى وضوح وتأكيد .

وفى ذلك يقول السيوطى « فإن من كان حافظاً لهذه السورة ، متفطناً إلى أن مقاطع آيها النون ، وسمع فى صدر الآية انسلاخ النهار من الليل ، علم أن الفاصلة (مظلمون) ، لأن من أسلخ النهار عن ليله أظلم ، أى دخل فى الظلمة ، ولذلك سمى توشيحاً ، لأن الكلام لما دل أوله على آخره نزل المعنى منزلة الوشاح » (٢) .

---

١ - انظر .. محمد على الصابونى : صفوة التفاسير ٢٥٦/٢

٢ - السيوطى : الاتقان ١٣٣/٢

وهذا القول يبين أن أول الكلام يدل على آخره لما فى الأسلوب القرآنى من تماسك وترابط ، وتداعى للمعنى ، وحسن تخلص ، وإنتقال من لفظ إلى لفظ ، وتلك سمات البلاغة والفصاحة وحسن البيان ، وبديعه.

والفاصلة لا تتنافر أبداً مع النص الذى وردت فيه ؛ فحدى ذلك بالبلغاء إلى القول عن تقابل المعانى وتعانقها ؛ فيقـول ابن الأثير « وأعلم أن فى تقابل المعانى باباً عجيب الأمر يحتاج إلى فضل تأمل ، وزيادة نظر ، وهو يختص بالفواصل من الكلام المنثور وبالأعجاز من الأبيات الشعرية » (١) ، والموضوع هنا يتعلق بالنظم القرآنى ، إذ ينوه ابن الأثير إلى أن هذه الملاءمة والمناسبة قلما توجد فى كلام ناظم أو ناثر ؛ فلم يوفق الأدباء تمام التوفيق فى هـــذا الضرب ، بل كانت المناسبة (تمام المناسبة) حجر عثرة بينهم، منهم من كان يوفق فى إصابتها، ومنهم من لم يحالفه التوفيق .

ويسوق ابن الأثير مثالا لذلك من شعر المتنبى ، عند قوله :

« وقفت وما فى الموت شك لواقف كأنك فى جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطـــال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

وقد أوخذ .. المتنبى .. على ذلك ، وقيل لو جعل آخر البيت الأول آخراً للبيت الثانى ، وآخر البيت الثانى آخراً للبيت الأول لكان أولى » (٢) .

والنظم القرآنى منزه عن هذا كله .. فما أحـكم القرآن فى رعايته للمناسبة فى اللفظ والمعنى . ! ، وما أليق الفواصل التى جاءت فى أعقاب الآيات القرآنية ،

---

١ ــ ابن الأثير : المثل السائر ١٦٣/٢

٢ ــ نفس المرجع .. ص ١٦٤

فهي تناسب الآي ، وتتفق مع أغراضها ، فكانت عاملا من عوامل بيان المعنى وإظهار المقصود ، كما أتت في ترتيب محكم معجز « ... كانت السورة تنزل لأمر ينزل ، والآية جوابا لمستخبر ، ويوقف جبريل النبي صلى الله عليه وسلم على موضع الآية والسورة ، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف ... فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن » (١) . ويقول الزركشي « قال بعض مشايخنا المحققين : قد وهم من قال .. لا يطلب للآي الكريمة مناسبة ، لأنها على حسب الوقائع المتفرقة . وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا ، وعلى حسب الحكمة ترتيبا » (٢) .

ومن هنا يمكن القول إن القرآن قد جاء في نوعين من الترتيب .. الترتيب الزمني في نزوله طبقا للوقائع والأحداث ، ليكون وسيلة ناجحة من وسائل الإقناع . وأداة صراع مع منطق الكفر ، وفيصلا حكيما عندما ينزع الناس إلى الباطل ليدحضوا به الحق . وترتيب تدويني لحكمة اقتضاها وارتضاها صاحب التشريع ليكون شعارا للأمة ومنهاجا لحياتها وموضوعا متكاملا يهيئ حياة الأمة في كل جانب من جوانبها ، وكلا الترتيبين إنما هو عن طريق الوحي ، والمناسبة في الترتيب التدويني بين الألفاظ والآيات والسور أمر لا يمكن إغفاله أو تناسيه ، ففيه دلالة على تماسك البناء القرآني وتآلفه ، فتأتي الآية

---

١ — انظر .. القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ١/٦٠

السيوطي : أسرار التكرار في القرآن ص ٢٣

السيوطي : الاتقان ١/٢١٧

٢ — الزركشي : البرهان في علوم القرآن ١/٣٧

مكملة لما قبلها ، أو مستقلة لا يخلو فيها وجه المناسبة لما قبلها أو بعدها ، وإلى هذا يشير «الزركشي» عندما يقول «وأعلم أن من المواضع التى يتأكد فيها إيقاع المناسبة مقاطع الكلام وأواخره ، وإيقـاع الشيء فيها بما يشاكله ، فلابد أن تكون مناسبـة للمعنى المذكور أ لا ، وإلا خرج بعض الكلام عن بعض ، وفواصل القرآن العظيم لاتخرج عن ذلك ، لكن منه ما يظهر ، ومنه مايستخرج بالتأمل اللبيب » (١) .

الترابط بين السور :

لا تخلو سور القرآن من الترابط والتماسك ، تسلم كل منها القيادة لما بعدها.. وهكذا ، فى خطوات متعانقة ومتآلفة حتى يأتى القـرآن وكأنه كلمة واحدة . والمناسبة بين السور والآيات والكلمات تبدو ظاهرة جلية فى هذا الترتيب الواقع فى المصاحف ، ومن خلال هـذا التآلف ، يبرز لنا وجه الحكمة فى أن ترتيب القرآن لم يكن إلا توقيفا لادخـل ليد البشر فيه ، ولن يصل منهج التفكير البشرى إلى مراعاة تلك المناسبة المعقودة بين الآى ، ولن يقوى على عملها .

وقد أطلق العلماء على هذا التناسب (علم المناسبة) وهو من لطائف علوم القرآن ، وهو موضـوع لم ينتشر كثيراً بين مؤلفات علوم القرآن فى القديم والحديث .. ويقول السيوطى « وعلم المناسبة علم شريف ؛ قل اعتناء المفسرين به لدقته ؛ وممن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازى ، فقال فى تفسيره .. أكثر لطائف القرآن مودعـة فى الترتيبات والروابط .. وقال ابن العربى :. ارتباط آى القرآن بعضها ببعض حتى يكون كالكلمة الواحدة ، متسقة المعانى ، منتظمة

---

١ ـــ الزركشى : البرهان ٧٨/١

المبانى ، علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحـــد عمل فيه سورة البقرة ، ثم فتح الله لنا فيه .. وقال غيره .. أول من أظهر علم المناسبة الشيخ أبو بكر النيسابورى، وكان غزير العـــلم فى الشريعة والأدب» (١). فيشير «السيوطى» إلى مواقف العلماء من مفسرين وغيرهم من «ظاهرة المناسبة» التى تتوفر دائما بين نصوص القرآن، وهى وجه من وجوه الإعجاز فيه ؛ فكما أن الإعجاز كامن فى فصاحة الألفاظ وشرف المعانى ، فهو أيضا فى ترتيب القرآن ونظم آياته ؛ إذ الترتيب أيضا ينطوى على أسرار لا تنتهى ، يمكننا أن نتعرف على مافيها بالتدبر والفهم .

وعلى كثرة المفسرين ، وممن كتبوا فى عـــلوم القرآن ، إلا أن الذين تعرضوا لهذه الظاهرة عدد قليل ، وأصبح ظاهراً وبارزاً فى مدرسته وبين أقرانه من تناول هذا العلم وكتب فيه .

يقول السيوطى — أيضا — « وقد جاهد أبوبكر النيسابورى فى نشر هذا العلم ؛ فجعل دروسه فى التفسير قائمة على بيان المناسبات ، ومع ذلك فقد أعلن سخطه على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبات »(٢).

والمناسبة قائمة فى الأسلوب القرآنى ومتمثلة فى اتصال كلمـــاته وتماسكها ، والكلمة القرآنية فى تلاحمها وتماسكها هى المقياس للفكر والمعرفة ، ولا تقـــاس بمعارف الناس وأفكارهم ؛ فالناس مختلفون فى المعارف متفاوتون فى الأفكار .

---

١ — السيوطى : الاتقان ١٠٨/٢

٢ — السيوطى : أسرار ترتيب القرآن ص٤٠ تحقيق عبد القادر عطا — القاهرة ١٩٧٨ .

ومن هنا كانت الكلمة القرآنية فى ثباتها ورسوخها وحسن موقعها ، والمناسبة المعقودة بينها، محوراً تدور الأفكار حوله تلتمس الحق وتنشر اليقين ، حين تصل إلى تلك المناسبة وتدركها .

وقد عرض «السيوطى» بعضاً من الأمور التى يجب أن تنظر فيها، والمعارف اللازمة إذا أردت أن تدرك المناسبات المتوفرة بين آيات القرآن ، إذ يقول: « الأمر الكلى المفيد لعرفان مناسبات الآيات فى جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذى سيقت له السورة ، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات فى القرب والبعد من المطلوب،وتنظر عند انجرار الكلام فى المقدمات إلى مايستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له، التى تقتضى البلاغة شفاء العليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها ؛ فهذا هو الأمر الكلى المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن »(١)

من الروابط التى نلحظها بين السور ماجاء فى خاتمة (سورة النساء) وكيف يناسب ماجاء بعده فى فاتحة سورة المائدة .

ففى خاتمة سورة النساء .. يقول الله تعالى :

« يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبينا . فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيما . يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة إن امرؤ

---

١ السيوطى : الاتقان ٢/١١٠

هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ماترك وهو يرثها
إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك
وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين
يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم »

(الآيات ١٧٤-١٧٦ من سورة النساء)

ففي هذه الآيات دلالة على وجود الله تعالى ووحدانيته ، وأن الكتاب جاء إلى الناس ليكون نوراً هادياً يحقق العدل بينهم إذا تمسكوا بإرشاداته وأحكامه. وجاءت كذلك بعض التفاصيل للميراث وهي من قبيل الأحكام التي جاءت من قبل في نفس السورة .

وعندما ننظر في فاتحة السورة التي تليها وهي سورة المائدة نجد قول الله تعالى:

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقـــود أحلت لكم بهيمة
الأنعام إلا مايتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم إن
الله يحكم مايريد ».

ألا ترى أن افتتاح هذه السورة مناسب لما ختمت به سابقتها من لفت النظر إلى الالتزام بعهود الله والوفاء بها ، واتباع أحكام التشريع والعمل بمقتضاها ، وهي تشريعات جاءت في السورة السابقة (سورة النساء) ، وواضح أن هناك مناسبة وتوافق في ربط السورتين ، ولا يشعر المتدبر لهذا القرآن العظيم أنه انقطع عنه ذلك السياق المسترسل ، وأن خاتمة السورة توافق افتتاح مابعدها، فتتلاحم السور كل إلى جوار الأخرى في تناسب مع الترتيب الذي جاءت فيه .

وقد تكلم « السيوطي » في هـذا الموضوع ، وأفرد له مؤلفاً أسماه (تناسق الدرر في تناسب السور) ، وسبقه في التأليف في هذا الباب « أبو جعفر

ابن الزبير ، فى كتابه (البرهان فى مناسبة ترتيب سور القرآن).

وفى سورتى المائدة والأنعام ، نجد أن سورة المائدة ختمت بقوله تعالى :

« لله ملك السموات والأرض ومافيهن وهو على كل شىء قدير »

وفى فاتحة سورة الأنعام بعدها ، يقول الله تعالى :

« الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » .

وتبدو المناسبة واضحة بينة ، إذ يشير الله تعالى فى ختام سورة المائدة إلى أن جميع المخلوقات هى ملكه وتحت قهره ، ورهن مشيئته ، وهو وحده المتصرف فيها القادر عليها لا إله غيره ولارب سواه ، واقتضت المناسبة كذلك فى افتتاح السورة بعدها (سورة الأنعام) أن تبدأ بحمد الله لنفسه حتى يلقن عباده درساً فى الحمد الدائم لله ، فهو وحده المستحق له الجدير به ، ثم تعود الإشارة إلى آيات الخلق ، فهو تعالى مالك لتلك المخلوقات ، لأنه خلقها وأبدع خلقها ، ليدرك العاقل المتدبر أن امتلاك الشىء يرجع إلى من خلقه وأوجده ، وأنه هو وحده الذى يستحق التعظيم والتبجيل ، فلا شريك له ولانظير ولاند ... فلم هذا الجحود بصنوف الإنعام والإكرام التى سبغها الله على عباده من عجائب الصنع وبدائع الحكمة ؟ ، وكلها براهين ساطعة وحجج قاطعة ، فكيف بهؤلاء الكفار أن يتخذوا أصناماً صنعتها أيديهم ، ويعدلون بها الاله الواحد القادر ..؟! فبئس صنيعهم ..

ومن جانب آخر نجد أن السورة الواحدة لا تخلو من تلك المناسبة ؛ تتسق آيات السورة الواحدة منذ فاتحتها فى انتقال مناسب من آية إلى آية حتى نهايتها ،

وتقدم لنا موضوعاً متكاملا. ففى سورة (المؤمنون) يقول الله تعالى.. فى بدايتها « قد أفلح المؤمنون » ، وفى خاتمتها « إنه لا يفلح الكافرون » ، وبين البداية والنهاية تسرد السورة موضوعاً متناسقاً . بدأت السورة ببيان طريق فلاح المؤمنين ، وأوضحت بعد ذلك مدى تمسكهم بأصول الدين الذى بينه الله تعالى لهم ، وأتت بالدلائل المقنعة على وجود الله ووحدانيته ، فصورت الكون بما فيه من إنسان وحيوان ونبات ، وما فيه من بديع الخلق والآيات الكونية التى يشاهدها الناس من حولهم ، فتشير إلى السموات وما بها من طرائق ، وإلى الأرضين وما نبت فيها من النخيل والأعناب والفواكه والثمار . ولبيان استحقاق هؤلاء المؤمنين من ميراث الفردوس أشادت بمآثرهم وفضائلهم الكريمة التى يتحلون بها ، وفى مجال تسلية المؤمنين عما يلقونه من أذى المشركين عرضت السورة ذكر بعض الأنبياء السابقين ، فجاءت بقصة نوح ، وهود ، وموسى . ويتم فى السورة فى غير انفصال ولا انقطاع إلى حال المنكرين لهذه النعم والمغفلين لتلك العظات ، وما كان فى سرد قصص الأنبياء والمرسلين من عبر تناسوها ، وضربوا عنها صفحاً ، وكان مناسباً أن تتحدث السورة عن مصائر هؤلاء ، وما يلقونه من الأهوال والشدائد ، وهم فى سكرات الموت ، وتمنياتهم فى العودة إلى الدنيا حتى يصلحوا ما فاتهم ولكن .. هيهات .. هيهات فقد انتهى الأجل ، واستحال تحقيق الأمل .

وتعقد السورة ــ بعد ذلك ــ مقارنة بين تلك الأحوال يوم القيامة حيث ينقسم الناس إلى سعداء وأشقياء ، فلا ينفع إلا العمل الصالح والإيمان الحق ، فكان من حسن المناسبة أن تذكر السورة فى ختامها عدم فلاح الكافرين . وهكذا تترابط الآيات فى السورة منذ بدايتها إلى نهايتها ، ويتعانق أولها مع آخرها .

والأمر هنا لا يخفى على من تدبر موضوع الترتيب فى القرآن ، وفقه تلك المناسبة التى لا تخلو منها الآيات والسور .

وما من شك فى أن إدراك تلك المناسبة المعقودة بين الآيات سواء أكان ذلك بين سورة وأخرى ، أم بين آيات السورة الواحدة ، والتعرف على هـذا الترابط — يفيد فى إظهار أغراض الآيات ، وبيان أهدافها .

الموضوع السادس

ظاهرة النسخ فى القرآن

المحتوى ..

* بيان وأهمية
* نسخ الحكم وبقاء التلاوة ـ نوع من التدرج
* رأى حول نسخ الحكم والتلاوة معاً
* رأى حول نسخ التلاوة دون الحكم
* نتيجــــة

بيـان واهميـة

تعتبر قضية النسخ من أخص القضايا التى تتعلق بالنص القرآنى ، إذ يقتضى النسخ إنتهاء العمل بالحكم المستنبط من الآية المنسوخـة ، وتبديله بحكم آخر .
وقضية النسخ تعرضت لكثير من الآراء والخلافات ، ما بـين مقرر ومنكر ، وما بين مؤيد ومعارض ، وما بين مقتصد ومتزيد .

لكن معرفة النسخ من المعارف العظيمة الشأن ، وموضوعها من الموضوعات البارزة فى مجال علوم القرآن ، وفى التفسير والفقه والأصول .

ولا تخلو كتب علوم القرآن قديمها وحديثها من أبحاث حول هذا الموضوع وذلك منذ مطلع القرن الثانى الهجرى إلى الآن .

فمن العلماء من خصص لموضوع النسخ مؤلفات تفردت به : منهم :-

«ابن قتادة السدوسى المتوفى عام ١١٨هـ وقد
صنف كتاباً فى ناسخ القرآن ومنسوخه »(١)

وكما يذكر صاحب الطبقات أن ابن قتاده هو أحـد التابعين الذين عاشوا فى البصرة ، وكان على رأس من كتبوا فى الناسخ والمنسوخ .. ، ومنهم أيضا ..

« الامام احمد بن حنبل المتوفى عام ٢٤١ هـ ، فقد كان له من المؤلفات بينها تفسير القـــرآن الكريم ، وناسخ القرآن ومنسوخه ، التى رواها عنه ابنه عبد الله وإن كان هذا الكتاب من الكتب المفقودة ، فإن ابن الجرزى قد

---

١ ـ ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢٢٩/٧ دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٧٨.

نقل عنه الكثير » (١) .

(م ٠ ٣١٠ هـ) .

وكذلك العلامة ابن جرير الطبرى (م ٠ ٣١٠ هـ) ألف فى الناسخ والمنسوخ والعلامة أبو بكر الباقـــلانى (م ٠ ٤٠٢ هـ) والقاضى أبو بكر بن العـــربى (م ٠ ٥٤٧ هـ) ، كما جاء فى تهذيب التهذيب ، وتاريخ بغداد .

ومن كتبوا فى الناسخ والمنسوخ فى مؤلفات غير منفردة بهذا الموضوع ، وإنما أتت ضمن موضوعات أخرى فى علوم القرآن ، الإمام بدر الدين الزركشى المتوفى ٧٩٤ هـ فى كتابه « البرهان » ، والعلامة جلال الدين السيوطى المتوفى ٩١١ فى كتابه « الاتقان » . . . وغيرهم .

وتلك الأعمال ، تبين لنا إلى أى مدى ذاعت تلك القضية وانتشرت بين علماء المسلمين ، ونالت من اهتمامهم ؛ فأكثروا الكتابة فيها .

ولا يخفى علينا أن النسخ قـــديم قدم الكتب السماوية . وهو يقع بين نصوص التشريع الواحد ، وبين الشرائع المتعـــددة . ويلحق النسخ النصوص الحكمية ، ولا يلحق ــ بطبيعة الحال ــ نصوص العقيدة أو أمور الدين الضرورية أو الأخبار ؛ فتلك أمور لا تغير فيها ولا تبديل . والنسخ من الظواهر التى عملت بين التشريعات منذ أن بدأت .

---

١ ــ تهذيب التهذيب : شهاب الدين أبو الفضل احمد بن حجر العسقلانى ٧٢/١ حيدر آباد مطبعة مجلس دائرة المعارف ١٣٢٥ هـ

الخطيب البغدادى (أبو بكر احمد بن على) : تاريخ بغداد ٤٢٢/٤ مكتبة الخانجى القاهرة ١٩٣١م

والله تعالى حين ينسخ شريعة بكاملها ، أو حكماً فى شريعة ما ، إنما يريد أن يحقق لعباده مصلحة ، وأن يرشدهم إلى ما يقـــوم حياتهم ، ويسعد معاشهم ومعادهم .

وأضحت ظاهرة النسخ تحتوى على كثير من الجوانب الهامة ؛ فأصبح لزاماً على من يتصدى لكتاب الله بالتفسير والفهم أن يكون عالماً بهذا الموضوع ..

« قال الأئمة : ولا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ » (١) .

كما أن

« معرفة النسخ شرط فى جواز الإفتاء والقضاء ؛ فإن المفتى أو القاضى إذا لم يعرف النسخ فى الأحكام فقد يقع فى الإفتـاء أو القضاء بحكم غير ثابت فى الشريعة » (٢) .

وقضية النسخ قد اعتمدت أساساً على تلكم الآيتين الكريمتين :

« ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير »

(الآية ١٠٦ من سورة البقرة)

« وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل

---

١ — الزركشى : البرهان ٢/٢٩

٢ — د. محمد سليم العوا : تفسير النصوص الجنائية ـ دراسة مقارنة ص ١٤٦ ط. أولى دار عكاظ للنشر ـ السعودية ١٩٨١ .

قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون »
(الآية ١٠١ من سورة النحل)

وهكذا تبدو قضية النسخ على جانب كبير من الأهمية والخطورة ، إذ تتعلق بما تغير أو تبدل من أحكام شرعية .. وما هي تلك الأحكام التي استقرت ، أو صاحبت ظروف التغير ، حتى يمكن العمل بمقتضاها .. ؟

والشاهد أن النسخ واقع فى كتاب الله نقلا وعقلا ، وواقع كذلك فى الشرائع السابقة .

يقول ابن جرير الطبرى فى تفسير آية النسخ ..

« ما ننقل من حكم آية إلى غيره فنبدله ونغيره وذلك أن نحول الحلال حراما أو الحرام حلالا والمباح محظورا ، والمحظور مباحا ، ولا يكون ذلك إلا فى الأمر والنهى والحظر والإطلاق والمنع والإباحة ، أما الأخبار فلا يكون ناسخ ولا منسوخ »

كما يمثل معنى « النسخ » أنه من « نسخ الكتاب » وهو نقله من نسخة إلى أخرى غيرها فكذلك معنى « نسخ » الحكم إلى غيره ، إنما هو تحويله ونقل عبارته عنه إلى غيرها (1) .

وقد جاء فى تفسير بن كثير ...

---

١ — أبو جعفر بن جرير الطبرى : جامع البيان عن تأويل القرآن ص ٤٧٢ المجلد الثانى — تحقيق شاكر — دار المعارف بمصر .

« قال ابن عباس (ما ننسخ من آية ...) أى
ما نبدل من آية ... (أو ننسها) تقرأ على وجهين
ننسها (بضم النون) ، وننسأها (بفتح النون
والهمزة) ومعناها نؤخرها ، وقال مجاهد عن أصحاب
ابن مسعود (أو ننسأها) أى نثبت رسمها ونبدل
حكمها ، وقال مجاهد وعطاء (أو ننسأها) نؤخرها
ونرجئها » (١)

ومن خلال تلك التفاسير يتضح أن معنى النسخ يدور حول التغيير ، وإبدال حكم الآية بحكم آخر تحمله آية أخرى . وهو أمر لا يمكن القول به إلا عندما تثبت الآيتان فى القرآن ، إحداهما نسخ حكمها ، والأخرى عمل بحكمها .

أما موضوع النسخ فى الرسالات السابقة على الاسلام فقد نوه عنه القرآن الكريم إذ كانت تحريم الأشياء التى أحلت من قبيل العقوبة والجزاء حين ينحرف الناس عن جادة الدين ، تجد ذلك فى قول الله تعالى ..

« فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات
أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً »
(الآية ١٦٠ من سورة النساء)

فكانت تنسخ أحكام ، وتأتى أحكام غيرها .
وكذلك عندما يشير القرآن إلى مجىء عيسى عليه السلام ..

---

١ — مختصر تفسير ابن كثير ١٠٣/١ محمد على الصابونى - دار القرآن الكريم بيروت ١٣٩٢ هـ

« مصدقاً لرسالة موسى ، مؤيداً لما جاء به في التوراة ، وليحل لهم ما كان محرماً عليهم في شريعة موسى ، قال ابن كثير . . وفيه دليل على أن عيسى نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح » (١)

يقول القرآن في ذلك . .

« . . ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون »

(الآية ٥٠ من سورة آل عمران)

وفي موضع آخر . .

« وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون »

(الآية ١٤٦ من سورة الأنعام)

وفي ذلك كله يرشد الله تعالى إلى أنه هو المتصرف في خلقه بما يشاء ، له الخلق والأمر ، يحل لهم ما يشاء ، ويحرم عليهم ما يشاء إما لمصلحة يعلمها أو عقابا على ذنب مقترف ؛ فهو الذي يحكم لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل .

---

١ — محمد على الصابوني : صفوة التفاسير ٢٠٣/١

والنسخ إنما هو اختبار للعباد ، يأمر بالشيء لمصلحة يعلمها ، ثم ينهى عنه لما يعلمه أيضا ، والطاعة كل الطاعة فى امتثال أمره ، واتباع رسله فى تصديق ما أخبروا ، وامتثال ما أمروا به .

وعلينا أن نتعرض لآية النسخ ومناسبة ذكرها ، وما هو المقصد من ورائها ؟ وهنا يلزمنا أن نلتفت الى ما ذكر قبلها من آيات . .

يقول الله تعالى . .

« يا أيها الذين آمنو لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم . ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم »

(الآيتان ١٠٤ ، ١٠٥ من سورة البقرة)

ويذكر الله تعالى قبل هاتين الآيتين قبائح اليهود ، وما اختصوا به من ضروب السحر والشعوذة،أعقبه بيان نوع آخر من السوء والشر الذى يضمرونه للنبى وللمسلمين ، والطعن والحقد ، وتمنى زوال النعمة من المؤمنين ، وعند ذلك كانوا يتخذون الشريعة الغراء هدفا للطعن والتجريح بسبب النسخ لبعض الأحكام .

« وقد روى أن اليهود قالوا . . ألا تعجبون لأمر محمد ؟! يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ، ويقول اليوم قولا ، ويرجع عنه غداً ، فما هذا القرآن إلا كلام

محمد يقوله من تلقاء نفسه يناقض بعضه بعضاً
فنزلت (ما ننسخ من آية . .) » (١) .

أما الآيتان المذكورتان فهو نداء من الله تعالى للمؤمنين يظهر فيه النهى عن التشبه بالكافرين فى مقالهم وأفعالهم ، ذلك لأن اليهود كانوا يلجأون إلى ما فيه التورية من الكلام بقصد التنقيص والاستهزاء ، فإذا أرادوا أن يقولوا للرسول صلى الله عليه وسلم ، اسمع لنا . . يقولون « راعنا » يورون ذلك بالرعونة ، وفى ذلك يقول الله تعالى . .

« من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه
ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا
لياً بألسنتهم وطعناً فى الدين ولو أنهم قالوا سمعنا
واطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم
ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا »

(الآية ٤٦ من سورة النساء)

يحذر الله تعالى المؤمنين محاكاة اليهود أو الاقتداء بهم عندما يقول « يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا . . . » ، كما يحذرهم من لى ألسنتهم ، وألا يقولون لنبيهم (راعنا) ، فهى كلمة كره الله تعالى أن تقال لرسول .

وهكذا تشير الآيات إلى قبائح اليهود ، وما يقومون به من تبديل كلام الله

---

١ — الزمخشرى : تفسير الكشاف ١٢١/١ دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت
الألوسى البغدادى : روح المعانى تفسير القرآن العظيم ٣٥٢/١ المطبعة المنيرية - بيروت

فى التوراة ، ويفسرونه بغير ما جاء به قصداً منهم وعمداً ، وأنهم يتحدون الرسول عليه الصلاة والسلام بقولهم له سمعنا قولك وعصينا أمرك ، واسمع ما نقول .. لا سمعت ، وكلامهم يحتمل وجهين .. أى يحتمل الخير والشر ، وأصله للخير أى لا سمعت مكروهـا .. ولكنهم كانوا يقصدون به الدعاء على الرسول ، وأنهم يهزءون بكلامهم هـذه ، إذ يتكلمون بكلام محتمل وينوون به الإهانة ، ويدعون إظهار التوقير والإكرام .

وكذلك فإن أهل الكتاب والمشركين لا يحبون أن يأتى الخـير للمؤمنين لما هم عليه من بغض وحسد ، ولكن الله وهـو ذو الفضل يختص برحمته من يشاء .

وعندما طعن اليهود فى القرآن بسبب النسخ كانوا يظنون أن طعنهم هـذا يمكنهم من القول بأن شريعتهم لم تنسخ ، وأنها باقية ، وهذا هو عـين الكفر والعناد ، فكان الرد عليهم من خلال الآية الكريمة « ما ننسخ من آية .. » رداً يوقف اعتراضاتهم التى أثاروهـا بقصد بلبلة عقول المسلمين . كانوا يشيرون إلى ما جاء به القرآن مؤكداً أن التوراة كتاب من عند الله ، والقرآن أيضاً كتاب من عند الله .. فكيف يأمر القرآن بأشياء تختلف عما جاء فى الكتب السابقة . ؟ وكيف يوصى بوصايا ، ويصدر تعليمات ، متباينة فى أوقات مختلفة ، وتلك ـ ولا شك ـ ادعاءات يحاولون من خلالها إنكار النسخ حتى ينفوه عن شريعتهم ، كما يشيرون إلى أن القرآن يدعى أن اليهـود والنصارى نسوا جزءاً من التعاليم والآيات التى جاءت اليهم ، فكيف يمكن أن تمحى تعاليم الله وآياته من الذاكرة والأذهان ؟ .

ومن الواضح أن هـذه المحاولة من جانب أهل الكتاب إنما هى محاولة

مستهدفة !! يريدون من ورائها إضفاء الشرعية على ما أتو به من تحريف وتغيير الكتب الآلهية . ويطالعنا قول « أبو الاعلى المودودى » .

« والواضح تماما أن اليهود ما أثاروا هـــذه الاعتراضات بغية الوصول إلى الحقيقة ؛ بـــل لإثارة الشبهات ، وخلق الارتياب فجاء العلى القدير عـلى اعتراضاتهم (بمـا يفيد) إننى أنا الحاكم المطلق لا شيء يحد قواى ، وفى وسعى أن ألغى أى أمر اصدرته او اسمح بنسيانه ، لكنى آتى ببديل عنـه يؤدى نفس الغرض . على نحو أفضل أو على نحو مماثل » (١)

وعندما نتلمس هذه الحقائق النقلية والعقلية نجد أن ما دفع أهل الكتاب من اليهود والنصارى فى إثارة دعوتهم إلى انكار النسخ ليس إلا الكفر والعناد والتشويه والإفساد ، فليس ثمت دليـل على امتناع وجود النسخ فى أحكام الله تعالى ، ولا مناص من إقراره ، أما المنكرون فإنما يقصدون اليه مضياً فى طريق الطعن فى الإسلام وأهله .

ولم يكن هذا الإنكار إلا دافعاً لعلماء المسلمين فى رد الشبهات ، وإظهار الحق ودحض الباطل ، يحدوهم حماسهم الدينى وغيرتهم على كتاب الله ، وحرصهم الشديد على سلامة التشريع . فصالوا وجالوا فى هذا الميدان ولكنهم تزيدوا فى القول ، حتى وصل الأمر بهم الى التعرض لبعض المسائل التى لا تندرج تحت مفهوم الناسخ والمنسوخ ، إذ جعلوا تخصيص العام ، وتقييد المطلق ، وتفسير المبهم من موضوعات الناسخ والمنسوخ .

---

١ — أبو الأعلى المودودى : تفهيم القرآن ٩٣/١ دار القلم ـ الكويت ١٩٧٨

قسم العلماء حالات النسخ إلى ثلاثة أقسام :

— نسخ الحكم دون التلاوة .

— نسخ الحكم والتلاوة معاً .

— نسخ التلاوة دون الحكم .

وحول هذه الأقسام لنا موقف ورأى ،وعلينا أن نتناول تلك الحالات بشىء من التحليل حتى نتعرف على ما يمكن قبوله ورفضه ، واذا ما استقر بنا الأمر ، فقد يساعد هذا على الإدراك الصحيح لما يدخل تحت باب الناسخ والمنسوخ .

نسخ الحكم وبقاء التلاوة ـ نوع من التدرج

من ذلك قول الله تعالى . .

« والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية
لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج فإن خرجن
فلا جناح عليكم فى مافعلن فى أنفسهن من معروف
والله عزيز حكيم »

(الآية ٢٤٠ من سورة البقرة)

ففى حالة وفاة الزوج ، وترك الزوجة ، فإنها تعتد سنة فى بيته ، ينفق عليها من ماله ، حتى تمام الحـــول إن اخترن ذلك . وهو وضع قد اتبع فى اول الإسلام ، ثم نسخ هذا الحكم بحكم آخر ، جاء فى قول الله تعالى . .

« والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن
أربعة أشهر وعشراً فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما
فعلن فى أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير »

(الآية ٢٣٤ من سورة البقرة)

ومعلوم أن هذه الآية متقدمه فى الترتيب القرآنى إلا أنها متأخرة فى التنزيل الزمنى عن سابقتها ، وفى ذلك يروى الطبرى خبراً بسنده .

« إن امرأة أتت النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد توفى عنها زوجها ، وقد اشتكت عينها وهى تريـــد أن تكمل عينها ، فقال رسول الله : وقد كانت إحداكن ترمى بالبعرة بعد الحول ، وإنما هى أربعة أشهر وعشراً .

(وفى بيان ذلك يروى خبراً آخر ..)

« كانت المرأة فى الجاهلية إذا توفى عنها زوجها عمدت إلى شر بيتها ؛ فقعدت فيه حولا ، فإذا مرت بها ألقت بعرة وراءها » (١)

والواضح أن الرسول عليه الصلاة والسلام يشير إلى تعـديل الحكم وإبداله بحكم آخر خفف من زمن العدة ؛ فبعد أن كانت مدة التربص الأولى حولا كاملا أصبحت أربعة أشهر وعشر ليال*، وكلا النصين ثابت فى كتاب الله ، ولم ينسخ إلا الحكم الأول أى تبدل إلى حكم آخر . والانتقال هنا من الصعب إلى السهل . وقد كان أهل الجاهلية ـ بإزاء ذلك ـ يحبسون المرأة التى مات عنهـا زوجها ، ويحرمونها من الزينة ، ومن التزوج ، ومن كل شئون الحيـاة طول

---

١ ـــ الطبرى : جامع البيان عن تأويل القرآن ٨٣/٥

* أما المتوفى عنها زوجها وهى حامل فإن عدتها وضع الحمل ، لقوله تعـــالى « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً » (الآية ٤ من سورة الطلاق)

حياتها ، ألا ترى فى هذا الأمر نوع من التشدد قد يثقل على النفس الانسانية ، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يقلعهم عن تلك العادة بالتدريج ، ففرض على المرأة أن تنتظر سنة بعد وفاة زوجها ، وتلك صبغة التشريع الإسلامى عندما ينتقل بالتكاليف من الصعب إلى السهل ، وعندما يستقر الحكم الجديد بينهم ، ويتمرسون به ، أضحى يسيراً أن يتقبلوا حكما أخف ، فتنخفض مدة العدة إلى أربعة أشهر وعشر ليال . وهى مدة — لا شك — تعتبر ملائمة تمام الملاءمة ، إذ أنها أقل مدة ممكنة كما يشير إلى ذلك الفقهاء فى قولهم . .

« وانما قدرت بهذا العدد بخصوصه . . لأن الغرض من مشروعية العدة ، براءة الرحم من جهة ، وحقوق الزوجية من جهة اخرى وفى بيان للأطوار التى يمر بها الرحم حتى يبرأ . . يقولون . . إن الوليد يمكث فى الرحم أربعين يوماً نطفة ، وأربعين يوماً علقة ، وأربعين يوماً مضغة ثم ينفخ فيه الروح التى بها الحياة والحس والحركة ؛ فقد قدر لبراءة الرحم هذه الأشهر الأربعة ، مضافاً إليها عشرة أيام تظهر فيها حركته ؛ فتتحقق المرأة من شغل الرحم وعدمه بعد هذه المدة » (١)

ومن ناحية أخرى قد تكون هذه المدة كفيلة بأن تراعى فيها حرمة الزوج المتوفى ،ورعاية خاطر أهله الأحياء ، وألا تبادر الزوجة أهله المكلومين بالتزوج من غير المتوفى ، حرصاً عليهم من التألم بآلام الغيرة ، وكلها أمور لاتخلو منها

---

١ — عبد الرحمن الجزيرى : الفقه على المذاهب الأربعة ٥٢٩/٤ المكتبة التجارية القاهرة ١٩٦٩ .

النفس البشرية . ومن آداب التشريع رعاية الأحاسيس والمشاعر ، والعمل على التحلى بالذوق الخلقى الرفيع .

ومن ذلك أيضا قول الله تعالى ..

« واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا
عليهن أربعة منكم فإن شهـــدوا فأمسكوهن فى
البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا »
(الآية ١٥ من سورة النساء)

تفيد الآية أن المرأة إذا ثبت بالبينة العادلة أنها زنت ، حبست ولا تمكن من الخروج حتى تموت ، وكان هذا فى بداية الاسلام ، وظل هذا الحكم قائما ، حتى نسخ بآية أخرى ..

« واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا
وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان توابا
رحيما» (الآية ١٦ من سورة النساء)

وهى تلى الآية السابقة ، والضمير فى « يأتيانها » يربطها بها ويعود على لفظ (الفاحشة) ، وهو حكم جديد يقرر الإيذاء بدلا من الحبس ، ويقول الفخر الرازى ...

« خص الحبس فى البيت بالمرأة وخص
الإيذاء بالرجل لأن المرأة إنما تقع فى الزنا
عند الخروج والبروز فإذا حبست فى البيت
انقطعت مادة هذه المعصية ، وأما الرجل
فإنه لا يمكن حبسه فى البيت لأنه يحتاج إلى

الخروج فى إصلاح معاشه واكتساب قوت
عياله فلا جرم عقوبتها مختلفة ، (١)

وأيا كان الأمر فى تنويع العقوبة بما يناسب الرجل وبما يناسب المرأة ، فهو انتقال من حكم إلى آخر ، وبطريق التدرج تأتى آية أخرى تحدد العقوبة والإيذاء ، وتنسخ ماقبلها من أحكام تتعلق بجريمة الزنا ، وهى قول الله تعالى ..

« الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة
جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ... »
(الآية ٢ من سورة النور)

فأصبح الحكم الأخير بديلا من عقوبات المسك والإيذاء ، وكان الحكم بالجلد هو الحكم الناسخ لماقبله ، وهو الحكم المستقر .

يقول القرطبى ...

« ... (فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت) هذه
أول عقوبات الزناة ، وكان هـــذا فى ابتداء
الاسلام ، قال عبادة بن الصامت ، والحسن ،
ومجاهد حتى نسخ بالأذى الذى بعده ، ثم نسخ
ذلك بآية النور ، وبالرجم فى الثيب » (٢)

١ — الفخر الرازى : التفسير الكبير ٩/٢٣٥ ـ المطبعة البهية المصرية.

٢ — القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ٥/٦٤ مصورة عن طبعة دار الكتب .
دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٧.

وتشير السنة مفسرة لهذا الحكم أن الجلد لغير المحصن ، أما المحصن فالرجم .

« عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فى المسجد ، فناداه ، فقال يارسول الله : إنى زنيت ؛ فأعرض عنه حتى رد عليه أربع مرات . فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فقال أبك جنون ؟ قال : لا ، فهل احصنت ؟ قال نعم ؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : اذهبوا به فارجموه »(١)

وهكذا تتبدل الأحكام وتنتقل الآيات من حكم إلى حكم حتى يستقر التشريع بحكم مناسب ، وأن الآيات التى تحمل تلك الأحكام المتغيرة إنما هى ثابتة فى كتاب الله تعالى .

ويتضح فى تلك الآيات رعاية التشريع للمصالح الإنسانية مؤدياً دوره فى رعاية النفس الإنسانية وتطهيرها .

فقد يشق على نفس الإنسان أن يظل حبيساً لقاء جريرته ، دون علم بما هو مقرر له من عقاب يحدد نهاية هذا الوضع المؤلم ؛ فالمسجون (مثلا) فى سجنه يتطلع إلى معرفة الحكم ، وتنوء نفسه بمدة بقائه إذا طالت ، فهو يرغب فى أن تلحق به العقوبة حتى يخلص مما يراود فكره ، أو يؤنب ضميره ، ولو كانت هذه العقوبة هى الإعدام . فوضع النهاية لهذا السجين بتنفيذ الحكم — مهما كانت مشقته وخطورته — إنما هى طهارة للنفس والجسد معاً عما اقترفه من ذنب وراحة للضمير الإنسانى ، وقد يكون عندها ثواب فى الآخرة ..

---

١ — صحيح البخارى ٢٠٥/٨ دار مطابع الشعب ـ القاهرة .

عليهم مكانه صوم شهر كامل كل سنة أثقل على الأبدان من صيام أيام معدودات ، غير أن ذلك وإن كان كذلك ، فالثواب عليه أجزل ، والأجر عليه أكثر لفضل مشقته على مكلفيه من صوم أيام معدودات ، فذلك وإن كان على الأبدان أشق ، فهو خير من الأول في الآجل لفضل ثوابه وعظم أجره . . . » .(١)

وان كان في النسخ — أيضا — انتقال من حكم سهل الى حكم صعب — كما يشير الطبري — ، فلن تصل تلك الصعوبة إلى حد القسر أو الشدة — وهو ما لم يحدث في التشريع الاسلامي — ولكنه من الصعب المحتمل أو التشدد المطاق ، ولن يكلف الله النفس الإنسانية إلا قدر تحملها، وإلا أصبحت التكاليف ضربا من الخيال والعبث .

والتشريع يلجأ إلى التشدد (المحتمل) في بعض الأحيان لضبط سير المجتمع وإحكام سلوكياته ، أو عظم الثواب والأجر في الآخرة .

ومن النسخ ما يأتي فيه الحكم الناسخ مساو ومماثل للحكم المنسوخ . منها قول الله تعالى ..

« سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن
قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق
والمغرب يهدي من يشاء إلى طريق مستقيم.
وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا

---

١ — محمد بن جرير الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢/٤٨٢
تحقيق شاكر — دار المعارف — مصر

شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم
شهيدا وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا
لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه
وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله
وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس
لرؤوف رحيم » (الآيتان ١٤٢ ، ١٤٣ من سورة البقرة)

وتأتى الآية الناسخة لهذا الحكم بتحديد وجهة القبلة فى قوله تعالى ..

« قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة
ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث
ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا
الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل
عما يعملون » (الآية ١٤٤ من سورة البقرة)

تتناول هذه الآيات الإخبار بما سيقوله ضعفاء العقول، وهو إخبار بالغيب يعلمه الله تعالى .. يتساءلون عما صرف المسلمين عن قبلتهم التى كانوا يصلون إليها ، وهى بيت المقدس .. ؟ ، وذلك أن الرسول لما قدم مهاجراً إلى المدينة صلى نحو بيت المقدس ، واستمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهراً . يقول ابن هشام فى سيرته ..

« وفى شعبان على رأس ثمانية عشر شهرا من مقدم
رسول الله المدينة ، صرفت القبلة إذ كان الرسول

يصلي إلى بيت المقدس قبل أن تحول إلى الكعبة»(١)

فمن المعلوم أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يتوق إلى التوجه إلى الكعبة ويردد بصره جهة السماء تشوقا لتحويل القبلة ؛ فجاءت الآية تشير إلى القبلة التي يرضاها الرسول ، وهي الكعبة قبلة ابراهيم عليه السلام .

وقد اتخذ اليهود هذا التحول مطعنا يوجهون من خلاله ضربات النيل من الإسلام مدعين « أن محمداً قد اشتاق الى مولده ، وعن قريب يرجع إلى دين قومه ، فأخبر الله رسوله الكريم بما سيقوله السفهاء ، ولقنه الحجة الدامغة ليرد عليهم ، ويوطن نفسه على تحمل الأذى منهم عند مفاجأة المكروه ، وكان هذا الإخبار قبل تحويل القبلة معجزة له عليه السلام. »(٢)

وقد يكون استقبال بيت المقدس عند مقدم الرسول إلى المدينة سبيلا لاستمالة القلوب إلى هذا الدين الجديد ، ولم يشأ الله تعالى أن يفاجيء أهل الكتاب — وهو المجتمع الغالب على سكان المدينة آنذاك — بسلوك يخالف ما عهدوه عن أنبيائهم ، حتى يبين لهم أن وجهة الرسل كلها واحدة ، وأن محمدا عليه الصلاة والسلام لم يخالف ذلك لتتهيأ نفوسهم لقبول ما هو آت من تحويل القبلة الى الكعبة ، وقد كان توجه الرسول الى بيت المقدس يعجب أهل الكتاب، ويسرهم ، إذ زعموا أن قبلتهم (وهي بيت المقدس) هي القبلة ، وأن دينهم هو الدين ، وعلى محمد ومن معه أن يفيئوا إلى دينهم، لا أن يدعوهم إلى الدخول

١ — محمد عبد العزيز الشبراوي : تقريب السيرة النبوية لابن هشام ص ٢٧٠ ط. أولى مطبعة الحلبي بمصر ١٩٥٥

٢ — انظر .. محمد علي الصابوني : صفوة التفاسير ١٠١/١

فى دين الإسلام ، ولما نزل القرآن مستجيباً لما يعتمل فى صدر الرسول من رغبة فى استقبال البيت الحرام أنكروا ذلك أيضا ، وانطلقوا يقودون حملة التشكيك والطن فى دين الله ، وأن ما جاء به محمد ليس وحيا يتلقاه من الله ، وأنه يقول ما يشاء حسبما يرى . وهكذا كان ابتلاء الله لهم ولمن سار على منوالهم ؛ فقد انتهوا الى العناد والمكابرة ، وأراد الله أن يبين لرسوله أنهم ما تركوا قبلتك لشبهة عارضة تزيلها الحجة ، وإنما خالفوك عناداً واستكباراً .

وقد رأينا أن النسخ يعمل على تبديل الحكم بما يتفق ومقتضيات الأحوال ونلحظ هنا الانتقال من حكم إلى حكم آخــــر يماثله ، وهو التوجه إلى القبلة وإليها يشير الطبرى عند تفسير « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ... » وحول مفهوم (... أو مثلها ...) يقول ..

« أو يكون مثلها فى المشقة على البدن واستواء الأجر والثواب عليه نظير نسخ الله تعالى ذكره ، فرض الصلاة شطر بيت المقدس إلى فرضها شطر المسجد الحرام ؛ فالتوجه شطر بيت المقدس ، وإن خالف التوجه شطر المسجد ؛ فكلفة التوجه واحدة ، لأن الذى على المتوجه شطر بيت المقدس من مؤونة توجهه شطره ، نظير الذى على بدنه من مؤونة توجهه شطر الكعبة ، سواء فذلك هو معنى (المثل) الذى قال جل ثناؤه .. أو مثلها .. » (١)

فظاهرة النسخ — إذن — هى أسلوب من أساليب تلك المعـــالجة ، سواء

---

١ — محمد بن جرير الطبرى : جامع البيان عن تأويل آى القرآن ٢/٤٨٣

انتقلت دلالة الآية من تكليف أثقل إلى تكليف أخف أو العكس، أو كان الحكم الناسخ مساويا ومماثلا للحكم المنسوخ.

أما إذا نسخت تلاوة النص أى نسخ رسمه من القرآن لما أمكن أن نستوضح فكرة التدرج على هذا النحو ، أو نتتبعها ونبرز حكمتها .

ولا شك أن أسلوب التدرج والانتقال واقع بين الرسالات السماوية كلها ، فمنذ أن بدأت تلك الرسالات كانت خاصة بأقوام ، محددة بأزمان ، وجاءت تباعا بعضها ينسخ بعضا ، ويكمل بعضها بعضا ، ذلك الطريق الذى سلكته رسالات السماء يعتبر مواكبة لتطورات العقل ، ودرجات الفكر الإنسانى ، وإن اتفقت كلها فى العقيدة ، واتحدت فى الهدف .

ويظهر هذا التدرج بوضوح فى النص القرآنى ، عند النظر فى ظاهرة النسخ ومناسبات النزول ، وفى مكى القرآن ومدنيه ، وفيها يصاحب النص مقتضيات الأمور ويراعى تغير الأحوال ، يجرى كل ذلك فى حركة متتابعة ومناسبة،وعلى سنن محكم لا يضطرب ولا يختل ، وتلك سنة الله ولن تجد لسنته تبديلا .

والأمر ظاهر غير خفى فى هذا النوع الذى تعرضنا له فى ظاهرة النسخ ، فتبدو المخاطبة القرآنية مناسبة وموائمة عندما تتصل فى الوقائع والأحداث وتكون أدعى للقبول والرضى ، وأقرب إلى الإقناع .. ويقول مالك بن نبى..

« ولو أن القرآن كان قد نزل جملة واحدة لتحول سريعاً إلى كلمة مقدسة خامدة وإلى فكرة ميتة ، وإلى مجرد وثيقة دينية ، لامصدرا يبعث الحياة فى حضارة وليدة » (١)

١ — مالك بن نبى : الظاهرة القرآنية ص ٢٢٢

وهي منهجية جديرة بالانطواء على تربية خلقية ونفسية للمجتمع الإسلامي، والمشرع في ذلك أعلم بدخيلة النفس وما تخفي الصدور .

في هذا النوع من النسخ ، وهو نسخ الحكم مع بقاء التلاوة وجدنا أن الحكم ينتقل في عدد من الآيات يلحق تاليها سابقها في تسلسل زمني حتى يستقر الحكم المعمول به ، وهي في الوقت نفسه تتناول قضية واحدة تتغير حيالها الأحكام وتتجدد في تناسق تام مع الظروف وتحقيق المصلحة ، ومع المصلحة يدور الحكم وجودا وعدماً (كما يقول أصحاب الأصول) . وعند نسخ تلاوة آية من هذه الايات ينعدم إدراك التدرج ، ويصعب تسلسله وإدراك مغزاه .

وبصفة عامة ؛ فإن منهج الدعوة في دور التأسيس يختلف عن مسلكها في مرحلة التكوين والبناء ، ومرحلة النضج والاستواء ، ذلك الذي يسوغ حركة الانتقال من حكم الى آخر حتى تصل الدعوة الى تحقيق مقاصدها .. ويقول الشيخ مصطفى شلبي ..

« إن النسخ مشروع لمراعاة مصالح الناس في وقت الرسالة لأنهم كانوا في جاهلية تعمها الفوضى التي لاحدود لها ، فاقتضت حكمة الشارع الحكيم ألا ينقلهم دفعة واحدة إلى مايستقر عليه التشريع آخر الأمر ، بل سلك بهم طريق التدرج بأن ينقلهم من حالة إلى حالة ، إلى أن تتهيأ نفوسهم إلى تقبل حكمه النهائي؛ فيأتي ذلك الحكم ، بل أحكام يسلم فيها الحكم السابق إلى مابعده ، أو يبدأ في تقرير الحكم خطوة خطوة حتى يصل إلى الغاية ؛ فيمهد الحكم السابق للاحق (كما في تشريع الصلاة ؛ فقد

شرعت أولا ركعتين فى الغداة ، وركعتين فى العشى ، ثم
شرعت خمساً ، ركعتين ركعتين عدا المغرب فقد كانت
ثلاثاً ، ثم أقرت فى السفر ، وزيدت فى الحضر ؛
فجعلت أربعاً فى الظهر والعصر والعشاء.»(١)

رأى حول نسخ الحكم والتلاوة معا

ومن أنواع النسخ ما نسخ رسمه من القرآن وزال حكمه أيضا ؛ فمن حديث عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت «كان فيما أنزل عشر رضعات فنسخن بخمس معلومات ؛ فتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهن مما يقرأ من القرآن»(٢).

ويشير السيوطى فى إتقانه أن الحديث رواه الشيخان ، ثم يعود فيقول ..

«وقد تكلموا فى قولها (وهن مما يقرأ من
القرآن) ؛ فإن ظاهره بقاء التلاوة ، وليس
كذلك ، وأجيب بأن المراد .. (عندما)
قارب الرسول الوفاة . أو أن التلاوة
نسخت أيضا ، ولم يبلغ ذلك كل الناس
إلا بعد وفاة رسول الله ؛ فتوفى وبعض

---

١ ـ الشيخ محمد مصطفى شلبى : أصول الفقه الاسلامى ص ٥٣٩ دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٤.

٢ ـ انظر .. السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن ٢٢/٢
الطبرى : جامع البيان عن تأويل آى القرآن ١٠٩/٥

الناس يقرؤها ،وقال أبو موسى الأشعرى .
نزلت ثم رفعت ، وقال مكى . هذا المثال
فيه المنسوخ غير متلو والناسخ غير متلو ،
ولا أعلم له نظير ،(١)

ففى عبارة السيوطى (وقد تكلموا فى قولها . وهن مما يقرأ من القرآن) يعنى بذلك أنها كانت محل نظر ، إذ الواضح أن ظاهرها يفيد بقاء التلاوة ، مع أنها ليست من النصوص القرآنية فى شىء ، ثم يحاول «السيوطى» أو يتأول تلك العبارة ويتحايل على مفهومها وأنها تدل على استمرار قراءتهـا حتى قارب الرسول الوفاة ، وربما تكون قد نسخت ولم يعلم بذلك كل الناس ؛ فظلت تقرأ بعد وفاة الرسول.وقد راق لى مانقله «السيوطى» عن «مكى»ـ فى آخر الفقرةـ بأن المنسوخ غير متلو والناسخ أيضا غير متلو ولا نظير لهذا!.

أما النسخ فيقوم أساساً على أن لكل منسوخ ناسخ ، وهـو وضع لايتحقق إلا إذا ثبت الناسخ والمنسوخ فى القرآن ، أما تلك الاحتمالات التى يتجوز بها العلماء ؛ فلن تكون محل الاعتبار ،لأن الأمر واضح كل الوضوح إما أن يكون الناسخ والمنسوخ مذكوراً فى القرآن ، أو لايكون وهنا تسقط قرآنيته ولايعد من باب الناسخ والمنسوخ . وكيف لا .. ؟ والله تعالى هو القائل ، ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ... ».

والقضية التى نحن بصددها هى عن ظاهرة النسخ فى القرآن .

وإذا كان هذا الخبر يشير الى أن تلك العبارة كانت من القرآن ثم نسخ

---

١ — السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن ٢/٢٢

رسمها واستبدل بحكم آخر ثم نسخ أيضا . فكيف نتثبت من قرآنيته .

لقد كان كتاب الله محاطا بالرعاية الإلهية ، وكان الاهتمام بحفظه من قبل الرسول وصحابته اهتماماً بالغاً ، ومن المعروف أن الرسول عليه الصلاة والسلام كـان يتعجل فى ملاحقة الوحى ، حتى يعى ويحفظ مايقرأه إياه ، ليقرأه على الناس ويمليه على كتاب الوحى ، حتى قال له عز من قائل « لاتحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه » (الآية ١٧ من سورة القيامة)

وما بين أيدينا الآن هو كتاب الله المنزل على نبيه لم ينقص منه شيء،والله تعالى وعد بحفظه ووعده الحق .

ولتقرأ معى تلك العبارة التى ذكرها « الباقلانى » فى الإعجاز

« قد علمت أن شعر أمرىء القيس وغيره ـ على أنه لا يجوز أن يظهر ظهور القرآن ، ولا أن يحفظ كحفظه، ولا أن يضبط كضبطه، ولا أن تمس الحاجة إليه إمساسها إلى القرآن ـ لو زيد فيه بيت ، أو نقص منه بيت ، لا ، بل لو غير فيه لفظ ـ لتبرأ منه أصحابه ، وأنكره أربابه فإذا كان ذلك مما لا يمكن أن يكون فى شعر أمرىء القيس ونظرائه ـ مع أن الحاجة إليه تقع لحفظ العربية فكيف يجـــوز أو يمكن ما ذكروه فى القرآن مع شدة الحاجة إليه فى الصلاة التى هى أصـــل الدين ، ثم فى الاحكام والشرائع (١) .

١ ـــ أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى . إعجـاز القرآن ص ١٨ ، ١٩ دار المعارف ، تحقيق السيد احمد صقر ، القاهرة ١٩٦٣

ألا ترى أن القرآن وهو كتاب الله تعالى المدون فى المصاحف محفوظ به كل حرف ، وكل آية ، منذ أن أوحى به - قرآنا - إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى يومنا هذا ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ويسوق « السيوطى » فائدة فى هذا الباب حين يقول « قال بعضهم ليس فى القرآن ناسخ إلا والمنسوخ قبله فى الترتيب » (١)

فالناسخ والمنسوخ ليس مدونا فى القرآن وحسب ، بله مرتب أيضا تبعا لتسلسل الأحكام وتدرجها ، بأن يكون الناسخ متأخراً فى التنزيل عن المنسوخ ، وكلاهما مدون فى القرآن أما إذا كان المنسوخ غير مدون والناسخ غير مدون . فما هى القضية إذن . . ؟ وعلينا ألا نعتبرها مدار بحث فى علوم القرآن ، أو حتى نوع من أنواع النسخ فيه .

لأننا إذا قلنا إن هناك حكماً نسخت تلاوته ، وبالتالى نسخ الحكم والناسخ نسخ تلاوة وحكماً ، فأين الناسخ فى المرة الثانية ؟ أو أين النص الدال على رفعه من القرآن ؟ وهكذا يدور بنا الدور إلى لا شيء .

ولننظر إلى تلك الخلافات التى أثيرت حول هذا الموضوع ، يشير إليها « الطبرى » حين يتكلم عن شرط « الامام الشافعى » فى الإرضاع . .

« من حديث عائشة ، قالت : كان فيما أنزل الله عشر رضعات معلومات يحرمن ، ثم نسخن بخمس معلومات»

---

١ — السيوطى : الاتقان ٢/٢٤

وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهن مما يقرأ من القرآن .. موضع الدليل منه أنها أثبتت أن العشر نسخن بخمس ، فلو تعلق التحريم بما دون الخمس لكان نسخاً للخمس . ولا يقبل على هذا خبر واحد ، ولا قياس (١)

وهذا يعنى أن الحكم قد استقر ، وثبت على الرضعات الخمس ، ولكن فى موضع آخر يقول الطبرى . . -

« . . . وشذت طائفة فاعتبرت عشر رضعات تمسكاً بأنه كان فيما أنزل عشر رضعات ، وكأنهم لم يبلغهم الناسخ ، وقال داود : لا يحرم إلا بثلاث رضعات ، واحتج بقوله صلى الله عليه وسلم . لا تحرم الإملاجة والإملاجتان : أى المرة من الإرضاع . يعنى أن المصة أو المصتان لا يحرمان ما يحرمه الرضاع الكامل (٢)

وهنا نرى رأياً آخر يتمسك بالرضاعات العشر لأنه لم يبلغه الناسخ ، ومعلوم أن صاحب الفتوى لا يتعرض لتقرير حكم من الأحكام الشرعية ، إلا إذا كان عالما بالناسخ والمنسوخ . ورأى ثالث يتمسك بثلاث رضعات فما فوق استناداً إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم « لا تحرم المصة والمصتان (٣)

---

١ — الطبرى : جامع البيان عن تأويل آى القرآن ٥/٢٠٩

٢ — نفس المرجع السابق .

٣ — صحيح مسلم — مراجعة محمد ذهنى ط. الحلبى — القاهرة ١٣٧٧هـ ص ٦٥٣ القسم الثانى الجزء الأول

ويشير «ابن كثير» إلى خلاف آخر ، إذ يقول ..

« اختلفت العلماء في عدد الرضعات المحرمة ، منهم من قال إن مجرد الرضاع يحرم لعموم هذه الآية (أى آية التحريم الواردة فى القرآن) ، وهذا قول مالك ... وقال آخرون لايحرم أقل من ثلاث رضعات ، لما ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة .. أن رسول الله قال : لاتحرم المصة والمصتان .. وذهب إلى هذا الإمام احمد وغيره ...»(١)

ومرد هذا كله الى آية التحريم فى «سورة النساء» عند قوله تعالى ..

«... وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة ...»

(من الآية ٢٣)

فنزلت الرضاعة منزل النسب ، وقد وضحت السنة النبوية ذلك ؛ فيذكر «ابن حجر العسقلانى» ، حديثا يسنده ..

« ... عن عمرة بنت عبد الرحمن أن عائشة زوج النبى أخبرتها أن رسول الله كان عندها وأنها سمعت صوت رجـــل يستأذن فى بيت حفصة ، قالت ، فقلت يارسول الله ، هذا رجل

---

١ — تيسير العلى القدير لاختصار تفسير ابن كثير ٣٦٨/١ .. محمد نسيب الرفاعى .

يستأذن فى بيتك ، فقال النبى : أراه فلاناً .. لعم حفصة من الرضاعة .. قالت عائشة : لو كان فلاناً حياً لعمها من الرضاعة .. دخل على ، فقال : نعم ، الرضاعة تحرم ماتحرم الولادة» (١)

فلو سلمنا بأن تحديد عدد الرضعات كان قرآنا ونسخ ، وكان الحكم قد استقر على خمس رضعات ، لماذا إذن أثيرت كل هذه الخلافات . ؟ التى ترجع إلى أن كلا الحكمين لم يثبت فى القرآن لا نصاً ولا حكما . . ، وهل يمكن للسنة النبوية أن تغير الحكم ، وتنقص عدد الرضعات إلى ثلاث . ؟ إذا ثبت أن تحديدها كان قرآناً ، ومهمة السنة إلى جانب القرآن إما أن تؤكد أحكامه ، أو تقوم بتفصيلها ، أو تأتى بحكم استقرت أصوله الأولى فى القرآن .

ولماذا لا يكون موضوع الرضاع — كما جاء فى القرآن — حكما عاماً ، كما الشأن فى كثير من الأحكام ، وأن السنة قامت بتفصيله وبيان عدد الرضعات ، وأن ما يقولونه عن الرضعات العشر أو الخمس أنها من قبيل الوحى الذى كان يعاود الرسول فى بعض الأمور التى تتعلق بالدين ، ولو لم تكن قرآنا .

ومن المزاعم التى يسوقونها فى هذا المجال . .

« أن « سورة البينة » كانت فى طول سورة البقرة ، ليس

---

١ — ابن حجر العسقلانى : فتح البارى بشرح البخارى ٤٢/١١ مطبعة الحلبى القاهرة ١٩٥٩

مع الناس منها إلا كلمة أو كلمتان »(١).

ومعلوم أن « سورة البينة » توجد بكاملها فى القرآن ، وهى السورة الثامنة والتسعون ، وعـــدد آياتها ثمانية ، وسورة البقرة عـدد آياتها مائتان وثمانون وسبع آيات ..

فهل يقبل ذو لب مثل هـذه الأقوال ، وإلى أين ذهبت آيات « ســـورة البينة » . ؟ ، وكأن هناك قرآنا آخر قد نسخ وانمحى ولا يعلمه إلا هؤلاء . !!

« وورد عن أبى مـوسى الأشعرى أنه قال : إنهم كانوا يقرأون سورة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طول سـورة براءة ، وأنها نسخت إلا آية منها وهى (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب) »(٢)

فأين ذهبت هذه السورة . ؟ والآية التى يشيرون إليها شتان بين أسلوبها وأسلوب الآيات القرآنية . وإذا كانت من القرآن، ثم نسخت، فما الذى يثبت لنا قرآنيتها . ؟ .. استفسارات وما من مجيب . !!

---

١ — انظر السيوطى: الاتقان ٢/٢٤

١ — انظر الباقلانى: نكت الانتصار لنقل القرآن ص ٦٤ منشأة المعارف — الاسكندرية ١٩٧١

٢ — على حسن العريض: فتح المنان فى نسخ القرآن ص ٢٢٣ مكتبة الخانجى — القاهرة ١٩٧٣

وينقل إلينا « صاحب نكت الانتصار » أن القرآن المثبت فى مصاحفنا هو الذى نزل على رسول الله ، لم يذهب منه شيئاً ، يقول ..

« إن جميع السلف والخلف،وهم خلق لا يجوز على مثلهم التراسل والتطابق ، ينقلون أن القرآن الذى فى مصاحفنا هو جميع الذى نزل على النبي » (١) .

راى حول نسخ التلاوة دون الحكم

هذا النوع قريب الشبه بسابقه ، وذلك من جهة نسخ التلاوة فيهما . وأول ما يطالعنا فى هذا الباب مما ذكره « السيوطى » ، قوله ..

« وقد أورد بعضهم فيه سؤالا ،وهو ما الحكمة فى رفع التلاوة مع بقاء الحكم ،؟ ، وهلا أبقيت التلاوة ليجتمع العمل بحكمها وثواب تلاوتها»(٢)

ويبدو أن « السيوطى » لم يكن مستريحاً لهذين القسمين اللذين تنسخ فيهما التلاوة ، وقد يدعو للتعجب والدهشة ما أشار إليه مروياً من عائشة — رضى الله عنها —

« ... قالت .. كانت سورة الأحزاب تقرأ فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم مائتى آية ؛ فلما كتب عثمان المصاحف لم تقدر منها إلا ما هو الآن .. ؟ » (٣)

---

١ — البلاقلانى : نكت الانتصار لنقل القرآن ص ٦٢

٢ — السيوطى : الاتقان ٢٤/٢

٣ — السيوطى : الاتقان ٢٥/٢

وسورة الأحزاب — كما جاءت فى القرآن — عدد آياتها ثلاثة وسبعون، فأين ذهبت — إذن — تلك الآيات . ؟ ، وما هى . ؟

وما هو السبب فى إسناد مثل هذه الأخبار إلى السيدة عائشة . ؟ ربما يرجع هذا إلى أن الخبر المسند إلى عائشة ، يأخذ حكم الخبر المرفوع إلى رسول الله ، وقد لا يكون محل جدل ، ويقبله متلقوه من الناحية الشكلية .

أما الواضح فى تلك الفقرة أن « سورة الأحزاب» كانت تقرأ بآياتها المائتين فى زمن الرسول وأيام أبى بكر وعمر ،ولم تنقص إلا عندما كتب عثمان المصحف الإمام . ومن المعـــروف فى تاريخية القرآن أن عثمان قام بنسخ المصحف الذى جمعه أبو بكر وعمر ، وهو جمع عام ورسمى . أراد أن يوحد الناس به على مصحف واحد .. فهل قام بحذف سبع وعشرين آية من سورة الأحزاب عند النسخ . ؟ .. هذا أمر لا يمكن قبوله أو القول به، حتى لا تهتز الثقة فى كتاب الذى لا يأتيه البـاطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ فلم ينتقص منه شىء منـذ أن دون فى عهد الرسول ، وجمع فى عهد أبى بكر ، ونسخ فى عهد عثمان .

فهو ثابت ثبوتاً يقينياً . وفى تصورى أن هـذا القول ربما يكون قد أثاره أعداء عثمان — إذ بدأت بذور الفتنة والعداء تظهر آنذاك — فنسبوا إليه تلك الفعلة ، وأسنـــدوا الخبر إلى عائشة — رضى الله عنها — حتى يكون الخبر محلا للقبول .

وهذا الأسلوب ليس بمستبعد فى مجال النصوص الإسلامية ، عندما يتعرض لها الوضاعون ، وأصحاب الاتجاهات .

ويعاودنا قول « الباقلانى » مؤيداً أن القرآن لم يضع منه شيئاً ، ولم يحدث تهاون فى شأنه ..

« ولا يجوز على الأمة مع مثابرتها على نصرة الدين ، وجهادها في تأييده أن تكتم شيئاً نسخ من القرآن تلاوته » (١) .

ومما نسخت تلاوته ، وبقى حكمه — كما يقولون — يذكر الإمام أحمد في مسنده .. حديثا بسنده « ... عن كثير بن الصلت قال :

كان ابن العاص ، وزيد بن ثابت يكتبان المصاحف ، فمروا على هذه الآية ، فقال زيد : سمعت رسول الله يقول « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة » ، فقال عمر : لما أنزلت هذه أتيت رسول الله فقلت : أكتبنيها ، قال شعبة : فكأنه كره ذلك ، فقال عمر . ألا ترى أن الشيخ إذا لم يحصن جلد ، وأن الشاب إذا زنى وقد أحصن رجم » (٢) .

وهذا النص إذا كان الرسول قد كره كتابته ؛ فهو ليس قرآناً .

ولماذا يحتفظون به ضمن الصحف القرآنية ، ويسمونه آية ، ثم يستعرضونه عند كتابة المصاحف ؟! ، وأيام نزول القرآن وتدوينه ، كره الرسول عليه الصلاة والسلام تدوين ما ليس قرآنا حتى لا يختلط شيء آخر مع القرآن المدون في عهده . أما تفسير عمر للنص ، فيرى أن الشيخ يجلد إذا لم يكن محصناً ، وهنا

---

١ — الباقلاني : نكت الانتصار ص ٦٢

٢ — مسند الامام احمد بن حنبل ٥/١٨٣ — عمل : محمد ناصر الدين الألباني طبعة مصورة — المكتب الاسلامي — بيروت

يتضح أن (مفهوم المخالفة) هو الرجم إذا كان محصناً ، وكذلك الحال بالنسبة للشاب أيضا ، فالتفسير لا يتعلق بالشيخ والشيخة بقدر مايتعلق بالمحصن وغير المحصن ، بينما النص يدل على رجم الشيخ والشيخة — وقد خصهما بالذكر — وأعقبها بلفظ (البتة) وهو يعني « الأمر الذى لا رجعة فيه » ، ولم يرد بالنص ما يفيد المحصن أو غـير المحصن ؛ فقد تحدد الحكم ، وتحددت النوعية التى يطبق عليها .

وقد جاء هذا الخبر عن طريق آخر . . فى موطأ مالك . يقول . .

«حدثنى مالك عن يحي بن سعيد عن سعيدابن المسيب أنه سمعه يقول . لما صدر عمر ابن الخطاب من منى . . . ، ثم قدم المدينة ؛ فخطب الناس فقال . أيها الناس قد سنت لكم السنن ، وفرضت لكم الفرائض ، وتركتم على الواضحة ، إلا أن تضلوا بالناس يمينـاً وشمالا ، وضرب بإحدى يديه على الأخرى ، ثم قال . إياكم أن تهلكوا عن آية الرجم ، أن يقول قائل . لانجد حدين فى كتاب الله، فقد رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورجمنا . والذى نفس بيـده لولا أن يقول الناس . زاد عمر بن الخطاب فى كتاب الله تعالى لكتبتها « الشيخ والشيخة فارجموهما البتة » ؛ فأنا قـد قرأتها . . . »

عما انسلخ ذو الحجة حتى قتل عمر — رحمه الله —
قال يحي . سمعت مالكا يقول . قوله الشيخ
والشيخة ... يعني الثيب والثيبة ، فارجموهما
البتة . « (١)

وفى هذا النص نلاحظ أن عمر بن الخطاب يخشى ملامة الناس فى كتابة هذا النص ضمن القرآن ، وهو الذى لا يخشى فى الحق لومة لائم — .. وهل يجرؤ ابن الخطاب على تدوين نص فى القرآن لم يدون فى عهد الرسول . ؟

ومن الغريب أننا نجد هذه الفقرة تأتى بتفسيرات وتعليقات حول النص المشار إليه تختلف عنها فى الفقرة السابقة وعن نفس النص ؛ إذ نرى توضيحا لمعنى « الشيخ والشيخة » على أنه « الثيب والثيبة » مع أن التفسيرات السابقة تشير إلى جلد الشيخ إذا لم يحصن وهو توضيح بأن الجلد لغير المحصن والرجم للمحصن . أما الذى دفع إلى تفسير « الشيخ والشيخة » « بالثيب والثيبة » هو الرجم ؛ فلا يرجم إلا هما .. ولكن معنى « الشيخ أو الشيخة » هو من استبانت فيه السن أو من خمسين أو إحدى وخمسين إلى آخر عمره أو إلى الثمانين (٢) .. ، وقد يكون شيخا ولم يكن محصنا .

وهكذا تتعدد التفسيرات وتأول الدلالات تأويلات بعيدة ، وقد تتضارب أحيانا ، وهذا راجع إلى أن النص ليس قرآنا ، لأن الاسلوب القرآنى لا يحدث فيه

---

١ — الموطأ لابن مالك — كتاب الحدود .. باب ماجاء فى الرجم حديث رقم ١٠ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى

٢ — راجع : القاموس المحيط مادة (شيخ)

مثل هذا التضارب ، ولايحتاج إلى محايلة الدلالة وتطويعها .. لأنه يتناول مبدأ عاما .. لنقرأ قول الله تعالى ، الذى يتناول الكلام عن حد الزنا ..

« الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة
ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله
واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين »
(الآية ٢ من سورة النور)

يتناول القرآن القضية مشيراً إلى الزانية والزانى فى دلالة عامة على كل من يرتكب تلك الفعلة الشنعاء ، ولم يخص القرآن شيخاً أو شيخة ، شاباً أو شابة ، وتلك هى صبغة النص القرآنى فى أن يتناول مبدأ عاماً أو حكما عاماً ، وتقوم السنة بالتفصيل والتوضيح ، وفى بيان هذا الحد .

ويقول الرسول — عليه الصلاة السلام — خذوا عنى ...

« البكر بالبكر مائة جلدة وتغريب عام ، والثيب بالثيب
جلد مائة والرجم .... » (١)

أما ما نسخت تلاوته ، فهو ليس من القرآن فى شىء ، فكيف تنسخ التلاوة ، ويبقى الحكم ، والحكم لا يتأتى ولا يستفاد إلا من خلال النص المدون ، ولا انفكاك بين النص والحكم .

ولا جدال فى أن عدم التدوين لا يعطى الصفة القرآنية لأى لفظ من الألفاظ مهما كان مصدره ، إذ الكلمة القرآنية ليست إلا المدونة فى كتاب الله ، وطريق

---

١ — نقله ابن كثير بسنده عن عبادة الصامت .. تيسير العلى القدير لاختصار تفسير ابن كثير ٣/١٣٠ (حديث رقم ١٤٠) : محمد نسيب الرفاعى .

إثباتها وثباتها طريق لا مرية فيه ، ولا تمحل و لا اقتراض .

ولا معنى لأن يقال إن هناك آية أنزلهـــا الله تفيد حكماً ثم رفعها مع بقاء حكمها ؛ فالقرآن يقصد من ورائه إفادة الأحكام ، و الإعجاز بالنظم ..

ويشير الأستاذ مصطفى شلبي (١) إلى ما تزيد به الأصوليون فى هذا المجال ، حيث أدخلوا ضمن النص القرآنى بعض القراءات غير المتواترة ، كقراءة عبد الله بن مسعود فى كفارة اليمين « ... فصيام ثلاثة أيام ... » (من الآية ٨٩ من ســـورة المائدة) ، وأضاف إليها « متتابعات » ، وقراءة سعد بن أبى وقاص « ... وله أخ أو أخت ... » (من الآية ١٢ من سورة النساء) ، وأضاف إليها « من أم » ، والقراءة غير المتواترة لم تثبت قرآنيتها حتى يقال إنه نسخت تلاوتها ، ولأن التلاوة فرع قرآنيتها ، وهو غير ثابت بالاتفاق..ا.هـ

قد يكون الدافع إلى القـول بنسخ التلاوة ، ما ورد فى آية النسخ من لفظ « ... أو ننسها ... » ، إذ يقولون إن الله تعالى كان ينزل آياته على الرسول ، ثم ينسيه إياها .. يقول الطبرى ..

« حدثنا سوار بن عبد الله قال ، حدثنا خالد بن الحارث قال ، حـــدثنا عوف عن الحسن ، أنه قال فى قـوله « أو ننسها » ، قال: إن نبيكم أقرىء قرآناً ثم نسيه»(٢)

وكيف يجوز ذلك على رسـول الله ؟ ، وقد قال الله تعالى ..

«سنقرئك فلا تنسى ، إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى»

---

١ ـــ انظر .. محمد مصطفى شلبى : أصول الفقه الاسلامى ص ٥٥٥

٢ ـــ تفسير الطبرى ٤٧٤/٢ تحقيق شاكر دار المعارف بمصر

(الآيتان ٦ ، ٧ من سورة الأعلى)

والآيتان مكيتان ، وهو إخبار من الله تعالى ووعد منه بالاينسى ما أقرأه إياه جبريل ، وذلك فى أعقـــاب بداية الوحى ؛ فالآيات سابقة على آية النسخ والنسيان ؛ فهى مدنية فى سورة مدنيه أيضا ، وهى سورة البقرة ، أما قول الله تعالى « إلا ما شاء الله . . . » الآية فهى مشيئة قد تكون معلقة لم تقع ، وليس هذا غريبا فى الأسلوب القرآنى ، ففى قول الله تعالى . .

« لو شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك . . . »

(من الآية ٨٦ من سورة الإسراء)

تلك مشيئة معلقة بقدرة الله على إذهاب القرآن الذى من به على محمد وأمته، والمقصود هو الامتنان على الرسول بالقرآن والتحذير له عن التفريط فيه .وهذا الموضوع قد أثاره من قبل . . عبد الكريم الخطيب فى كتابه « من قضايا علوم القرآن » . (١)

ولماذا لا تكون آية النسخ من هذا القبيل . . ؟ أى معلق فيها الشرط والجواب فهى من أساليب الشرط « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها . . » (الآية). والنسخ قد وقع فى القرآن،وشرط النسخ هو الاتيان ببديل ، أما النسيان فهو معلق ، وهو مما يستقيم مع مفهوم الآية الكريمة « سنقرئك فلا تنسى » .

وليس بالضرورة أن كل شرط يتبعه تحقيق جوابه . . فقول الله تعالى . .

---

١ — راجع . . عبد الكريم الخطيب : من قضايا علوم القرآن ص ٥٠ دار الفكر العربى — القاهرة ١٩٧٣

« وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله »

(من الآية ١١٦ من سورة الأنعام)

وكذلك قوله جل شأنه ..

« لئن أشركت ليحبطن عملك ... »

(من الآية ٦٥ من سورة الزمر)

هى أساليب جاءت على سبيل الفرض والتقدير ، لما لا يكون مفهوم النسيان كذلك .؟ ، خاصة وأن آية النسيان هذه قد اختتمت بقوله تعالى « ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير » أى أنه هو المتصرف يحكم بما يشاء ، ويأتى بما يريد إذا أراد ..

ومن قبيل هذا — أى الآيات التى لم يتحقق فيها الشرط والجواب ، تلك التى تتناول حديث موسى عليه السلام ، حين طلب أن ينظر إلى الله ، فقال له تعالى « .. لن ترانى .. » ساقها فى حكم قاطع أبدى ، وأنه أمر مستحيل الوقوع والآية بكاملها تقول ..

« ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى
أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن
استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله
دكا وخــر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك
تبت إليك وأنا أول المؤمنين »

(الآية ١٤٣ من سورة الاعراف)

والآية لم يقع فيها الشرط ، ولم يتحقق الجواب ، وإنما هــو بيان للعبرة ، وكشف عن وجه الاستحالة .

وما ضر لو قلنا ـ أيضا ـ والقرآن ذو وجوه ـ قد يكون بيان تلك الآية (آية النسخ والنسيان) ـ والله أعلم بمراده ـ هو على تقدير كلمة (حكم) أى ماننسخ من (حكم) آية أو ننسها (أى ننسى حكمها)، أو ننسى العمل بها، ولم يكن نسيان رسمها وتلاوتها .. وقد أتى على هذه الصورة فى القرآن الكريم قول الله تعالى ..

« .. وأشربوا العجل .. »

(من الآية ٩٣ من سورة البقرة)

أى (وأشربوا حب العجل) على تقدير كلمة (حب).

وكذا قوله ..

« واسأل القريـــة .. »

(من الآية ٨٢ من سورة يوسف)

والمقصود (واسأل أهل القرية) على تقدير كلمة (أهل).

والآية القرآنية لم تأت لترفع وتنسى تلاوتها ؛ وإنما جاءت لتسوق خبراً أو تقر حكماً ، أو تسدى نصيحة ، أو تلفت إلى موعظة .. فما القيمة إذن عندما تنسخ تلاوتها .. ؟!

وقد ورد كثير من الأقوال حول النسيان بمعنى أن يقرأ النبى صلى الله عليه وسلم الآية أو الآيات ثم ينساها ، منها ما يشير إليه الطبرى فى قوله ..

« حدثنا بشر بن معاذ قال ، حدثنا يزيد
ابن زريع قال، حدثنا سعيد عن قتادة قوله
« ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها
أو مثلها » ، كان ينسخ الآية بالآية بعدها ،

ويقرأ نبي الله صلى الله عليه وسلم الآية أو أكثر من ذلك ثم تنسى وترفع » (١)

ولا أدري ماهي الآية التي تنسى وترفع .. أهي الآية المنسوخة أم الناسخة ؟ وأيا ما كان الأمر فإن النسيان والرفع لإحدى الآيتين أو كليهما، سواء أكان من ناحية التلاوة أم من ناحية التلاوة والحكم معاً، فإن ذلك ينفي أي اعتبار موضوعي لمسألة النسخ، وكيف يمكن التعرف على الآية الناسخة والآية المنسوخة إذا لم يرد ذكرهما في القرآن . ؟، والهدف القرآني هو الفهم والتدبر والعمل بما جاء به، ولن يتحقق هذا إلا من خلال آياته المدونة .

أما الطبري فيميل إلى معنى (التأخير) في كلمة (ننسها) وليس معنى النسيان والرفع .. إذ يقول ..

« قال أبو جعفر (الطبري) : فتأويل من قرأ ذلك كذلك : ما نبدل من آية أنزلناها إليك يا محمد ، فنبطل حكمها ونثبت خطها أو نؤخرها فنرجئها ونقرها ، فلا نغير ولا نبطل حكمها ، نأت بخير منها أو مثلها » (٢)

ومعنى ذلك أن النسخ لا يلحق التلاوة ، فيتبع بالنسيان والرفع ، ولكنه انتقال من حكم إلى حكم مع ثبوت التلاوة ، أو إرجاء الحكم ثم إقراره بعد ذلك بإثبات تلاوته .

هذا وقد ورد الكثير من الآراء يبرر نسخ التلاوة مع بقاء الحكم ، أخبر

---

١ — الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٤٧٤/٢

٢ — تفسير الطبري ٤٧٨/٢

عنها السيوطي في الاتقان منها ما نقله بقوله :

« وأجاب صاحب الفنون بأن ذلك ليظهر به مقدار طاعة هذه الأمة في المسارعة إلى بذل النفوس بطريق الظن من غيـــر استفصال لطلب طريق مقطوع به ؛ فيسرعون بأيسر شيء ، كما سارع الخليل إلى ذبح ولده بمنام والمنام أدنى طريق الوحي » (١)

ويشير النص إلى أن العمل بالأحكام التي نسخت تلاوتها نوع من الابتلاء للأمة ، إذ تسارع إلى العمل به بمجرد أن يغلب الظن عليها بأن تلك الأحكام كانت قرآناً ثم نسخ رسمه ، دون البحث عن طريق قاطع بقرآنيتهـا ، ومثل لذلك بما قام به ابراهيم عليه السلام من تنفيذ الذبح عندما رأى ذلك في منامه .

فهل تختبر طاعة الأمة في امتثال الأوامر التي يظن أنها كانت من القرآن . ؟ وهل تثبت قرآنية هذه الأحكام بمجرد الظن . ؟ ، إنه تبرير غير مقبول ؛ فمن الأوامر والأحكام ما يأتي وحيا ، ولم يكن قـــرآناً ؛ لأن القرآن باللفظ والمعنى معاً .

وإذا كانت قرآنية تلك الأحكام لا تحتاج ـ في هذه الحالة ـ إلى البحث عن طريق قاطع بها .. وإذا لم نبحث عن قطعية النص القرآني فما الذي يبحث عن قطعيته إذن ؟ ، وإذا كان ابراهيم عليه السلام قد سارع إلى ذبح ابنه عندما رأى ذلك في المنام .. فكيف لا ؟ والرؤيا أسلوب من أساليب الوحي قام بتنفيذها نبي الله إبراهيم .

وأود أن أثير هنا تساؤلا .. ما هو محل هـــذا المثال من موضوع نسخ

١ ـــ السيوطي : الاتقان ٢/٢٥

التلاوة مع بقاء الحكم . ؟ هل يزعمون أن هـذه الرؤيا كانت حكما قرآنيا وقد أتى بمعناه دون لفظه . ؟ ليست هذه طبيعة القرآن ، وإنما هي طبيعة الأحاديث مثلا وإذا كانت قرآنا ، وعمل ابراهيم بمقتضاها ، فما هو القرآن الذى كان فى عهد إبراهيم عليه السلام .

ما قيل عن نسخ التلاوة مع بقاء الحكم ، إنما هو موضوع لا يتعلق بالقرآن الكريم ؛ فلا يمكن أن يثبت حكم ، وينفذ على أنه قرآن مالم تثبت تلاوته ويكون مدونا فى كتاب الله .

نتيجة :

من الواضح أن قضية النسخ من أخطر القضايا القرآنية ، فقد يلحق بالقرآن ما ليس منه ، وعندما تعرضنا لأنواعه التى أثيرت فى مجال الدراسات القرآنية ؛ وجدنا أن النسخ هو نسخ الحكم مع بقاء التلاوة ، وهو نوع ـ لا شك ـ واقع فى القرآن وليس أدل على وجوده إلا ذكر طرفية وهما الناسخ والمنسوخ ، وهذا دليل مؤكد .

والحكم لا يتعرف عليه فيعمل به إلا من خلال النص المتلو ، وقد يتغير هذا الحكم عن طريق النسخ بهدف تحقيق المصلحة ، إلا أن التـــلاوة تظل كما هى فى الناسخ والمنسوخ تذكيراً بنعمة الله ، وإعلاماً برفع المشقة عن الناس ، ورعاية أحوالهم ، وبياناً التـدرج المعهود فى نصوص التشريع الإسلامى . وفى إثبات التلاوة وبقائها مع تغير الحكم بيان لوقائع وأحداث وتغييرات .تتضح خطواتها فى القرآن مثبتة فيه .

ولا شك أنها ـ إلى جانب ما أشرنا اليه ـ تمثـل الأدوار التاريخية التى تمر بها انتقالات الطبيعة البشرية ؛ فتزداد معرفتنا بالظروف والمناسبات التى تتغير

الأحكام وتتبدل تبعاً لها ، ولن يتأتى ذلك إلا من خلال التدوين الثابت لكل من الناسخ والمنسوخ .

وتحديد الناسخ والمنسوخ يؤكد ويوضح هذا الانتقال المتدرج بين الأحكام، ونسخ الأحكام مع بقاء تلاوتها أمر لا جدال فيه ولا شكوك ،حتى في وجه من قالوا .. ألم يكن في علم الله مسبقا بما هو مصلحة للعباد ، ومنفعة لهم فيوحى به دون تعديل أو تبديل لاحق..

ليس من منكر بأن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما ، ولكن رحمة العلى القدير التى وسعت كل شيء آلت الا تثقل على العباد ، وأن تتكفلهم الرعاية الالهية التى قدرت فيهم العنصر البشرى بطاقاته المحدودة ؛ فالنفس الإنسانية لها مراحل فى القبول . عقلية محدودة تقنع تارة : وتتمرد أخرى ، وتحتاج إلى الانتقال بها خطوة خطوة بما يناسب القدرة والاستيعاب ؛ فتأتى الأحكام والأوامر مناسبة لطبيعة المجتمع وقت نزولها ، وقد لا تناسبه فى بعض الظروف فتتبدل بما يوافق ما جد من ظرف أو تغير من مناسبة .

وهكذا يكون نسخ الحكم مع بقاء التلاوة ضرباً من ضروب هذا التدرج فى الحكم .

وأمام هذا كله لسنا بصدد إنكار النسخ كلية أو استبعاده من القرآن ؛ فإنكار النسخ جملة قد يطمس وجها من أجمل ما أتت به شريعة الاسلام ، وهو مسلك التدرج فى الأحكام ، وتلك حكمة تربوية عالية يقصد اليها التشريع تلطفا فى الدخول على النفوس ، إذ يترفق بهم عند تحريم عادات ارتبطوا بها ، وأضحت تمثل سلطانا قاهراً عليهم ، وفى انخلاع النفس عنه جملة قد لا يؤمن حيالها السلامة ، أو تقبل تلك الأوامر ، فقد تخور قوى كثيرة فى الإنسان ، وقد تتصدع وتنحل إذ هى واجهت الأمر مرة واحدة دون إعداد أو تمهيد .

وتلك حكمة النسخ التي يشيرون اليها ..

« فالحكمه إذاً فى جواز وقوع النسخ هى التيسير على الأمة لأنه علاج للجماعة الاسلامية فى عصرها الأول والنسخ لم يثبت فى الكليات ، وإنما جاء فى بعض التفصيلات الجزئية ، ومن هنا كان النسخ بعدالهجرة ـ عندما أخذ النبي صلى‌الله عليه وسلم فى إنشاء الدولةالاسلامية ولأنالذى نزل بمكة إنما كان قواعد كلية وهى غير قابلة للنسخ » (١)

وإن كان النسخ لم يقع إلا فى بعض الاحكام ، التى يمكن أن تتغير وتتبدل طبقا لمقتضيات الأحوال إلا أن خطوات التدرج هذه مدونة وثابتة فى القرآن، وكما يقول الباقلانى ..

« والذى نذهب إليه فى ذلك أن جميع القرآن الذى أنزله الله وأمر بإثبات رسمه ، ولم ينسخه ، ويرفع تلاوته بعد نزوله هو هذا الذى بين الدفتين الذى حواه مصحف عثمان ، وأنه لم ينقص منه ، ولا زيد فيه، وأن ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمه الله تعالى ورتبه على رسوله من آى السور لم يقدم من ذلك مؤخراً ، ولا أخر منه مقدماً وأن الأمة ضبطت عن النبي صلى الله عليه وسلم ترتيب أى كل سورة ومواضعها ، وعرفت مواقعها كما ضبطت عنه نفس القراءات وذات التلاوة ... » (٢)

---

١ ــ د. احمد عادل كمال : علوم القرآن ص ٩٣ المختار الاسلامى للطباعة والنشر ـ القاهرة .

٢ ــ الباقلانى : إعجاز القرآن ص ٦٠ تحقيق السيد احمد صقر ـ دار المعارف ١٩٦٣ القاهرة

الموضوع السابع

مكى القرآن ومدنيه

المحتوى ..

* آراء حول المكى والمدنى ..
* ما هو المكى .. ؟
* ما هو المدنى .. ؟
* توافق وتداخل ..
* مقارنه ..
* فوائد ..

آراء حول المكي والمدني ..

ظل الوحي يتصل برسول الله صلى الله عليه وسلم ، زمنا في مكة ، وزمنا في المدينة . ومن ثم كان الوحي طبيعتان متغايرتان لكل منها أسلوبها وخصائصها .

كان الوحي قبل الهجرة وبعدها يواكب أحداث الحياة وتطوراتها ، ويهيء لدعوة الاسلام في كل من المجتمعين المكي والمدني ، وهناك فرق بين الحياتين .

ففي مكة كانت بداية الدعوة ، وأمر الله رسوله أن يخاطب عشيرته والقريبين إليه ، ثم يجهر بالدعوة بعد أن أصبح الصدع والمناداة أمراً ضرورياً ولازماً ، إذ تهيأ الجو لأن تقرع الكلمة آذن القوم .

وتقتضى حكمة التنزيل أن يكون الأسلوب مناسباً وملائما لظروف المجتمع المكي ؛ فقد تنوعت الآيات في عرضها ، وموضوعات بحثها تنوع الأحوال والملابسات ، ولم يكن خافياً أن هذا النهج جعل من القرآن خير معلم للرسول وجماعته ، يبعث فيهم مكارم الأخلاق ، وحسن الخصال ، ويقضى — في الوقت نفسه — على أرذل العادات التي تأصلت في نفوسهم يوم جاهليتهم .

كان الكلمة القرآنية - في زمانها ومكانها - الأثر الفعال في نفوس الناس ؛ تضع في كل آن لبنة تعمل على تثبيت البناء الكامل للدين الإسلامي .

إن تلمس السمات الخاصة فيما نزل في مكة ، وما نزل في المدينة ، والوقوف على المميزات الرئيسية لكل، إنما هو إدراك لمزايا الأداء القرآني بوجه عام ، ومعرفة للكيفية التي كان عليها أسلوب الدعوة ، وما تلون به الخطاب حين يوافق الأحوال والمقتضيات .

وقد عنى الباحثون فى علوم القرآن بهذا الموضوع عناية جعلتهم يتقيون عن أماكن النزول وزمانه ، حتى فصلوا فيه القول تفصيلا .

ولم تقف عنايتهم عند حد النازل فى مكة أو المدينة فحسب ، وإنما جاوزتها الى نازل صيفاً أو شتاء ، ونازل فى السفر والحضر ، ونازل بمكة وضواحيها ، أو بالمدينة وضواحيها . وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على اهتمامهم بالدرس القرآنى اهتماماً يتضح من خلال دقة التتبع والبحث وراء آيات القرآن .

وجدير بالذكر أن هذه العناية ليست إلا انعكاساً لما كان عليه الصدر الأول للمجتمع الاسلامى ، إذ كان القرآن هو شغلهم الشاغل ، وهمهم الذى لا يحد .

وفى هذا المجال يذكر الزركشى قول أبى الحسن النيسابورى :

« ... قال أبو الحسن بن محمد بن حبيب النيسابورى فى كتابه .. التنبيه على فضل القرآن .. من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته ، وترتيب مانزل بمكة إبتداء ، ووسطا ، وانتهاء . وترتيب مانزل بالمدينة كذلك ، ثم مانزل بمكة وحكمه مدنى ، ومانزل بالمدينة وحكمه مكى ، ومانزل بمكة فى أهل المدينة ، ومانزل بالمدينة فى أهل مكة ، ثم مايشبه نزول المكى فى المدنى ، ومايشبه نزول المدنى فى المكى ، ثم مانزل بالجحفة ، ومانزل ببيت المقدس ، ومانزل بالطائف ، ومانزل بالحديبية ، ثم مانزل ليلا ، ومانزل نهاراً ، ومانزل مشيعاً ، ومانزل مفرداً ، ثم الآيات المدنيات فى السور المكية والآيات المكية فى السور المدنية ، ثم ماحمل من مكة إلى المدينة ،

وماحمل من المدينة إلى مكة ، وماحمل من المدينة إلى أرض الحبشة . . . ، ومن لم يعرفها ويميز بينها لم يحل له أن يتكلم فى كتاب الله تعالى.» (١)

ومن خلال تلك الفقرة يتضح لنا الاهتمام البالغ بمعرفة المكان والزمان على وجه محدد دقيق ، وماتتصف به تلك المعرفة من شرف المكانة ، وعلو القدر بين علوم القرآن ، وأنها تهيء صاحبها وتعده إذا أراد أن يتعرض لكلام الله تعالى . وكان القوم آنذاك يتفاضلون بتحصيل هذه المعلومات ، ويتباهون بمن تيسرت له تلك المعرفة .

« روى عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : والله الذى لا إله غيره مانزلت سورة من كتاب الله الا وأنا أعلم أين نزلت .. ؟ ، ولانزلت آية من كتاب الله الا وأنا أعلم فيم نزلت .. ؟ ، ولو أعلم أن أحداً أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه . »(٢)

وهذه العناية الفائقة بمعرفة مكان النزول بلغت ذروتها فى عصر الصحابة ، والتابعين وصار العلماء يضربون البطاح رغبة فى تلك المعرفة ، لان رسالة القرآن « فوق زادهـا الفكرى وأسسها الاصلاحية ، دين

---

١ ـ انظر الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ١/٩٢ تحقيق أبو الفضل ابراهيم ط. أولى دار إحياء الكتب العربية ـ الحلبى ـ القاهرة ١٩٥٧ .

٢ ـ صحيح البخارى ٦/١٢١ دار مطابع الشعب ـ القاهرة

يخامر الألباب، ويمتزج بحبات القلوب، فتجد أعلام الهـــدى من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم يضبطون منازل القـــرآن آية آية ضبطا يحدد الزمان والمكان» (١)

وما من شك في أن دراسة الظروف المحيطة بالنص تعمل على تقريب معناه، وإدراك مضامينه. وإذا كانت معرفة أسباب النزول تسهم في توضيح العنصر الموضوعي للآية؛ فإن معرفة المكي والمدني تتناول بيان عنصري الزمان والمكان، وعندها تـتكمل كل الجوانب التي تتعلق بالنص أو يتعلق النص بهـــا، وهي أمور جديرة بكشف أي غموض يحوط بالنص القرآني من جانب المتصدي له.

والاهتمام بقضية المكي والمدني - إلى هذا الحد - يدل على دقـــة البحث والتقصي، وقد أدى هذا بدوره إلى كثرة المصطلحات التي تناولت نسبة الآيات إلى أماكن نزولها، وتحديد الوقت الذي نزلت فيه، فهنـــاك مانزل بمكة أو الأماكن المجاورة، ومانزل في المدينة وضواحيهـا، ومانزل ببيت المقـدس أو الطائف أو الحديبية.. وغير ذلك من الأماكن - كما رأينا - وكذلك بالنسبة إلى وقت النزول فقد أشاروا إلى مانزل ليلا أو نزل نهاراً، وإلى مانزل صيفاً أو شتاء، ومانزل حال النوم وحال اليقظة.. كما تناولوا حالات أخرى كالذي نزل في حالات السفر والحضر.

وعلى الرغم من وجود تلك المصطلحات العديدة؛ فقد نجـد أنفسنا أمام صفتين رئيسيتين تطلقان على الآيات وهما: «المكي» و«المدني»

---

١ - مناع القطان: مباحث في علوم القرآن ص ٤ منشورات العصر الحديث السعودية ١٩٧١

. وقد حاول العلماء وضع ضوابط يمكن عن طريقها تحديد هذه الصفة ، مكية كانت أو مدنية ، والمصاحف جميعها لاتحمل إلاها، وقد ذاع هذا المصطلح (المكي والمدني) واشتهر استعماله ولاتجد صفة أخرى لاماكن النزول تطلق على الآى . أما بقية الصفات فقد ظلت فى كتب علوم القرآن تمثل جانبا من جوانب التاريخ بالنسبة لأماكن النزول .

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا .. ماهى الصفة التى يمكن أن تطلق على الآيات التى نزلت فى ضواحى مكة أو المدينة ، أو نزلت أثناء الأسفار (مثلا) .. ؟.

وأشار إلى هذا د. النمر متسائلا أيضا ..

« ... هناك آيات لم تنزل فى مكة ، ولا فى المدينة بل نزلت فى الأسفار، مثل قوله تعالى (لو كان عرضاً قريبا وسفراً قاصداً لاتبعوك ...) من الآية ٤٢ من سورة التوبة ، فقد نزلت وهو (أى رسول الله صلى الله عليه وسلم) مسافر لغزوة تبوك .. فما حكمها ..؟ .. ومثله ماروى فى أن قول الله تعالى (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ...) من الآية ٨٥ من سورة القصص ، نزلت تطمينا لقلبه ، وهو مهاجر إلى المدينة ، وقد استبد به الحنين إلى وطنه ، وأخذه الحزن ، وهو مضطر لمغادرته .. فاحكمها ... » (١)

---

١ - د. عبد المنعم النمر : علوم القرآن الكريم ص ٤٩ دار الكتاب المصرى ١٩٧٩

وأمام هذه التساؤلات نجد معالجة موضوعية هي أكثر ضبطاً ، وأيسر تناولا ، حتى لاتتشعب بنا الطرق والدروب في زحمة تلك الصفات .

وهذه المعالجة هي اتخاذ واقعة الهجرة فيصلا بين النزول المكية ، والنزول المدنية ، وقد راق هذا التقسيم لكثير من الباحثين في علوم القرآن ، فما نزل قبل الهجرة فهو مكي ولو كان في غير مكة ، وما نزل بعدها فهو مدني ولو كان في غير المدينة . ولم يتخذ هذا المصطلح مكان النزول صفة للنازل ، بل ساهم عنصر الزمن في هذه الصفة بشكل واضح ، كما أن هذه الصفة لاتخلو عن السمات الموضوعية ، فالمرحلة المكية تميزت في المعالجة القرآنية عن المرحلة المدنية . ومن جانب آخر قد لايحتاج الأمر إلى تتمات ولواحق تبين لنا المواضع التي تبعد عن مكة أو عن المدينة ، وإلى أيها تنسب الآية حتى تطلق عليها صفة المكية أو المدنية .. وإنما اقتصر التعبير على « المكي » ، والمدني » دون النظر إلى الأماكن الأخرى .

وحول تحديد المكي والمدني ثارت خلافات ، وتعددت آراء ، يجملها كل من «الزركشي» و «السيوطي» (١) في اصطلاحات ثلاثة هي :

أولها : أن المكي مانزل بمكة ، والمدني مانزل بالمدينة ، ويدخل في مكة ضواحيها كالمنزل بمنى وعرفات والحديبية . وفي المدينة ضواحيها كالمنزل ببدر وأحد ..

ثانيها : وهو المشهور ، أن المكي مانزل قبل الهجرة ، وإن كان بالمدينة ، والمدني مانزل بعد الهجرة ، وإن كان بمكة .

١ — انظر .. الزركشي : البرهان في علوم القرآن ١٨٧/١
السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ٩/١

ثالثها : أن المكى ما وقع خطـــابا لأهل مكة ، والمدنى ما وقع خطابا لأهل المـــدينة ..

وبالنظر إلى هذه الآراء الثـلاثة ، نلاحظ أن الأول منها اعتمد على عنصـر المكان ، إلا أنه قاصر عن الشمول لكل الآيات ؛ حيث أغفل صفـــة الآية التى نزلت فى غير هذه الأماكن — كالذى نزل ببيت المقدس (مثلا) .

أما الرأى الثالث فإنه يتعلق بأسلوب الخطاب ، ولكنه لا يشير إلى صيغة هذا الأسلوب ، وإنمـا قصد إلى الأسـلوب الموجه فقط ، وهـو قول لا يتضح فيه التحـــديد ..

والرأى الثانى هو الرأى المشهور بين العلماء ، وهو ما ارتضيناه وأشرنا إليه فيما سبق* ،إذ يتخذ وقت الهجرة فاصلاً بين منهجين متميزين فى التنزيل ، أو قد تغلب عليها صفـــة التمايز ؛ فمها يكن من أمر التمييز بين المنهج المكى ، والمنهج المدنى،إلا أنه تمييز قائم على الأغلب والأعم،لأنهما يعالجان هدفا واحدا وهو مضى الدعوة واستكمالها . ويعنى هـذا التقسيم أن ما نزل قبل الهجرة فى أى مكان وفى أى وقت فهو مكى ، وما نزل بعدها فهو مدنى ، وهذا التقسيم لا يفقـــد النص القرآنى عنصر الارتباط بين جزئية المكى والمدنى .

وكثير من العلماء يرى فى هذا الاتجاه ارتياحا واطمئنانا عند الأخذ به ؛ كما أنه يقضى على معظم الخـــلافات التى أثارت حول تحديد المكى والمدنى . وهى خلافات ترجع إلى أن تحديد المكى والمدنى يقوم على الاجتهاد والرأى ؛ فلم يؤثر

---

* انظر ص ٧٩ من هذا البحث .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قول قاطع بأن هذه الآية مكية ، أو مدنية يقول الزركشي ..

« إنما هذا يرجع لحفظ الصحابة وتابعيهم ... غير أنه لم يكن من النبي صلى الله عليه وسلم فى ذلك قول ، ولا ورد عنه أنه قال اعلموا أن قدر ما نزل بمكة .. كذا .. ، وبالمدينة .. كذا .. ، وفصله لهم . ولو كان ذلك منه لظهر وانتشر ، وانما لم يفعله لأنه لم يؤمر به ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة ... » (١)

واعتمدت أخبار المكى والمدنى على طريقين .. طريق السماع ، وطريق القياس ، فما جاء عن طريق السماع يرجع فيه الى حفظ الصحابة والتابعين ، أما طريق القياس فمرجعه تلك الضوابط التى وضعت للتعرف على المكى والمدنى. ولم تكن معرفة المكى والمدنى من فرائض الدين ، ولا يوصم بالجهل من لم يعلم بها ، ويستطرد الزركشى قوله حول هذا الموضوع ..

« لم يجب على من دخل فى الإسلام بعد الهجرة أن يعرف كل آية أنزلت قبل اسلامه .. مكية أو مدنية ، فيجوز أن يقف فى ذلك أو يغلب على ظنه أحد الأمرين ، واذا كان كذلك بطل ماتوهموه من وجوب نقل هذا أو شهرته فى الناس ، ولزوم العلم به لهم ، ووجوب ارتفاع الخلاف فيه » (٢)

ولم تكن الاجتهادات الا من منطلق العناية الفائقة والاهتمام البالغ بالنص

---

١ — الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ١٩٢/١

٢ — المرجع السابق

القرآني ، فلم يتركوا شيئا يحتف بالنص إلا كان محل اهتمامهم، وبحثهم ، كمعرفة أسباب النزول ، ومكان النزول ، ومدى تعلق النص بمقتضاه ، ومعرفة أهدافه ومراميـــه .

ماهو المكي :..؟

إن الذين اجتمعوا حول الرسول عليه الصلاة والسلام عند بدء الدعوة كانوا من القلة والضعف ما جعلهم عرضة للإيذاء والكيد ، وهؤلاء يمثلون جانبا من المجتمع المكي جدير بالتنزيل أن يساندهم ، ويربط من جأشهم ، وهناك جانب آخر لم تزل تشيع بينه رواسب سبل معوجة ، ومناهج منحرفة متضاربة تجلت فيها الأثرة والعصبية ، فانحرفت سلوكياتهم عن الجادة ، وعلى التنزيل أن يقف في وجوههم ، ويعيد إليهم صحوتهم . ونوع ثالث ضرب الشرك أطنابه بينهم ، فصاروا يتوجهون الى آلهة صنعتها أيديهم . ودعوة الاسلام آنذاك هي عقيدة التوحيد ، وأن ما يدعونه من أنداد لا تملك لهم نفعا ولا ضرا .

وفي هذا الوسط يأتي التنزيل المكي موجها ومعالجا ، ليعد تربة صالحة لنبت أمة هي خير أمة أخرجت للناس .

لقد كان المجتمع المكي يموج بأسباب الفساد ، تنتشر فيه أقبح العادات ، أراذل الأعمال ، وفي ذلك يقول د. دراز ..

> « كان العرب يطمسون التوحيد تحت أركام من الخرافات والأساطير ... ، فوأد الأطفـــال ، والبغاء ، وزنا المحارم ، وابتزاز المهور ، وارث نساء الأقارب كرها ، وظلم اليتامى ، والجشع ، واهمال الفقراء ، وازدراء الضعفاء ، كان هو الطابع

الغالب . ، (١)

فسلك التنزيل طريقا ، وتخير الاسلوب المناسب حتى يعالج الدخل* لدى هؤلاء القوم ، فلزم الأمر أن تقابل تلك العقوبة بهزة عنيفة ، وأن يكتنف هذه الهزة الصبر والجهد ، وطول الاناة ، وكان يطالب الرسول بها من وقت لآخر عند قيامه بالدعوة ، حتى تلين طباعهم ، وتزول تلك الآثام التى رانت على قلوبهم .

ومع هذا التيار المصلح لا تفتأ نزعات الجحود والإنكار أن تظهر بين الفينة والفينة ، وتعلوا أصوات الاستهزاء والاستهتار . والمشركون مع كثرة عددهم ، واشتداد شوكتهم ، وفى إطار من الحمية الجاهلية يدسون الأذى ، ويعملون على قيام المناوشات بينهم وبين تلك الفئة القليلة من المسلمين ، والرسول يعانى ما يعانى هو وصحبه ، ولم يكن لديهم ما يدرأون به الخطر عن أنفسهم .

أخذ التنزيل المكى آنذاك يعالج أمراض المجتمع ، ويتعامل معه بما يناسب أحواله وظروفه ، فكان الوحي يطالب الرسول بالعفو ، والصفح الجميل عمن تعرضوا له ، وأقدموا على إيذائه ، ونعماها من معالجة إلهية ، ترعى أسس الدعوة ، وتشد من أزرها ، خاصة فى تلك المرحلة التى تعد ميلادا لها . . فانظر إلى قول الله تعالى . .

---

١ — د. محمد عبد اللطيف دراز : مدخل الى القرآن الكريم — عرض تاريخى وتحليل مقارن ص ١٣٠ دار القلم — الكويت ١٩٧١ .

* الدخل : حركة الخاصة : ماداخلك من فساد فى عقل أو جسم .

« وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل » (الآية ٨٥ من سورة الحجر)

وهى من الآيات المكية ، تطلب من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يعرض عنهم دون جزع أو توجس ، فلا يقيم مخاصمة معهم ، ولا يضمر خيفة منهم ، فقد شملت الآية القرآنية تحذيرهم ووعيدهم .

إن الفترة الزمنية فى حياة المجتمع المكى ، والتى قضاها الرسول قبل هجرته نجدها متمثلة فى القرآن ذاته ، فعندما نقرأ قول الله تعالى . .

« فوربك لنسألنهم أجمعين . عما كانوا يعملون . فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . انا كفيناك المستهزئين . الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون » (الآيات من ٩٢ — ٩٦ من سورة الحجر وهى مكية)

نرى أن تلك الآيات ترتبط بما حدث فى مكة حيث بدأت الدعوة سراً ، ثم طلب من الرسول أن يجهر بها ، حينما مهد الله تعالى لهذا الجهر ، وأراد أن تعلو كلمته ، وينتصر دينه ، وتثبت أقدام المؤمنين . تصيح الآيات بأن الله سائلهم جميعا عن أفعالهم ، وعما تقدمه أيديهم ، والموقف مع شدته مؤكد — أيضا — بالقسم ، يزجر المشركين فى قوة هياجة ، ويتوعد المستهزئين فى تحذير شديد . والمعالجة فى تلك الآيات تدور حول موقفين لازمين — حين تتعدى الدعوة مرحلة السرية إلى مرحلة الجهر ـ وهما : مساندة الرسول ، ودفعه الى المضى فى دعوته ، ونزع الخوف من نفسه ، أو ماينتاوب قلبه من الإخفاق ، وهو إعداد نفسى للرسول حتى يحقق ماكلف به . والثانى .. هو إعلام شديد اللهجة للمخاطبين ، ووعيد يهدد كيانهم إذا ماظلوا فى طغيانهم يعمهون . .

وتلك صبغة التنزيل المكى حينما يقف أمام ما تسوله لهم أنفسهم ، كاشفا تلك الحجب التى غشيت الحق ، وزينت الباطل .

وعندما يتمادى القوم فى ضلالهم وجحودهم ، ويمتد النكران إلى البعث ، فيستعظمون على الله تعالى أن يعيدهم فيبعثهم خلقاً جديداً بعد موتهم .. يحكى القرآن عنهم ..

« وقالوا أءذا كنا عظاما ورفاتاً أءنا لمبعوثون خلقاً جديداً »
(الآية ٤٩ من صورة الإسراء — وهى مكية)

« إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين »
(الآية ٣٧ من صورة المؤمنون — وهى مكية)

فيأتى التنزيل فى معرض الرد عليهم قائلا ..

« فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها .
إن ذلك لمحى الموتى وهو على كل شىء قدير »
(الآية ٥٠ من صورة الروم — وهى مكية)

يقرعهم بالمثل الشاخص أمامهم ، وأنه قادر على إحياء الأرض بعد موتها فهو الذى يحيي الناس بعد موتهم . كلمات تنبعث فيها قوة الحق ووضوحه ، وواقعيته . وحرى بالتنزيل المكى أن يقنعهم بالخالق الواحد القادر على الخلق والبعث ، لينزع ما تأصل فى نفوسهم من الشرك آنذاك .

ولا يزال التنزيل المكى يلفت أنظارهم إلى ما يحيط بهم من الكونيات الشاهدة على وجود الله الواحد القهار .. فيقول لهم ..

« ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا . وخلقناكم أزواجا »

« وبنينا فوقكم سبعاً شدادا . وجعلنا سراجاً وهاجاً »
(الآيات من ٦ - ٨ ، ١٢ - ١٣ من سورة النبأ - وهى مكية)

وتلك آيات الله المرئية التى تتجسد أمام حسهم وناظرهم ، وما من عاقل يجحد بها أو ينكر وجودها .

ولم تغفل الدعوة فى هذه الفترة أن تسوق العبرة والعظة ، وتسرد تاريخ الأمم السالفة ، وما آلت إليه حين راوغت ، وتمردت على طاعة الله ، واتباع أوامره وكيف كانت عاقبة الصراع بين المتألهين والجبابرة ، وبين الأنبياء وما انتهت اليه من دحر لكل متكبر جبار عنيد ، ونصرة وغلبة لمن أطاع رسله ، وانصاع لدعوته . فيذكرهم بتلك الاطلال التى يمرون بها فى أسفارهم حين يخرجون للتجارة مصبحين وممسين ، فيقول لهم . .

« أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون
فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى »
(الآية ١٢٨ من سورة طه — وهى مكية)

علهم يتدبرون تلك الاحداث ، فتثير بواعثهم ، ويزجرون عن غيهم وما هم عليه من الضلال ، والسياق القرآنى هنا من قبيل الأخبار التعبيرية ، التى أشار اليها « الراغب » عندما قال . .

« وإما أن يكون الخبر منبئاً عما يقتضى الاعتبار به ، فيسمى (الخبر الاعتبارى) . . كأخبار الانبياء وأممهم ، والقرون الماضية . . . (١) »

---

١ — الراغب الاصفهانى : مقدمة التفسير ص ٤٠٠ - ملحقة بكتاب تنزيه القرآن عن المطاعن ط. أولى - القاهرة ١٣٢٩ هـ

ومن خلال هذا العرض يظهر لنا تغليب الحركة الاسلامية على ما يعتورها من عبث العابثين ، وإنكار المنكرين ، وما تحدثه من ضرب الحصار حول المنحرفين ، وتضييق الخناق عليهم .

ويبين السياق التاريخى للقرآن المكى أن الدعوة كانت تواجه من آن لآخر أشكالا جديدة من الاتجاهات والأفكار ؛ فتأتى الآيات متنوعة لتقابل تلك التيارات المتعددة ، وتواجهها فى إطار محكم يمس شغاف القلوب ، ويثير بواعث الفكر والتدبر ، وتلك معالجة أسلوبية جل الله قائلها . ويطالعنا قول د. النمر فى هذا الصدد ..

« وهكذا كان القرآن وهو فى الذروة العليا
من الفصاحة والبلاغة ومراعاة مقتضى
الحال..فإذا وجدت آيات أو سور قصيرة.
وأسلوباً يزجر ويهدر ، ويقسو ويشتد يرد
هجوماً على رسول الله ، ويهدد المعتدين ؛
فاعلم أن هذه آيات مكية ... »(١)

ولا يفوتنا القول بأن العقيدة شغلت مساحة كبيرة من التنزيل المكى ، باعتبارها أساساً ضرورياً لقيام الدين ، وقد ظل الخطاب يتكرر بشأنها ليملأ على القوم حياتهم ، وتصبح رادعاً قويا ، ودرعاً حامياً أمام أى انحراف .

وإذا كنا قد تعرضنا لبعض الموضوعات والأحوال البارزة فى المجتمع المكى ، إنما لنلاحظ هذا الدور الذى تؤديه الآيات المكية فى إظهار تلك الأحوال ، وماتحمله تلك الآيات من الردود والمواقف فى

---

١ — د. عبد المنعم النمر : علوم القرآن الكريم ص ٦١

أساليب ملائمة . وعندما نتتبع تلك الأساليب نجد أن الطابع الغالب عليها هو قصر الآيات ، وسياقها فى ألفاظ يتضح بينها التجانس الصوتى ، إلى جانب مايظهر فيه من حرارة التعبير ، وقوة التأثير ، حتى يشعر السامع بما تحدثه من جرس قوى ، ووقع شديد .. انظر قول الله تعالى ..

« تبت يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه
ماله وما كسب . سيصلى ناراً ذات لهب .
وامرأته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من
مسد » . (سورة المسد ، ويسمونها أيضا
سورة اللهب — وهى مكية)

تجد أن آيات السورة تتابعت فى مقاطع قصيرة ، إلا أنها تلتقى بألفاظ متوهجة ، يحمل كل حرف فيها لظى لاهوادة فيه ولاهدوء ، تكشف عن شدة التحذير ، وهول الوعيد فى آن واحد .

وإذا كانت الأحكام التشريعية فى وقتها وتفاصيلها ، وشروطها ، وحدودها تحتاج الى الأسلوب الطويل ليفى بوقائعها وأحوالها ، وأعدادها وأرقامها ؛ فإن البيان الملائم للترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، والتبشير والتحذير ، هو تلك الفواصل القصيرة التى تغلب على الأسلوب المكى . ولا يمنع ذلك من وجود آيات طوال فى المكى ؛ فسورة الأنعام (مثلا) تشتمل على الكثير من طوال الآى ، وهى سورة مكية ، ومعنى هذا أن قصر الآيات لم يكن إلا صفة غالبة على التنزيل المكى .

ويبرز بين التنزيل المكى كثير من الشواهد التوضيحية المستمدة من البيئة ، فيضرب المثل وكأنه يشخص أمام أعينهم ؛ ولنقرأ قول الله تعالى ..

« مثل الذين كفروا بربهم كرماد اشتدت به الريح
في يوم عاصف لايقدرون مما كسبوا على شيء ذلك
هو الضلال البعيد »
(الآية ١٨ من سورة ابراهيم - وهي مكية)

فالرماد ليس غريبا على أصحاب تلك البيئة ، فهو البقايا الدقيقة من الوقود بعد احتراقه ، وما أكثرها عند سكان الصحراء ، وهبـــوب الريح وشدته من الظواهر المألوفة لديهم ، وأعمال الكفار يمحقها الله كما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف .

ومما يتميز به التنزيل - أيضا - انتشار القسم بين آياته حتى يأتي الخطاب مؤكداً ، شديداً ، لأن المخاطبين قريبو عهد بالجاهلية ، ولاتزال تختم على عقولهم أصداء ، يعوزها هذا الأسلوب المؤكد القوي .

يقول الله تعالى ..

« ويجعلون لما لايعلمون نصيباً مما رزقناهم تالله
لتسألن عما كنتم تفترون » .
(الآية ٥٦ من سورة النحل - وهي مكية)

إن وعيد الله لهؤلاء الذين أشركوا به لم يكن في حاجة إلى قسم أو تأكيد ، ولكنه أمام نكرانهم ، وجعلهـم نصيباً من الزرع والأنعام لأصنـام لايعلمون عنها شيئاً ، ويريدون أن يتقربوا إليها - وإن هو إلا محض افتراء - فشدد الله عليهم القول ، ووثقه بما لايدع مجـــالا للشك بأنهم مسؤلون عن كذبهم وبهتانهم .

ويظل الوحي المكي قرابة ثلاث عشرة سنة قبل أن تنتقل الحركة الاسلامية

إلى المدينة .. يقيم الحق ، ويعالج فى اختصار موجز أخطاء الفهم التى ضلوا بها وأضلوا ، ويبين لهم نظر الاسلام إزاء كل موقف حتى يهيأ لهم الطريق الصحيح للدين الجديد .

ما هو المدنى .. ؟

سلك التنزيل فى هذه المرحلة منهجاً جديداً ، واتخذ أسلوباً خاصاً بي وظل يواصل علاج الحركة الإسلامية فى المدينة قرابة عشر سنوات ، مراعيا ما يطرأ عليها من ظروف ، وما يجد من مواقف ، وما تدعو إليه الحاجة ، و. الأمور . .

ولاشك أن المجتمع المدنى يختلف فى أحواله ومواقفه عن المجتمع المكى، إلا أن المرحلة المدنية مكملة لمسيرة الدعوة الاسلامية، كما يقول فى ذلك الكاتب الاسلامى .. مالك بن نبى ..

> « وإذا كانت المرحلة المكيـة فى جوهرها عهداً روحياً ، هو عهد النبى الداعية الذى يرشد المصطفين الأخيار ؛ فإن مرحلة المدينة استمرار المرحلة الأولى، ونتيجة زمنية لها فى وقت واحد ؛ فالنبى والقائد سيتحدان الآن فى ذات واحدة تدعو وتقود جموع المؤمنين »(1)

ففى مجتمع المدينة أقامت الجماعة المسلمة دولتها ، حيث توفرت لها العناصر

---

١ — مالك بن نبى : الظاهرة القرآنية ص ١٥٣ - ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر - بيروت.

اللازمة لتأسيس دولة منظمة تمكنت من الأرض التى استقرت عليها ، والتف الناس حول الدين وتمسكوا بنظمه ، وأخذ الرسول عليه الصلاة والسلام يباشر قيادة الجماعة ، وأصبح للمجتمع المدنى مشاكله الخاصة ، وظروفه المتميزة .

ولقد ظهر فى حلبة الصراع مجموعات من اليهود والنصارى ، وهم أهل كتاب بدأوا بمناوشة المسلمين ، ووضع العراقيل فى وجة دعوة الاسلام ..

هذا ، وقد اندس - أيضا - بين صفوف المسلمين من يظهر المودة والوفاء، ويبطن العداوة والبغضاء ، وبدأ النفاق يستشرى ويمتد أذاه إلى الطائفة المسلمة .

فلا ريب أن يتنوع التنزيل بتنوع الأحوال ومستحدثات الوقائع ؛ فيعمل على حماية المسلمين ، ويعبد الطريق أمام مسيرة الدعوة ، ويضيق الخناق على الأعداء ويناهضهم ، والكلمة القرآنية تأتى معنفة ومحذرة وكاشفة إذا ما اقتضى الأمر . يقول الله تعالى ..

« أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم
المفلحون . إن الذين كفروا سواء عليهم
أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون . ختم الله
على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم
غشاوة ولهم عذاب عظيم . ومن الناس من
يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم
بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا
ومايخدعون إلا أنفسهم ومايشعرون »

(الآيات من ٥-٩ من سورة البقرة - وهى مدنية)

تذكر الآيات صفات المؤمنين ، وتعقبها صفات الكافرين ، وكذلك وصف المنافقين ، وهم الصنف الثالث الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ؛ فأظهر التنزيل مايتصف به المؤمنون من جليل الصفات ، ومايفوزون به من درجات عالية ، كما يبين حقيقة الكفار وموقفهم المتعنت من الاسلام ، ويكشف نوايا المنافقين وماتنطوي عليه نفوسهم من ضلال ونفاق ؛ حتى يجنب المؤمنين خطرهم ، ويضع فى وضوح أسلوب التعامل معهم ؛ فقد ظهرت وتجلت خطورة مواقفهم داخل مجتمع المدينة .

يقول تعالى . .

« وممن حولكم من الأعراب منـــافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لاتعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم » .

(الآية ١٠١ من سورة التوبة ـ مدنية)

فأسفر القرآن عن دخيلتهم المعادية ، وفضح أمرهم أمام المسلمين .

وحين يتعرض أهل الكتاب لمجادلة المسلمين ، ويظهرون عليهم فى ثياب العلم والمعرفة ، وإن كانوا ـ فى واقع الأمر ـ منكرين للحق ، متنقلين عن الصدق ، هى مواقف كثر وقوعها فى المجتمع المدنى . . يأتى التنزيل ليردهم إلى صوابهم ويقيم الحق بين أيديهم ، وهذا قول الله . .

« يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا . »

(الآية ٤٧ من سورة النساء ـ وهى مدنية)

يتهددهم بصفعة تذهب أبصارهم وأسماعهم ، وهو من أبلغ ما يقال فى العقوبة والتنكيل ، وتأتى الكلمة هنا فى شدتها ، وقوة الخطاب بها ، مظهرة للحق الذى عرفوه ولكنهم رموه وراءهم ظهرياً .

ولم يقف التنزيل عند هذا الحد بل أخذ يقدم للمسلمين النصيحة ، ويشرح لهم أسلوب التعامل ، وماذا يتخذونه حيالهم من مواقف ؛ فيقول لهم . .

« يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لايهدى القوم الظالمين »

(الآية ٥١ من سورة المائدة ـ مدنية)

ثم يعود القرآن مرة أخرى ويقول لهم . .

« بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين »

(الآية ٩٠ من سورة البقرة ـ وهى مدنية)

ليظهر بغيهم وظلمهم وإنكارهم الرسالة على محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فبئسما سلكوه واشتروا به أنفسهم .

ولا يفتر القرآن أن يقارعهم بالحجة ، ويبين لهم ما هم فيه مختلفون .

تعددت مسارب الخطر وأخذت تندفع حممها إلى دولة الاسلام فى المدينة من الداخل والخارج ، وكان لزاماً عـــلى المسلمين فى هذه الفترة أن يتصدوا لأعدائهم ، ويقاتلوا من أجل بقاء الدين وانتشاره . وخاض المسلمون المعركة ،

وكان النصر والهزيمة ، وكلاهما له مساوئه .. للهزيمة مرارتها فى النفس ، وللنصر خطورته ؛ فقد ينخدع المسلمون بحلاوة النصر ، وقد تكون نشوته سبباً فى غرورهم ؛ فتلهيهم الغنائم وتزين لهم اللهو والعبث .

وعلى التنزيل أن يواجه تلك المشكلات ، ينــاصرهم ويشد من أزرهم إذا ماحدق الخطر بهم أو بليتهم الهزيمة ، ويحثهم على مواصلة الجهاد .

ويحذرهم من الزهو والفخار إذا حالفهم النصر .. يقول الله تعالى ..

«لايستوى القاعدون من المؤمنين غير
أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله
بأموالهم وأنفسهم فضــل الله
المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على
القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى
وفضل الله المجاهدين على القاعدين
أجراً عظيما »

(الآية ٩٥ من سورة النساء ـ مدينة)

ويقول أيضا ..

« ولقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم
حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً
وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم
مدبرين »

(الآية ٢٥ من سورة التوبة ـ مدنية)

فبين لهم أسلوب الجهــاد ، ونظم حركته ، ولم يزل يحمل المسلمين على

الاضطلاع بأمانة العقيدة وسلوك التشريع ، وأن تضحياتهم من أجل نصرة الدين لن تذهب سدى .. يقول لهم ..

« والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسنا وإن الله لهو خير الرازقين »

(الآية ٥٨ من سورة الحج - وهى مدنية)

فتأتى المخاطبة القرآنية فى وقتها المحسوب لها حتى تحقق فاعليتها ؛ فقد اندفع المسلمون وتحملوا فى سبيل الاسلام ، ورخص أمام أعينهم كل شىء إلا الدين .

وهكذا فى كل ميدان من ميادين الصراع فى المدينة كان الوحى يصول فيه ويجول ، حتى يحقق للدين قيامه وكماله .

وكان طبيعيا فى هذه الفترة أن تنظم أمور الدولة ، وأن تشرع الأحكام والقوانين فى أشكالها المتعددة .. كأن تهيأ المجتمع أسس الفضيلة والأخلاق الكريمة بأسلوب المعلم والمؤدب .

يقول الله تعالى ...

« وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شىء حسيبا »

(الآية ٨٦ من سورة النساء - وهى مدنية)

ويقول لهم أيضا ...

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون »

(الآية ٨ من سورة المائدة - وهى مدنية)

فيحثهم على المثل العليا فى الأخلاق والأداء. وتتتابع الآيات المدنية عاملة على توجيه المسلمين وتربيتهم وتهذيب سلوكهم ، إذ كانت العقيدة قد تمكنت من نفوسهم وآتت ثمارها ، وعلى التنزيل أن يستكمل تهذيب النفـــوس ، وصقل الأخلاق .. كذلك يقول ..

« قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم » (الآية ٢٦٢ من سورة البقرة ـ وهى مدنية)

ولم يغفل التنزيل المدنى تنظيم المعاملات بين أفراد المجتمع ليستقيم أمره ويشتد ساعده، إذ قيض له بعد ذلك أن ينطلق ويحتوى كل الحضارات المجاورة، كما يعمل التنزيل على غرس المعانى الإنسانية السامية ليصبح القـــوم بمنأى عن الخطيئة والشرور .. يقول تعالى ..

« ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خـــالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيما »

(الآية ٩٣ من سورة النساء ـ وهى مدنية)

كما يقول أيضا ..

« والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا »

(الآية ٣٨ من سورة النساء)

وتلك التوجيهات نجدها غالبة فى التنزيل المـــدنى . ومن أبرز مايتميز به هذا التنزيل تلكم النظم والقوانين التى حملها التشريع ليضع مبادىء الاسلام التى تعدل ولاتجور ، والتى تهدف إلى استقرار الأمور، ووضعها فى نصابها وأحجامها

المناسبة .. مثال ذلك ماشرعه الله تعالى فى المواريث إذ يقول ..

« يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ماترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعاً فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما »

(الآية ١١ من سورة النساء ـ وهى مدنية)

فالآية تتناول توزيع الأنصبة على وجه دقيق عادل ، يكفل الحقوق والمساواة .. وهذا النمط التفصيلى فى تحديد الأحكام يرد فى الآيات المدنية ، ولم يتوان التنزيل عن أن يحذر من أغفلها ، أو تخلى عن العمل بها ، يتوعد ـ بعنيف القول ـ من أهملها ، وحسن الجزاء لمن التزم بها ، وعمل بمقتضاها ، وهنا نجد من الآيات التالية ماتقول ..

« تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم »

(الآية ١٣ من سورة النساء)

ومن الملاحظ أن الأسلوب المدنى يغلب عليه طابع الطول فى الآيات والسور ، لأنه تناول النظم والتشريعات بتفاصيلها ، ودقتها ، وتحديدها . وتكلم عن السلوك الإنسانى ، والعلاقات الداخلية بين أفراد المجتمع ، كما تناول علاقة الدولة بغيرها ، ونظم المعاملات الاقتصادية والاجتماعية ، ونظام الحرب والسلم .

وهى أمور لاتفى بها إلا الفواصل الطويلة ، والأسلوب الهادىء المسترسل ، ومع هذا أيضا لايخلو التنزيل المدنى من قصار الآيات والسور .. فإليك قول الله تعالى ..

« إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ». (سورة النصر) ، وهى مدنية .

ولم يكن الهدوء أيضا صفة لازمة للأسلوب المدنى ؛ ففى مناقشة أهل الكتاب (مثلا) ، قد يأتى القول باللين والموعظة ، وتارة بالتقريع والتعنيف . وعندما يحمل الأسلوب نظاماً ، أو يتناول قانوناً ؛ فقد يرد السياق فى معرض الأمر الشديد ، مع بيان المنذر والمحذر .

توافق وتداخل

من المعلوم أن المرحلة المكية لا يمكن فصلها عن المرحلة المدنية ؛ فالحركة الإسلامية منذ البداية هى خطوات يكمل بعضها بعضاً فى البيئتين المكية والمدنية .

ومن خلال عرضنا للموضوعات التى أثيرت فى كل من المجتمعين المكى والمدنى ، وأساليب الآيات وأشكالها ، يتضح أن هناك توافقاً وتداخلا. وأقصد بالتوافق أنه وجه من وجوه المماثلة والمشابهة ، ولذا فإن الضوابط التى وضعت للتمييز بينها لم تكن مطردة فى كل الحالات . فإذا تميز الأسلوب المكى بقصر آياته، وسوره ، وانتشار القسم فيه ، وإتيانه بلفظ « ياأيها الناس » . وتميز المدنى بإتيانه فى مقاطع طويلة ، والخطاب فيه يأتى بلفظ « يا أيها الذين آمنوا » — كما يقول العلماء — إلا أن تلك المميزات لم ينفرد بها أسلوب المكى أو

أسلوب المدنى ، ولكنها تقع فى كل من الأسلوبين ، ويمكن أن يقـــال إنها صفات غالبة .

ونرى أيضا توافقا بين بعض الموضوعات التى كانت محل اهتمام فى كل من مكة والمدينة ، كموضوع العقيدة (مثلا) ، لم يفتأ القرآن يتناوله ،ويكرره عـــلى مسامع المسلمين سواء فى مكة أو فى المدينة .

أما التداخل : فهو أن الآيات المدنية قد تتعرض لبعض الموضوعات المكية . وأن مايشبه التنزيل المدنى قد يأتى فى السور المكية .

فمن النوع الأول : مانزل بالمدينة ، وكان خطاباً يتنـاول موضوعات خاصة بالمشركين فى مكة .. كما جاء فى سورة الممتحنة : فهى سورة مدنية نزلت بعد الهجرة ، وإن كانت هذه السورة قد وجهت خطابها للمؤمنين فى المدينة إلا أنهـا أشارت إلى بعض الجوانب التشريعية التى تنظم التعامل مع المشركين فى مكة . يقول الله تعالى فى مستهل السورة ..

« يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء
تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بماجاءكم من الحق
يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم
خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم
بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم
فقد ضل سواء السبيل » .

تصف الآية حال المشركين فى مكة وألا يتخذهم المؤمنون أصدقاء وأحباء .
أما النوع الثانى : فيشير إليه « الزركشى » (١) عندما يتكلم عما يشبه التنزيل

---

١ ــ انظر .. الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ١/١٩٥ .

المدنى فى السور المكية ، ومنه قول الله تعالى ..

« الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم.. »
(من الآية ٣٢ من سورة النجم ـ وهى مكية)

وبيان ذلك : أن « كبائر الإثم » يعنى كل ذنب عاقبته النار ، « والفواحش» يعنى كل ذنب فيه حد ... ، وهو مايشبه التنزيل المدنى لأن الحدود شرعت فى المدينة ، وسورة النجم ـ التى نحن بصددها ـ مكية ، وإن كان هناك خلاف حول تحديد صفتها ، فمن المصاحف مايشير إلى أن السورة مكية ماعدا هذه الآية (الآية ٣٢) فهى مدنية ، والبعض الآخر يشير إلى أن السورة كلها مكية .

ومهما يكن من أمر فإن هذه الخلافات حول مكية السورة أو مدنيتها دليل على التداخل .. ، وقد ثار مثل هذا الخلاف حول تحديد صفة سورة «الانبياء» .. هل كل آياتها مكية .. أم بها آيات مدنيات ؟

وينقل «السيوطى»(١) قول البيهقى .. بأنها من السور التى نزلت بمكة ، وبها آيات نزلت بالمدينة فألحقت بها . ومن المصاحف مايشير إلى أن كل آياتها مكية ..

ولما لم تكن الصفات المميزة بين المكى والمدنى حدا فاصلا قاطعا بينهما ، فقد يلجأ العلماء دائما الى التجوز فى القول إذ نجدهم يشيرون إلى ماتوصف به السورة إذا كانت مكية أو مدنية ، « فذلك راجع لمايغلب عليها ، أو تبعا لفاتحتها»(٢).

---

١ ـ انظر .. السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن ١٤/١

٢ ـ « « « ١٢/١ (باب المكى والمدنى)

فلا تحديد إذن ، إنما المعول على الغالب . ولا يخلو موضوع المكى والمدنى من الاجتهادات التى تهدف إلى وضع ضوابط ومقاييس ، وإن كان الوصول إلى حدود فاصلة أمراً صعباً .

مقارنة

إن الهدف من تلك المقارنة هو استيضاح العلامات الرئيسية التى برزت فى أسلوب كل من المرحلتين المكية والمدنية . وترجع هذه العلامات إلى سياق الأسلوب وشكله ، ومناسبته للموضوع فى كل مرحلة .

ويذكر « الزركشى » قول علقمة بن قيس النخعى (وهو من كبار الرواة) عن عبد الله بن مسعود .. بأن كل سورة فيها « يا أيها الناس » أو « كلا » أو أولها حرف تهج ـ سوى البقرة وآل عمران ـ أو فيها قصة آدم وإبليس ـ سوى البقرة ـ فهى مكية . وكل سورة فيها فريضة أو حد ، وكل شىء نزل فيه « يا أيها الذين آمنوا » فهو بالمدينة .

ويمكن أن يقال إن تلك المميزات ذات طابع غالب فقط ، وليست مميزات تفصل المكى عن المدنى تمام الفصل .

وإذا عدنا إلى قول « الزركشى » (٢) فى هذا الموضوع ، وجدنا أنه

١ ـ انظر . الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ١٨٩/١
٢ ـ نفس المرجع السابق .

لايقبل هذه المقارنة كما هى ، بل له فيها نظر .. إذ يقول .. إن سورة البقرة مدنية وفيها « يا أيها الناس اعبدوا ربكم ... » (من الآية ٢١) ، وسورة النساء مدنية وفيها « يا أيها الناس اتقوا ربكم ... » (من الآية ١) ، وسورة الحج مكية وفيها « يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا ... » (من الآية ٧٧).

كما يعقب على هذا بقوله .. فإن أراد المفسرون أن الغالب ذلك فهو صحيح، والأقرب، تنزيل قول من قال : مكى ومدنى ، على أنه خطاب المقصود به ، أو جل المقصود به أهل مكة ، أو أهل المدينة .. ا.هـ

وإن كان « الزركشى » يستريح إلى الرأى القائل بأن المكى ماكان خطاباً لأهل مكة ، والمدنى ماكان خطاباً لأهل المدينة ، الا أنه لم يكن مطمئنا تماماً إلى هذا الرأى ، إذ حمله - أيضا - على الغالبية عند قوله (جل المقصود به أهل مكة أو أهل المدينة) .

ومن جانب آخر نلحظ أن هذه المقارنة ناقصة ، فالخطاب الموجه إلى أهل مكة ... مالون هذا الخطاب وماشكله ...؟ ، وكذلك الخطاب الموجه إلى أهل المدينة . ؟

وهكذا عندما تعقد أية مقارنة بين ما وضع تميـيزاً لكل من المرحلتين ، نجد أن ذلك لاينطبق على نصوص القرآن كله بل هو فى الأغلب والأعم ، ومرد ذلك إلى أن القرآن مهمته - فى المقام الأول - إرساء الأسس لدعـوة الاسلام ، ورعايتها ، وتصحيح مسارها من آن لآخر ، ووضع نظام الحيـاة إنسانية معتدلة ، ولم يخضع هذا المسار لضوابط أسلوبية تطبق بشكل قاطع ، بقدر ماكان موافقا لمقتضيات الأحوال ، وقد أشار إلى ذلك الكاتب الاسلامى « المودودى » عندما تعرض لموضوع السياق القرآنى .. أنه

« يتناسب وقيادة الحركة الاسلامية التى أشعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت اشراف القرآن وقيادته المباشرة ، وعلى هذا فالله سبحانه وتعالى أوحى القرآن ، وأنزله رويداً رويداً ، ليوفى متطلبات الحركة ، ويسد احتياجاتها ، ولوازمها فى كافة المراحل المختلفة ، فلم يكن القرآن عملا أدبياً على النمط التأليفى المألوف تنمو فكرته الأساسية وتتطور فى تناسق وترتيب منطقى مطرد ، كما أنه لايشاكل هذا الصنف من الأعمال فى أسلوبه » (١)

فوائد

إن التعرف على مكى القرآن ومدنية يساعد كثيراً فى فهم الظروف والأحوال التى كانت تعالجها الدعوة الاسلامية فى كل من المجتمعين المكى والمدنى ، كما تسهم فى فهم النص ، وإدراك كيفية التدرج فيه عندما يواجه الأمور ويناسبها بما تمليه الحاجة ، وتتطلبه الحالة .

ومن جانب آخر ، فإن معرفة الترتيب الزمانى والمكانى يهيء لمتفهمى القرآن استيعاب روعة هذا التدرج ومسايرته لخطى الدعوة ، وكيفية مراعاتها لنفسيات المخاطبين ومدى تقبلهم لها .

وعندما يكون النظام وليد الحاجيات والمقتضيات ، فهو نظام ملائم ومستقر ؛

---

١ — أبو الأعلى المودودى : مقدمة تفهيم القرآن ص ١٢ - تعريب احمد ادريس دار القلم - الكويت ١٩٧٨

يجد الرضا والقبول لدى مجتمعه ، وذلك هو الأسلوب الذى اتبعه النظام الاسلامى فترك فى أذهان متلقيه ،وفى أحاسيسهم ومشاعرهم أثراً يعلو على كل مؤثر .. وحرى برسالة السماء أن تكون نظام حياة ، ومنهج تعليم ، وأسلوب تربية فريد فى نوعه ، فما هو من صنع بشر ، ولاصياغة فصيح من الفصحاء،ولاتنبؤات كاهن ، ولكنه آيات العلى القدير .

إن التعرف على الترتيب الزمانى للآيات أفاد كثيراً فى تحديد الناسخ والمنسوخ ، واعتمد عليه العلماء اعتماداً كبيراً فى هذا الشأن ، فمن المعروف أن المنسوخ سابق فى الترتيب على الناسخ .

وفى مجال الإحساس بجمال الأسلوب القرآنى ، فإن معرفة الصفة التى يصطبغ بها كل من التنزيل المكى أو المدنى تعمل على صقل التذوق الأسلوبى لدى المتصدى لفهم كتاب الله ، وتقدم له درساً بلاغيا فى أساليب التخاطب ،ومعرفة طرائقها ، وكيفية التوصل إلى الخطاب الملائم ، حيث يجد اختلاف الأساليب، وتلونها تابعاً لاختلاف أنماط الناس وأحوالهم .

وإن التعرف على تلك الأساليب - من جانب آخر - يشعر بالتنسيق التام والدقيق بين الكلمات والفواصل، وطول العبارات وقصرها ، مع ماتداولته من موضوعات ، تسير كلها ضمن تنسيق لفظى فى معادلة دقيقة تصل بنا إلى نتيجة حتمية ، وهى أن الأداء القرآنى يفى بكل الأغراض ..

هذا من الناحية الأسلوبية ،أما من ناحية الأحداث التى مرت بها الدعوة ، فمن الكتاب الاسلاميين من يشير إلى أن التعرف على المكى والمدنى يعين على معرفة سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فتتابع الوحى ساير تاريخ الدعوة بأحداثها فى كلا العهدين المكى والمدنى ، والقرآن فى حد ذاته يعتبر مرجعا أصيلا لهذه

السيرة ، ويقطع دابر الخلافات عندما تتضارب الروايات ، وتختلف الآراء (١)
.. أ.هـ

ومن الناحية الموضوعية ، فإن التعرف على المكى والمدنى يفيد فى إدراك الوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم ، وهى من المعارف القرآنية الهامة ، إذ تنزل الآية أو الآيات فى مكة ، ولكنها تلحق بسورة مدنيه نزلت بعدها .. كما حدث فى سورة « الأنفال » (مثلا) ، وهى سورة مدنية عنيت بالجانب التشريعى وبخاصة الغزوات ، والجهاد فى سبيل الله ، عدا بعض آياتها (من الآية ٣٠ الى الآية ٣٦) فهى مكية ، وألحقت بها لمناسبة الموضوع والعمل على وحدته - ولم يكن مكان نزول الآية أو زمنها هو الذى حدد موضعها فى المصحف . ومعروف أن هناك وحدة موضوعية لكل سورة من سور القرآن ، وإلا لوكان القرآن مختلطا ، وبلا رابطة كما يدعى المنكرون والحاقدون ومن سار فى فلكهم؛ فليس ثمت معنى لإلحاق آية أو آيات مكية بسورة مدنية ، ولكان الأولى أن توضع فى سورة متجانسة معها فى الزمان والمكان ، إلا أن جبريل عليه السلام كان ينزل بالوحى ، ثم يخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن مكان الآية أو الآيات فى سورة .. كذا .. بعد آية .. كذا .. ومن الواضح أن تلك الآية أو الآيات ذات صلة موضوعية بالسورة التى ألحقت بها .

---

١ - انظر .. مناع القطان : مباحث فى علوم القرآن ص ٥٥

الموضوع الثامن

المثل ولواحقه

* المثل الصريح
* المثل الظاهر
* المثل الكامن أو الضمنى .

لم يكن القرآن إلا دعوة عامة يوجهها الله سبحانه وتعالى للبشرية أجمع ؛ وتختلف ما بين البشر مقادير التعقل والقدرة على التفكير ، والكتاب الكريم يحمل بين طياته ما يمس به القلوب ، ويخاطب به العقول .. سرت كلماته إلى الإنسان . فامتلأ بها واطمأن إليها ، واقتنع وأذعن لمنطقه المؤيد بالدليل .

وقد اختلفت إشارات القرآن — في الدلالة والوضوح . قرباً أو بعداً عما يتناسب مع حركة العقل الانساني وتمكنه من الفهم .

وشرعة الله التي تمثلت في كتابه تقوم على الحقائق اليقينية الواضحة ، والمفاهيم الصحيحة السليمة في كل أمر من أمور الكون مما يحقق تصوراً دقيقا ومتكاملا للإنسان لكل ما يدور حوله .

وهكذا ينهج القرآن سبيلا تظهر فيه الوقائع في حقيقة سافرة لاخفاء فيها ولا مواربة ، فضرب الله للناس فيه من كل مثل .... « فالأمثال والتشبيهات هي الطرق إلى المعاني المحتجبة في الأستار »[1] . فجاء المثل في القرآن عاملا على ربط ما يتناوله بما يتناسب مع الواقع المشاهد أو الملموس ، لأن طباع الناس قد تنبو عن إدراك الحقائق خالصة أو مجردة أو عارية ، فيبين قدر الشيء وقيمته في صورة أقرب إلى المفهوم ، وأقوى في الإقناع .

فإذا أراد أن يوضح لك حقيقة الإيمان ، فإنه يمثله لك بالنور ، فيتأكد في القلب ويعلق به ، وإذا أراد أن يزهدك في الكفر ، مثله بالظلمة حتى يتأكد لك قبحه ووحشته .

فمهمة المثل إذن أن يقدم لك المعنى والهدف المقصود من ورائه في صورة رائعة واضحة يشبه فيه الغائب بالحاضر والمعقول بالمحسوس ، فيبرز المعنى ويتجسم ويصبح حياً نابضا ، تبدو فيه الحقيقة مطابقة للمعلوم اليقيني بعيدة كل البعد عن الخرافة والوهم .

---

١ — الزمخشري : تفسير الكشاف ١٩١/٣

ولن يتأتى فهم المثل وإدراك ما يرمى اليه إلا عند تعقل النص الذى يحمل المثل وتدبّر ما فيه ، ولقد نبه القرآن إلى ذلك فى قوله « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلّا العالمون » (الآية ٤٣ من سورة العنكبوت)

فالمثل عندما يشير إلى الواقع المشاهد ، إنما يحرك الطاقة الفكرية فى الانسان وهو أمر — غالبا — ما يكون له أبلغ الأثر فى مفاهيم الناس ، فيعمل على صدق وتأكيد ما جاء به .

ويسوق القرآن العديد من القضايا والمواقف والأحداث فى معرض من الأمثال توافق طاقات العقل البشرى وقدراته ، فيتقبلها بقناعة ورضاً وارتياح ، حتى أصبح هذا السياق التمثيلى قاعدة مستخدمة فى شتى أنواع العلوم والمعارف بغية تقريب المقاصد إلى الأفهام :

يقول ابن تيمية « إن التعريف بالمثال قد يسهل أكثر من التعريف بالحد المطابق »[1] فالحد كما يقول عنه الفلاسفة والمناطقة هو الصفات التى تميز الشيء ، فيتناول بيانه بتلك الصفات التى تحدد المفهوم منه ، وباستعمال الحد قد لا يتضح هذا المفهوم أحيانا . أما إذا جاء عن طريق المثال ، فإنه يتضح ويقرب إلى الفهم .

ويوضح ابن تيمية[2] هذا الموقف فى قوله ... إن العقل السليم يتفطن للنوع كما يتفطن إذا أشير له إلى رغيف .... فقيل له : هذا هو الخبز .

فإشارة المثال إلى الشيء المحسوس إنما هو أبلغ من الإتيان بالمعانى المجردة .

ومن مقومات الوضوح فى المثل القرآنى نلحظ أنه يصطبغ بصبغة المحلية إلى حد كبير ، وقد تأتى بعض الأمثال مشيرة إلى حقائق كونية تحمل بعض الدلائل والشواهد التى تمكن أن يلاحظها الانسان فى بيئته ، وهو أمر يقرب المثال إلى استيعابه وفهمه ، كما يتناول المثال من الأحداث الماضيات ما يحكى تاريخ القوم من خلال آثارهم التى لم تغب أطلالها عن نواظرهم أو من خلال أحداثهم ومعتقداتهم . فيأتى مردداً القول عن مذاهبهم العقائدية ، ومسالكهم الخلقية ،

---

١ – ابن تيمية : مقدمة فى أصول التفسير ص ٤٤ تحقيق د . عدنان زرزور ، [illegible] بيروت [illegible]

٢ – نفس المرجع

وعيوبهم الاجتماعية ، ومن ثم أصبحت الدعوة التى يحملها أقرب إلى الذهن وأوقع فى النفس ، وأضحت الحقيقة أمامهم شاخصة يتلمّسونها بأيديهم ، وقد تحققت مدلولاتها فى عالم الواقع . ولهذا كله أثره الفعّال ، الدافع إلى الحركة والعمل .

ولاغرابة فى هذا فإن القرآن قد جمع فى نصوصه الحكمة ــ كل الحكمة ــ فساق أحكامه يقرّها شيئاً فشيئاً فى تدرج تشريعى حتى يضع فيها القول الفصل ، وساق قصصه وإرشاداته فى أمثال ينذر ويبشر ، ويذكّر وينصح ، ليقرب بهذا كله إلى النفس البشرية ويقنعها فى يسر وسهوله .

ولم يكن مسلك القرآن فى الأمثال مسلكاً غريباً على أسماع القوم ، فقد كان المثل سائراً عند العرب ، جارياً على لسانهم .

أما أسلوب المثل فى القرآن فقد جعل منه صورة تبدو فيها الحياة والحركة ولم تكن ألفاظه ــ أيضا ــ مجرد ايقاعات يتعجب لحمولاتها أو دلالاتها ، ولكنها حركة تأخذ بيد الانسان ، وتقدم له العبرة والعظة وهو مجال يؤدى فيه المثل دوراً هاماً ، إذ يسوق ما يريد الله أن يعظ به عباده فى قضية شملت كل مقومات الاقناع ، وصلحت لكل مراتب الفكر ، فكان لها أثرها فى تقويم النفس وإصلاح سلوكها .

وقد أدرك المفكرون الاسلاميون أهمية المثل فى القرآن ، فلم تخلُ مؤلفاتهم إما من الإشارة إليه أو الخوض فى مجاله .

يذكر السيوطى فى إتقانه « ما أخرجه البيهقى عن أبى هريرة ... قال : قال رسول الله ﷺ .. إن القرآن نزل على خمسة أوجه ... حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال ... ، فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام واتبعوا المحكم وآمنوا بالمتشابه ، واعتبروا بالأمثال ، وقال الماوردى ... من أعظم علم القرآن علم أمثاله ، والناس فى غفلة عنه لانشغالهم بالأمثال وإغفالهم الممثلات ، والمثل بلا ممثل كالفرس بلا لجام والناقة بلا زمام .... وقد عدّه الشافعى مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن »[1]

ويبدو فى عبارته أن المثل فى القرآن يقف عنده كل عالم ومفكر . وعندما فسر

---

١ ــ السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن ١٣١/٢

المفسرون قوله تعالى « ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم » (الآية ٨٧ من سورة الحجر) اعتبروا المثل من السبع المثانى ، فقيل « المراد بالسبع المثانى .... أقسام القرآن من الأمر والنهى والتبشير والانذار ، وضرب الأمثال ، وتعديد نعم وأنباء قرون »[٢] وهو امر يشعرنا بقيمة المثل فى سياق العبرة والعظة والنصح والارشاد ، والتعرف على ماأراده الله لعباده من سلوكيات .

ولم يتوان المفسرون على اختلاف مناهجهم تبرير مافى المثل من دلالات ، وما اشتمل عليه من سلوك ، وما قام بتوضيحه من مواقف ، وما ساقه من اعتبارات وعظات ، جاءت كلها فى أساليب قل فيها اللفظ وكثرت وتنوعت فيها المعانى . وتلك هى طبيعة المثل ومهمته ، وإذا نظرنا الى المعنى اللغوى للمثل - كما أشار اليه الراغب « مثل : أصل المثول والانتصاب ، والممثل المصور على مثال غيره يقال .... مثل الشىء أى انتصب وتصور »[١]

- نجد أن المثل القرآنى — الذى نحن بصدده — لايستقيم حمله على المعنى اللغوى الذى هو الشبيه والنظير ليس غير ، كما لا يحمل أيضا على ما يأتى من أمثال العرب التى لها مورد ، وإنما المثل هنا هو تشبيه حال أمر بحال أمر آخر سواء أكان بطريق الاستعارة أم بطريق التشبيه الصريح ، أو دلالة على معنى رائع بإيجاز ، ابتدأها الله تعالى . دون أن يكون لها مورد من قبل .... والضابط له هو إبراز المعنى فى صوره حسية تساعد على تقريب الفهم ، ولها وقعها فى النفوس سواء أكان تشبيها أم قولا مرسلا ....

ولقد تنوعت أشكال المثل فى القرآن ، فقول الله تعالى « ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون (الاية ٢٧ من سورة الزمر) [redacted] يوحى بتنوع الأمثال فى القرآن ، وتنوع المواقف .

. فيأتى المثل ظاهراً مصرحاً به .... وهو المثل (الصريح) . وذلك هو الشكل الأساسى للمثل المتعارف عليه ، ويلحق بالمثل الصريح حرى .... ما يأتى ظاهراً غير مصرح به وهو المثل (الظاهر) ، وما يأتى كامناً فى النص وهو المثل (الضمنى)

---

١ - القرطبى : تفسير القرطبى المجلدة ص ٣٦٧١

٢ الراغب الأصفهانى : المفردات فى غريب القرآن ص ٤٧٨ المطبعة الميمنية الحلبى القاهرة .

(الصريح) المثل الظاهر المصرح به . .

من هذا قول الله تعالى « ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الادعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون » (الآية ١٧١ من سورة البقرة) .

تتعرض الآية هنا لصفة الكافر فى أنه يشبه الناعق الذى ينادى بالأصنام ، تلك التى تشبه البهائم حين يلقى اليها القول فلا تعيه . فقد ساق المثل تشبيها يتعلق بالناعق وآخر يتعلق بالمنعوق ، ثم تشير الآية الى الموقف بعامة ، فتشبه الكافرين فى موقفهم بالصم البكم العمى .... ولا يعتبر كل شبه من هذه التشبيهات مستقلا بذاته فى الصورة التمثيلية ، لأن الغرض المقصود من هذه الصورة لايتحقق الّا بامتزاجها وتلاحمها ، وارتباط التشبيهات جميعا حتى يأتى المثل فى صورة متكاملة تؤدى ما تهدف اليه .

ويجدر بنا فى هذا المقام أن نشير إلى أن التشبيه يختلف عن المثل ، كما يقول الجرجانى « فاعلم أن التشبيه عام والتمثيل أخص منه »[1] فيُطلق التشبيه على شيئين اشتركا فى وجه الشبه ، ويطلق عليهما إطلاقاً عاماً ، ولايختص بموقف معين كما لو قيل « وجه كالقمر » ، أما التمثيل فيختص بإظهار موقف معين فى صورة قد تتعدد فيها التشبيهات .

وقد عجبت لقول ابن الأثير حين جعل التشبيه والتمثيل شيئاً واحداً إذ يقول « وجدت علماء البيان قد فرّقوا بين التشبيه والتمثيل ، وجعلوا لهذا باباً مفرداً ، وهما شيء واحد لا فرق بينهما فى أصل الوضع ، يقال ... شبهت هذا الشىء بهذا الشيء ، كما يقال .... مثّلته به . وما أعلم كيف خفى ذلك عن أولئك العلماء مع ظهوره ووضوحه »[2]

وربما يزول هذا العجب إذا قلنا إن ابن الأثير يفهم من قوله أن معنى التشبيه يتفق مع معنى التمثيل من ناحية الوضع فى اللغة فقط ، فإنهما يدلان على مفهوم واحد (شبهت هذا بهذا أى مثّلته به) ، ولكننى أقول إن الأداء الاصطلاحى و كل من اللفظين مختلف ، فكل تشبيه تمثيل ، وليس كل تمثيل تشبيه ، فإذا اتفقت

١ عبد القاهر الجرجانى أسرار البلاغة ص ١٠٧ تعليق أحمد مصطفى المراغى مطبعة [illegible] القاهرة ١٩٤٨

٢ ضياء الدين بن الأثير المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ١١٦/٢ تحقيق حوفى وطبانه مطبعة نهضة مصر القاهرة ١٩٦١

الكلمتان فى معنيهما اللغوى فإنهما يختلفان فى الدلالة الاصطلاحية ، كما أميل إلى قول الجرجانى الذى يشير صراحة إلى أن هناك فرقاً بين التشبيه والتمثيل

نعود إلى الآية محل المثل لنشير إلى ما أتى به الفخر الرازى[1] ... من أقوال العلماء فى هذا الصدد ، وقد أضمروا فيه العديد من المعانى .

أولا ... كأنه قيل ... ومثل من يدعو الذين كفروا إلى الحق كمثل الذى ينعق ، فصار الناعق الذى هو الراعى بمنزلة الداعى إلى الحق وهو الرسول عليه السلام ، وسائر الدعاة الى الحق ، وصار الكفار بمنزلة الغنم المنعوق بها ووجه الشبه : أن البهيمة تسمع الصوت ولاتفهم المراد وهؤلاء الكفار كانوا يسمعون صوت الرسول وألفاظه وماكانوا ينتفعون بها وبمعانيها . . . والصورة هنا تبدو وكأنها بين الرسول والكفار ، والمحذوف فى التشبيه هو الداعى .

ثانيا .... يمثل الذين كفروا فى دعائهم آلهتهم من الأوثان بالناعق فى دعائه مالا يسمع كالغنم والبهائم ، فشبه الاصنام (فى أنها لا تفهم) بهذه البهائم ... فإذاً لاشك أن من دعا بهيمة عُدَّ جاهلا ، فمن دعا حجراً فهو أولى بالذم والصورة هنا بين الكفار والأصنام ، والمحذوف فى التشبيه هو المدعو .

ثالثا .... أو أنه يمثل الذين كفروا فى دعائهم آلهتهم بالناعق فى دعائه عند الجبل ، فإنه لا يسمع الا صدى صوته .... فكذلك هؤلاء الكفار إذا دعوا هذه الأوثان لايسمعون إلا ماتلفظوا به من الدعاء والنداء .

وحول تعدد هذه الدلالات نجد أن المثل فى مجمله يحكى عن الكفار ، وأنهم عند الدعاء إلى اتباع ما أنزل الله تركوا النظر والتدبر ، وأخلدوا إلى التقليد وقالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، كما أنه يحمل صورة تزيد السامع معرفة بأحوال الكفار، وتزيد الكافر إحساساً بتحقيره نفسه ، حيث صيره كالبهيمة ، فيكون ذلك كسراً لقلبه ، وتضييقاً لصدره ، وفى ذلك التعبير نهاية الزجر والردع لمن يريد أن يسلك طريق التقليد والمحاكاة .

وإنه لمما يزيد فى تبكيت الكفار ، وتوهين أمرهم ، أن المثل قد ساق إليهم هذا القول (صم بكم عمى) لأن حالتهم السابقة وهى تشبيههم بالبهائم ، هم بمنزلة الصم الذين لايسمعون النداء ، وبمنزلة البكم الذين لايستجيبون لما دعوا إليه ،

---

١ - الفخر الرازى : التفسير الكبير ٧٩/٢ مطبعة الحسينية - القاهرة (بتصرف)

وبمنزلة العمى الذين أعرضوا عن الدلائل فصاروا وكأنهم لم يشاهدوها .

وهكذا نرى العديد من الصور التي يثيرها المفسرون حول مغزى المثل ومايهدف إليه ،وهي صور منها مايقرب مأخذه ، ويسهل الوصول اليه ، ومنها مايحتاج إلى قدر من التأمل ، ومنها مايدعو إلى دقة الفهم وعمق التدبر .

والمعنى المستفاد من المثل كلما بَعُد مناله ، لايعتبر هذا عيباً فيه ، وإنما هو لطيفة من لطائفه ، إذ يقول الجرجاني « ويلطف المثل ويتعالى قدره كلما كان امتناعه عليك أكثر وإباؤه أظهر واحتجاجه أشد ، ومن المألوف أن الشيء إذا نلته بعد طلب واشتياق وطول معاناه ، كان نيله أحلى والحصول عليه أوقع فى إشباع النفس بما تصبوا إليه »[1]

فالدلالات المستفادة من المثل قريبها وبعيدها ، ظاهرها ومضمرها تفيد اتساع اسلوب المثل ..... كما يشير سيبويه « ومثله فى الاتساع قوله عز وجل « ومثل الذين كفروا ...... الخ .... فلم يشبهّوا بما ينعق ، وإنما شبهوا بالمنعوق به . وإنما المعنى : مثلكم يامحمد ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذى لا يسمع ، ولكنه جاء على سعة الكلام والايجاز لعلم المخاطب بالمعنى »[2]

فقد عدّه سيبويه من الأساليب التى تأتى على اتساع الكلام الذى يمكن أن نصل إلى دلالاته المتعددة والمتنوعة فى كلمات موجزة كذلك .

والحكمة فى هذا المثل تبدو فيما يحققه من عناصر مختلفة ، فهو يحمل عنصر المطابقة ، وعنصر الاقتضاء ، وعنصر الحكم .

أما عنصر المطابقة فهو توافق حال الكفار أو الأصنام بحال البهائم . وعنصر الاقتضاء هو أن هذا الحال يقتضى ما هم عليه من عدم الفهم والتدبر والوعى .

وعنصر الحكم فهو انعدام العقل عندهم ، وتلك نتيجة حتمية لما هم عليه فى إعراضهم عن الدليل . كما أشارت فاصلة الآية وحكمت عليهم فى أنهم (لايعقلون) . وفى هذا يقول الفخر الرازى « إن العقل عقلان مطبوع ومكتسب ، والكفار فقدوا حالة الاكتساب بموقفهم هذا ، ومن فقد عقلاً ، فقد

---

١ - عبد القاهر الجرجانى : أسرار البلاغة ص ١٤٨

٢ - ... : الكتاب ٢١٢/١ تحقيق عبد السلام هارون دار القلم القاهرة ١٩٦٦

فقد علماً ، فحكم عليهم القرآن بأنهم لا يعقلون »[١]

فرغم تمتعهم بالعقل الذى فضل الله به الانسان على كثير من مخلوقاته الا أنهم لم يستخدموه — كما أراد الله له — فى التمييز بين الحق والباطل .

ومن الملاحظ أن المثل يحوى حكمة عامة ناتجة عن موقف معين تقضى بأن من الخطورة ألا يعى الانسان ما يتلقاه خاصة عندما يكون الملقى اليه دعوة إلى الايمان والحق . وقد تناول المثل كل هذه المعانى فى دقة مع اسهاب وتوضيح قلما يتحقق الا فى هذا الأسلوب الموجز والمعجز فى نفس الوقت ... والمثل هو خير تعبير عن هذه المواقف ومايشابهها ... « إن التعبير بالمثل عن تجربة أو موقف معين أسهل فى الصياغة من الناحية اللغوية وأكثر اختصاراً من التعبير التجريدى المباشر الخالى من التصوير »[٢]

ولا ريب أن الكلام عندما ينتقل من مجرد الإخبار إلى العيان ورؤية البصر ، إنما ينتقل إلى دائرة الوضوح والظهور ، وإلى مرحلة تزول فيها الشكوك والريب .

ولايفوتنا أن نلفت إلى أن المثل لايأتى منقطعاً عن سوابقه أو لواحقه من الآيات بل يكوّن معها موضوعاً مترابطاً ومتكاملاً يعمل على توضيح الموقف بكل أبعاده .

فقد بيّن الله تعالى فى الآيات السابقة على آية المثل أن الأرض قد هيأت للناس جميعهم طيبات يأكلون منها ما يشاءون ، وقد أثار القرآن انتباههم ، ولفت أنظارهم بألا يتبعوا خطوات الشيطان ، وأن يبتعدوا عن غوايته التى لم تكن تزيدهم إلا سوء الأعمال ، فهو عدوهم الذى يريد أن يوقعهم فى مهمية من الظلمات والتخبط ، وأخذ القرآن يكرر القول للكفار فى الدعوة الى الحق ، وإلى اتباع ماجاء به الرسول الكريم من عند الله ، وأن يتركوا ما كان عليه آباؤهم الذين كانوا يهيمون فى الضلال والغى وقد بيّن لهم أن آباءهم لايملكون شيئا . ولايدركون ماحولهم ، وأنهم يبعدون عن الهداية والتعقل — طلب إليهم القرآن أن يهجروا ما ألفوه فى الجاهلية مما يقره الاسلام .

والآيات فى عمومها تندد بمن يتلقى من عند غير الله شيئا فى أمور العقيدة ،

١ — فخر الرازى : تفسير الفخر ٣ / ٦

٢ — يوسف نجيم : الأمثال العربية القديمة ترجمة رمضان عبد التواب ص ٢٢ مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٠

وتعنّفهم على هذا التقليد الذى يفقد الانسان ادراكه ووعيه للأمور.

هذا العرض الذى وضّح مواقفهم ، وبيّن مهمات الدين الذى حمل الدعوة فى جلاء لايخفى على صاحب نظر ، فعندئذ كان الظرف ممهداً لضرب المثل حتى يقع منهم موقع السهم المصيب ، فجاء يبيّن حالهم إذا ظلوّا فى طغيانهم يعمهون ، وصوّر لهم كل ماخفى عن إدراكهم ، وجسّم لهم مايهدف اليه ليصبح ذا أثر فعّال فى نفوسهم .

وهكذا تتفتق طاقات الكلمات التى يحملها المثل بما يوافق هذا القدر المتمثل فى عقول الكفار ، ليذكّرهم بخطورة هذا السلوك ، ويوبخهم ويزجرهم على تلك الفعال ، ومع هذا كله يحمل لهم النصح والارشاد لاستدراك تلك الحالة السيئة التى يظهرون فيها .

وعندما يريد الله أن يبيّن للكافرين تفاهة أعمالهم يقول لهم فى موضع آخر « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفّاه حسابه والله سريع الحساب »

(الآية ٣٩ من سورة النور)

فجاءت الآية بمثل صريح تظهر فيه أداة التمثيل والصورة التمثيلية فى واقع ملموس وصادق ، كما يتحقق فى هذا السياق القدر الكافى من الزجر ، ليدرك هؤلاء وأمثالهم نتائج الأعمال التى لاتجدى بشيء ، والتى تم قياسها قياساً دقيقاً على مظهر حيٍّ من مظاهر الطبيعة الذى يتمثل أمام أعينهم لاتخيّل فيه ولاخرافة .

وتبدو حكمة المثل فى إظهار الحقيقة التى تشير إلى أن أعمال هؤلاء الكافرين غير ثابتة ، تؤول دائما إلى زوال .

والمثل حينما يقرر الحقيقة من خلال المفاهيم الحية التى يتعرض لها ، إنما يبيّن لنا مناهج الحق والعدل فى التشريع الاسلامى ، ويشير إلى قيم الخير ورسالة الهدى ، إلى جانب ما يقدمه من عمق فى الدليل وقوة الأثر .

ولا يخلو المثل القرآنى من واقعية ، تتحقق دائما وتبتعد كل البعد عن التخيل والوهم . ويمكن أن ندرك هذه الواقعية عندما نشير إلى ما يجرى فى الأساليب العادية حينما يساق المثل فى بعض المواقف ويسلك ضروباً تكاد تكون ممتنعة ومستحيلة الوجود ، وغير متفقة مع الواقع ، فتلجّ حينئذ إلى الإتيان بمثل مسند

يرد هجمة المنكر ودعوى المعترض ، وهذا ما لايحدث فى المثل القرآنى .

ويشير الجرجانى إلى هذا النوع من التمثيل ... (يذكر فيه قول المتنبى) :

فإن تفق الأنام وأنت منهم ... فإن المسك بعض دم الغزال

فالشاعر يعنى أن سيف الدولة فاق الأنام وفاتهم ، حتى أصبح لايقربهم الى درجة يبطل فيها أن يكون بينه وبينهم مقاربة ، بل صار كأنه أصل فى نفسه ، ولم يكن من هذا الجنس . إذ شبهه بما فوق المخلوقات وهذا أمر غريب يبعد عن الحقيقة والواقع . وعلى المدّعى هنا أن يصحح دعواه ، فقول الشاعر (فإن المسك بعض دم الغزال) إنما يأتى ليبرأ نفسه من صفة الكذب حتى لا يتوسع فى دعواه من غير بيّنه ، ويحتج بمثل آخر بينّ أن لما ادّعاه أصل فى الوجود ، وذلك لأن المسك قد خرج عن صفة الدم وحقيقته حتى لايعد من جنسه إلّا أنه مأخوذ منه ... »[1]

ومهمة التشبيه المساعد — فى المثل — أنه يجرى مجرى المثل بتصحيحه صفته ، ويحاول أن يثبت أن ذلك جائز ، ووجوده صحيح غير مستحيل . وهنا تصبح واقعية المثل القرآنى ظاهرة جليّة تصوّر الشيء فى حقيقة لاتحتاج إلى مايثبتها أو يبرر الإتيان بها ، وتقع من السامع موقع الصدق والاقتناع .

وفى ذلك (أى توقع الخرافة فى الأمثال العادية) يقول د . عابدين « أن ليس له نظير فى أمثال القرآن ، إذ استمد القرآن أمثاله من حياة البشر ، ومن الحياة الزراعية ومن الحياة الجبلية والصحراوية ، ومن وسائل الحياة المنزلية ، ومن الحيوان ، فضرب مثلًا بالكلب الذى يلهث ، والعنكبوت ذى البيت الواهن ، والحمار الذى يحمل الأسفار ، وكل ذلك ليس من الخرافة فى قليل ولا فى كثير ، فإذا كانت هناك صلة وثيقة بين المثل القياسى والخرافة فيما شاع من أمثال الشرق القديم ، فلا وجود لهذه الصلة فى أمثال القرآن الكريم »[1]

فالمثل الذى بين أيدينا يشير الى (السراب) وهو ظاهرة طبيعية تقع دائما فى الأماكن الخالية والمتسعة ، وقد أشبه القرآن أعمال المعرضين عن الهدى ،

عبد القادر الجرجانى : أسرار البلاغة ص ١٣٨ (بتصرف)

د . عبد الحميد عابدين : الأمثال فى النثر العربى القديم ص ١٦٥ ط . أولى - دار مصر للطباعة القاهرة ١٩٥٦ .

والمنحرفين عن الحق وهم الكفرة الضالّون الذين يظنون — وهما — أن عملهم على هدى ، وأنهم إنما يعملون صالحاً إلّا أن حقيقة الأمر غير ذلك ، وأن ظنهم إنما هو وهمٌ وتصوّر باطل .

وهذا الموقف الذهنى بكل أبعاده يطابق تماماً صورة هذا السراب الذى يتهيأ للرأى أنه ماء يمكنه أن يحصل منه على فوائد جمّة (شراب يروى به ظمأه ... أو سقيا لما شيته .... إلى غير ذلك) ، ولكنه عندما يقترب منه لايجد شيئاً ، تلك هى الأعمال التى يحسبها الكافرون مفيدة نافعة وهى ليست كذلك ، وقد وقعت فى قلوبهم — التى خلت من الايمان والهدى — موقع السراب فى باطن الصحراء . وإذا كانت بصيرة الكافر المضلّ قد عميت وقسا قلبه ، فإن المثل الوارد فى القرآن قد قدّم بين يديه الدليل الشاهد والملموس حجة قاطعة وبرهاناً ساطعاً على تفاهة عمله وضلال فعلته .

وعندما ندقق النظر فى تلك الصورة نجد أن القرآن قد وصف هذه الحالة بالعطش والتلهف الى الماء ، وشدة الحاجة اليه ، وذلك عندما تعوذهم الحاجة الى الأعمال الطيبة التى تقيم حياتهم وتصلح من أمرهم ، وأن تعلّق الكفار والضالين بهذا السراب الواهم — وقد أتاه ولم يجده شيئاً — سوف ينتهى به إلى من يحاسبه على هذا العمل ويجزيه بما قدّمت يداه ، فهو إنسان ضالٌّ يحسب أنه على هدى . وهذا ماتفيده فاصلة الآية (ووجد الله عنده فوفّاه حسابه والله سريع الحساب)

ولا غرو أن المثل يتناول — أيضا — مايفيد إرشاد تلك النفوس وهدايتها الى الصواب ، حيث عمل على ربط الأسباب بمسبباتها ، وهو أدعى إلى واقعية النتائج وتحققها ، وتلك هى الحكمة المستفادة منه .

والمثل القرآنى قد يرد متعدد الصور حول الموقف الواحد ، وهنا يعمل المثل على زيادة الايضاح والكشف ، وتقرير الحكمة التى جاء من أجلها .

من ذلك قول الله تعالى « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين * مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمى فهم لا يرجعون * أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين * يكاد البرق يخطف

أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير » (الآيات من ١٦ — ٢٠ من سورة البقرة)

يشير هذا المثل إلى المنافقين الذين فضلوا الضلالة على الهدى ، واشتروها فباءت تجارتهم بالخسران المبين . ثم يصور حالهم ليظهر ماهم عليه سواء مايعتمل في دخيلتهم ، أو ما يبدو واضحاً في سلوكهم ، وهو يدعو إلى توجيههم ولفتهم إلى ما سبق إليه القول لينتصحوا به . ويحمل اليهم الدعوة ليراجعوا أنفسهم فيما سولته لهم .

وبعد ذلك يتناول المثل تفصيل المواقف تفصيلا دقيقاً ، ويقوم بتوضيحها في أسلوب موجز رغم تعدد الصور ، وكشف المعنى المراد .

لقد أتى الله تعالى بنور الهداية لهؤلاء ، إلا أنهم حرموا أنفسهم منة ، فقد ادّعوا الايمان بكتاب الله وكأنهم استوقدوا ناراً يهتدون بها فيما هم فيه من شبهات ، يستضيئون بهذه النار إذا أظلمت الريب والشكوك كل ما حولهم ، وبهذا الضوء — الذى يعبر عن الهدى والرشاد — يتمكنون من السلوك السوىّ والطريق المستقيم ، وإذا بظلمة التقليد الخبيث تبدو لهم ، فينقلبون على أنفسهم ، ويتبدد ضياء الايمان .

وهنا يجسّم المثل تلك المعانى التى دارت فى أذهانهم وهى معانى مجردة أظهرها المثل فى صورة مرئية تبدو شاخصة أمامهم .

ويقوم المثل بتشبيه الموقف — عند إسلامهم فى بداية الأمر وكفرهم فى نهايته — بمن أوقد ناراً فى ليلة حالكة ، وتمكن من الاستفادة بها ، وأصبح قادراً على أن يبصر ماقد يتوقع منه الضرر حتى يدفعه ويتقيه ...

والصورة ليست غريبة على البيئة العربية ، فهم ينتفعون بوقود النار ، يستوضحون بها المكان ، ويتخذونها دفء لهم فى أمسيات البرد الزمهرير ... إلى غير ذلك من الفوائد ... فهى صورة مألوفة لديهم ، فهى أكثر قرباً منهم ، وأشد تأثيراً فى نفوسهم .

ويتضح فى المثل أن الاسلام قد أنار لهم قلوبهم وأنهم بكفرهم لم يتمكنوا من إدراك منافعه وفضائله ، وها هم قد أضاعوا هذا النور وبددوه . فذهب الله به فى

أعقاب فتنتهم لأنفسهم .

ويهدف المثل إلى بيان هذا الموقف ونتائجه ، وأنه لا رجاء فى هدايتهم وهم على حالهم هذا ، إذ أوصدوا كل باب تأتى اليهم منه الهداية والرشاد ، وفقدوا كل ثقة فى عقولهم ووجدانهم . ولكى يؤكد القرآن هذه الحال أتى بمثل آخر شبههم فيه بمن فقد السمع الذى يتلقى عبارات النصح والإرشاد ، وبمن أصبح أبكماً غير واع للحجة ولا متصل بالدليل ، لاينتفعون بالنصيحة ولايسألون بياناً أو يطلبون برهاناً ، وفوق هذا وذاك فقد غشيهم العمى الذى أفقدهم الاستفادة والاعتبار ، فأظهر هذا التشبيه بوضوح ماهم عليه من الغى والضلال ، وكأنهم وقعوا فى مهمهة أطبقت عليهم فيها الظلمة ، فأفقدتهم كل حواسهم لايسمعون صوتاً يهتدون به ، ولايملكون صياحاً يطلب النجدة والغوث ، ولايبصرون بارقاً يقصدونه .

وتقضى الحكمة المستفادة من المثل بأن غرورهم بتقاليدهم الموروثة إنما هو عبث بالعقول والأفكار ، وجناية على المشاعر والمدركات ... صارعوا الفطرة الألهية فصرعوها حتى أصبحوا كالجماد .

ولما كان المنافق يتردد بين موقفين ... الاسلام من جانب والكفر من جانب ... فإنه يوقع نفسه فى حيرة عظيمة ، وأى حيرة أعظم وأشد من حيرة الدين ، يبدو لهم الحق فيظهر لهم كالنور ثم يشكون فيه ، فيقعون فى غياهب الظلمة والضلال .

وتلك الصور التى عرضها المثل يطلق عليها الفخر الرازى ..[التشبيه المفرق ، إذ يقول « إن هذا تشبيه مفرق ومعناه أن يكون المثل مركباً من أمور والممثل يكون أيضا مركباً من أمور ، ويكون كل واحد من المثل شبيهاً بكل واحد من الممثل »[1] .

فقد شبه الاسلام بالصيب لأن القلوب تحيا به كما تحيا الأرض بالمطر ، فهو يأتى دائما بالخير ، ومن مصدر لايملكون دفعه أو التصدى له ، ثم يشبه الطريق المستقيم بالبرق الذى يلمع أمام نواظرهم . وعندما تسيطر عليهم تقاليدهم

---

١ - الفخر الرازى : التفسير الكبير ١٩٧/١

وعاداتهم وشهواتهم وخوفهم من ذم الناس لهم ، فإنه يشبه هذا الموقف بظلمات حجبت عنهم سلوك الطريق ، أما الرعد فكأنه يشير إلى ما هم عليه من الخوف والفزع .

والمثل فى جملته يحمل الينا صورة أخرى وهى حيرة المنافقين عندما تنطفىء نارهم بعد إيقادها ، وقد أخذتهم السماء فى الليلة المظلمة ، لايسمعون إلا أصوات رعد تزعجهم ، وبرق يكاد يخطف أبصارهم ، فهووا بأصابعهم إلى آذانهم ليدفعوا شدة الوقع إلى منفذ السمع ، وهذا هو الجبن الخالع ، ومنتهى خلود الحماقة .

وهذه الصورة المجملة تأخذ صفة أخرى ، وهى صفة التشبيه المركب الذى يقول عنه الفخر الرازى ــ أيضا ــ « هو الذى يشبه فى إحدى الجملتين بالأخرى فى أمر من الأمور وإن لم تكن آحاد إحدى الجملتين شبيهة بآحاد الجملة الأخرى »[1]

وهو مايشير اليه الجرجانى ــ أيضا ــ فى قوله « أن يكون الكلام معقوداً على تشبيه شيئين بشيئين ضربة واحدة »[2]

وعلى هذا يمكن أن يطلق على المثل الذى بين أيدينا صفتان ... صفة التشبيه المفرق ، وصفة التشبيه المركب فى نفس الوقت . ففى التشبيه المفرق يمكن أن تلحق كل صورة بمثيلتها ، أما المركب فيؤخذ الموقف كله جملة واحدة .

ومن الحكم الكامنة فى هذا المثل أنه يشير إلى مظهر من مظاهر الطبيعة التى يرونها الناس أمامهم حتى يكون الهدف منه أقرب إلى الاعتبار وأوقع فى الاستدلال . وبذا يمكن أن يصرف العقل الى البحث الذى يساعد على فهم مايرشد إليه الدين .

وإذا كان المثل قد تناول موقفاً معيناً الا أنه يعد نبراساً يهتدى به فى سائر المواقف المماثلة ، فالقرآن هادٍ ومرشد إلى يوم القيامة ، يحمل الوعد والوعيد ، والوعظ والارشاد ولم يكن يقصد بذلك شخصاً بعينه ، أو يقتصر على موقف خاص ، وإنما نيط بتلك الأعمال التى تتواجد دوماً بين الناس .

---

١ – الفخر الرازى : التفسير الكبير ١/١٩٧

٢ – عبد القادر الجرجانى : أسرار البلاغة ص ٢٢٠

ويأتى دور الفواصل فى هذه الآيات التى أشرنا اليها ، وهو دور المكمل للمثل المضروب .

ففى الآية الأولى نجد الفاصلة (.... فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) .... يقول الفخر الرازى فى تفسيره الكبير « إن الذى تتطلبه التجارة فى متصرفاتهم أمران » :

أولا .... سلامة رأس المال ، ثانيا .... الربح

وهؤلاء قد أضاعوا الأمرين ، لأن رأس مالهم هو العقل ، وعندما اعتقدوا فى ضلالاتهم منعتهم تلك العقائد الفاسدة من طلب العقائد الحقة ، فضاعت أرباحهم ، وفسدت رؤوس أموالهم ، وهو أمر واضح فى عدم الهداية .... أ.هـ والفاصلة هنا تتفق تماما مع الآية ، وتكمل صورة المثل .

أما فاصلة الآية التى بعدها (.... وتركهم فى ظلمات لا يبصرون) ، فإنها تدل على أن الله قد تركهم فى ظلمة خالصة شديدة الحلكة ، فعميت الرؤية أمامهم ، وكأنهم لا يبصرون شيئاً ، فأحكمت الصورة وحددت معالمها لأن المثل هنا يشير إلى عدم الابصار .

وفاصلة الآية التى تليها (.... فهم لايرجعون) تفيد أن النفاق قد استحوذ على كل حواسهم فتمسكوا به ، واستحالت عودتهم الى الهدى ، وزادت حيرتهم فافتقدوا طريق العودة .

وتأتى الفاصلة الأخرى (.... والله محيط بالكافرين) أى أن الله أحدق بالأمر من كل جوانبه . فهو عالم بأحوالهم ، قادر على أن يستوى عليهم ، وفى ذلك تنبيه لهم بمقدرة الله ، على إهلاكهم ، فمهما أخذوا من حذرهم واستنجدوا من تلك الأخطار التى أحدقت بهم ، فلن يجدى هذا شيئاً .

وفى نهاية الأمثال جاءت الآية الأخيرة بفاصلة (.... إن الله على كل شىء قدير) إعلاناً بمقدرة الله على كل شىء ، وتأكيداً على تلك القدرة ، إذ يحذرهم الله سطوته وبأسه ، ويخبرهم باشتمال قدرته عليهم ، وعلى إذهاب سمعهم وأبصارهم .

وفى موضع آخر يريد القرآن أن يقرب إلى الذهن البشرى فكرة تتناول شأن قيمة الإنفاق فى سبيل الله ومدى الجزاء المستحق للمنفق ، فيقول « مثل الذين

ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم . الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لايتبعون ماأنفقوا مناً ولاأذى لهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون . قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم . ياأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولايؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لايقدرون على شيء مما كسبوا والله لايهدى القوم الكافرين . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير . أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » (الآيات من ٢٦١ - ٢٦٦ من سورة البقرة) .

جاء المثل ليعرض هذا الموقف فى شكل مقابلات تشير إلى السلوك المطلوب فى هذا الانفاق والترغيب فيه، ثم يقابل الموقف بصورة أخرى ترهب هؤلاء الذين لم يلتزموا بما لفت القرآن اليه .

فيحث المثل على الترغيب فى المجاهدة بالمال ، فإذا كانت الحبة تنبت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، فإن الإنسان لايتوانى فى غرسها ، ولايتهاون فى أمرها بل يندفع إليها راغباً فى الاستفادة بمحصولها الوفير ، كما أنه يبين الإنفاق المقبول عند الله ، وإبعاد كل مايشوب هذا العمل من نقائص تعتبر من المبطلات ، والسلوك الذى يشير إليه المثل إنما هو مبدأ إنسانى عام ، إذ العطاء بتلك الصورة ليس إلا هدفاً من أهداف صلاح المجتمع الاسلامى ، وكفالة الحياة كريمة لاعوز فيها ولاحاجة ، وقد جعل المثل من هذه الصورة كائناً متحركاً يدفع إلى العمل ويحفز إليه وهى صورة سرعان ماتنفذ إلى طبيعة النفس الانسانية وتؤثر فيها ، والمثل يقدم للمجتمع درسا فى أن ماينفق فى سبيل الله إنما يضاعف أجره أضعافاً كثيرة ، وسياق المثل فى بيان تلك المضاعفة أبلغ مما لو ذكر الجزاء مجرداً أو ذكرت مضاعفته مجردة أيضا . وفيها يقول أبو حيان « وهذا التمثيل تصوير للأضعاف كأنها ماثلة بين عينى الناظر »[1] .

---

١ - أبو حيان : البحر المحيط ٣٠٤/٢

ويهدف المثل فى جملته الى بيان شرف الانفاق فى سبيل الله وإظهار حسنه، وما يعود على المنفق من أجر عظيم ، وقد تخير القرآن لهذا الموقف المثل المتفق معه تمام الموافقة إذ مثّل المنفق بالزارع ، والصدقة بالبذرة ، فإذا كان البذر جيداً ، وكانت الأرض عامرة وصالحة كان الزرع أكثر خصوبة ونتاجاً .

وتشبيه المنفق بالزارع يبين أن العمل المطلوب إنما هو جهاد من المنفق وبذل وعطاء كما هو حال الزارع تماماً ، وأن يكون الإنفاق من مال طيب حتى يؤتى أكله كما تأتى البذرة الطيبة أكلاً طيباً .

ولا يخلو المثل القرآنى — دائما — من عنصر المناسبة ، فموضوع الزرع بما يتطلبه من زارع ، ومكان صالح للزرع ، وبذرة طيبة تغرس ، إنما هو من الأعمال التى يباشرها القوم ، ولم يكن شيئاً غريباً عنهم ، وبذا يصير المثل شديد الوقع ، قوى التأثير ، إلى جانب مايقدمه من التوضيح والبيان .

يتناول المثل فى بدايته بيان مضاعفة الأجر ، وحتى يصبح أمر المضاعفة واضحاً أشار إلى التحديد العددى ليصل مفهوم الكثرة إلى أذهان الناس وتسهل معرفته ... (... أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ....) ، والعدد هنا للكثرة وليس للتحديد بدليل قول الله تعالى (والله يضاعف لمن يشاء) ، وقد اختلف المفسرون حول مفهوم الآية منهم من يشير إلى تحديد العدد وتحديد المضاعفة ، ومنهم من يشير إلى الكثرة ، وإننى أميل إلى من يقول بالكثرة لا بالتحديد ، لأن تحديد العدد والمضاعفة تفصيل زائد عن المفهوم الذى يهدف إليه النص ، وهو أمر لايضيف جديداً إلى المعنى .

وتتوالى الآيات التى تزيد المثل وضوحاً وتأكيداً ، فتأتى الآية التالية (الذين ينفقون أموالهم ...) لتبين سلوك الإنفاق وأنه سلوك غير متبوع بالمن والأذى ، وتؤكد على مضاعفة الأجر لمثل هذا السلوك لالغيره . فى ذلك يقول الفخر الرازى « اعلم أنه لما عظم أمر الإنفاق فى سبيل الله أتبعه ببيان الأمور التى يجب تحصيلها حتى يبقى ذلك الثواب منها ترك المن والأذى »(١)

---

١ — الفخر الرازى : التفسير الكبير ٢/٣٠

ثم يتكرر تأكيد المثل فى قوله تعالى (قول معروف ومغفرة ...) لأن قول المعروف هو الرد بأحسن الطرق وألطفها ، والمغفرة هى ألاّ يهتك ستر المنفق إليه ، وهما أمران خير من الصدقة المتبوعة بالأذى .

فالصدقة إعطاء والإعطاء نفع ، وإتباع الصدقة بالأذى إيذاء ، فجمع بين الإنفاع والاضرار ، وهنا يفضل المثل قول المعروف — لأن فيه إنفاع — على الصدقة المقترنة بالإضرار .

وتشير الآية التى تليها .... (يا أيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ....) إلى بيان إبطال الصدقة المتبوعة بالمن والأذى وإنه لعمل شبيه بالإنفاق القائم على الرياء والتظاهر ...

وهو تشبيه مطابق يقوم على الحقيقة لا على المجاز ، فإن من يبطل صدقته بالمنّ والأذى إنما ينفق ماله رياءً ، لايبتغى به وجه الله ومرضاته . ونلحظ هنا صفتين لحالة واحدة .... الصفة الأولى .... عدم إتباع الصدقة بالأذى .... والثانية أن هذا العمل قائم على رياء وتظاهر .

والمثل ينبه المؤمنين بألا يكونوا كالكافرين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر عندما يتصدقون لالوجهه تعالى ولا فى سبيله ، ولكن ليرى الناس إحسانهم ، أو أنهم يبتغون احتلال منزلة فى قلوبهم . وعندما يتظاهر هذا المنفق بحسن الأعمال إنما يشبه مايعلو هذا الحجر الصلد الأصم من تراب ، والتراب مادة من شأنها أن تنبت الزرع وتخرج الثمر إذا رواها الماء واختلط بها . وهنا يجرى التشبيه مجرى المجاز ، إذ يشبه الحالة بالصفوان وهو الحجر الأصم ليس به مسامّ ، وعندما يعلوه التراب يظنه الظانّ أرضاً منبتة طيبة ، فيصيبه وابل (وهو المطر الشديد) فيذهب عنه ذلك التراب ، ويبقى الحجر صلداً يتركه المطر ناعما متجرداً من كل شىء .

وتلك هى صورة الإنفاق وهو أمر طيب ، أما إذا أتبع بالمن والأذى انعدمت فائدته وانتفى ثوابه ، ويستكمل المثل بقوله تعالى (... لايقدرون على شىء مما كسبوا ....) أى أنهم لن يتمكنوا من الاحتفاظ بثواب عملهم مادام العمل مصحوباً بالمن والأذى ، وتأتى فاصلة الآية (.... والله لايهدى القوم الكافرين)

فى مجال الاعتبار والاتعاظ ؟ فالكافر الذى لايؤمن بالله ولا باليوم الآخر لايتقبل الله منه صالحاً أبداً لأنه أبطل كل صالح بهذا الكفر الذى انعقد عليه قلبه ، وفسد به كيانه كله .

ويأتى المثل بعد ذلك بمقابلة توضح سلوك الانفاق عند النفع واكتساب الثواب لتعمل على الترغيب فيه .... تظهر فى قوله تعالى (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله ...) لتضرب مثلاً للمؤمن المنفق الذى يبتغى مرضاة الله وأنه كمن غرس بستاناً يجنى منه ثمار غرسه فى وقت الحاجة . ويقع هذا البستان فى جنة بربوة عالية بعيدة عن متناول المؤذيات من الآفات (التى تمثل الأذى) يعلوها الندى ، وتستقبل شعاع الشمس فى صفائه ، فوجود البستان على هذا المكان المرتفع يوفرّ له كل الظروف المواتيه التى تخصب النبت وتطيبّ الثمار ، وتلك الربوة إذا لم يسقها المطر ، فقد يكفيها الطلّ لجودة تربتها وكرم منبتها وحسن موقعها .... وهكذا إحسان المحسن المؤمن ينمو ويزدهر كتلك الجنة .

وفاصلة الآية فى قوله تعالى (.... والله بما تعملون بصير) تؤكد أن الله تعالى عليم بالانفاق وكيفيته والأمور التى تثير بواعثه ، وسيجزى بذلك إن خيرا فخير ، وإن شراً فشر .

ويأتى المثل — بعد ذلك — بصورة أخرى يتساءل فيها .... ماهو المحبب اليكم .... ؟ (أيود أحدكم أن تكون له جنة ...) لنقارن بين موقفين !!! أهو المكان المعّرض للهلاك الذى لا يحسن المقام فيه ، ولا يرجى منه طيب مأكل ... ؟ أم تلك الجنة الوارفة .... الموفورة الثمار .... الواقعة فى مكان آمن ... ؟ والغرض واضح فى استنكار المكان الاول .... ، فتقيم الآية الأخيرة دليلاً آخر يتضح فيه ذلك الذى يتردد نظره بين جنته المثمرة وبين عجزه وضعفه وبين صغاره الذين هم فى حاجة اليه ، فيطيب خاطره ، ويطمئن إلى صغاره ، وتظهر شدة الحاجة الى مثل هذه الجنة .... وبينما هو كذلك إذ يعصف بجنته مايحرقها ، فتصبح رماداً تذروه الرياح ، وذلك هو المحسن الذى يتبع إحسانه بالمنّ والأذى والصورة هنا تبدو مفزعة ، يفنى فيها ويتبدد ، وتهلك صغاره من بعده ، وتزول جنته ، فكأنه أفسد كل شىء ، وأتلف ما غرسته يداه . فهو فى حاجة

شديدة بألا يبطل إحسانه بالأذى ، وتلك هى عاقبة أهل الرياء ، وذوى الأيذاء ينبذهم الناس عند شدة حاجتهم إلى الناس .

ويهدف المثل الى تشخيص العبرة والعظة ، يحمل إلى السامع هذا السلوك الطيب فى عطاء المحسن ، والذى يبتعد به عن كل ما يشوب عمله أو يبدد ثوابه .

وفى آخر الآية (.... كذلك يبيّن الله لكم الآيات ....) فاصلة تدعو إلى التفكير فى عواقب تلك الاعمال التى هى دلالات واضحة تبيّن حقائق الأمور وغاياتها وفوائدها ، فلتحاولوا الانتفاع بما هو خير لكم ، وأن تخلصوا فيما تقدمون عليه ، لأن الله عليم بنوايا المرء ، وأن تثبت نفوسكم ولا يستخفها الطيش والاعجاب .

ومن الأساليب القرآنية ما يلحق بالمثل ، ويمكن أن نطلق على تلك الأساليب لواحق المثل — إذا صح لنا هذا الاطلاق —

وهذه الأساليب تؤدى ما يؤديه المثل ، ويرد فيها التشبيه والتمثيل ولكنها لا تحمل أى أداة من أدوات التشبيه .

وقد أشار السيوطى إلى أن « أمثال القرآن قسمان : ظاهر مصرح به ، وكامن لاذكر للمثل فيه »[1]

ولكننى أردت أن أوضح هذا التقسيم ، فأقول إن المثل الظاهر المصرح به هو المثل (الصريح) والذى تكلمنا عنه فى بداية البحث ، وهو الذى يحمل الصور التمثيلية ، وتظهر فيه أدوات التمثيل .

أما (الكامن) الذى أشار اليه السيوطى ، فهو نوعان :

نوع يحمل الصورة التمثيلية ظاهرة ولا يصرح فيه بأداة التمثيل ، ويمكن أن يطلق على هذا النوع (الظاهر) ، والنوع الآخر به صورة تمثيلية ولكنها لاتظهر الا بعد دقة نظر وتدبرّ لأنها كامنه فيه ، ويمكن أن يطلق على هذا النوع (الكامن أو الضمنى) .

١ — السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن ٢/١٠٢٠ ، وانظر الزركشى : البرهان ١ : ٤٨٦

المثل الظاهر :

يبدو هذا المثل فى قول الله تعالى « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شىء قدير » (الآية ٣٩ من سورة فصلت)

تتناول الآية صورة يتمثل فيها إحياء الموتى بالأرض الخاشعة اليابسة الجدبة والساكنة الهامدة حال مواتها ، فإذا جاء الماء بعث فيها الحياة ، ودبت فيها الحركة نتيجة اهتزاز الأرض وانتفاضها ، والحركة عامل من عوامل الحياة ، وحينئذ تصبح الأرض فى خصوبة متزايدة ، قادرة على إمداد النبت بالنمو والازدهار ، وهكذا يكون البعث بعد الموت .

صورة بيّنة واضحة ، تظهر أمام الرائى ، ولا يمكن أن يغفلها نظر أو ينكرها عقل ، تجسم البعث وهو أمر غيبى ، وتنقله إلى حركة مشاهدة ومحسوسة ، ويحمل المثل دليلا قاطعاً بما يثبت هذا الأمر الغيبى ، ويبعده عن محل الشك والنكران .

وفى ذلك يقول ابن القيّم « فدلّ سبحانه عبادة بما أراهم من الإحياء الذى تحققوه وشاهدوه على الإحياء الذى استبعدوه ... »[1]

وتكمن حكمة المثل فى بيان قدرة الله تعالى على إحياء الموتى وبعثهم من جديد ، كما يرون فى ذلك إحياء الأرض التى تنتقل من حالة الركود والموات إلى حالة الحياة من جديد .

أما فاصلة الآية فتكمل الحكمة من وراء هذا المثل ، فتشير إلى أنها علامة من علاماته جل وعلا ، ودليل على وجوده ووحدانيته ، ودليل على مقدرته وجلال شأنه فى البعث بعد الموت .

وفى هذا الأسلوب تبدو الصورة التمثيلية واضحة إلا أنه لم يصرح فيه بأداة تمثيل أو تشبيه .

وفى نص آخر يقول الله تعالى « .... ولا تجسسوا ولايغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم »

---

١ - ابن القيم : إعلام الموقعين ١/١٨٠.

(الآية ١٢ من سورة الحجرات) وفى هذا النص يتمثل تمزيق عرض الأخ بتمزيق لحمه وهو ميت ، وأكل لحم هذا المغتاب .

ولا أكون مبالغاً إذا قلت إن كل لفظ فى هذا الأسلوب يحمل بين جنباته حكمة يقتضيها المثل المساق ، فيشير إلى أن الذى يغتاب أحداً كأنه يقوم بتقطيع لحمه فى حال موته ، وغيبة روحه عنه ، وتلك حالة لايستطيع المغتاب فيها الدفاع عن نفسه ، فيصبح بمنزلة الميت الذى يُنهش لحمه ، وهو أمر مستقذر تمجه الطباع ، ويستنكفه الذوق ، ويستنكره التشريع ، وكذلك الغيبة .

وورود ذكر الأخ يقتضى أن الأخوة تراحم وتواصل،وتناصر،وتعامل طيب حسن، ولكن الذين سلكوا هذا المسلك فى اغتياب إخوانهم ، فقد نقضوا مفهوم الأخوة وشابوه بالذم والطعن والتجريح والمباغته . وتقضى حكمة المثل بأن يحفظ الأخ عرض أخيه وأن يصونه ويدفع عنه .

وليست الصورة غريبة على أسماع المخاطبين بها ، إذ كانت تستعمل بين العرب وتجرى فى عاداتهم ، يقول القرطبى « واستعمل أكل اللحم مكان الغيبة لأن عادة العرب بذلك جارية .... وقال شاعرهم :

وإن أكلوا لحمى وفرت لحومهم وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجدا »[1]

فالمثل يتخذ دائما طابع البيئة ـ كما رأينا ـ فهو إما أن يحاكى مظهراً من مظاهر الطبيعة فيها ، أو يسرد عملًا من الأعمال التى يقوم بها الناس ، أو يطرق أسلوباً من الأساليب المتبعة عندهم ، حتى لايكون غريبا أو غير مألوف لديهم ، فالأمر الغريب ، وغير المألوف لايحقق ما يحققه المثل الذى يتناول أمراً من الأمور المعروفة .

وحول هذا المثل الذى سقناه يقول ابن القيم « ... فتأمل هذا التشبيه والتمثيل وحسن موقعه ومطابقته المعقول فيه المحسوس ، وتأمل إخباره عنهم بكراهة لحم الأخ ميتاً ووصفهم بذلك فى آخر الآية ، والانكار عليهم فى أولها أن يحب أحدهم ذلك فكما أن هذا مكروه فى طباعهم ، فكيف يحبون ما هو مثله ونظيره ،

---

١ ـ القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ـ المجلد ٩ ص ٦١٥٥ دار الشعب ـ القاهرة

فاحتج عليهم بما كرهوه على ما أحبوه ، وشبّه لهم ما يحبونه بما هو أكره شيء اليهم وهو أشد شيء نفرة عنه ، فلهذا يوجب العقل والفطرة والحكمة أن يكونوا أشد شيء نفرة عما هو نظيره ومشبهه »[٢] .

وصورة أخرى من هذا النوع تظهر فى قول الله تعالى « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا » (الآية ١٠ من سورة النساء) تسوق الآية مثلا لمن تسوّل له نفسه أخذ مال اليتيم بأن يمد اليه يده خيانة له وغدراً به ، ويدسّ هذا المال فى بطنه نهما وشرها .

وواضح أن المثل يشبه المال بالنار التى تحرق وتجهز على كل من يتناولها ، فجزاؤه أن يحرق فى دنياه ، ويصلى سعير جهنم فى أخراه .

وتسوق حكمة المثل التحذير من القيام بتلك الفعلة الممقوتة ، وتنصح بالابتعاد عنها ، وتجنب مخاطرها ، فتأتى الموعظة لتهدد من لم يعتد بها ، وقد بلغ الأسلوب من الشدة بحيث يصخ الآذان عند سماعه ، وتقشعر له الأبدان حين تشعر بشناعة الإيذاء ، وهكذا يتفق المثل مع جسامة العمل وشدة خطره ، فيدرك السامع تلك الدعوة إلى الابتعاد عنه وتجنب شره المستطير .

والمثل يحمل مبدأ إنسانيا عاماً ، يصلح للتطبيق فى كل آن ، فيشير إلى أن أخذ المال على كل وجوهه — غير المشروعة — أكل ، وإن كان المقصود هو إتلاف الشيء ، وقد خصّ القرآن البطون بذلك لأنها محل لهذا الأكل ، وسمى المأكول ناراً نسبة إلى مايؤول إليه ، ليدل على أن أكل أموال اليتيم من الكبائر ، وأنه عمل ضد مكارم الأخلاق .

ومن قول الله تعالى — أيضا — « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال» (الآية ١٧ من سورة الرعد)

يتضح أن المثل يصوّر الحق والباطل وينقلهما من المعنى المجرد إلى صورة مشاهدة .

شبّه الباطل بأنه زبد وهو الغثاء الذى يعلو الماء عند جيشانه واضطراب

---

٢ — ابن القيم : إعلام الموقعين ١٤٧/١

أمواجه من الرغوة وحطام الأشياء وهو هشّ القوام غير متماسك يفتقد كل عناصر الالتئام والالتحام والقوة ، مضمحل يعقل بجنبات الوادى ، تدفعه الرياح ، فتذهبه وتهلكه لايصمد أمامها ولايبقى على حاله . ويحمل السيل زبد الماء وهو شيء زائد لاحاجة إليه ولا منفعة من ورائه .

ثم يتكرر التمثيل ، فيعرض صورة أخرى لزبد المعادن وهو خبثها ونفايتها ، والمعادن يوقدون عليها النار لتنقيتها ، حين تُطلب حلية أو متاع ، فعند التنقية تعلوها تلك الأتربة التى كانت تعلق بها عند استخراجها من باطن الأرض ، وهى زوائد لاحاجة للمعدن بها لأنها زائدة عن جوهره ، وفى إزالتها نقاء هذا الجوهر وصلاحيته للاستعمال .

وتهدف الصورتان الى بيان الحق فى ثباته وبقائه ، ونقائه وصفائه ، وقوته وتماسكه ، وأن الباطل هشٌ لا قوام له يذهب وتنعدم فائدته ، ويهدف المثل فى جملته الى بيان نفع الحق وعظم فائدته ، وضرر الباطل وعدم استقراره .

ولم تكن الصورة أيضا غريبة عليهم ، فإن الزبد الذى يعلو الماء إنما يجرى فى وديانهم ، والمعادن التى يعرضونها على النار إنما يستخرجونها من باطن أرضهم .

ولا ألكَ أن المثل المضروب إنما يكشف جوهر الحق وجوهر الباطل ، فما ينفع الناس وهو الحق إنما يمكث ويبقى ، ويقوى ويساند ، والحق أحق أن يتبع . أما مايضّر الناس وهو الباطل ، فهو خبث لا مكان له تعصف به الريح أنى شاءت ، فلا يبقى ولا يمكث . (كذلك يضرب الله الامثال) وتلك فاصلة الآية التى تبيّين أن المثل يأتى لحكمة أراد الله أن يسوقها لعباده .

المثل الكامن أو الضمنى

المثل الكامن أو الضمنى ، هو سياق لم يصرح فيه بأداة التمثيل ، ولا تظهر الصورة التمثيلية الّا بعد نظر وتدبر وتفحص للنص ، وصدق الله تعالى حيث يقول « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الّا العالمون » (الاية ٤٣ من سورة العنكبوت)

فمن أنواع المثل فى القرآن ما يأتى حاملا لصورة من الصور بكل أبعادها ودقائقها ولكنها لا تظهر إلاّ اذا تعقلنا الآية وتدبرنا ما فيها :

ومن ذلك يقول الله تعالى « ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين » (الاية ١١ من سورة الحج)

وحول هذه الآية يقول صاحب صفوة التفاسير .... إن الموقف هنا يشبه ... « من يكون على طرف من الجيش فإن أحس بظفر أو غنيمة استقر وإلا فر وهرب »[1] . . . .

ويشير القرطبي إلى أن الآية نزلت في سبب خاص ، إذ يقول « قال أبو سعيد الخدري ... أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله فتشاءم بالاسلام فأتى النبي ﷺ ، فقال : أقلني ، فقال : إن الاسلام لا يقال .... فقال : إن لم أصب في ديني هذا خيراً ! ذهب بصري ومالي وولدي ! فقال : يايهودي إن الاسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والفضة والذهب ، فأنزل الله هذه الاية »[2] فمن المفسرين من يرجعها الى موقف عام ، ومنهم من يرجعها الى موقف خاص .

ومن هنا يتضح أن الاية تحمل عمومية الحكم ، وعند النظر اليها ندرك أن لفظ (حرف) يجسم لنا المعنى المقصود ، فهي تمثل هذا النوع من العبادة بمن يقف على حافة بئر عميق ، أو شفا حفرة سحيقة ، وتلك حالة يحس الانسان فيها بما هو عليه من اضطراب وقلق نفسي لأنه بين حالتين : حالة الوقوف المخيفة ..... وتوقع الانهيار .

وهنا تبدو حالة التزعزع واضحة ، وفيها يفقد الانسان ثقته في ربه ، كما تنعدم فيها ثقة الانسان في نفسه ، لأن العابد على حرف هو عابد شاك في عبادته ، مضطرب في عقيدته ، إن أصابه خير مضى في دينه ، وإن أصابه شر انقلب على عقبيه ، وهذا أمر مرفوض في نظر الدين ، فالدين يقضي بأن تكون العبادة على السراء والضراء .

ومثل هذا العابد كمثل الذي يشترك في حرب أو جهاد مشاركة غير فعالة ، ولكنه يرقب الموقف من بعيد ، فإذا تحقق النصر لطائفته وأصبحت المغانم له .....

---

١ - محمد على الصابوني : صفوة التفاسير ٢/٢٨٢

سارع اليها وانضم الى صفوفها ، أما إذا دارت عليها الدائرة وتوقع فى صفوف أنصاره غرة فر هارباً ، وتلك الصور لم يتناولها المثل صراحة ، ولكنها صور كامنة فيه مفهومة من سياقه .

ومن حكمة المثل أنه يشير إلى أن هذا الموقف هو موقف لكل من يتردد فى دينه ، ويتناول التعبد من جانب واحد .

ومعروف أن الارتكان إلى جانب واحد فى أى من الأمور ، إنما هو موقف غير ثابت ، وليس يخفى أن العبادة على جانب واحد لاتكفى فى إثبات الدين .

إذ فسر (الحرف) بمعنى (الشك) أو (الشرط) ، والدين لايقبل هذا الموقف فى العبادات — بوجه خاص — ، فالعبادة موقف ثابت لاشكوك فيه ولا اضطراب ، كما لايقبل تعلق العبادة بشرط .

ومن هذا النوع — أيضا — قول الله تعالى « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما »(الآية ٦٧ من سورة الفرقان)

تأتى هذه الآية فى أعقاب آيات تناولت صفة عباد الرحمن ، فهم (الذين يمشون على الأرض هونا) ، وهم (الذين يبيتون لربهم سجداً وقياما) والآية محل المثل تتناول صفة الاعتدال ، وهو مبدأ هام من مبادىء الاسلام ، فمثلت هذا الاعتدال بالمنفق الذى لم يسرف فى إنفاقه ، ولم يقتر ، والدين قد سلك مسلك الاعتدال فى كل شىء ... فى عباداته ، ومعاملاته ، وعاداته ، وقد شخص المثل هذا المسلك ، فنقله من المعنى المجرد ، إلى صورة تبدو فيها الحركة ، وهى صورة الإنفاق الزائد عن الحد ، والاحجام الذى يصل إلى التقتير ، وكلاهما أمران مذمومان .

وقد حمل المثل حكمة تقضى بالاعتدال ،ومبدأ الوسطية نادى به علماء الدين من فقهاء وأصوليين ، وأشاروا اليه فى كل أمر من أمور التشريع ، وأضحى مبدءً عاماً حسنُ اتباعه فى كل شىء .

وشبيه بهذا المثل أيضا ، قول الله تعالى « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لك آياته لعلكم

تهتدون » (الآية ١٠٣ من سورة آل عمران)

وتشبه الآية حال المسلمين فى اهتدائهم بكتاب الله والتزامهم بتشريعه ، والتفافهم حوله يستمدون منه الحياة متكاتفين متعاضدين ، تشبيهم بحال المتمسكين بحبل متين يجنبهم مغبة السقوط ، وخطورة الفرقة والتشتت .

- هى صورة تمثيلية تكمن فى النص ، وتقضى حكمتها بأن الألتفاف حول حبل الله المتين إنما هو حماية من الوقوع فى مخاطر الهاوية .

وقد اعتبره صاحب تفسير المنار تمثيلا ، إذ يقول « الأشبه أن تكون العبارة تمثيلًا ، كأن الدين فى سلطانه على النفوس واستيلائه على الإرادات وما يترتب على ذلك من جريان الأعمال على حسب هديه ، حبل متين يأخذ به الآخذ فيأمن السقوط ... كأن الآخذين به قوم على نشز من الأرض يخشى عليهم السقوط منه ، فأخذوا بحبل موثوق جمعوا به قوتهم فامتنعوا من السقوط »[1]

فإذا ما دققنا النظر فى الآية الكريمة ظهرت لنا هذه الصورة ، مع غياب أداة التمثيل فى النص .

والآية تصور لنا التفاف الناس حول حبل متين ، قابضين عليه بأيديهم ، يحتمون به ، آمنين على أنفسهم من الأخطار ، وهى دعوة تهدف الى التمسك بكتاب الله والالتفاف حول شريعته ، فشريعة الاسلام تدعو دائما إلى الخير ، وإقامة المصالح بين الناس ، فتتحقق بذلك الأخوة ، ويتم التعاطف ، وتنبع القوة ، وهى حكم مستفادة من معنى التمسك بحبل الله واتباع دينه ، وألا نتبع سبلا أخرى فتفرق بنا عن سبيل الله .

وهكذا عندما تأتى الدعوة عن طريق المثل إنما تؤثر تأثيراً فعالًا يحقق صلة قوية بين الحقائق المادية التى تهدف اليها ، وبين العقول التى تتقبل تلك الحقائق وتتطلع إلى معرفتها والاستفادة بهديها ، كما تصل أيضا الى تلك القلوب المتفتحة للإيمان ، وتمضى الآية تذكر المسلمين بنعمة الله عليهم ، فتسوق مثلا آخر يفهم من سياقها ، وأنهم فى تناحرهم وتطاحنهم إبان الجاهلية ، وما كان بينهم من عداوة وبغضاء ، وسفك للدماء ، وما كانوا عليه من وثنية وشرك وخرافات ومفاسد .... كأنما

---

١ - محمد رشيد رضا : تفسير المنار محمد عبده ١٧/٤

يقفون على حافة حفرة اندلعت فيها ألسنة النيران المحرقة التى تلفح بلهيبها كل من اقترب منها أو دنى .

ويقول صاحب تفسير المنار «ويضرب به المثل فى القرب من الهلاك »[1] والمثل يهدف إلى إظهار منة الله عليهم ، إذ أخرجهم بالاسلام من الشرك ومخازيه ، وأنجاهم من هلاك محقق، ثم ألف بين قلوبهم وجعل بينهم المودة والرحمة ، وقد أوضح المثل هذا كله فى صورة توفرت فيها كل المفاهيم التى أراد القرآن أن يوصلها إليهم .

وهكذا يتميز المثل عن غيره فى الأسلوب وفى المغزى ، فأسلوبه يعتبر أصلا وقاعدة من قواعد التعبير ، فإذا أردت أن تجيد التعبير وتحسن الاستدلال عليك أن تحذو حذو المثل ، وتنهج نهجه ، حتى تصيب الهدف ، وتميط اللثام عما استغلق أمامك من معنى .

أما مغزاه فإنه يسوق العبرة والعظة فى صورة واضحة جلية .

والنفس الانسانية تأنس دائما لكل معنى واضح ، وتتقبل بارتياح كل دليل صحيح ، لا يلتوى لى الأساليب الفلسفية ، ولا يتناول الإشارة الخاطفة الخفية .

وترجع قيمة المثل إلى أنه ينتقل بالسامع أو القارىء إلى درجة كبيرة من الثقة والاطمئنان ، وهنا يضع المثل القرآنى أمامنا أسس التربية الاسلامية التى تهدف إلى تدريب العقل على القياس وادراك علل الأشياء ، ومن ثم تبعث فيه القدرة على التبصر والفهم ، وتمنحه طاقة حركية تميز بين الوسائل والغايات ، وتمكنه من الاعتداد بنصائح التشريع ، والتعرف على أحكامه .

فمن المسلم به أن المعرفة فى أولى مراحلها لم تأت الا عن طريق الحس ، وما تمليه الطباع ، وذلك هو منهج المثل . أما مرحلة النظر والتروى ، فهى مرحلة متأخرة ، فالمشاهدة والحس أقدم مصاحبة للمعرفة ، والأدلة المؤكدة للمعرفة لاتأتى الا عن طريق المعاينة ، ويصدق على المثل هذا القول .

فلم يكن الخبر كالمعاينة (كما يقولون) ، فهب أن جريمة ما قد خفيت فيها الأدلة ، واختلطت فيها المواقف حتى أصبح القاضى فى أمرها مضطرباً لأن

---

١ — محمد رشيد رضا : تفسير المنار محمد عبده ١٩/٤

المعلومات التى أُخبر بها لم تكن تقدّم الّا صورة مشوشة غير واضحة المعالم ، فحينئذٍ يجنح إلى تمثيل الوقائع على مسرح الجريمة حتى تتحدد معالمها وتتضح حقائقها ، ويجرى الحكم والقضاء على أساس واضح سليم .

ومن هنا كانت المشاهدة من خلال الصورة المتحركة أصدق دليلًا حتى مع صدق الخبر المجرد .

وقد وصل المثل بما يحمل من حكمة بالغة إلى أن أصبح لونا من ألوان القياس ، كما أشار ابن القيم إلى ذلك فى قوله « والأقيسة المستعملة فى الاستدلال ثلاثة : قياس علة ، وقياس دلالة ، وقياس شبه ، وقد وردت كلها فى القرآن .... ومن هذا ماوقع فى القرآن من الأمثال التى لايعقلها الّا العالمون ، فإنها تشبيه شىء بشىء فى حكمه ، وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر »[1]

كما عدّه ابن تيمية[2] — أيضا — نوعاً من أنواع الدليل . فلم تغب قيمة المثل عن أذهان العلماء والمفكرين ، واتخذوه دليلًا موصلًا إلى الحكم . .

وكما يقول الدكتور عابدين .... « وقد ازدهر المثل القياسى — بعد عصر القرآن عند الفقهاء بخاصة ، فقد وجهوا عنايتهم إلى جمع أمثال القرآن ودراستها من ناحية واستخدام المثل القياس فى شرح تعاليمهم وتفسير آرائهم من ناحية أخرى ؛ فكان القياس موضع نقاش حاد بين الفقهاء ، وكان منهم من يؤمن بضرورة استخدام القياس أصلًا من أصول الفقه ، فقاموا يثبتون أن القرآن قد قاس ، وأن الرسول ﷺ وأصحابه قد قاسوا . . هذه الحركة فيما يظهر — من أهم مالفت أنظار العلماء إلى مافى القرآن . . من أمثال قياسية » . [3]

وقد أضحى المثل فى القرآن منهجاً دلالياً اهتمت به كل المدارس الفكرية ، وساهم مساهمة فعالة فى التوسع فى المجالات المختلفة ، خاصة المجال الفقهى ، فما لم يأت فيه نص ، ليس أمام المجتهد الا استخدام القياس والتوسع فى استخدامه ،

١ – ابن القيم : إعلام الموقعين ١/١٢٨

٢ – انظر . . ابن تيمية : الرد على المنطقيين ص ١٥٩ ط. أولى المطبعة القيمة - بومباى – ١٩٤٩

٣ – د . عبد المجيد عابدين : الأمثال فى النثر العربى القديم ص ١٦٣

وقد كان المثل طريقا من طرقه .

وفى مجالى البلاغة يقول عنه الجرجانى « فأنت مع الشاعر وغير الشاعر إذا وقع المعنى فى نفسك غير ممثل ، ثم مثله ، كمن يخبر عن شيء من وراء حجاب ، ثم يكشف عنه الحجاب ويقول هاهو ذا ، فأبصره تجده على ماوصف لك »[١] .

وهنا يعد المثل لوناً من ألوان البيان الكاشف الذى يظهر لك المعنى المجرد فى صورة مرئية ، فصورة المثل تنطلق دائما فى جو من الحقيقة الناصعة ، والبراهين الناطقة ، لتقدم عظات وعبر تحرر العقل من الأوهام ، فيتمكن من التمييز بين الحق والباطل والطيب والخبيث .

وتلك هى مهمات المثل القرآنى ، فهو ليس من كلام البشر الذى تعتريه عوامل النقص والضعف ، وانطلاقها من كلام الله تعالى يعطيها مطلق الثقة ، ويضعها موضع التصديق .

---

١ — عبد القاهر الجرجانى : أسرار البلاغة ص ١٣٨ مطبعة الاستقامة القاهرة ١٩٤٨

الموضوع التاسع

التأويل

الأفكار الأساسية :

- التأويل لغة واصطلاحاً .
- التأويل في الإستعمال القرآني .
- مفهوم التأويل عند الصحابة والتابعين .
- ما بين النقل والعقل .
- الفرق بين التفسير والتأويل .
- التأويل في البيئة التشريعية .
- موقف المتكلمين والفلاسفة من التأويل .
- النحاة والتأويل .
- التأويل الأدبي .

* * * *

التأويل لغة واصطلاحا :

ظاهرة التأويل من الظواهر اللغوية التي لها أهميتها وخطرها في تاريخ الفكر الإسلامي بل وتاريخ الفكر الديني منذ أن حاول الناس تفهم الكتب السماوية ، وقد كان لهذه الظاهرة دورها البالغ في كل البيئات الإسلامية على اختلاف مقوماتها في الفكر والثقافة ، وذلك لارتباطها أساساً بالدلالة الأسلوبية ومحاولة التوصل إلى الغاية المقصودة .

ويحسن بنا أن نعرض أولا لحياة لفظة التأويل منذ أن كانت بمعناها اللغوي إلى أن صارت مصطلحاً يجري على ألسنة العلماء :

فالكلمة وردت في معاجم اللغة تحمل معاني عدة — أورد منها هنا الدلالات الغالبة في الاستعمال والتي توافق موضوع البحث :

أولا : المرجع والمصير — مأخوذة من آل يؤول إلى كذا أي صار إليه ورجع ، ومنه قول الأعشى : أؤول الحكم على وجهه ليس قضائي بالهوى الجائر(١)

بمعنى « أرجعه وأرده » .

ثانياً : التغيير — آل اللبن أي خثر . آل جسم الرجل إذا نحف

وهاتان الدلالتان هما الغالبتان ، وإن كانت الثانية لا تبعد عن الأولى كثيراً ، ففي معنى التغيير الصيرورة والرجوع إلى كذا . وهنا يمكننا أن نحصر الدلالتين في المعنى اللغوي « المرجع أو المصير أو العاقبة » .

ثالثاً : الوضوح والظهور — الآل : الشخص — وهو ما تراه في أول النهار وآخره يرفع الشخوص .

رابعاً : التفسير والتدبر — التأويل : تفسير ما يؤول إليه الشيء تقول : تأولت في فلان الأمر أي تحريته .

وهما دلالتان قريبتان ، فلا يخرج التفسير عن معنى الظهور والوضوح ، ويمكن إدماجهما في دلالة واحدة وهي التفسير والتدبر .

---

١ — ديوان الأعشى الكبير : تحقيق وتعليق د· محمد محمد حسين بيروت ١٩٦٨ القصيدة ١٣ ·

وعلى هذا يمكننا أن نجمل هذه المعاني اللغوية للتأويل في معنيين هما : المرجع والمصير ، والتفسير والتدبر .

هذه الدلالة التي أوضحناها هي دلالة الكلمة بمعناها الأول أو معناها المادي ، كما ساقته بعض المعاجم اللغوية المتقدمة (١) .

ونجد أبا عبيدة معمر بن المثنى (المتوفى ٢١٠هـ) وهو من علماء اللغة والتفسير يشير إلى أن التفسير والتأويل بمعنى واحد » (٢) ، وكذلك ما أورده ابن فارس — وهو من أئمة اللغة في القرن الرابع الهجري — عندما تعرض لتعريف التأويل » قال : وأما التأويل فآخر الأمر وعاقبته ، يقال : إلى أي شيء مآل هذا الأمر ؟ أي مصيره وآخره وعقباه » . (٣)

أما المعاجم المتأخرة (٤) فقد ظهر فيها المعنى الاصطلاحي ، والملاحظ أن هذا المعنى للتأويل — وإن جاءت به المعاجم اللغوية — إلاّ أنه من تعاريف العلماء المشتغلين بالعلوم الدينية ، يتضح أن ظاهرة التأويل كانت قد صاحبت النص الديني في رحلته منذ أن نزلت أولى كلماته على رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاول المسلمون تفهم القرآن واستنباط أحكامه ، يظهر هذا من قول الراغب : « والتأويل يستعمل أكثره في الكتب الإلهية »(٥) . فالتأويل وإن كان ظاهرة لغوية ترتبط باللفظ والدلالة أساساً إلا أنه لم يستعمل كمصطلح في البيئة اللغوية بقدر ما استعمل في الدراسات الدينية ، ولا غرو في هذا فالعلوم اللغوية لم تقم إلا لخدمة النص الديني .

---

١ ــ معجم تهذيب اللغة : ابومنصور محمد بن احمد الأزهرى (المتوفى ٣٧٠هـ) تحقيق عبد السلام هارون ط · القاهرة ١٩٦٤ ·

معجم مقاييس اللغة : ابوالحسن احمد بن فارس بن زكريا (المتوفى ٣٩٥هـ) تحقيق عبد السلام هارون ط · القاهرة ١٩٦٨ ·

معجم الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) : اسماعيل بن حماد الجوهرى (المتوفى ٣٩٣هـ) تحقيق احمد عبد الغفور ط · القاهرة

٢ ــ ابوعبيدة : مجاز القرآن ١٨/١ (المقدمة) ، السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن ١٧٣/٢ ·

٣ ــ احمد بن فارس : الصاحبى ــ فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها ص ١٦٤ ط · القاهرة ١٩١٠ ·

٤ ــ لسان العرب : ابوالفضل بن منظور (المتوفى ٧١١هـ) ·

شرح القاموس المسمى تاج العروس من جواهر القاموس : السيد محمد مرتضى الزبيدى (المتوفى ١٢٠٥هـ) ·

٥ ــ الراغب الاصفهانى : مقدمة التفسير الملحقة بكتاب تنزيه القرآن عن المطاعن ص ٤٠٢ ط · القاهرة ١٣٢٩ هـ ·

ونعرض فيما يلي بعض التعاريف الاصطلاحية للتأويل التي جاءت بها الكتب المتأخرة المشتغلين بالنص الديني من مفسرين ومحدثين وفقهاء وأصوليين ومتكلمين وفلاسفة مرتبة ترتيباً تاريخياً ، حتى نلحظ مدى التطور في التعريف ، وأقصد بالكتب المتأخرة هنا ما جاء منها بعد القرن الرابع الهجري فهي مرحلة نضجت فيها العلوم العربية وكثرت فيها المؤلفات في أجزاء من العلوم ، ووضع مصطلحات لها .

يقول أبو منصور الماتريدي (المتوفي ٣٣٣هـ) وهو من علماء التفسير والكلام أيضاً ، وله كتاب في تأويلات القرآن « التأويل هو ترجيح أحد المحتملات بدون القطع »(١) .

والواضح أنه تعريف يعتبر محاولة مبكرة في وضع مصطلح التأويل ، وتوضيحاً لمدى التطور في المعنى الإصطلاحي لاحقنا تعريفاً ورد على لسان ابن حزم الظاهري (المتوفي ٤٥٦هـ) وهو متأخر عن سابقه . يقول فيه « التأويل نقل اللفظ عما اقتضاه ظاهره وعما وضع له في اللغة إلى معنى آخر ، فإن كان نقله قد صح ببرهان وكان ناقله واجب الطاعة فهو حق ، وإن كان ناقله بخلاف ذلك اطرح ولم يلتفت إليه وحكم لذلك النقل بأنه باطل » . (٢)

ونلحظ في تعريف ابن حزم تشدده في قبول التأويل وإن كانت تلك مسحة المدرسة الأصولية وابن حزم أصولي ومتكلم ، إلا أنه يبالغ في التشدد إلى حد إنكار التأويل إذا لم تتحقق شروط معينة في التأويل وفي المؤول معاً ، وتلك هي صبغة للمذهب الظاهري الذي ينتمي إليه .

أما الغزالي (المتوفي ٥٠٥هـ) وهو أصولي يمثل قمة من قمم الفكر التشريعي ، يقول : « التأويل عبارة عن احتمال يعضده دليل ، يصير به ، أغلب على الظن من المعنى الذي يدل عليه الظاهر ويشبه أن يكون كل تأويل صرفاً للفظ عن الحقيقة إلى المجاز (٣) ،

---

١ ـ أورده السيوطي في الاتقان ١٧٣/٢ ، طاش كبرى زاده في مفتاح السعادة ٩٦/٢ ، د. السيد احمد خليل في نشأة التفسير في الكتب المقدسة ص ٦٤ .

٢ ـ ابو محمد علي بن حزم الاندلسي الظاهري : الاحكام في اصول الاحكام ٤٢/١ ط. القاهرة ١٣٤٥هـ .

٣ ـ الامام ابوحامد الغزالي : المستصفى من علم الأصول ٣٨٧/٢ ط. القاهرة ١٣٢٢ هـ .

وتعريف الغزالي أيضاً لم يسلم من النقد ، فقد عدد الآمدي تلك الانتقادات التي أشار من بينها إلى أن الغزالي أراد أن يعرّف نوعاً من أنواع التأويل وهو التأويل الصحيح (١) .

وقد أورد السيوطي في الإتقان قول البغوي (المتوفي ٥١٦هـ) وهو فقيه وإمام في اللغة والحديث : « التأويل صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها وما بعدها تحتمله الآية غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط » (٢) .

والواضح من هذا التعريف تعلق التأويل بالنص القرآني ، واشتراط موافقة المعنى المؤول إليه اللفظ لسياق الأسلوب وقصد الخطاب في وفاق مع الكتاب والسنة .

أما في مجال الفلسفة فقد جاء تعريف على لسان ابن رشد (المتوفي ٥٩٥هـ) « التأويل إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب في التجوز » (٣) . والتعريف يشبه إلى حد كبير تعريف الغزالي في إلحاق التأويل بالمجاز ، كما يشير أيضاً إلى المعرفة الواسعة بالأسلوب العربي ، وربما يكون هذا هو اتجاه المدرسة الفلسفية .

وأورد صاحب تاج العروس تعريفاً لابن الجوزي (المتوفي ٥٩٧هـ) وهو من فقهاء الحنابلة « والتأويل نقل الكلام عن موضعه إلى ما يحتاج في إثباته إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ » (٤) . وهو تعريف يمثل الاتجاه الظاهري في استنفاد الطاقات الظاهرة في النص .

ويقول الفخر الرازي (المتوفي ٦٠٦هـ) وهو من علماء التفسير والكلام ، ويتميز منهجه إلى حد كبير بالاستخدامات العقلية والأبحاث اللغوية : « التأويل هو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معناه المرجوح مع قيام الدليل القاطع على أن ظاهره محال » (٥) » .

---

١ ـ علي بن أبي علي بن محمد الآمدي : الاحكام في أصول الاحكام ١٩٨/٢ ط · القاهرة ١٩٦٨ ·

٢ ـ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (المتوفى ٩١١ هـ) : الاتقان في علوم القرآن ١٧٣/٢ ط· القاهرة ١٩٥١ ·

طاش كبري زاد : مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم · ١٠٢/٢ ـ تحقيق كامل بكري وآخرين ط · القاهرة ·

٣ ـ محمد بن أحمد بن رشد : فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ص ١٦ .ط · القاهرة ١٩٣٥ ·

٤ ـ الزبيدي : تاج العروس ٣١٤/٧ ·

٥ ـ فخر الدين الرازي : أساس التقديس في علم الكلام ص ٢٢٢ ط · القاهرة ١٣٢٨ هـ ·

ونلحظ عند الرازي دقةً في التعريف عن سابقيه ، كما يفهم من تعريفه أيضاً أنَّ التأويل لا يستعمل إلاَّ إذا دعت الحاجة إليه ، وأصبح المعنى الظاهر لا يمكن قبوله ، وهو يمثّل إلى حدٍ ما موقف الرازي من علماء الكلام الذين أساءوا استخدام التأويل .

وجاء على لسان ابن الأثير (المتوفي ٦٠٦هـ) وهو أحد المشتغلين بعلوم الحديث أن « المراد بالتأويل نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ » (١) .

ومن علماء الأصول الآمدي (المتوفي ٦٣١هـ) يقول : « التأويل هو حمل اللفظ على غير مدلوله الظاهر منه مع احتماله له ، وأما التأويل المقبول الصحيح فهو حمل اللفظ على غير مدلوله الظاهر منه مع احتماله له بدليل يعضده » (٢) .

وفي البيئة الأصولية عهدنا التشدد والحيطة في وضع التعاريف لأن ذلك يتعلق بتقرير الأحكام ، ويتضح هذا الاتجاه في تعريف الآمدي حيث استدرك وأشار إلى تعريف التأويل الصحيح المقبول ، بعد أن عرف التأويل تعريفاً عاماً يدخل فيه ما هو مقبول ، وما هو غير مقبول .

ومن العلماء المتأخرين تاج الدين السبكي (المتوفي ٧٧١هـ) اشتغل بالفقه والأصول ، ويشتهر بالمذهب السني . أورد تعريفاً في كتابه « جمع الجوامع » ، وذكره صاحب تاج العروس « التأويل هو حمل الظاهر على المحتمل المرجوح ، فإنْ حمل لدليل فصحيح ، أو لما يظن دليلاً ففاسد ، أو لا لشيء فلعب لا تأويل » (٣) .

والنزعة السنّية عند السبكي تجعله يحدد أشكال الدليل ضماناً لصحة التأويل .

ومن استقراء تلك التعاريف بترتيبها التاريخي ، يمكننا أن نتعرّف إلى ما يأتي :

أولا : مدى تطور التعريف ، وما مر به من مراحل النضج والتحديد .

ثانياً : اختلاف البيئات المتعددة في تناول التأويل بما يتفق ودواعي الاستعمال .

ثالثاً : أن التعاريف لم ترد إلا على ألسنة المشتغلين بالنصوص الدينية ، وهذا يوضح لنا أهمية التأويل في تلك البيئات : فأصحاب التشريع يعولون عليه في تناولهم للنص

---

١ ـ مجد الدين بن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ٦٢/١ ط. القاهرة

٢ ـ الآمدي : الاحكام في أصول الأحكام ١٩٩/٢ .

٣ ـ الزبيدي : تاج العروس ٣١٤/٧ .

واستنباط الحكم ، والمتكلمون يستخدمونه في محاوراتهم الجدلية ، والفلاسفة يعتمدون عليه في صرف ظاهر الشرعيات إلى ما يوافق العقل إذا تعارضت معه ، وذلك في مجال التوفيق بين الفلسفة والدين .

والمفهوم المستخلص من هذه التعريفات ، والذي يعتبر قاسماً مشتركاً بينها ، هو : أن التأويل عبارة عن صرف المعنى الظاهر من اللفظ إلى معنى آخر يحتمله اللفظ ، ويعضده دليل .

وهذا يوافق ما أتى به ابن تيمية (المتوفي ٧٢٨هـ) من تعريف يربطه بتلك البيئات المتعددة « التأويل في عرف المتأخرين من المتفقهة والمتكلمة والمحدثة والمتصوفة ونحوهم . هو صرف اللفظ من المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به » (١) . وقد شاع التأويل بين المتأخرين بهذا المعنى .

وربما يكون هذا المعنى الاصطلاحي قد نشأ تحت ظروف عقدية خاصة إذ كانت العقيدة هي محل الجدل والبحث والاستقصاء ، وأخذ ينمو ويتسع في رعاية أصحاب تلك العقائد فقد وجدوا فيه متنفساً لتعاليمهم يتجاوزون به الحدود الظاهرة لمعاني الكلم . وقد أضفى هذا على التأويل ظلالا قاتمة عند تلكم الجماعات العقائدية ، فسلكت به طريق الزيغ والضلال .

وترجع ظروف هذه النشأة إلى نشأة الفرق الباطنية بصفة خاصة ، وفي غالب الأمر ففي معتقدات أهل الباطن ، أن الإنسان في وسعه أن يدرك حقائق ، أو أن يصل إلى معارف ، عن طريق الحدس أو عن طريق الوجد والذوق كما عند الصوفية مثلا ، واللغة كما تبدو لهم في حدود ألفاظها الظاهرة لا يمكنها التعبير عن تلك الأحاسيس ، فوجدوا في التأويل ظاهراً غير مراد وباطناً مراداً ، يجب البحث عنه ، فالاتجاه الباطني عند أمثال هذه الفرق من الدوافع التي أحوجت إلى استعمال التأويل .

ومن هنا استُغل أسوأ استغلال ووضعت تلك الفرق ، وأمثالها تعاليمهم تحت ستار هذه الباطنية ، وكان التأويل طريقها ، « ثم إن الباطنية احتالت لتأويل أحكام الشريعة على وجوه تؤدي إلى رفع الشريعة وإلى مثل أحكام المجوس »(٢) .

---

١ ـ ابن تيمية : الاكليل فى المتشابه والتأويل ص ٢٢ ط . القاهرة .
٢ ـ عبد القاهر بن طاهر أبى منصور البغدادى : الفرق بين الفرق ص ١٧٥ . مطبعة الهلال القاهرة ١٩٢٤ م .

أما ما يعنينا فهو التأويل الذي يبحث عن القصد من وراء الألفاظ وليس التأويل الذي يتحكم في توجيهه الهوى والأغراض المذهبية والاتجاهات التي ابتدعها المبتدعون .

أما ظاهرة التأويل المتصلة باللغة (أي التي تعني باللفظ بعيداً عن أي غرض للتحريف) ؛ فقد لازمت الأسلوب العربي متى دعت الحاجة إلى ذلك ، طلباً للفهم الواعي المدرك للنصوص الدينية ؛ بحثاً عن قصد الشارع ، وهنا يقوم التأويل بإظهار هذا القصد وبيانه . وقد انتقل هذا التأويل من المعنى اللغوي إلى المعنى الاصطلاحي كما أوضحنا ، ثم احتضنته بعد ذلك الفرق الكلامية بعد نضوجه ، إذ وجدت فيه ضالتها ، فأساءت إليه وأفسدته . ونحاول في هذا البحث قدر جهدنا تنقيته من تلك الشوائب توضيحاً للصحيح منه .

وتأصيلا لهذا المنهج الذي أشرنا إليه ، نود أن نتعرف إلى تلك المجالات التي تستدعي استعمال التأويل وذلك منذ ظهور القرآن الكريم ؛ إذ بدأ القوم يعكفون على قراءته ، ودراسته محاولين التوصل إلى فهم ما بدا لهم ، وما يمكن أن يفهم من بواطن الألفاظ .

فأدرك العلماء أن للشرع ظاهراً وباطناً « وأعلم أن للكتب الإلهية تنزيلات ظاهرة وهي الألفاظ المقروءة المسموعة ، ولها تأويلات خفية باطنة وهي المعاني المفهومة المعقولة »(١) .

كما يقول أيضاً ابن رشد « وكثير من الصدر الأول قد نقل عنهم أنهم كانوا يرون أن للشرع ظاهراً وباطناً »(٢) .

وكذلك نجد أن هذا المفهوم موجود أيضاً عند الأصوليين إلا أنه يختلف في التسمية فيطلقون عليه : المعنى الثاني أو المعنى التركيبي أو فحوى الخطاب ، أو ما يطلقون عليه اقتضاء النص وهو دلالته على معنى خارج يتوقف عليه صدق الكلام أو صحته الشرعية أو العقلية .

وجاء في ضحى الإسلام « عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : « حدثوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله ؟ »(٣) . وفي هذا دليل على أن

---

١ ـ رسائل اخوان الصفا وخلان الوفاء ١٣٨/٤ ط. تراث العرب . بيروت ١٩٥٧ .

٢ ـ محمد بن احمد بن رشد (٥٩٥ هـ) : فصل المقال ص ١٧ ط . صبيح القاهرة ١٩٣٥ .

٣ ـ احمد امين : ضحى الاسلام ١٤/٣ .

النص الديني « من كتاب وسنة » له وجوه ظاهرة وباطنة يحدّث الناس بما يوافقهم منها . فالباطن في النصوص الدينية هو الذي يعني هدف الشارع ومقصده ، وهذه المقاصد لم يتوان أصحاب المعرفة منذ زمن الرسول عن بيانها وإظهارها ما دامت توافق اللغة والعقل والشرع ، واجتماع القرائن التي تساند المعنى المقصود ويظهر ذلك في قول الرسول عليه الصلاة والسلام « القرآن ذلول ذو وجوه ، فاحملوه على أحسن وجوهه » — أخرجه أبو نعيم ، وغيره من حديث ابن عباس .

الاستعمال القرآني لكلمة تأويل :

أما وقد تعرّضنا لتعريف التأويل لغة واصطلاحاً بقي أن نوضح الاستعمال القرآني للكلمة بما جاء على ألسنة المفسرين .

وردت كلمة « تأويل » في القرآن حسب ترتيب السور في المصحف كما يلي :

١ — قال تعالى :

« هُوَ الذي أنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أمُّ الكِتَاب وأُخَرُ مُتَشَابِهَات فأمّا الذينَ في قُلُوبِهِمْ زيغٌ فيَتَّبِعُونَ ما تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وابتغاءَ تأويلِهِ وما يعلمُ تأويلَهُ إلاّ اللهُ والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربّنا وما يذّكّرُ إلاّ أولو الألباب » (١).

٢ — قال تعالى :

« يا أيها الذينَ آمَنُوا أطيعُوا اللهَ وأطيعُوا الرّسُولَ وأُولي الأمْرِ مِنكُمْ فإنْ تَنَازَعْتُم في شيء فَرُدُّوهُ إلى اللهِ والرّسُولِ إنْ كُنْتُم تُؤْمِنُونَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ ذلكَ خَيْرٌ وأَحْسَنُ تأويلاً » (٢) .

٣ — قال تعالى :

« ولَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ على عِلْمٍ هُدًى ورَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ، هلْ يَنْظُرُونَ إلاّ تأويلَهُ يَوْمَ يأتي تأويله يَقُولُ الذينَ نَسُوهُ مِنْ

---

١ — آية ٧ من سورة آل عمران
٢ — آية ٥٩ من سورة النساء .

قبْل قدْ جاءت رُسلُ ربِّنا بالحق فهلْ لنا من شُفعاء فيَشْفَعُوا لَنَا أو نُرَدُّ فنعمل غيرَ الذي كُنَّا نَعْمل قدْ خَسِرُوا أنفسهم وَضَلَّ عنهم ما كانُوا يفترون »(١) .

٤ ــ قال تعالى :

« وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين »(٢) .

٥ ــ قال تعالى :

« وكذلك يجتبيكَ ربكَ ويُعَلِّمكَ من تأويل الأحاديث » «وكذلكَ مكّنّا ليوسفَ في الأرض ولنُعَلِّمهُ من تأويل الأحاديث . » . « ودخل معَهُ السّجنَ فتيَان قال أحدهما إني أراني أعصرُ خمراً وقال الآخر إني أراني أحملُ فوقَ رأسي خُبزاً تأكل الطيْرُ منهُ نبّئنا بتأويله إنّا نرَاكَ من المُحسنين . قالَ لا يأتيكُما طعامٌ تُرزَقانه إلاّ نبأتكما بتأويله قبْلَ أنْ يأتيكُما ذلكما مّما علّمني رَبّي » . « قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين . وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون » . « ورَفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً » . « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث »(٣) .

٦ ــ قال تعالى :

« وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا »(٤) .

---

١ ــ الآيتان ٥٢ ، ٥٣ من سورة الأعراف .
٢ ــ الآيات ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ من سورة يونس .
٣ ــ الآيات ٦ ، ٢١ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ١٠٠ ، ١٠١ من سورة يوسف .
٤ ــ آية ٣٥ من سورة الاسراء .

٧ — قال تعالى :

« قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً » . « ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً » (١) .

ولقد كثرت الآراء والخلافات حول كلمة « تأويل » في الآية الأولى « وهي السابعة من سورة آل عمران » واستغرقت الكثير من صفحات كتب التفسير ، نورد منها ما يعيننا على المعنى المراد بالكلمة . يقول الطبري : « القول في تأويله قوله تعالى « وابتغاء تأويله » . اختلف أهل التأويل في معنى التأويل الذي عنى الله جل ثناءه . . فقال بعضهم معنى ذلك : الأجل الذي أرادت اليهود أن تعرفه من انقضاء مدة أمر محمد وأمر أمته من قبل الحروف المقطعة من حساب الجمَّل(٢) « الم » ، « ألمص » . . وما أشبه ذلك من الآجال . . حدثني موسى قال: حدثنا عمر قال: حدثنا أسباط عن السدى وابتغاء تأويله » أرادوا يعلموا تأويل القرآن وهو عواقبه . . وقال آخرون : معنى ذلك ابتغاء تأويل ما تشابه من أي القرآن ، يتأولونه — إذا كان ذا وجوه وتصاريف في التأويلات — على ما في قلوبهم من الزيغ ، وما ركبوه من الضلالة »(٣) .

فمعنى التأويل هنا : عاقبة الأمور التي لا يعلمها إلا الله ، والغيبيات التي لا تقبل البحث والاستقصاء . وربما يكون ذكر الفتنة قبلها « ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » قد أضفى على الكلمة هذا المعنى .

كما يقول الطبري في تأويل قوله « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به » : يعني جل ثناؤه بذلك : وما يعلم وقت قيام الساعة وانقضاء مدة أجل محمد وأمته ، إلا الله دون من سواه من البشر الذين أملوا إدراك علم ذلك من قبل الحساب والتنجيم والكهانة . وأما الراسخون في العلم فيقولون : «آمنا به كل من عند ربنا » لا يعلمون ذلك ولكن فضّل علمهم في ذلك على غيرهم ، العلم بأن الله هو العالم بذلك دون من سواه من خلقه — واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك وهل « الراسخون »

---

١ — الآيتان ٧٧ ، ٨٢ من سورة الكهف ·

٢ — هو الحساب المبنى على حروف ابجد (معانى القرآن للفراء ص ١٩٠) ·

٣ — أبوجعفر محمد بن جرير الطبرى (٣١٠ هـ) : تفسير الطبرى جامع البيان عن تأويل آى القرآن» تحقيق محمود احمد شاكر ١٩٩/٦ ، ٢٠٠ ط · دار المعارف· القاهـــرة ·

معطوف على لفظ الجلالة بمعنى إيجاب العلم لهم بتأويل المتشابه ، أو أنهم مستأنف ذكرهم بمعنى الخبر عنهم فكأنهم يقولون : آمنا بالمتشابه وصدقنا أن علم ذلك لا يعلمه إلا الله . فقال بعضهم معنى ذلك : وما يعلم تأويل ذلك إلا الله وحده منفرداً بعلمه ، وأما الراسخون في العلم فإنهم ابتديء الخبر عنهم بأنهم يقولون آمنا بالمتشابه والمحكم ، وأن جميع ذلك من عند الله »(١) . إلى غير ذلك من الآراء التي يمكن أن نستنتج منها أن معنى كلمة تأويل هنا « العاقبة » كذلك .

ويقول القرطبي أيضاً : « معنى ابتغاء الفتنة – طلب الشبهات واللبس على المؤمنين حتى يفسدوا ذات بينهم ، ويردوا الناس إلى زيغهم . وقال أبو إسحاق الزجاج : معنى ابتغاء تأويله – أنهم طلبوا تأويل بعثهم وأحيائهم ، فأعلم الله جل وعز أن تأويل ذلك ووقته لا يعلمه إلا الله »(٢) . والمعنى عند القرطبي كذلك « العاقبة » ، وهو يقول أيضاً في تفسير قوله تعالى « وما يعلم تأويله إلا الله » : يقال إن جماعة من اليهود منهم حيي ابن أخطب دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : بلغنا أنه أنزل عليك « الم » فإن كنت صادقاً في مقالتك فإن مُلْك أمتك يكون إحدى وسبعين سنة ، لأن الألف في حساب الجمّل واحد ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، فنزل « وما يعلم تأويله إلا الله »(٣) .

والواضح أن المعنى يقصد به عاقبة الأمور التي لا يدركها البشر إلاّ أنّ القرطبي يستطرد في بيان معنى التأويل وأنه يكون بمعنى ما يؤول الأمر إليه ، إلى أن يسوق إلينا معنى اصطلاحياً عند قوله « وقد حدّه بعض الفقهاء فقالوا : هو إبداء احتمال في اللفظ مقصود بدليل خارج عنه » وإن كان معنى كلمة (تأويل) في الآية الكريمة لا يقصد به هذا المعنى الاصطلاحي ، وإلى هذا يشير تفسير المنار قائلا : « إنما غلط المفسرون في تفسير التأويل في الآية (وهي الآية التي نحن بصددها) لأنهم جعلوه بالمعنى الاصطلاحي ، وأن تفسير كلمات القرآن بالمواضعات الاصطلاحية قد كان منشأ غلط يصعب حصره »(٤) ، ولكنني أرجح أن إتيان القرطبي بهذا المعنى الاصطلاحي

---

١ – نفس المرجع (الطبرى ٦/٢٠١) .

٢ – ابو عبد الله بن أحمد الانصارى القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ٢/١٢٥٧ ط . دار الشعب . القاهرة ١٩٧٠ .

٣ – نفس المرجع والصفحة .

٤ – السيد محمد رشيد رضا : تفسير القرآن الحكيم المسمى بتفسير المنار للأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ٣/١٤٣ ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٧٢ .

راجع إلى عنايته بأقوال الفقهاء ليس غير ، وهو أيضاً من المفسرين المتأخرين (متوفي ٦٣١ هـ) أي بعد ظهور المصطلح .

وربما تكون الآراء المتعددة التي أوردناها وما ترتب عليها من خلافات حول هذه الآية راجع إلى :

أولا : ارتباط الفتنة بالتأويل مما أثار خوفاً وقلقاً لدى المشتغلين بالنص الديني .

ثانياً : أن المتعرض للتأويل قد يتعرض لما خص الله به نفسه من العلم نظراً لما جاء من خلاف بصدد الوقف عند لفظ الجلالة أو عطف « الراسخون في العلم » عليه .

ثالثاً : ما أثير من أبحاث حول المحكم والمتشابه وأنه لا يتبع المتشابه إلاّ من زاغ قلبه كما جاءت بذلك الآية .

وخلاصة القول أن معنى كلمة « تأويل » في هذين الموضعين من الآية لا تخرج عن معنى العاقبة والمصير ، وهو من المعاني اللغوية للكلمة .

وقد وردت الكلمة كذلك في ستة مواضع أخرى فيما ذكرناه سلفاً ، ذكرها صاحب تفسير المنار(١) وجمع ما أثير حولها من آراء بشكل مختصر مستخلصاً المعنى المتفق عليه .

أولها : آية سورة النساء . « وأحسن تأويلا » فسر التأويل هنا « مجاهد ، وقتادة » بالثواب والجزاء ، و « السدى ، وابن زيد ، وابن قتيبة ، والزجّاج » بالعاقبة ، وكلاهما بمعنى المآل . وليس ثمة احتمال أن يكون معنى التأويل هنا التفسير أو صرف الكلام عن ظاهره ، فبالرجوع إلى الآية كاملة ندرك أن الكلام حول ما يتنازع فيه الناس عاقبة ردّه إلى الله ورسوله .

الثانية : آية سورة الأعراف — هل ينظرون إلاّ تأويله يوم يأتي تأويله . فسّر ابن عباس « تأويله » هنا بتصديق وعده ووعيده أي يوم يظهر صدق ما أخبر به من أمر الآخرة ، وقال قتادة « تأويله » ثوابه ، ومجاهد : جزاؤه ، والسدي : عاقبته ، وابن زيد : حقيقته .

---

١ — تفسير المنار ١٤٣/٣ ، ١٤٤ (بتصرف) .

وواضح أن الدلالات هنا كلها متقاربة ، وهي تعني ما يؤول إليه الأمر من وقوع ما أخبر به القرآن من أمر الآخرة .

الثالثة : آية سورة يونس — ولما يأتهم تأويله . وقد جاء ذلك بعد ذكر القرآن وأنه جاء مصدقاً لما تقدمه من الكتب السماوية ومنزهاً عن الافتراء والريب ، وتحديهم في الإتيان بسورة من مثله . فسّر أهل الأثر « تأويله » هنا بما يؤول إليه الأمر من ظهور صدقه ووقوع ما أخبر به .

الرابعة : آيات سورة يوسف — وقد ذكرت كلمة « تأويل » في ثمانية مواضع منها ، وكلها تدل على الإخبار بالأمر الذي سيقع في المآل من تحقيق الرؤى ، منها ما رآه يوسف في منامه ، ومنها ما عرض عليه طلباً لمعرفة حقيقتها .

الخامسة : آية سورة الإسراء « ذلك خير وأحسن تأويلا » . أي مآلا .

السادسة : آيتا سورة الكهف ، وكلمة الإنباء بالتأويل فيهما ، يعني الإنباء بأمور عملية ستقع في المآل .

ومن هذا يتبين أن لفظ « التأويل » في هذه المواضع معناه : الأمر الذي يقع في المآل تصديقاً لخبر في الحالات الثلاثة الأولى ، أو رؤيا كما جاء في آيات سورة يوسف ، أو عمل غامض يقصد به شيء يقع مستقبلا كما في سورة الكهف . وهذا ما عنته كلمة « تأويل » في سورة آل عمران كذلك .

وعلى هذا فكلمة « تأويل » في الاستعمال القرآني تعني : المآل أو المرجع أو المصير . ويذهب ابن تيمية إلى أبعد من ذلك إذ يقول « وأما الأخبار فتأويله عين الأمر المخبر به إذا وقع . ليس تأويله فهم معناه »(١) . وابن تيمية هنا يشير إلى كلمة « التأويل » في القرآن ومعناها هو عين المخبر به ، وليس معناها الشرح والتفسير . وما وصل إليه ابن تيمية هذا كان نتيجة نظره إلى قول الله تعالى « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » فيقول : « هناك فرق بين الإحاطة بعلمه وبين إتيان تأويله ، فتبين أنه يمكن أن يحيط أهل العلم والإيمان بعلمه ولم يأتهم تأويله ، وأن الإحاطة بعلم القرآن

---

١ — ابن تيمية (٧٢٨ هـ) : الاكليل في المتشابه والتأويل ص ١١ ط ٠ انصار السنة المحمدية ٠ القاهرة ١٩٤٧ ٠

ليست إتيان تأويله ، فإن الإحاطة بعلمه معرفة معاني الكلام على التمام ، وإتيان التأويل نفس وقوع المخبر به ، وفرق بين معرفة الخبر وبين المخبر به ، فمعرفة الخبر هي معرفة تفسير القرآن ومعرفة المخبر به هي معرفة تأويله »(١) . وهذا هو ما أشار إليه تفسير المنار وغيره من المفسرين حول الاستعمال القرآني لكلمة تأويل ، وأنها تدل على معنى من المعاني اللغوية وهو المرجع والمآل والمصير .

مفهوم التأويل عند الصحابة والتابعين :

اتخذ التأويل في زمن السلف الأول معنى آخر وإن كان يستمده كذلك من معانيه اللغوية إلا أنه غير المعنى الذي استعمله فيه القرآن .

وابن تيمية يشير إلى أصل المعاني المتعددة التي تحتملها كلمة « تأويل » إذ يقول « أصل ذلك أن لفظ التأويل ، وبه أشير إلى بين ما عناه الله في القرآن ، وبين ما كان يطلقه طوائف من السلف ، وبين اصطلاح طوائف من المتأخرين ، فبسبب الاشتراك في لفظ التأويل اعتقد كل من فهم منه معنى بلغته أن ذلك هو المذكور في القرآن »(٢) .

وتشير المرويات إلى أنّ التأويل عند السلف الأول كان يعني التفسير والتدبُّر ، ومن أشهرها دعوة الرسول عليه السلام لابن عباس « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل »(٣). فالتأويل الذي استعمله ابن عباس هو معرفة معاني الآيات ، وله روايات عديدة في هذا المجال تمتلىء بها كتب التفسير . والفقه هو العلم بالشيء وفهمه والتفطن له .

والتأويل هنا في دعوة الرسول ربما لا يقصد به أكثر من ذلك وإن كان يتطلب تعمقاً في المعنى المراد ومعرفة القصد من ورائه ، مما لا يدركه إلا أصحاب التدبر والفكر الثاقب ، وتلك هي المنزلة التي أرادها الرسول لابن عباس . فإن « زمان السلف الأول زمان سكون القلب ، بالغوا في الكف عن التأويل خيفة من تحريك الدواعي ، وتشويش القلوب ، فمن خالفهم في ذلك الزمان فهو الذي حرك الفتنة »(٤) . كما أن مفهوم « التأويل »

---

١ ـ ابن تيمية : الاكليل فى المتشابه والتأويل ص ١٧ .
٢ ـ ابن تيمية : الاكليل فى التشابه والتأويل ص ١٩ .
٣ ـ ابن الأثير : النهاية فى غرب الحديث والاثر ٦٢/١ ، وابن تيمية : مقدمة فى اصول التفسير ص ٢٦ ط . الترقى . دمشق ١٩٣٦ .
٤ ـ تفسير المنار ١٨٢/٣ .

في القرآن وما يعنيه من حقيقة الشيء نفسه جعلهم يبتعدون عن هذا المعنى حتى لايتطاولوا إلى ما استأثر الله بعلمه ومعرفة حقيقته ، فمعنى التأويل عندهم : الفهم والتدبر .

وفي العصر الأول لم تشتبه على القوم ألفاظ النصوص الدينية . « فالقرآن كله مفهوم ؛ إن اشتبه منه شيء على بعض الناس علمه غيرهم . . فإن السلف قد قال كثير منهم إنهم يعلمون تأويله . . ونقلوا ذلك عن ابن عباس وأنه قال « أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله » ، وهذا يقتضي أن الراسخين في العلم يعلمون التأويل الصحيح للمتشابه وهو التفسير في لغة السلف »(١) ، وهو معنى لا يبعد عن التدبر والفهم ومعرفة بواطن الأمور .

وما جاء في كتب المفسرين الذين يعتنون بالمنهج النقلي كالطبري يوضح لنا مدى عنايتهم بتفهم آي القرآن ، إذ لم تترك هذه التفاسير لفظاً إلا أوضحته وتعرضت للآراء التي قيلت فيه ، أما بياناً لسبب النزول ، أو استشهاداً بأبيات من الشعر إذا ورد لفظ غريب أو أسلوب غامض ، وكان الرسول عليه السلام « يبيّن لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه . . وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي « حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن . . أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل »(٢) . وتلك قولة توضح لنا عناية الرسول وصحابته بتفهم معاني القرآن ومقاصده ، وكيف لا ! وقد قال الله عز وجل « كتاب أنزلناه ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب »(٣) . فكانت العناية بألفاظه وتدبرها وفهم معانيها أمر سماوي واجب الطاعة ، ولم يغمض أمام أعينهم لفظ ، ولا استغلق عليهم معنى « كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون »(٤) .

ففي عصر الرسول والصحابة والتابعين لم يحدث أن امتنع أحد منهم عن تفسير آية أو توضيح كلمة — إلا ما يتصل بالذات الإلهية — وكتب التفسير شاهدة بذلك .

« ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم وأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله »(٥) ، وإن كان يغيب علم ذلك

---

١ ـ تفسير المنار ١٤٥/٣ .
٢ ـ ابن تيمية : مقدمة فى أصول التفسير ص ٥ .
٣ ـ آية ٢٩ سورة ص
٤ ـ آية ٣ سورة فصلت .
٥ ـ ابن تيمية : مقدمة فى أصول التفسير ص ٢٤ .

على بعض الناس - كما قلنا - فتلك هي طبيعة الأحوال ، فالناس ليسوا سواء في الفكر والثقافة والمستوى العقلي ، فإن دق عليهم معنى ظهر لهم بعد بحث ونظر أو سؤال النبي صلى الله عليه وسلم ، « كسؤالهم لما نزل قوله تعالى « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم »(١) فقد شق ذلك على أصحاب رسول الله وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله : ليس هو كما تظنون ، إنما هو كما قال لقمان لابنه :

« يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » فهو يعني « الشرك »(٢) . كما أنهم كانوا يعنون بمعرفة روح المعنى ومقاصد الآيات ، وقد أورد القرطبي موقفاً يوضح لنا تلك العناية ، « خرّج البخاري عن عبيد بن عمير قال : قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : فيم ترون هذه الآية نزلت « أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات ، وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت » ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، فغضب عمر وقال : قولوا نعلم أو لا نعلم ! فقال ابن عباس : في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين ، قال : يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك ، قال ابن عباس : ضُرِبَت مثلا لعمل . قال عمر : أي عمل ؟ قال ابن عباس : لعمل رجل غني يعمل بطاعة الله ثم بعث الله عز وجل الشيطان فعمل في المعاصي حتى أحرق عمله . . (٣)

وهكذا في هذه الفترة الباكرة من حياة الإسلام نرى ارتضاء البعض بالتأويل والعناية به ، والحرص على فهم القرآن ومعرفة ما أراد الله مع عدم الجنوح لتأويل القرآن بالهوى ومن غير دليل .

فلم تكن هناك مكابدة في معرفة آي القرآن ، فأسلوب القرآن جار على أساليبهم المستعملة ، وحسهم باللغة ، وهم عنصر عربي نقي ، هذا إلى جانب معايشتهم للنصوص وأسبابها ، كل ذلك سهل عليهم إدراك المضامين ، ومعرفة إيحاءات النص .

« قال عبد الله بن مسعود : والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت ، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناوله المطايا لأتيته » (٤) .

---

١ - اية ٢٦٦ من سورة البقرة .
٢ - تفسير القرطبى ٢٤٦٦/٤ .
٣ - تفسير القرطبى ١١٣٦/٢ ، تفسير الطبرى ٤٦/٣ .
٤ - ابن تيمية : مقدمة فى أصول التفسير ص ٢٥ .

وإلى جانب هذا أيضاً نرى البعض يكره التأويل والبحث عما لم يبينه الله ولا رسوله بعداً عن الجدل في الدين ، وخصوصاً عندما يتصل الأمر بذات الله وصفاته أو القضاء والقدر ونحو ذلك من المشكلات .

وعموماً ، يتضح مما سبق أن التفسير كان وسيلة الكشف عن المعنى ، وان استعملت كلمة « تأويل » في ذلك الوقت فإنها تعني التفسير كذلك .

يقول ابن تيمية « وأما التأويل في لفظ السلف فله معنيان : أحدهما ـ تفسير الكلام وبيان معناه سواء وافق ظاهره أو خالفه ، فيكون التأويل والتفسير عند هؤلاء متقارباً أو مرادفاً » . (١)

والمطلع على تفسير الطبري مثلاً يجد أنه يستعمل كلمة « تأويل » في معنى التفسير والبيان ، إذ يقول : تأويل الآية كذا ، ثم يشرع في تفسيرها ، وقال أهل التأويل كذا ، ثم يحكي أقوال المفسرين من السلف .

والتأويل الذي يبعد النص عن مفهومه الصحيح ومقصد الشارع فيه ، « لم يكن قد عرف في عهد الصحابة ، بل ولا التابعين ، بل ولا الأئمة الأربعة ، ولا كان التكلم بهذا الاصطلاح معروفاً في القرون الثلاثة ، بل ولا علمت أحداً فيهم خص لفظ التأويل بهذا » . (٢)

ومن هنا كان التفسير والتأويل في هذا العهد المتقدم وسيلة إلى كشف معاني النصوص القرآنية وتبيينها ، أما العهد المتأخر فقد أصبح سبباً في توسيع الدلالة بإضافة معان جديدة للنص ، وذلك راجع إلى أن رجال الصدر الأول في الإسلام يتحرّجون من القول في القرآن بالرأي ، « ولعل الروعة الدينية لهذا العهد ، والمستوى العقلي لأهله ، وتحدد حاجات حياتهم العملية ، ثم شعورهم بأن التفسير شهادة على الله بأنه عنى باللفظ ، كل هذا جعلهم لا يقولون في تفسير القرآن إلا التوقيفي الذي نقل إليهم ، وروي عن صاحب الرسالة » (٣) .

---

١ ـ ابن تيمية : الاكليل في المتشابه والتأويل ص ٢٤ .
٢ ـ تفسير المنار ١٥٠/٣ .
٣ ـ دائرة المعارف الاسلامية ٤١٢/٩ مادة تفسير .

وهذا الموقف أمام النصوص الدينية يوحي بانطباع عن هذه الفترة يتمثل في شدة التحرج الديني عند السلف احتراماً وتقديساً للنص القرآني مما جعلهم لا يقولون بالرأي فربما يعرّض الرأي إلى القول بالهوى .

فقد كان النص الديني في تلك الفترة محوطاً بسياج يقفون دونه تورعاً وحيطة .

ومن منطق الأمور كذلك أن الحياة الثقافية آنذاك لم تكن قد نشطت بعد بما يتيح ألواناً من الفهم والاستنباط . ومع هذا فقد كان هناك قول بالرأي ، ولكنه الرأي السديد الصادق الذي يتفق وروعة النص الديني ويناسب أهدافه . فقد « سئل أبو بكر عن الكلالة ، فقال أني سأقول فيها برأيي فإن كان صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان ، أراه ما خلا الوالد والولد » (١) ، ويشير ابن القيم إلى أن هذا الرأي (رأي الصحـــابة والتابعين) يستند إلى استدلال واستنباط من النص وحده أو من نص آخر معه ، وهذا من ألطف فهم النصوص وأدقه ، فقد ذكر الله سبحانه وتعالى الكلالة في موضعين من القرآن :

« وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس »(٢)

يقول القرطبي في معناها : « من تكلله النسب أي أحاط به ، وبه سمي الاكليل وهي منزلة من منازل القمر لاحاطتها بالقمر إذا احتل بها ، ومنه الاكليل وهو التاج والعصابة المحيطة بالرأس ، فإذا مات الرجل وليس له ولد ولا والد فورثته كلالة ، وهو قول أبي بكر وعمر وعلي وجمهور أهل العلم » (٣) . والموضع الثاني :

« يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ان امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك . . » (٤) .

وفي تفسيرها أيضاً : « من ليس له ولد ولا والد فاكتفى بذكر أحدهما ، وهو موافق للغة العرب إذ يقول الشاعر :

ورثتم قناة المجد لا عن كــلالة   عن ابني مناف عبد شمس وهاشم

---

١ ـ ابن القيم (٧٥١ هـ) : اعلام الموقعين ٦٩/١ ط . المنيرية . القاهرة .
٢ ـ آية ١٢ من سورة النساء .
٣ ـ تفسير القرطبي ١٦٤٦/٢ .
٤ ـ آية ١٧٦ من سورة النساء .

أي إنما ورثتموها عن الآباء والأجداد لا عن حواشي النسب (أي أهل الرجل وخاصته » (١) ، فيمتدح ابن القيم هذا النوع من الرأي الذي يعتمد على الأسانيد والشواهد .

وخلاصة القول في معنى التأويل في الاستعمال القرآني ، ومعناه عند السلف الأول ، أن القرآن أعطى للكلمة دلالة يغلب عليها معنى العاقبة والمصير والمآل خاصة في الآيات :

« يوم يأتيهم تأويله » ، « وما يعلم تأويله إلا الله »

وما شابهها ، وإن كان من هذا المفهوم أخذ معنى أبعد ، يصل بدلالة الكلمة إلى أنها تعني « حقيقة الشيء ، أو هو نفس الشيء المخبر به » كما أشار إلى ذلك ابن تيمية .

أما عند السلف الأول فقد كان الاهتمام بالغاً بالتعرف إلى معاني القرآن وتفهم مقاصده وأضفى هذا الاتجاه على الكلمة معنى التفسير والفهم والتدبر ، وكلا المعنيين لا يبعد عن المعنى اللغوي لكلمة « تأويل » .

مابين النقل والعقل :

إن التطور سنة من سنن الحياة ، ولكن المجتمع الإسلامي سرعان ما تطور بخطى حثيثة دليل حيويته ومرونته ، واتصل بثقافات عديدة كان من شأنها اتساع الفكر وتنوعه . إذ تبدلت موجهات الحياة عند العرب فخرجوا من باديتهم التي اعتمدت حياتهم فيها على أسس واضحة لا تقتضي تفكيراً فلسفياً ، واتصلوا بعناصر متنوعة الثقافة مختلفة المشارب والطباع أثرت فيها وتأثرت بها ، ومع اتساع محاولات الفهم بدأت تغلب على النص الديني وتفسيره المنقول النزعات العقلية التي لم تكن في جملتها إلا نتيجة لهذا التفاعل ، فقد كان السلف الأول يعتمدون على النقل وهو منهج يقوم في عامة أمره على الخبر . وابن خلدون يصور لنا هذه الفترة في حياة التفسير فيقول : « وما زال ذلك متناقلا بين الصدر الأول والسلف حتى صارت المعارف علوماً » (٢) . ففي مختلف الثقافات تعد مرحلة النقل هي الخطوة الأولى على سبيل المعرفة والتطور .

وتبعاً للأسباب التي بدأنا بها الحديث ما لبث أن اتسع المنهج الفكري ، واتخذ سبيله في البحث والاستقصاء ، وكان من نتاجه حرية التحليل والاستنباط .

---

١ ـ تفسير القرطبي ٢٠٢٤/٣ .

٢ ـ ابن خلدون : المقدمة ص ٣٧٤ ط . كتاب التحرير . القاهرة ١٩٦٦ .

ومن هذا نستخلص ، أن المجتمع الإسلامي قد مر بمنهجين :

الأول والأسبق : هو المنهج النقلي الذي يمثل التوقيفية في فهم النص .

الثاني : هو المنهج العقلي .

وكلا المنهجين يسير على طريق النص الديني الذي حظي بتقديس أهله له واهتمامهم به ، (وإن كان يطبقان على مختلف العلوم) .

وهنا يظهر تساؤل عن أثر تلك الحرية الفكرية في النص الديني ؟ . وللإجابة على هذا التساؤل نشير إلى نقطتين :

الأولى : قد تؤدي هذه الحرية العقلية إلى التخفف من المسئولية المنوطة بالنص .

الثانية : هذه الحرية تمنح الرأي جرأة قد تصل إلى حد التطاول على النصوص وإهدار دلالتها ، كما سنرى عند المبدّلين والمحرّفين لكلام الله عن مواضعه . وتلك مرحلة تنذر بالخطر في تناول النصوص ، إلا أنها تتيح للتأويل مجالا تتسع معه دلالة النص وتتنوع ، بعد أن كان التفسير يتناول ما حول النص دون تعمق أو اتساع وتبدأ المعارك الكلامية وتحتدم الخلافات اللفظية ، إذ اختلف المسلمون إلى ملل ونحل ، وكان القرآن والحديث مستند كل فريق فيما ذهب إليه ، فاتسع مجال الرأي وانتشر التخريج والاستنباط ، فتنوعت بذلك مناهج التفسير واختلفت ، فهناك تفاسير المعتزلة والشيعة والصوفية . وتلك نتيجة حتمية لهذه الحرية العقلية .

وليس في مقدورنا أن نحدد بداية التدخل العقلي في تفسير النص الديني بعد أن ظل النقل سائداً طوال القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، فبين المنهجين تداخل نشأ عن استعانة أحدهما بالآخر في أغلب الأحايين .

ونتيجة لذلك نجد أن الحرية العقلية وما يستتبعها من اتساع فكري مهداً للتأويل ليدخل إلى النص الديني كظاهرة لها مقوماتها وخاصة عند الفرق الكلامية التي قامت على الاتجاهات العقلية « . وإن كان المتكلمون بصفة عامة أظهر عنصر عقلي في الحركة العلمية خلال التاريخ الإسلامي كانوا لا يميلون كثيراً إلى المنقول ولا يثقون بكل ما فيه ثقة المحدثين وغيرهم . .. فتعرضوا لتأويل القرآن بهذه العقلية » (١) .

---

١ ـ أحمد امين : ضحى الاسلام ٢/١٤٦ ط٠ لجنة التاليف والنشر ٠ القاهرة ١٩٥٢ ٠

ولم يكن غريباً مع اتساع أفق الحرية العقلية هذي أن تتأثر الدراسات اللغوية بتلك الحركة ، ولا غرو في ذلك فاللغة هي وسيلة الفكر وأداته المعبرة . فتنوع الدلالة واتساعها تابع لحرية الفكر وانطلاقه ؛ وعلى هذا فإن الدراسات اللغوية لم تكن بمعزل عن هذا المعترك ، ولهذا طفقت اللغة أيضاً تتجه إلى البحث والتأمّل والاتساع قياساً واشتقاقاً إلى غير ذلك من طرق التوسع » وكان رافع علم هذه المدرسة أبا علي الفارسي وتلميذه ابن جني » (١) . وابن جني من أتباع المذهب المعتزلي — وهو مذهب التحرر الفكري — أخضع اللغة لحكم العقل حتى أطلقوا عليه زعيم الأحرار في اللغة .

واتساع الدرس اللغوي ونموه من عوامل تدرج التفسير والتأويل لاعتماد كل منهما على الآخر .

ولا يفوتنا في هذا المجال أن نشير إلى أصالة الحرية العقلية في التفكير الإسلامي رداً على من يزعم أن إعمال العقل وحرية الفكر في العلوم الإسلامية لم تكن إلا نتيجة روافد أجنبية ، وتناسوا ما كان لحرية العقل من جذور ثابتة منذ أن نزل القرآن هادياً ومبشراً ونذيراً ، وهو ادعاء لا تخلو منه كتب المستشرقين أمثال « جولدزين في كتابه العقيدة والشريعة في الإسلام ، أو ليري في كتابه الفكر العربي ومكانه في التاريخ » .

وإن كنا لا ننكر الآثار التي نتجت عن اتصال العرب بالثقافات الأخرى ؛ فالتأثير والتأثر من المقومات الحضارية التي لا يمكن إغفالها .

« ولشد ما يحلو لهؤلاء أن يتلمسوا في الثقافة الشرقية — سواء في ذلك الهندية والفارسية والعربية وغيرها — أموراً يتكلفون ردها إلى الفكر الإغريقي أو الروماني ويتزيدون في ذلك حتى يوحوا إلى القارئ بفاعلية الغرب وانفعالية الشرق ويدفعوه إلى اعتقاد تفوق الذهن الغربي وتواكل العقل الشرقي » (٢) .

ولقد جاء الإسلام وسط عقائد فاسدة ومع هذا فقد أطلق للعقل حريته في مجال البحث ليهتدي الإنسان بنظره دون إجبار » :

---

١ — احمد أمين : ظهر الاسلام ٢/٨٩
٢ — اوليرى : الفكر العربى ومكانه فى التاريخ • ترجمة د. تمام حسان المقدمة ص ٨ •

« فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » (١) ، « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (٢) .

فطلب من الناس تفهّم أمر هذه الشريعة ليعرفوا أهدافها ويتوصلوا إلى حكم الله بينهم . :

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » (٣) .

وحول هذه الحرية المتعقلة « يقول الفيلسوف جوستاف لوبون Gustave Le Bon صاحب كتاب حضارة العرب La Civilisation des Arabes ان العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين » (٤) ، وهذا قول له قيمته فهو آت من غير أبناء العربية ، والتعاليم الإسلامية كما جاء بها القرآن — من الآيات التي ذكرت وغيرها — تقدر التفكير الحر المتزن البعيد عن الهوى والزيف ، فالحجة الصحيحة والدليل القوي هو مناط العقيدة والشريعة . يقول تعالى :

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » (٥) . « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (٦) .

وأمام هذه الأضواء التي أنارت طريق العقل لم يتوان المسلمون في إبداء الرأي عند المصلحة . فالرأي كان معمولا به منذ زمن الرسول ، يظهر في رضاه عليه الصلاة والسلام عن معاذ بن جبل عندما قال « أجتهد رأيي » ، بعد النظر في الكتاب والسنة إذا احتكم إليه في أمر من الأمور ، ومعروف كذلك أن الرسول عندما نقل إلى الرفيق الأعلى لم يعيّن من يخلفه حتى يترك الأمر شورى . « روى مسلم في كتاب الصوم عدي بن حاتم لما نزلت :

« حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر »

---

١ — الآيتان ٢٠ ، ٢١ من سورة الغاشية .
٢ — آية ٩٩ سورة يونس .
٣ — آية ٢٤ سورة محمد .
٤ — الامام محمد عبده : الاسلام بين العلم والمدنية ص ١٢٤ تحقيق طاهر الطناحي ط . المجلس الاعلى للشئون الاسلامية . القاهرة ١٩٦٤ .
٥ — آية ٥٣ من سورة فصلت .
٦ — آية ١١١ من سورة البقرة .

قال له عدي : يا رسول الله أني أجعل تحت وسادتي عقالين ، عقالا أبيض وعقالا أسود ، أعرف الليل من النهار ، فقال الرسول : أن وسادك لعريض أنما هو سواد الليل وبياض النهار » (١) . وهكذا أنكر صاحب الرسالة على « عدى » قصور فهمه ، ويؤول عليه الصلاة والسلام كلمة (الخيط) وينقلها إلى سواد الليل وبياض النهار مبيناً قصد الشارع وهدفه في الآية .

وقد نهج صحابة الرسول هذا المنهج « اجتهد الصحابة في زمن الرسول في كثير من الأحكام ، ولم يعنفهم ، كما أمرهم يوم الأحزاب أن يصلوا العصر ، في بني قريظة ، فاجتهد بعضهم وصلاها في الطريق ، وقال لم يرد منا التأخير وإنما أراد سرعة النهوض ، فنظروا إلى المعنى ، واجتهد آخرون وأخروها إلى بني قريظة فصلوها ليلا ، نظروا إلى اللفظ » (٢) .

ويشير العلماء إلى أن فقه عائشة ــ وهي أصل من أصول مدرسة المدينة في عصر الصحابة ــ أنها كانت في منهجها لا تبخس اللفظ دلالته ، تتذوق المعنى وتسبر أغواره ، إذ ترى في ذلك سنة القرآن في مخاطبة العقول ، ودعوته إلى النظر والتدبر .

وهكذا يتضح لنا أن العمل العقلي لم يتخلف عن الحياة الإسلامية منذ بدأت ، وأن الرأي لم يغب عند الحاجة إلى المعرفة ، ولكنه ليس رأي الهوى وإنما الرأي السديد القائم على الأدلة المحقق للمصلحة .

أما في العصر المتأخر فقد اتسع الرأي نتيجة التقدم الزمني والتطور الفكري والثقافي ، واختلاط العرب بالعديد من الأجناس والمذاهب والديانات ، فيشمل الاتساع العقلي كل شيء . وما دام التأويل من دواعي التقدم العقلي فلا ضير أن يشتد ساعده أيضاً مع اشتداد تلك الحركة ، ويستقل بنفسه وتبدو الفروق بينه وبين التفسير .

الفرق بين التفسير والتأويل :

وما أن انقضى عصر الصحابة والتابعين أو ما يسمونه بعصر السلف وهي الفترة التي استغرقت القرون الثلاثة الأولى للهجرة كما أشار بعض العلماء (٣) حتى انتشر التوسع

---

١ ــ صحيح مسلم ٢/١٢٨ ط • صبيح • القاهرة •
٢ ــ ابن القيم : أعلام الموقعين ١/١٧٦ ط • المنيرية • القاهرة •
٣ ــ السيد محمد رشيد رضا : تفسير المنار للامام محمد عبده ٢/١٥٠ •

في استعمال الرأي ، وهنا ظهر موقفان : موقف يتشدد في قبول التفسير ما لم يرد فيه قول النبي أو صحابته ، يظهر ذلك في قول و الشعبي : ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت ، القرآن والروح والرأي ، () وهو اتجاه يمثل الحرج الشديد من استعمال الرأي . وموقف آخر لم يجد بأساً من تفسير القرآن حسب الاجتهاد،وعلى هذا جرى كثير من المفسرين فاجتهدوا وقالوا بآرائهم، وكان أكثر من قام بهذا علماء العراق موطن أصحاب مدرسة الرأي في التشريع .

تغلغل العقل يستنبط من النص ما يتحمله وما لا يتحمله ، كما ظهر كذلك في النقل اختراع في الرواية ، واستفحل أمر الفرق الكلامية يعمدون إلى القرآن ويوجهون نصوصه إلى ما يوافق رأيهم ، ويربطون تفسيره بأغراض مذهبية ، فأصبح الاستنباط عملا تشوبه الريبة ، والنقل يتمتع بشيء من الاطمئنان ، وقد أدى هذا الموقف إلى القول بالفرق بين التفسير والتأويل ، وكان السبب في اصطلاح كثير على التفرقة بين التفسير والتأويل التمييز بين المنقول والمستنبط ، ليحيل على الاعتماد في المنقول وعلى النظر في المستنبط ، (٤)» وتلك دعوة إلى الاعتماد على الأثر الثابت ، والنظر المتأني فيما هو مستنبط .

وقد أورد السيوطي (١) كثيراً من الأقوال التي تفرق بين التأويل والتفسير . فبعد أن رأينا أبا عبيدة (المتوفي ٢١٠هـ) يقول : التفسير والتأويل بمعنى واحد ، نجد أبا منصور الماتريدي (المتوفي ٣٣٣هـ (يقول : التفسير : القطع على أن المراد من اللفظ هذا . . والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون القطع . ويقول ابن الجوزي (المتوفي ٥٩٧هـ) : التفسير : إخراج الشيء من معلوم الخفاء إلى مقام التجلي ، والتأويل : نقل الكلام عن موضعه إلى ما يحتاج في إثباته إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ . والهدف من ذكر تلك التعريفات هو بيان الاتجاه الخاص الذي سلكه التأويل بعد ذلك (أي بعد عصر الصحابة والتابعين) بما يمهد لقيامه ، واتساعه وانتشاره .

ومما سبق نستنتج أن التأويل قد مر بمراحل ثلاث :

المرحلة الأولى : ما عناه القرآن من أن التأويل هو المآل والعاقبة .

المرحلة الثانية : استعماله بمعنى التفسير والتدبر في عهد الصحابة والتابعين .

---

١ ـ تفسير الطبرى : ٢٩/١ .
٢ ـ السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن ١٨٣/٢ ط . الحلبى . القاهرة ١٩٥١ .
٣ ـ السيوطى فى الاتقان ١٧٢/٢ .

المرحلة الثالثة : استعماله المتأخر بالمعنى الاصطلاحي وهو صرف معنى اللفظ عن ظاهره إلى معنى يحتمله ويعضده دليل .

ولعلنا حين نعيد النظر فيما أثبتناه آنفاً (١) من التعريفات الاصطلاحية للتأويل ، نجد أننا نميل إلى تعريف الإمام الغزالي القائل بأن التأويل « عبارة عن احتمال يعضده دليل يصير به أغلب على الظن من المعنى الذي يدل عليه الظاهر ، ويشبه أن يكون كل تأويل صرفاً للفظ عن الحقيقة إلى المجاز» حيث جمع فيه بين ما هو حدسي (عندما أشار إلى غلبة الظن) وما هو عقلي (عندما أشار إلى الدليل) فالتأويل في عمومه غلبة ظن يقويها الدليل ويساندها في الدلالة على المعنى الغالب . وقد أشار إلى هذا أيضاً الغزالي في قانون التأويل ، وتمضي الأيام وينمو التأويل ، وتتسع آفاقه ، وترحب مسالكه ، وتتشعب ، متأثراً بنظريات المعرفة التي شاعت في البيئة الإسلامية والتي اختلفت باختلاف تلك البيئات ، إذ تعتمد المعرفة المتصوفة (مثلا) على الوجد والذوق ، أما الفقهاء فمعرفتهم نقلية ، وعند الفرق تخضع لمعتقدات يتميز بها كل فريق ، وإن كانت المعرفة عندهم وعند الفلاسفة معرفة عقلية .

وسوف أوضح فيما يلي ما تلوّن به التأويل عند تطبيقه ، إذ اختلف هذا التطبيق باختلاف البيئات الفكرية ، فنجد (مثلا) في البيئة التشريعية تشدداً ، وعند الفرق الكلامية ترخصاً . وهناك تأويل فقهي وأصولي وكلامي ونحوي وأدبي . وسوف أتناول كل لون على حدة فيما تبقى من هذا الفصل :

التأويل في البيئة التشريعية :

وفي مجال التشريع الإسلامي قام التأويل بدور كبير الأهمية ، إذ كان الرأي أصلا من الأصول الأولى بعد الكتاب والسنة ، ولا مناص من ذلك فلم تتناول الأصول الثابتة المسائل الجزئية بل تناولت العموميات ، والحياة تسير وتنمو ، وأحداثها تتجدد وتكثر ، والتشريع أن يلاحق هذه الأحداث . وعلى الفقيه أن يستنبط الحكم من الكتاب والسنة « وعمل الفقهاء هو فهم هذين المصدرين العظيمين فهماً دقيقاً واستنباط لأحكام الشرعية منهما ، ويكون جهد الفقهاء فيما لم يجيء فيه نص ثابت واضح » (٢) . وهو عمل دقيق إذ يُجتهد في الكتاب والسنة فهماً ، وفيما ليس فيه نص يُجتهد رأياً .

---

١ ــ الرجوع الى ص ٢٠

٢ ــ د. عبد المحسن عاطف سلام : حيوات العرب ــ دراسة لتاريخ القومية العربية ص ٤٣٩ ط : دار الكتاب العربى . الاسكندرية ١٩٦٨ .

وفي كل هذا كان التأويل هو صلب الرأي ومدار نشاطه العقلي . ولقد مر الرأي بمراحل اختلف فيها مفهومه ومسمياته ، والرأي الذي نقصده هنا هو رأي تأمل الناظر في المسائل المعروضة ، ومحاولة توجيه دلالة النص الديني إلى ما يلائم طبيعة تلك المسائل حتى يتمكن من تقرير الحكم الشرعي السليم ، وكان لا بد من توافر هذه الأمور فيمن يتصدى للإفتاء . « يسأل ابن المبارك متى يسع الرجل أن يفتي ؟ فيقول : إذا كان عالماً بالأثر ، بصيراً بالرأي » (١) ، فالفقيه يرى ، ويكون رأيه عن طريق التأويل سواء قصد إليه أم لم يقصد . مثال ذلك : في قول الله تعالى :

« والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة » (٢) .

يستنبطون منه حرمة لحم الخيل والبغال والحمير وإن كانت الآية لم تذكر نصاً صريحاً في التحريم ، وهذا عمل تأويلي نتج عنه تقرير حكم شرعي من خلال نص ديني . والأمر هنا قائم على الفكر ؛ فكل ما يبدو بين دروب الفكر من تعارض عند الفقهاء راجع في عامة أمره إلى الإختلاف في تأويل النص ، كما حدث في تأويل قول الله تعالى :

« إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع » (٣) .

فمن قائل بإيجاب السعي إلى الصلاة ، ومن قائل ببيان فساد البيع ، وهو اختلاف أورده الشاطبي في الموافقات (٤) .

والتأويل من الوسائل التي يتبعها الفقيه لإيضاح رأيه وبيانه ، ولا غنى عن استعمال الرأي في شتى المذاهب الفقهية ، وأن من الثابت والمعروف أن المدارس الفقهية انقسمت إلى : أنصار رأي ، وأنصار حديث ، وموقف متوسط بين الرأي والحديث للتوفيق بينهما إلا أن هذه المذاهب على اختلافها كانت تستعمل الرأي ولكن بقدر ، فإذا رتبنا هذه المذاهب حسب استعمالها للرأي وجدنا أنها من الكثرة إلى القلة ويكون ترتيبها : الحنفية ، الشافعية ، المالكية ، الحنابلة ، الظاهرية ، وإن كان أصحاب الظاهر والحنابلة

---

١ ـ أبو عمرو بن عبد البر القرطبي : جامع بيان العلم وفضله ١٣٧/٢ ط. القاهـــرة ١٣٢٠ هـ .

٢ ـ آية ٨ سورة النحل .

٣ ـ آية ٩ سورة الجمعة .

٤ ـ الشاطبي : الموافقات ٩٨/٢ .

ينظرون إلى الرأي باعتباره غير ملائم للإيمان المستقر بعد إعماله في الناحية الاعتقادية حينما دخل في نزاع الطوائف والفرق وانعكست عليه ظلال قاتمة .

وقد يكون هؤلاء المنكرون للرأي مضطرين إلى استعماله إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، ولا غنى لأي مذهب فقهي عن استعمال الرأي لموافقته للعمل الفقهي نفسه ، إذ يستدل على ذلك من طبيعة هذا العمل وما يدل عليه اسمه (وهو الفقه) من الفهم والفطنة النافذة ، كما يستدل عليه بمثل ما لاحظه الأستاذ أمين الخولي من التقابل الواضح بين الفقه المتفطن والرأي المستخرج للمعاني (١) .

وعلى هذا فإن التأويل في المجال الفقهي كان أوسع مدى وأرحب مجالا ، فقد عمل على إثراء الفقه بالكثير من الفتاوي والأحكام حتّى وصل بأصحاب الرأي إلى مرحلة كانوا يأتون فيها بالفروض لبعض المسائل ويضعون حلولا لها أو أحكاماً ، فامتلأت كتب الفقه بهذه المجادلات والمناظرات في حرية رأي واتساع فكر ، فالمفتون في كل دور من الأدوار (القراء ، والعلماء ، والفقهاء) لا بد لهم من رأي (٢) . وإن كان النص الديني عندهم ملزماً ، وقاعدة لا يتجافى عنها ، إلا أننا نرى محاولات في صرف الدلالة يمكن أن نصفها بأنها محاولات تأويلية ، ومما يعضد ذلك ما ذكره الجصاص في استنباط كيفية قضاء الصوم من الآية الكريمة :

« فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » (٣) .

يقول : « تدل على جواز قضاء رمضان متفرقاً من ثلاثة أوجه (أحدها) أن قوله تعالى :

« فعدة من أيام أخر »

قد أوجب القضاء في أيام غير معينة ، وذلك يقتضي جواز قضائه متفرقاً إن شاء أو متتابعاً . (ثانيها) ومن اشترط فيه التتابع فقد خالف ظاهر الآية من وجهين : الأول – إيجاب صفة زائدة غير مذكورة في اللفظ ، وغير جائز الزيادة في النص إلا بنص مثله ، ألا ترى أنه لما أطلق الصوم في ثلاثة أيام في الحج ، وسبعة إذا رجع لم يلزمه التتابع إذ هو غير

---

١ ـ الأستاذ أمين الخولي : مالك بن انس ٣/٦٠٨ ، ٦٥٩ ط • دار الكتب الحديثة • القاهرة ١٩٥١ • (بتصرف) •

٢ ـ أمين الخولي : مالك بن انس ٣/٦٣٦ • (بتصرف) •

٣ ـ آية ١٨٤ سورة البقرة .

مذكور فيه . الثاني — تخصيصه القضاء في أيام غير معينة . وغير جائزة تخصيص العموم إلا بدلالة . الثالث — قوله تعالى :

« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

فكل ما كان أيسر عليه فقد اقتضى الظاهر جواز فعله ، وفي إيجاب التتابع نفس اليسر ، وإثبات العسر وذلك منتف بظاهر الآية » (١) .

والعمل التشريعي ليس بالأمر الهين بل هو من أدق الأعمال وأصعبها ، فقد كان لزاماً على الفقيه أن يحاول التوفيق بين النصوص ، وبين المستقر من الأعراف في البيئات المختلفة فهو يحترم النص والعقل والمجتمع حتى لا يحدث تصادم قد ينتج عنه تعطيل هدف من أهداف الشرع .وكان التأويل وسيلة إلى ذلك « ففي كثير من الوقائع اعتبرت المدارس الفقهية مبدأ التأويل التوفيق بين الحياة في نظر الفقه ، والحياة الواقعية الإجتماعية(٢)

ومن هذا تأويل أبي حنيفة في مسألة الإبدال * من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « في أربعين شاة شاه » فقال أبو حنيفة : الشاة غير واجبة ، وإنما الواجب مقدار قيمتها من أي مال كان . . والشافعي ينكر ذلك ، ويقول بوجوب الشاة على التعيين » (٣) . وربما يرجع ذلك إلى أن أبا حنيفة رجل حضري ، وأن التعامل بالقيمة في بيئته أمر يتمشى مع طبيعة أهل الحضر ، فصرف لفظ الشاة إلى مفهوم آخر هو قيمتها .

وإلى جانب مراعاتهم لطبيعة الحياة الإنسانية ، وما تعارف عليه المجتمع كانت مشكلة اللفظ والدلالة من أهم المشاكل التي واجهتهم ، ويشير الراغب * إلى أهمية تلك المعرفة اللفظية عند الفقهاء بخاصة إذ يقول : « ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة ، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه . . وليس

---

١ — ابوبكر الرازى (المعروف بالجصاص) (المتوفى ٣٧٠ هـ) : احكام القرآن ٢٤٤/١ ط • البهية المصرية • القاهرة ١٣٤٧ هـ •

٢ — جولد زيهر : العقيدة والشريعة فى الاسلام ٦٣ تحقيق محمد يوسف موسى وآخرين ط • الكتاب المصرى • القاهرة ١٩٤٦ •

* يعنى : الشيء أو قيمته •

٣ — الغزالى : المستصفى ٣٩٤/١ ط • الاميرية • القاهرة ١٣٢٢ هـ •

* الراغب الاصفهانى : صاحب المفردات •

ذلك نافعاً في علم القرآن فقط بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع . . وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم » (١) .

فلن يتكون لدى الفقيه رأي أو تأويل صحيح ما لم يتوصل إلى دلالة محددة للفظ يمكن من خلالها تحديد الحكم ، ونظرة إلى اختلاف مفهوم لفظ الخمر تبيّن لنا مدى المعاناة في تحديد دلالته ، فقد أورد صاحب كتاب « سبل السلام » في « باب حد الشارب وبيان المسكر » (٢) الخمر : مصدر خمر . . يسمى به الشراب المعتصر من العنب إذا غلى وقذف بالزبد ، وفي حديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى برجل قد شرب الخمر فجلده بجريدتين نحو أربعين جلدة . (وبدأ يورد المسائل التي جاءت في معنى الخمر) ، فالخمر يطلق على ما ذكر حقيقة ، ويطلق على ما هو أعم من ذلك ، وهو ما أسكر من العصير أو من النبيذ أو من غير ذلك ، وإنما اختلف العلماء — هل هذا الإطلاق حقيقة أم لا ؟ . قال صاحب القاموس(٭) : العموم أصح لأنها حرمت وما بالمدينة خمر عنب ، ما كان إلاّ البسر والتمر . . وسميت لأنها تخمر العقل أي تستره . . وقيل لأنها تغطي حتى تشتد ؛ يقال خمره أي غطاه ، وقيل لأنها تخالط العقل : من خامره إذا خالطه . . واختلف أصحابنا في وقوع الخمر على الأنبذة : زعم قوم أن العرب لا تعرف الخمر إلا من العنب ، فيقال لهم : إن الصحابة الذين سموا غير المتخذ من العنب خمراً عرب فصحاء ، فلو لم يكن الاسم صحيحاً لما أطلقوه . . ويقول مذهب الكوفيين إن الخمر لا تكون إلا من العنب ، وما كان من غيره لا يسمى خمراً ، وهو قول مخالف للغة العرب وللسنة الصحيحة ، ولفهم الصحابة لأنهم لما نزل تحريم الخمر فهموا من الأمر باجتناب الخمر « تحريم كل مسكر » ولم يفرقوا بين ما يتخذ من العنب ، وبين ما يتخذ من غيره . . .

فتحديد الدلالة اللفظية هنا يتوقف عليه تقرير الحكم الشرعي مما دعى إلى مثل تلك المعاناة التي لمسناها في المثال السابق حيث أن مفهوم اللفظ يتوقف عليه إقامة الحد .

---

١ — الراغب الاصفهاني : المفردات في غريب القرآن (المقدمة) ص ٣ ط · الحلبي · القاهرة ١٣٢٤ هـ ·

٢ — محمد بن اسماعيل الصنعاني : سبل السلام شرح بلوغ المرام ٣٧/٤ ، ٣٨ ط · صبيح · القاهرة (بتصرف) ·

٭ — أورده في سبل السلام ٨٨/١ ، د· السيد خليل : دراسات في القرآن ، ص ١٢٦ ·

والأسلوب العربي الذي جاءت به لغة النص الديني ، يتميز بالتصرف في فنون القول ، وتكثر فيه الألفاظ التي تحمل أكثر من معنى ، كما حدث أيضاً في موقف آخر بالنسبة لمفهوم لفظ اللمس ، ففي قول الله تعالى « أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً »(١) ، من الفقهاء من حدد معنى اللمس « الاتصال بالمرأة » ، ومنهم من حدده بمعنى « المس » فقط(٢) .

ومثل هذه الأمور تتوقف إلى حد كبير على ضرورة معرفة التحديد الدقيق بين المعاني اللغوية بما يجعل المتناول للنص بعيداً عن التردد ، واضطراب الرأي ، أو الخلط في التأويل .

لقد أدرك الراغب الأصفهاني (٥٠٢ هـ) أهمية تلك المعرفة إذ تناول في مفرداته التحديد الدقيق بين دلالات الألفاظ مما وصل به إلى حد إنكار الترادف . كما نجد الزمخشري (٥٣٨ هـ) في أساس البلاغة يوضح الاستعمالات المختلفة للفظ ، وما يضيفه الاستعمال من دلالة حقيقية أو مجازية ، وتلك جهود استوجبتها طبيعة اللغة العربية التي ورد بها النص الديني .

وإذا رجعنا إلى الزمن السابق عليهما وجدنا أن الشافعي المتوفى (٢٠٤هـ) ــ واضع علم الأصول ــ لم تغب عنه أسباب الاضطراب في فهم النص وتأويله ، فقد أشار إلى ذلك في رسالته ، وأرجعه إلى الإنصراف عن منطق اللغة وهديها ويظهر ذلك في قوله « فإنما يخاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف ما معانيها ، وكان مما تعرف معانيها اتساع لسانها ، وأن فطرته أن يخاطب بالشيء منه عاماً ظاهراً يراد به العام الظاهر .. وعاماً ظاهراً يراد به الخاص ، وظاهراً يعرف في سياقه أنه أراد به غير ظاهره . . وتبتدىء الشيء من كلامها يبين أول لفظها عن آخره ، وتبتدىء الشيء يبين آخر لفظها منه عن أوله »(٣) .

وتلك فقرة تكشف عن طبيعة اللغة ، وما يجب أن يتوافر لدى المشتغلين بالنص الديني من إحساس بها ، ومعرفة بوجوهها ، حتى يتمكنوا من تأويل النص تأويلا صحيحاً يقوم على هذا الفهم .

---

١ ــ الفيروز ابادى ــ صاحب القاموس المحيط .
٢ ــ اية ٤٣ سورة النساء .
٣ ــ محمد بن ادريس الشافعي : الرسالة ص ٥٢ تحقيق احمد شـــاكر ط . الحلبي القاهرة ١٩٤٠ .

ومن خلال قوله الشافعي يتضح لنا أنه يتناول ظاهرة التأويل إلاّ أن فكرة الحد (أي التعريف الاصطلاحي) هي التي تنقصه لأنها ظهرت عند المتأخرين ، ومهما كان من أمر فإن اتجاه الشافعي هذا يشير إلى أصالة العمل التأويلي في البيئة التشريعية .

وعند الأصوليين المتأخرين ظهر التأويل بمعناه الاصطلاحي — كما أشرنا إلى ذلك من قبل — فالبيئة الأصولية ، وما تقوم به من وضع قواعد عامة لاستنباط الأحكام من الأدلة (الكتاب والسنة) تمتاز بالدقة ، ووضع الحدود ، والميل إلى التقسيمات . وهي تستند أساساً إلى الأبحاث المستفيضة في الدلالات اللفظية ، وعلم الشريعة. كل هذا جعلهم يتناولون التأويل في دراسة موضوعية متشددة ، إحساساً منهم بخطر هذه الظاهرة ، وإن كان هذا ديدنهم في تناول الموضوعات .

يقسم الأصوليون التأويل إلى قريب وبعيد ، وإلى مقبول وغير مقبول . كما يشيرون إلى بيان نوعية الدليل الذي يساند التأويل ويعضده (وسيأتي بيان ذلك بالتفصيل في الفصول القادمة) ، وربما يكون هذا التشدد في قبوله والعمل على إحكامه راجعاً إلى إدراكهم بأن العاملين به من حولهم يتخذونه وسيلة للتضليل والزيف ، إذ قام علم الأصول (كعلم له مقوماته) في وقت اشتد فيه ساعد ظاهرة التأويل حتى انحرف طريقها الصحيح لدى الفرق الكلامية ، وقد كان هذا أيضاً مدعاة اهتمامهم بالقول في دليل التأويل — ولا يغيب ذلك عنا — فالأصوليون هم أصحاب الدليل ، الكاشفون عنه ، والباحثون عن ضبط الفكرة وتحديدها .

ولذا نرى مدى الدقة في وضع قواعد لاستعمال التأويل عندهم ، وزيادة في الحيطة والحرص ربطوا دائرة التأويل بما يتفق ومقصد الشارع ، حتى يمكن الوصول إلى الحكم المناسب من سياق النص الديني ..

واستكمالا لجوانب العمل التأويلي قاموا بتحديد مسالكه والمجال الذي يمكن أن تطبق فيه ظاهرة التأويل فأفاضوا في أبحاث المحكم والمتشابه والظاهر والباطن .

والبيئة الأصولية تهدف إلى الاعتدال في استعمال التأويل ، ولا يقبلون التأويلات التي تتصف عندهم بالبعد ، ومما يلحق بهذا النوع من التأويلات البعيدة ، أورد هنا مثالا أتى به الآمدي في « إحكامه » ، ما يقوله أصحاب أبي حنيفة في قوله تعالى « فمن

لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً »(١) ، ومن أن المراد به إطعام طعام ستين مسكيناً ، مصيراً منهم إلى أن المقصود إنما هو دفع الحاجة ، ولا فرق في ذلك بين دفع حاجة بين دفع حاجة ستين مسكيناً ودفع حاجة مسكين واحد في ستين يوماً »(٢) . . وهذا تأويل بعيد لا يميل إليه الأصوليون فما يظهر من الآية إنما هو واضح في وجوب رعاية العدد ، ودفع الحاجة عن ستين مسكيناً . .

ولم تسلم ظاهرة التأويل في بيئة التشريع من المتصدين لها الرادّين الرأي والتأويل إلى أصحابه ، وهؤلاء هم الظاهريون ، شأنها في ذلك شأن كافة العلوم العربية عند تعرضها لهذا الموقف الذي يمثل الأحرار من جانب ويمثل المحافظين من جانب آخر .

ففي اللغة مثلا ، نجد الكوفيين يقفون عند حدود المروي ، إذ يمثلون الاتجاه المحافظ ، أو كما يطلق عليه أصحاب العلوم الدينية المنهج النقلي . أما بيئة البصرة فتمثل الاتجاه الحر ، أو ما يسمى بالمنهج العقلي ، وكذلك في بيئة المفسرين نجد اتجاهاً عقلياً وآخر نقلياً .

وممن اشتهر بهذا الموقف المحافظ في مجال الدراسات الفقهية الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١ هـ) صاحب المذهب الفقهي المعروف ، وكذا ابن حزم الظاهري (٤٥٦ هـ) في مجال الدراسة الأصولية، ومن ثم كان مجال التشريع عند أصحاب هذا الاتجاه أضيق إلى حد ما مما عند غيرهم لأنهم أنكروا منحي من مناحي اتساع هذه الدراسة ونموها وتطورها .

ومع هذا فإنا نرى أصحاب هذه الاتجاهات يستعملون الرأي والتأويل عندما تدعو الضرورة إلى ذلك ، فابن حنبل يلجأ إلى القياس وهو منكر له .

يظهر ذلك فيما أورده الأستاذ عبد الحليم الجندي عندما تناول شخصية ابن حنبل ، إذ يقول : « أباح أحمد بن حنبل أن يقاس الشيء على الشيء إذا كان مثله في كل أحواله ، فأما إذا أشبهه في حال وخالفه في حال فأردت أن تقيس عليه فهذا خطأ »(٣) .

١ ــ آية ٤ سورة المجادلة .
٢ ــ الآمدى : الاحكام في أصول الاحكام ٣٠١/٢ .
٣ ــ الاستاذ عبد الحليم الجندى : احمد بن حنبل امام أهل اللغة ص ٢٦٩ ط . المجلس الأعلى للشئون الاسلامية . القاهرة ١٩٧٠ .

ويتضح من هذه القولة موقف أحمد بن حنبل وتشدده في قبول القياس ، وشدة حرصه في تطبيقه باعتباره نوعاً من أنواع الرأي ، فالمعروف أن القياس أحد أنواع الاجتهاد بالرأي ، والتأويل كذلك مسلك من مسالك الاجتهاد بالرأي .

ومع ذلك نجد ابن حنبل — في بعض الأحيان — يلجأ إلى التأويل مباشرة عندما نجده (مثلا) يؤول « نصوص المعيّة » حتى لا يقع في التجسيد ، كما في قوله تعالى : « وهو معكم أينما كنتم »(١) ؛ فخص ذلك بالعلم ، وهكذا نرى ضرورة التأويل في بعض الأحيان عندما يكون اللفظ الظاهر غير مناسب .

وابن حزم الظاهري(٢) تكلم في القياس في « كتابه الأحكام » إلاّ أنه أدرجه تحت عنوان « الدليل » فراراً من التصريح باسمه ، وإن ذكره فإنما يذكره في معرض الإنكار .

وخلاصة القول : إن التأويل في مجال التشريع الإسلامي قد عمل على اتساع هذه الدراسة وشمولها وفاءً بحاجة الحياة ومصلحة الإنسان بما ساعد به في نحو الدراسات الفقهية واتساعها .

موقف المتكلمين والفلاسفة من التأويل :

وفي خضم الحرية العقلية كان الفكر الإسلامي يقاوم هزات عنيفة أحدثتها الملل والمذاهب التي دخلت المجتمع العربي ، والاتجاهات السياسية والأهواء التي انتشرت فيه ، إما نتيجةً لخلاف أو دفاعاً عن العقيدة الإسلامية ، وإن حدث هذا واشتد في العصر العباسي ، إلاّ أن له أصولا سابقة ربما ترجع إلى حادث انشقاق المسلمين أيام علي بن أبي طالب ، أو قبل ذلك بما يطلقون عليه « عصر الفتنة » .

فالرعيل الأول في الإسلام كان يؤمن بالقدر خيره وشره إيماناً لا يعتوره جدل ، ولكن بعد اتساع رقعة الدولة ، ركن الناس إلى الهدوء النسبي بعد معاركهم العنيفة في سبيل نشر الدين ، فأخذوا ينظرون ويبحثون ، وأول جدل ثار كان حول ألفاظ النصوص الدينية التي تحتمل ما يدل على الجبر ، وما يدل على الاختيار ، وكيف أن الرأي وضده وارد في القرآن ؟ . . كما جاء في قول الله تعالى « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى

---

١ — آيـة ٤ سورة الحديد

٢ — ابن حزم الاندلسي الظاهري : الاحكام في أصول الأحكام ٥/١٠٥ ط . الخانجي القاهرة ١٣٤٧ هـ .

أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم »(١) ، « أفمَن حقَّ عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار »(٢) ، وهي آيات تشعر بالإجبار . كما جاء كذلك « إنا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً »(٣) ، « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »(٤) ، ومفهومها الاختيار .

وحول هذه النصوص وأمثالها كثر الاختلاف ، وسيقت الحجاج ، وتنوعت الاتجاهات ، ودخل الإسلام في دور جدلي ، امتد هذا إلى آيات العقائد والصفات ، وهو أظهر دور عقلي في الحركة العلمية في تاريخ الفكر الإسلامي .

وجدت الفرق الكلامية في ظاهرة التأويل مجالا خصباً يتوفر في المعاني الباطنية للألفاظ ، وهي المعاني التي يبحث التأويل عنها ، وقد مكن لهم هذا الاتجاه نشر تعاليمهم ، وانطلقوا يؤيدون بواسطته مذاهبهم ، إذ كان الجدل والكلام هو سلاحهم في هذا المعترك . وهنا ظهرت حلقة جديدة من التأويل هو التأويل العقدي الخاضع للاتجاهات والمذاهب ، فظهر في ثوب من الخديعة والضلال .

وأغلب الظن أن التأويل كان في نظر تلك الفرق : هو صرف اللفظ عن ظاهر معناه ، ولا أكثر . فبرروا بذلك المعنى الإصطلاحي الذي يشير إلى حرف اللفظ عن معناه إلى المعنى المقصود .

قامت هذه الفرق في أول أمرها تدافع عن العقيدة ، وسلاحها في ذلك هو الكلام الذي ، يقول عنه ابن خلدون « هو علم متضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف ، وأهل السنة ، وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد »(٥) ، وإن كان هذا هو أساس نشأته إلا أن أصحابه في كل خطوة من خطواته يثيرون جدلا يضطرون معه إلى الإتيان بالأدلة العقلية للبرهنة عليه ، حتى شمل هذا الجدل كل ألفاظ النصوص الدينية ، فنقلوا الوضع

---

١ ـ آية ٧ سورة البقرة .
٢ ـ آية ١٩ سورة الزمر .
٣ ـ آية ٣ سورة الانسان .
٤ ـ آية ٢٩ سورة الكهف .
٥ ـ الآية ٥٤ سورة الأعراف .

من الفطرة والعاطفة التي درج عليها السلف إلى دائرة من النظر المنطقي البحت ؛ مما أدى بكثير منهم إلى استعمال التأويل استعمالا سيئاً خرج بالنص الديني عن مقاصده وأهدافه فضلوا وأضلوا .

أما عن علاقة هذه الفرق بالنص الديني ، فيمكن أن نشير إلى أن هناك اتجاهات مذهبية تعلقت بظاهر النص ، فهضم هذا الظاهر حق النص فيما يحمله من وجوه دلالية أخرى ، واتجاهات تعمقت في باطن المعنى ، وحملت اللفظ فوق طاقته . والاتجاهان كلاهما محفوف بالخطر ، فقد وصل الأول إلى حد التشبيه والتجسيم ، ووصل الثاني إلى دواخل في اللفظ لا تتصل به من قريب أو بعيد . وطبيعي أن يحدث موقف ثالث يتوسط بين الظاهر والباطن .

أما من تمسكوا بالظاهرة ، فتختلف مواقفهم أمام النص ، فالسلف (مثلا) وقفوا أمام الظاهرة تأدباً عن الكلام في ذات الله وصفاته ؛ ولكنهم لم يتطرفوا ، وهو اتجاه يمثله الإمام مالك — رضي الله عنه — عندما سئل عن كلمة « الاستواء » في قول الله تعالى « إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش »(٢). فقال : إن معنى الاستواء معروف ، وهو « الاعتدال » ولكن كيفيته بالنسبة لله تعالى مجهولة لدينا ، والكلام عنها بدعة . .

أما الخوارج — في تمسكهم بالظاهر — فقد وصلوا إلى حد إنكار السنة التي تفسر القرآن أو تبين مجمله — إذا خالفت مجرد الظاهر في النص . في تقدير نصاب السرقة ، ورجم الزاني وغير ذلك ، فذهب جميع السلف العمل يقول عنهم ابن تيمية « إلا الخوارج ، فإن من قولهم : وأما ظاهر القرآن إذا خالفه الرسول فلا يعملون إلا بظاهره ، ولهذا كانوا مارقة مرقوا من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية »(٣) .

فالتزم الخوارج بظاهر النص وحرفية الكتاب والسنة ؛ وقد أدى ذلك بهم إلى القول « لو أن رجلا أكل مال اليتيم فله النار لقوله تعالى « « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً » ، ولو قتل اليتيم لم تجب له النار لأن الله لم ينص على ذلك »(٤) .

---

٢ — ابن خلدون : المقدمة ص ٣٩٠ ط ٠ كتاب التحرير ٠ القاهرة ١٩٦٦ ٠

٣ — ابن تيمية : مجموعة الرسائل والمسائل ٥/٢٠ تحقيق السيد محمد رشيد رضا ط ٠ المنار ٠ القاهرة ١٣٤٩ هـ ٠

٤ — أوردها الأستاذ احمد أمين : ضحى الاسلام ٣/٣٢٤ ٠

والتفسير الصحيح للآية — بعيداً عن تأويلات الخوارج — هو « أكل أموال اليتيم بأي وجه من الوجوه بالغش ، والخداع ، أو بقتله ؛ والاستيلاء على ماله . . وهو ما لا يقبله الخوارج لتمسكهم بالحرفية والظاهر دون النظر إلى التأويل الصحيح للآية الكريمة بياناً لهدفها ومقصدها ؛ فيتضح ضلالهم ومروقهم بتلك التأويلات الباطلة عندما يقفون عند ظاهر النص موقفاً انعدمت فيه البصيرة وانحرف القصد .

والمجسمة قد أغرقه في التشبيه إلى حد التجسيم فيما يتعلق بألفاظ صفات الله تعالى ، وهؤلاء أغفلوا ما يمكن أن يؤول به النص ، فشبهوا صفات الله تعالى بالمخلوقات .

ومن الفرق أيضاً من نفي التشبيه ، فوقف أمام الألفاظ التي تحمل صفات الله تعالى يحملونها على المجاز ، ويأولونها لتوافق مذهبهم في التنزيه المطلق وهؤلاء هم المعتزلة ، وقالوا بنفي الجهة لأن إثبات الجهة يوجب إثبات المكان ، وإثبات المكان يوجب إثبات الجسمية ، فكل ما ورد وظاهره يدل على ذلك وجب تأويله ، وقد استعانوا على ذلك بتمكنهم من اللغة ، وكان يطلق على هذا النوع من التأويل عند المعتزلة « التأويل المجازي » إذ وقفوا أمام النصوص التي يدل ظاهرها على التشبيه ، فقالوا في الآية « ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي »(١) . . إنه ممن يتعالى عن الجوارح . وفي هذه الآية وجوه :

أولها : أن يكون جارياً مجرى لما خلقت أنا . وذلك مشهور في لغة العرب . يقول أحدهم : هذا ما كسبت يداك . . ولا يكون للفعل رجوع إلى الجوارح في الحقيقة .

ثانيها : أن يكون معنى اليد النعمة ، ولا إشكال في أن من محتملات لفظة اليد النعمة .

فأما الوجه في تثنيتها ، فقد قيل فيه إن المراد نعمة الدنيا ونعمة الآخرة .

ثالثها : أن يكون معنى اليد هنا القدرة ، وذلك من محتملات اللفظ أيضاً(٢) .

وتلك هي طريقتهم في التأويل ، وقد أورد الشريف المرتضى في أماليه : وهو كثيراً ما يستند فيها إلى تفسيرات الزعيم القديم لمدرسة الاعتزال أبو علي الجبائي : « أنه

---

١ — اية ١٢ سورة الاعزا!

٢ — الشريف ابى القاسم على بن الطاهر (٤٣٦هـ) : امالى الشريف المرتضى ٣٦/٣ ط • الخانجى • القاهرة ١٩٠٧ •

يجب إليه أن يسير على الطريقة اللغوية ، وهذا هو المبدأ الأسمى من أول الأمر في تفسير المعتزلة »(٣) ، وقد فعلوا ذلك في جميع الآيات والأحاديث التي قد يخالف ظاهرها أصول التوحيد ،وقد كان المعتزلة منطقيين مع أنفسهم حيث وجهوا التأويل وما يتفق مع تنزيههم المطلق ، إذ كان الخطب سهلا لو أنهم صرحوا بمقالاتهم في نفي الصفات على أنها رأيهم الخاص ، إلا أنهم قد أعلنوا أن ذلك هو حقيقة الدين وأصوله ، وقد أعطوا للعقل حريته في فهم النص وتأويله كما قرروا أن العقل والوحي من الله فلا يتناقضان ؛ فما يجيء به الوحي فهو معقول وإلا وجب تأويله عقلياً .

ومع هذا فهم يتمسكون بظاهر اللفظ أحياناً ، وذلك إذا خالف تأويله اتجاههم فالمعتزلة يتمسكون بالمعنى اللفظي للآية « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير »(١) الذي يتأوله أهل السنة بقولهم : « لا تدركه الأبصار يعني في الدنيا دون الآخرة . . فهم يرونه »(٢) ، والرؤية أمر دون الإدراك .

ونرى المعتزلة على النقيض من ذلك يفسرون « إلى ربها ناظرة »(٣) فلا يسلمون بمعناها اللفظي ، ويصرفونها إلى المجاز بمعنى منتظرة ، وقد بقيت هذه المسألة من أشهر مسائل الخلاف بين أهل النقل والمعتزلة . والواضح أن الحكم لدى هذه الفرق في تأويل النصوص هو المنهج العقدي لكل فريق ، وإن كان أهل السنة والجماعة أكثر اعتدالا ، وهم أهل الحق والصواب .

والذين تعمقوا باطن اللفظ ، وغالوا فطم الوادي على القرى ، ووصلوا بالتأويل إلى أشكال خرافية .

فمن أقوالهم ما أورده ابن حزم « وقال آخرون منهم : برجعة علي إلى الدنيا ، وامتنعوا من القول بظاهر القرآن ، وقالوا إن لظاهره تأويلات ، ومن هذه التأويلات

---

١ ـ جولد زيهر : مذاهب التفسير الاسلامي ص ١٢٨ تحقيق د. عبد الحليم النجار ط . دار الكتب الحديثة . القاهرة ١٩٥٥ .

٢ ـ آية ١٠٣ سورة الانعام .

٣ ـ عقائد السلف (احمد بن حنبل والبخارى وابن قتيبة) ص ٥٩ تحقيق د. على النشار وآخرين ط . منشاة المعارف . الاسكندرية ١٩٧٠

٤ ـ آية ٢٣ سورة القيامة .

أنهم قالوا : السماء (محمد) ، والأرض (أصحابه) ، (وأن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) أنها (عائشة) ، وقالوا : العدل والإحسان (علي) . . والصلاة هي (دعاء الإمام) ، والزكاة هي (ما يعطي الإمام) ، والحج (القصد إلى الإمام) »(١) .

وواضح عندهم صرف الدلالات إلى ما لا يقبله عقل أو دين أو لغة ، وفيهم يقول ابن تيمية : « وأمثال هذه الخرافات التي تتضمن تارة تفسير اللفظ بما لا يدل عليه بحال ، فإن هذه الألفاظ — السابق ذكرها — لا تدل على هؤلاء الأشخاص كما ذكروا في تارة جعل اللفظ المطلق العام منحصراً في شخص واحد كما في قول الله « إنما وليكم الله والذين آمنوا » أريد بها عليٌّ وحده »(٢) . فعمدوا إلى هذه التأويلات بياناً لفضل عليّ ، وما له من حق إلهي في معتقدهم ، وقد ذهب بهم هذا الاعتقاد ، وتجسيد الجوهر الإلهيّ في أشخاص الأسرة العلوية إلى عقائد وتصورات للألوهية وصلت إلى حد الأساطير . وهذا ضرب من التأويل الباطل لما يتصف به من التعسف الدلالي للألفاظ القرآنية .

وتُشْبِهُهم في ذلك أيضاً جماعة المتصوفة الذين نسبوا الظاهر إلى الباطن كنسبة اللب إلى القشر ، واعتقدوا في حقيقة الباطن وزيف الظاهر ، مما دعاهم إلى التعمق في استنباط الدلالات من الألفاظ والبحث وراء أسرارها « فقد كانت اللغة منذ فجر التاريخ لغة الدين ، وللدين أسرار ينبغي أن تتضمنها اللغة باعتبارها أداة التعبير عن معانيه المختلفة ، وربما كان المتصوفة من أشد الناس تعلقاً بهذه الأسرار ، ورغبة في الوصول إليها ، وصنيعهم في ذلك امتداد لمحاولات مبكرة لتحديد العلاقة بين الأسرار الدينية وبين اللغة »(٣) .

وقد جاء على لسان ابن عربي أحد مفسري الصوفية « إني طالما تعهدت تلاوة القرآن ، وتدبرت معانيه بقوة الإيمان . . تتكشف لي تحت كل آية من المعاني ما يكل

---

١ — ابن حزم الظاهري : الملل والأهواء والنحل ٢/١١٤ ط . الخانجي . القاهرة .

٢ — ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير ص ٢٣ .

٣ — مجلة كلية الآداب — جامعة الاسكندرية العدد الرابع عشر ١٩٦٠ ص ١٨٣ من مقال د . السيد أحمد خليل في التصور اللغوي عند العرب .

بوصفه لساني ، لا القدرة تفي بضبطها وإحصائها ولا القــوة تصبر على نشرها وإنشائها »(١) . إلى هذا الحد سيطرت النزعة الباطنية على التأويل في البيئة الصوفية ، وأن المعاني الظاهرة من الألفاظ هي حُجُب مضطربة ، وأقنعة متناقضة أمامهم ؛ مما جعلهم يبلغون الغاية القصوى في التأويل الباطني ، وهي في هذا يخالفون الشريعة التي لا تغفل السلوك الظاهري .

وقد قام المتصوفة بإقحام آرائهم في القرآن والسنة بطريق التأويل يبررونها من خلال النص الديني ، ونورد هنا تفسيراً صوفياً لآية قرآنية تبين كيفية تعاملهم مع النص القرآني « ففي تفسير قوله تعالى » . . « وانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه . . »(٢) قيل : طعامه التين والعنب ، وشرابه — الخمر واللبن ، فالتين إشارة إلى المدركات الكلية لكونه (لبّاً كلّه) ، وكون الجزئيات فيها بالقوة كالحبات التي في التين ، والعنب إشارة إلى الجزئيات لبقاء اللواحق المادية معها في الإدراك . . ، واللبن إشارة إلى العلم النافع كالشرائع ، والخمر — إشارة إلى العشق والإرادة . . وعلوم المعارف . « لم يتسنه » أي لم يتغير عما كان في الأزل بحسب الفطرة مودّعاً فيك ، فإن العلوم مخزونة في كل نفس »(٣) .

وبالرجوع إلى كتب التفسير نجد أن هذه الآية تتعلق بآية قبلها في الحجاج مع إبراهيم عليه السلام ، وأن الله تعالى هو الذي يحيي ويميت ، فبعد أن أراه الله الحجة الخالصة « فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب »(٤) عند ادّعاء خصم إبراهيم بالمقدرة ، فنبّه العلي القدير بعد ذلك إلى الحجة العامة « أو كالذي مر على قرية ، وهي خاوية على عروشها قال : أنىّ يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ، ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه »(٤) ..

وهكذا نرى إلى أي مدّى كان المتصوفة يرون أن لا أهمية للمعنى الظاهر للألفاظ ، وأن وراء هذا المعنى الحرفي حقائق عميقة وأسرار بعيدة .

---

١ — محي الدين بن عربي : تفسير القرآن (المقدمة ص٤ ط - المكتبة العصرية ، بيروت ١٩٧٣ .

٢ — الآية ٢٥٩ سورة البقرة .

٣ — نفس المرجع (تفسير سورة البقرة) ١٤٧/١ .

٤ — الآية ٢٥٨ سورة البقرة .

وليست الألفاظ عندهم إلاّ رموزاً وإشارات تحمل دلالات خاصة لا يعرفها سواهم أقصد لا يدركها سواهم ، وقد أدّى بهم هذا الاعتقاد إلى تعدي الحدود اللفظية للكلمات .

وبعد أن تعرفنا على جانب من الجوانب الصوفية عند تناولهم للنص ، يمكننا أن نقول إن التأويل عندهم ليس صرفاً لظاهر اللفظ إلى معانٍ غيبية وحسب ولكنْ إلى أفهام باطنية كذلك ؛ يجدونها عند تلاوتهم للنصوص القرآنية (وهو ما يسمى بالمواجيد الصوفية) ، وهي غير خاضعة للإطار اللغوي العام في ربط الدلالة بالكلمة .

بقي عندنا الفريق الجامع بين ظاهر اللفظ وباطنه ، وعدم تعارض العقل مع الشرع ؛ فيصرفون ظاهر الألفاظ الشرعية إلى ما يتفق والعقل في حالة التعارض، ويقول الغزالي « وهؤلاء هم الفرقة المحقة » (٢) ، وهذا هو التأويل الفلسفي أي المستعمل في بيئة الفلاسفة ، كما أن البيئة التشريعية تنهج نفس الطريق مع بعض شروط أخرى . ويصف الغزالي هذا المسلك بالوعورة والدقة وهو إحساس راجع إلى أنه هو نفسه قد باشر هذا العمل (الفلسفة والتشريع) .

والتأويل عند الفرق الإسلامية بحث مستفيض ، إلاّ أنني حاولت قدر استطاعتي أن أبرز الجوانب التي تمثل موقفهم من التأويل وإعمالهم له بما يوضح لنا أنهم يقومون بتوجيه الدلالة طبقاً لاتجاهاتهم الخاصة ، مذهبية كانت أم سياسية ، على نحو كان يعاني منه اللفظ والمعنى معاً مما أدى إلى إذكاء حركة الوضع واختلاق البدع والأباطيل .

وسلطوا عقولهم على النصوص وجرؤوا على ما لم يجرؤ عليه غيرهم فإذا ما أدّاهم النظر إلى رأي وظهرت أمامهم آيات تخالف هذا الرأي أوّلوها بما يوافقهم .

ولم يقصروا التأويل على ما يقبل التأويل من النصوص — وهو المتشابه — فحسب ، وإنما ذهبوا إلى المحكم من النصوص وأوّلوه ما دام يخالف مذهبهم ، أو يوافق مذهباً آخر . وهذا الاتجاه في التأويل هو الذي أضاف ظلالاً من التضليل بحيث أصبح النظر نظراً تحوطه الشكوك فلا بد أن يؤخذ بحرص ، وحذر إذا ما أريد توجيهه توجيهاً سليماً ،

---

١ — يرجع الى تفسير المنار ٤١/٣ .

٢ — الغزالى : قانون التأويل ص ٨ تحقيق محمد زاهد الكوثرى ط . الانوار . القاهـــرة ١٩٤٠ .

وقد ردّ ابن تيمية هذا النوع من التأويل في قوله « والتأويل المردود هو صرف الكلام عن ظاهره إلى ما يخالف ظاهره » (١) ، وهذا هو التأويل الذي استعملته الفرق الكلامية المتطرفة ، وهو نوع من التأويل يخالف الدلالات المقصودة .

فالمفهوم من تعريف ابن تيمية ؛ أن التأويل الصحيح هو صرف الكلام عن الظاهر إلى ما يوافق القصد ، كما أنه لا يستعمل إلاّ إذا دعت الحاجة إليه .

- أما موقف فلاسفة الإسلام من التأويل ، هو موقف يتمثل في قول ابن رشد « ونحن نقطع قطعاً أن كل ما أدّى إليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي » (٢) .

فظاهرة التأويل في البيئة الفلسفية وسيلة تمكنهم من إبعاد التعارض والتناقض الذي يبدو بين ظواهر النصوص وبين الحقائق اليقينية التي تأتي ثمرة البرهان العقلي . فكانوا يرون أن ظاهرة التأويل لا تستعمل إلاّ عندما يخالف ظاهر الشريعة العقل ؛ فيوجهون النص مستخدمين في ذلك التأويل ليتفق مع العقل . أما إذا كان النص ظاهراً في معناه واضحاً في مقصوده لا يتعارض مع العقل فلا تأويل عندهم .

كما نجد أنهم يشترطون في التأويل موافقة الأسلوب العربي ، والتناسق مع أوجهه المختلفة ، ولذا فإننا نلاحظ ربطهم التأويل بالمجاز في تعاريفهم (٣) . كما يظهر عند الغزالي ، وابن رشد، ففي صرف اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز يجعله دائماً مرتبطاً بقرينة تبرره كما هو معروف في درس المجاز ؛ وأن هذا الربط يمثل العلاقة بين اللفظ الأصلي والمعنى المؤول إليه .

ومن خلال موقف الفلاسفة من التأويل ندرك ميلهم إلى التأويل الموافق للغة وأنهم يريدون فيه أبحاثهم على أسس لغوية ، وفي ربطه بالموافقة العقلية يجعل التأويل الفلسفي يقينياً ، أما في مجال الكلام فهو جدلي .

وقد عارض الفلاسفة نشر التأويل العامة ، كما أشار ابن رشد إلى أن التأويل يختص به

---

١ ـ ابن تيمية : الاكليل فى المتشابه والتأويل ص ٣٢ .

٢ ـ ابن رشد : فصل المقال ص ١٦ تحقيق محمد عماره ط . دار المعارف . القاهـــــرة .

٣ ـ انظر البحث ص ٢٠ ، ٢١ .

العلماء وأنه يحتاج إلى مقدرة خاصة وثقافات معينة تمكن من إدراكه ، ومعرفة أبعاده ، وأن إطلاقه للعامة كان من بين الأسباب التي أدّت إلى الإساءة إليه ، والخطأ في استعماله . فكانت نظرة الفلاسفة للتأويل نظرة مملوءة بالحكمة ، فقد كانوا يتناولون تأويلات الفرق التي حادت عن الطريق القويم محاولين تصحيحها ؛ يقول ابن رشد « ومن قِبَلِ التأويل .. نشأت فرق الإسلام حتى كفّر بعضهم بعضا ، وبدّع بعضهم بعضا » (١) ، فكان الفلاسفة يقومون بجمع وجهات النظر التي أدلت بها الفرق ؛ موضحين مواطن الزلل فيها ليصححوا اتجاهها ، فموقفهم كموقف قاضٍ عادل ، وموقف المتكلمين كموقف محام يتولى الدفاع ، وهذا وصف أطلقه عليهم الأستاذ أحمد أمين في كتابه « ضحى الإسلام » . (٢)

النحــاة والتأويــل :

كان للتأويل دور كبير في النحو العربي ، وليس هنا مكان دراسته دراسةً مستفيضة ولكن المقصود هو لمحة موجزة عن ظاهرة التأويل في تلك البيئة ، وما دعانا لهذا إلاّ أن البحث يتناول ظاهرة التأويل بعامة .

لم يكن التأويل في البيئة النحوية كما عهدناه من قبل : « صرف اللفظ عن معناه الظاهر » عند البيئات الأخرى من فلاسفة ومتكلمين ، ومشرّعين ، ومفسرين ، وفي هذه البيئات يعتمد متفهمو النصوص — على التأويل — إدراك المقاصد . وإن كان في البيئة النحوية يُعنى بحمل الظواهر اللغوية على غير الظاهر للتوفيق بين أساليب اللغة وقواعد النحو ، ونجد هنا عاملا مساعداً يمهّد الطريق للتأويل وهو « التقدير » الذي يتميّز به الدرس النحوي فقد أحدث التأويل بتقدير العامل (مثلا) تخريجات كثيرة القواعد النحوية ، وخلافات متنوعة ، يشير إليها ابن خلدون في قوله « طال الكلام في هذه الصناعة ، وحدث الخلاف بين أهلها في الكوفة والبصرة — وكثرت الأدلة والحجاج بينهم — وكثر الخلاف في إعراب كثيرٍ من آي القرآن باختلافهم في تلك القواعد » (٣) .

---

١ — ابن رشد : فصل المقال ص ٦٢ .
٢ — أحمد أمين : ضحى الاسلام ١٨/٣ .
٣ — ابن خلدون : المقدمة ص ٤٨٥ .

فانقسام النحو إلى مدرستين بصرية وكوفية يشير إلى اختلاف منهجيهما . فالبصريون – لتميُّزهم بالمنهج العقلي – وضعوا قواعد يحتكمون إليها ، ولم يدّخروا وسعاً في تطويع ما خرج على أحكامهم لمنطق القاعدة متكلفين في هذا السبيل مُختلَف وسائل التأويل . أما الكوفيون فإنهم يمثلون الاتجاه الظاهري إذْ يحتكمون إلى السماع ، ويقفون عند حدود المرويّ . والسماع يقبل ما هو مسموعٌ لا يتأوّله ، ولا يقول بشذوذه ، ومع هذا فقد وضعوا قاعدةً لكل شاهد فتضخمت القواعد النحوية وتعددت الشواهد .

وهكذا تنشأ عناصر الصعوبة والتعقيد في مجال النحو العربي ؛ وقد عمل التقدير والتأويل على زيادتها .

ويورد الأستاذ أحمد أمين (١) حكاية عن الكسائي ، الهدف منها بيان استعمال التأويل بكثرة في البيئة النحوية . والكسائي (المتوفي ١٨٩هـ) من علماء النحو نشأ في الكوفة ، وتعلم بها ، وذهب إلى البصرة ، وأخذ من الخليل بن أحمد :

« وقد هجّنه البصريون (أي قبّحوه وأعابوا كلامه) ، وقالوا إنه أخذ نحوه من البصريين ، ثم سار إلى بغداد فلقي أعراب الحطمية (اسم قرية) فأخذ عنهم الفساد من الخطأ واللحن ، فأفسد بذلك ما كان أخذه بالبصرة كله . وقالوا أن الكسائي كان يسمع الشاذ الذي لا يجوز من الخطأ واللحن ، وشِعْر غير أهل الفصاحة والضرورات ، فيجعل ذلك أصلا ويقيس عليه حتى أفسد النحو . ويظهر أنه كان كثير القياس كثير التأويل ، فكثيراً ما يجيز الجر ، والرفع ، والنصب ، والفتح ، والضم ، والكسر على تأويل بعيد » .

ويتضح من هذا القول مدى الخلط والشذوذ في الدرس النحوي ، وتَمَحُّل التأويلات من قرب ومن بعد .

وقد قالوا أيضاً : « إن تضمّنت الحال معنى الشرط صح تعريفها وإلاّ فلا ، فمثال ما تضمّن معنى الشرط « زيد الراكب أحسن منه الماشي » ، « فالراكب والماشي » حالان ، وصح تعريفهما لتأوُّلهما بالشرط ، إذ التقدير « زيد إذا ركب أحسنَ منه إذا

---

١ – الأستاذ أحمد أمين : ضحى الاسلام ٣٠٦/٢ .

مشى » ، فإن لم يتقدر بالشرط لم يصح تعريفها . فلا تقول « جاء زيد الراكب » ، إذ لا يصح » « جاء زيد أن ركب » (١) .

فالتأويل بتقدير الشرط هنا جوّز تعريف الحال .

وإذا كان هذا شأن مدرسة الكوفة ، فإننا نجد مدرسة البصرة تلتزم بمنطق العامل ، وهو الذي يؤدي إلى التقدير حتى يستوي الحكم على الظواهر اللغوية ، إذ تكونت لديهم قواعد نتيجة استقراء ما بين أيديهم من التراث . كانوا يخرّجون الشواهد ويُخضعونها التأويل حتى تتفق مع قواعدهم .

مثال ذلك : « إذا وجد الإسم ، والفعل على هذه الهيئة (زيداً ضربته) . . اختلف النحويون في ناصبه فذهب الجمهور (يمثل البصريين) إلى أن « ناصبه فعل مضمر وجوباً » . . موافقاً للمعنى لذلك المظهر ، وهذا يشمل ما وافق لفظاً ومعنى . والتقدير « ضربت زيدا ضربته » . . والمذهب الثاني أن منصوب الفعل المذكور بعده ، وهو مذهب كوفي » (٢) .

فلجأ البصريون إلى طريق التأويل ، بتقدير عامل يعمل النصب في الإسم (زيداً) المتقدم في الجملة ، أما المذهب الكوفي فأبقى الجملة كما هي دون تقدير العامل في نصب الإسم ، وإنما نصبه الفعل المذكور بعده . والكوفيون ينظرون إلى الاستعمال الوارد عن العرب وهو مذهبهم .

وما أحدثته فكرة العامل ، وتقديره عن طريق التأويل في النحو من اتساع ، وشذوذ ، وخلافات ، جعلت العلماء ما بين مؤيد ، ومعارض في القديم والحديث .

فابن مضاء (أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مضاء) من علماء الأندلس الموالين للمذهب الظاهري ، ضاق ببعض أنواع التقدير والتأويل في النحو فيقول رأيه في باب الاشتغال « وإن كان العائد على الإسم المقدم قبل الفعل ضمير رفع فإن الإسم يرتفع كما أن ضميره في موضع رفع . ولا يضمر رافع كما لا يضمر ناصب ، إنما يرفعه المتكلم ، وينصبه إتباعا لكلام العرب . كقولنا (أزيد قام) ، وقول الله تعالى «

---

١ ـ محمد محيى الدين : شرح ابن عقيل ٥٣٣/١ .

٢ ـ محمد محيى الدين : شرح ابن عقيل (٧٦٩ هـ) ٤٣٩/١ ط . التجارية . القاهـــرة .

« قل الله أذن لكم أم على الله تفترون »

وقولنا إنه تارة منصوب على أنه غير مبتدأ ، وتارة مرفوع على أنه مبتدأ فلا منفعة في ذلك » (١).

وهو ينكر هنا الإضمار ، والتقدير اللذين فرضتهما فكرة العامل ، وقد انبرى أحد العلماء المحدثين وهو الأستاذ علي النجدي مدافعاً عن فكرة التأويل في اللغة بصفة عامة والنحو بصفة خاصة ، وأن النحاة لم يصطنعوا التأويل ولم يتكلفوه ، وإنما اعتمدوا على مبادئ سليمة في قياس النظير على النظير والاستدلال بالحاضر على الغائب ؛ تهديهم رواية واسعة وملاحظة بارعة ، وحس لغوي غير مدخول ، إذ يقول :

« لقد قالوا إن المشغول عنه في أساليب الاشتغال ينصب بعامل محذوف يفسره العامل المذكور . ففي مثل قول ابن الأسود :

أميران كان صاحبي كلاهما . فكلاً جزاه الله عني بما فعل

يجعلون تقدير الكلام : فجزى الله كلاً . جزاه الله عني بما فعل ، وهو كما ترى يشبه التفصيل بعد الإجمال ، فجملة « جزى الله كلاً (المقدرة) » تعد مجملة إذا قرنت إلى جملة « جزاه الله عني بما فعل » ، ونظيره في ذلك قول الله تعالى :

« لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات والأرض » . .

فتقدير الناصب المحذوف ضرورة لا مفر منها ، تقتضيها طبيعة اللغة على الأقل في بعض أساليب الاشتغال ، وتأبى أن يكون الإسم السابق وضميره منصوبين بالفعل المذكور (إذ لا بد من تقدير فعل يعمل النصب) . . وإذا صح في نحو والسماء رفعها » دعوى أن تكون السماء وضميرها منصوبين بالفعل (رفع) ، فإنها لا تصح في نحو آية :

« وكلاً ضربنا له الأمثال »

---

١ ــ ابن مضاء القرطبي : كتاب الرد على النحاة ص ١٢١ ــ تحقيق د شوقي ضيف ــ القاهرة ١٩٤٧ .

إذ لا يصح هنا أن يسلط (ضرب) على (كلا) لأن المعنى يأباه . . فلم يبق إلا أن يكون ناصب (كلاً) فعلا محذوفاً قبلها ، وإذاً يكون تأويل الآية : وحذّرنا ، أو أنذرنا ، أو وعظنا كلاً ضربنا له الأمثال ، فلا بد من تقدير العامل » . (١)

والملاحظ هنا أن قصرنا الأمثلة على باب الاشتغال حتى يتضح وجه المقارنة في تقدير العامل ، فرأي مدرستي النحو (البصرية والكوفية) أن الأولى تذهب إلى تقدير العامل ، والثانية لا تقدّر . ورأيُ ابن مضاء أنه لا داعي للتقدير مطلقاً ، ورأى الأستاذ علي النجدي ضرورة التقدير ، فقد تفرضها بعض الأساليب ، وربما يمكن الاستغناء عنها في بعض آخر . وهذا رأي مقبول .

ومن ثم يمكن القول بأن التأويل بالتقدير ، ضرورة يحتاج إليها علم النحو في بعض أبوابه ، وقد يكون ذلك مفيداً كما هو الحال في مثل : (لعلّي أبلغ الأسباب . . بضرورة تقدير العامل لفائدة التفصيل بعد الإجمال) . فالتأويل في درس النحو يستلزم التقدير ، ويعوّل عليه أكثر الأحوال ، فقد لا يتم المعنى ، ولا تتضح إشاراته إلا بذكر المحذوف ، ورد الأسلوب إلى نظمه ، ولن يحدث هذا إلا عن طريق التقدير .

وربما لا يُحتاج إلى التأويل في أبواب أخرى يكون فيها مؤدياً إلى غموض قد يضر أكثر مما ينفع .

وقد يفيد التأويل في النحو عند بعض الضرورات الشعرية ، مثال ذلك :

يجوز للشاعر رفع الإسم بتأويل معنى في الكلام كقولهم :

لِيُبْكَ يزيد ضارع لخصومة ... ومختبط مما تطيح الطوائح

(والبيت من شواهد سيبويه على أن الفعل المسند إلى « ضارع » حُذف جوازاً ، أي : يبكيه ضارع . وهذا على رواية (ليبك) بالبناء للمفعول و (يزيد) نائب فاعل ، وإما على روايته بالبناء للفاعل ففاعله (ضارع) و (يزيدُ) مفعوله ، ولا حذف ولا شاهد) .

---

١ ـ على النجدى ناصف : من قضايا اللغة والنحو ص ٩٠ وما بعدها ط . القاهـــرة ١٩٥٧ .

فرَفَعَ (الشاعر) يزيد ، لأنه اسمُ ما لم يسم فاعله (نائب فاعل) ورَفَع « ضارع » « ومختبط » بالمعنى ، لأنه لما قال : ليبك . علم أن له باكياً ، فكأنه قال : يبكيه « ضارع » لخصومة « ومختبط » . وقد زعم قوم أن هذا جائز في الكلام ، وأن منه قوله جل وعز :

« وكذلك زُين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم » (١) .

ولقد أدّى اتساع دائرةُ التأويل في النحو العربي ، ونظرية تقدير العامل فيه إلى توليد كثير من القواعد عند الكوفيين ، وتأويل النصوص لتوافق القاعدة عند البصريين ، كما سبق أن قلنا .

وقد التقت المدرستان في مدرسة واحدة بعد ذلك هي : « مدرسة بغداد » في أواخر القرن الثالث الهجري تقريباً ، وكان لقاؤهما على ثروة هائلة من الشواهد ، والقواعد النحوية ، كان للتأويل فيها باع طويل ، وقام النحاة المتأخرون بعد ذلك بضبطها وتأصيلها .

التأويـــل الأدبـــي :

لم تكن الدراسة الأدبية بعد نزول القرآن بمعزل عن مجال دراسة النص الديني ، فقد لا تخلو كتب هذه الدراسة من الشواهد الأدبية للاستعانة بها في الفهم والترجيح ، كما أن النص الديني — في حد ذاته — يتميز بخصائص أدبية وفنية ، أثارت بواعث المتذوّقين إلى الكشف عن هذه الخصائص ، فشرعوا يدرسونها إذ تمثلت لهم في إعجاز هذا النص .

فالقرآن وهو قمة النصوص الدينية يحفل بأسرار ، وإشارات في مذاهب التعبير من إيجاز وإطناب ، وعذوبة واتساق ، كما ينطوي على ضرب الدلالات المختلفة ، منها ما يعرف من قرب ، ومنها ما هو في حاجة إلى نظر وفكر .

ويشير أستاذنا الدكتور السيد خليل إلى أن هذه الخصائص الفنية الرفيعة دعت إلى لون آخر من ألوان التذوّق لم يظهر ظهورًا بيّناً إلاّ بعد أن استقرت الدراسات الأدبية منذ أواخر القرن الثالث الهجري .. هذا اللون من التذوق هو ما نسميه بالتأويل الأدبي » (٢).

---

١ — أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي : ضرائر الشعر «كتاب ما يجوز للشاعر فى الضرورة» ص ١٨٨ تحقيق : د. محمد زغلول سلام ، د. محمد مصطفى هدارة . ط . الاسكندرية ١٩٧٣ .

٢ — د. السيد خليل : نشأة التفسير ص ٦٧ .

ومن خلال دراسة تطبيق ظاهرة التأويل في مختلف البيئات التي ذكرناها ، نحس أن هناك قرباً بين ما تهدف إليه تلك الظاهرة وبين الدرس الأدبي بعامة ؛ فظاهرة التأويل تكشف عن المعنى الثاني أو الدلالة المجازية للكلمات ، وهذا أحفل بعناية الأديب وتقديره ، كما أنها ، أي ظاهرة التأويل ، تتعلق بالأسلوب لا بالمفردات للتوصل إلى قصد السياق ، وكذلك الفصاحة والبلاغة في الدرس الأدبي ليست إلاّ أوصافاً للمضمون .

يقول في ذلك أستاذنا الدكتور عبد المحسن سلام « ولقد اعتبرت البلاغة في القول الوصول إلى كُنْه ما في القلب أو التعبير الصحيح عن الذات . وقد نبه علماء البلاغة إلى أهمية المدركات والمعاني وأعطوْها الأهمية الأولى » . (١)

وإلى أكثر من هذا يشير الجرجاني تحت فصل « في اللفظ يطلق والمراد به غير ظاهره » — أن لهذا الضرب اتساعاً وتفنُّناً لا إلى غاية إلاّ أنه على اتساعه يدور في الأمر الأعم على شيئين : الكناية والمجاز (٢) .

وإن كان يدرج تحت هذا الفصل أنواع من البيان ، إلاّ أن هذا العنوان يصلح أن يدرج تحته تعريف لظاهرة التأويل ، مما يؤكد ارتباط تلك الظاهرة بالدرس الأدبي ارتباطاً وثيقاً .

فإذا ورد في أسلوب بلاغي — والبلاغة قوام الأسلوب الأدبي — « هذه المرأة نؤوم الضحى » ، يمكن لنا أن نتوصل عن طريق الكناية إلى ما تشير إليه هذه العبارة ، وهو « أنها امرأة مترفة مخدومة » ، والتأويل يقوم بمثل هذا العمل في صرف ألفاظ العبارة الأولى عن معناها الظاهر إلى المعنى المقصود .

وواضح أن هدف الكناية هو نفس هدف التأويل . فكلاهما يؤتى فيه بألفاظ لا يراد ظاهرها .

وهنا يتدخل التذوق في معرفة المراد من تلك الأساليب . وكلمة تذوق هنا توافق البيئة الأدبية إذا ما أطلقنا على التأويل الأدبي تذوقا .

---

١ — د. عبد المحسن عاطف سلام : حيوات العرب ص ٥٥٤ .

٢ — الامام عبد القاهر الجرجانى : دلائل الاعجاز فى علم المعانى ص ٥٣ تصحيح الامام محمد عبده ، السيد محمد رشيد رضا ط . المنار . القاهرة ١٣٦٦هـ .

ففي المجال الأدبي يمكن التوصل إلى المعنى المقصود في المجازات بالتذوق الكامل للأسلوب . فقوام هذا التذوق يستمد من اللغة نفسها ، وما قام حولها من أبحاث تتصل بالجملة من حيث اللفظ المفرد ، وأحكامه الإعرابية ، وكذلك الإسناد ووجوه البلاغة فيه . « ولا معنًى التأويل الأدبي كثيراً بأمثال المناقشات الدينية إلا حيث تدعو الضرورة عند تناول آيات العقائد — مثلا — على أن تناوله إياها بعيد عما نعهده في الأبحاث الدينية من الجفاف والصلابة والتأثر بالفلسفة » (١) .

وساعد هذا النوع من التأويل على قيام علوم حول القرآن تمثل نوعاً من التذوق للنص الديني ، وهذه العلوم — على سبيل المثال لا الحصر — هي :

— علم معرفة إعجاز القرآن ، وصنف فيه كثيرون منهم : الخطابي ، والرماني ، والجرجاني وغيرهم .

— علم معرفة أقسام القرآن * ، صنف فيه ابن القيم كتاب « البيان » .

— علم معرفة أمثال القرآن ، صنف فيه أبو الحسن الماوردي « وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر ، وعلى المدح والذم ، وعلى الثواب والعقاب » .

— علم معرفة الإيجاز والإطناب .

— علم بدائع القرآن ، ويشمل أنواع البلاغة التي جاءت بها الآيات (٢) .

ويشير الراغب إلى التأويل الأدبي في معرض كلامه عن التأويل المستكره « وهو ما يستعان فيه باستعارات واشتقاقات بعيدة ، كما قيل . . في « الهدهد » إنه إنسان موصوف بجودة البحث والتنقير مما يروج (يختلط) على الأديب الذي لم يتهذب بشرائط الاستعارات والاشتقاقات » . (٣)

ومفهوم قولة الراغب ، أن التمرس بالدرس الأدبي ، وإدراك الأساليب البلاغية ، يعين كثيراً على تذوق النص الديني ، ويساعد في فهم النص وتأويله بما يوافق مقتضاه .

* — د. السيد أحمد خليل : نشأة التفسير ص ٦٩ .
١ — جمع قسم بمعنى الحلف .
٢ — أوردها — طاش كبرى زادة : مفتاح السعادة ٢/٣٦٩ ، ٥٢٥ ، ٥٤٠ ، ٥٣٨ ، ٤٥٨ ، ٤٩٤ .
٣ — الراغب الاصفهاني : مقدمة التفسير ص ٤٠٣ .

وقد ذكر الجرجاني ما يتعلق بمؤول النص الديني من معرفة الأسلوب ومقاصده وتذوق إيحاءاته ومراميه ، ليتجنب الوقوع في فاسد التأويل أو باطله .

يقول : « لا بد لكل كلام تستحسنه ، ولفظ تستجيده من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة ، وعلة معقولة ، وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذلك سبيل ، وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل وهو باب من العلم إذا أنت فتحته ، اطلعت منه على فوائد جليلة ، ومعان شريفة ، ورأيت له أثراً في الدين عظيماً ، وفائدة جسيمة ، ووجدته سبباً إلى حسم كثير من الفساد فيما « يعود إلى التنزيل ، واصلاح أنواع من الخلل فيما يتعلق بالتأويل » . (١)

ومثال ذلك : أن من نظر في قوله تعالى :

« قل ادعو الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعو فله الأسماء الحسنى » (٢) .

ثم لم يعلم أن ليس للمعنى في « ادعوا » الدعاء (فهو من صيغ الأمر المنصرفة إلى معنى الدعاء) . وإنما يعلم أن معناها الذكر بالإسم ، وأن في الكلام محذوفاً ، والتقدير : قل ادعوه الله أو ادعوه الرحمن أياما تدعو فله الأسماء الحسنى .

يقول الجرجاني — في هذا المقام — « كان يعرض أن يقع في الشرك من حيث أنه إن أجرى في خاطره أن الكلام على ظاهره خرج ذلك به إلى إثبات مدعوين — تعالى الله أن يكون له شريك » (٣) .

أما التأويل عند ابن الأثير (وهو من كبار أدباء العرب) كما ساقه في كتابه « المثل السائر » قد فصل فيه القول ، ولكنه يذهب في ذلك مذهب علماء الدين ، وربما يرجع ذلك إلى ثقافته الدينية الواسعة .

وقد أدخل التأويل مع أقسام المعنى عند قوله « ولا يخلو تأويل المعنى من ثلاثة أقسام »(٤)

١ — عبد القاهر الجرجاني : دلائل الاعجاز ص ٣٣ ، ٣٤ .
٢ — اية ١١٠ سورة الاسراء .
٣ — عبد القاهر الجرجاني : دلائل الاعجاز ص ٢٨٧ .
٤ — ضياء الدين بن الأثير : المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر ١/٦٦ ، تحقيق د. الحوفي ، د. طبانة ط . نهضة مصر : القاهرة ١٩٥٩

ثم يقوم بتعريف التأويل ، ويفرق بينه وبين التفسير على طريقة المشتغلين بالنص الديني .

ونلحظ تعرّضه التأويل على أنه أدق قسم من أقسام المعنى لاتصاله بالمعاني الباطنية . ثم يعدّد بعض الأمثلة من أدبية ودينية ويطبق عليها التأويل .

وإن كان التأويل الأدبي ، لم يخرج في مفهومه عن الإطار العام للتأويل من صرف اللفظ عن ظاهره للتعرف على ما وراء هذا الظاهر ، إلاّ أنه في حاجة إلى تذوق ، خاصة وأن الأسلوب قد يكون مليئاً بألوان من التشبيه والتمثيل والإشارات ، والتلميحات التي هي رموز تحمل وراءها معاني أخرى .

ومن ذلك ما ذكره الجاحظ في مقدمة كتابه الحيوان . عن موقف « هند بنت أسماء ابن خارجة » من الحجّاج ، حين لحنت في كلامها ، فعاب ذلك عليها فاحتجت ببيت أخيها :

وحديث ألـــذه هـــو ممـــا ينعت الناعتون يـــوزن وزنـــا

منطق صائب وتلحن أحيـــا نا وأحلى الحديث ما كان لحنـــا

فقال لها : إن أخاك أراد أن المرأة فطنة ، فهي تلحن بالكلام إلى غير المعنى في الظاهر لتستر معناه ، وتُورى عنه ، وتفهمه من أرادت بالتعريض .

كما قال الله تعالى :

« ولتعرفنّهم في لحن القول » .

وهكذا نرى كلمة « لحن » قد تدل على الخطأ ، وقد تستملح من صغار النساء ، وقد تأتي أيضاً دالة على صرف الكلام إلى غير وجهه الظاهر .

الموضوع العاشر

مجالات التأويل

- مجال التأويل .
- المحكم والمتشابه في النص الديني .
- ما يحتمل أكثر من معنى في اللغة .
- أهمية الدليل .
- نماذج لبعض التأويلات من الناحية اللغوية .
- موقف اللغة .

مجــال التأويــل :

تتميز اللغة العربية بأساليبها المتنوعة ، ومن هذه الأساليب ما هو واضح المعنى ، سهل المنال ، تتساوى فيه الأفهام . ومنها ما يراد به غير ظاهره ، ويحتاج إلى نظرة وروية ، فمع الحاجة تقع الفكرة .

وعلى تلك الأساليب يجري النص الديني ، فهو يحاكي اللسان العربي بكل ما فيه من فنون القول .

وأما موقف المغرضين ، والمحرفين للنصوص الدينية فيختلف ، إذ تصبح كل الأساليب أمامهم في حاجة إلى فهم عميق ونظر صادق ، وهو موقف يختص بهم ، ولا يختص بأساليب اللغة .

ومن تلك الأمثلة : « ما ادعاه من لا خلاق له من أنه مسمى في القرآن : كبيان ابن سمعان . حيث زعم أنه المراد بقوله تعالى « هذا بيان للناس »(١) .

ولفظ « البيان » الوارد في القرآن ظاهرة في معناه ، ودلالته واضحة ولكنه من الترهات التي قالت بها غلاة الفرق ، وممن اشتروا بآيات الله ثمناً قليلا .

وفي هذا الموقف يقول الجرجاني : « وما يغني وضوح الدلالة من لا ينظر فيها ، وأن الصبح ليملأ الأفق ، ثم لا يراه النائم . ومن قد أطبق جفنه »(٢) .

وهو ما ينطبق تماماً على مثل هذه المواقف التي انتشرت بين أصحاب المذاهب الكلامية ، وهذا نوع من التأويلات الفاسدة عندهم ، وهو تأويل خاص متعمد ، لا يخضع لأصل أو مقياس ، أو التزام بمقاصد النص الديني .

---

١ ـ الشاطبي : الموافقات ٣/٣٩١ - وقد ذكر الشهرستاني فى الملل والنحل ١/٢٠٤ (أنه بنان بن سمعان النهدى ـ صاحب فرقة «البنانية» ـ من غلاة الشيعة)·

٢ ـ عبد القاهر الجرجاني : دلائل الاعجاز ص ٣٤٩ ·

ولكننا إذا تحيّنا نظر المتأولين ــ أمثال هؤلاء ــ وتكلمنا عن الأساليب القابلة للتأويل من الناحية اللغوية ، يمكن أن نقول على ما وضح منها ؛ إنه (محكم) ، وما احتاجت دلالته إلى بيان ؛ إنه (متشابه) .

فالمحكم لم يكن ثمة مجال فيه للتأويل ، أما المتشابه فهو المجال اللغوي للتأويل ؛ إذ يشتمل المتشابه على ألفاظ تشابهت فيها المعاني ؛ حتى أصبح التمييز بينها ليس بالأمر الهيّن ، أو أن تتشابه فيه أمور أخرى : كدقة في المعنى ، أو خفاء فيه ، ومن ثمّ تتعرض هذه الأساليب للاحتمالات التي تفرض حولها أكثر من معنى .

وليس جديداً أن يكون للغة وجهان دلاليان : وجه ظاهر في محكمها ، ووجه وراء اللفظ في متشابهها ؛ إذ تحمل وجهاً وتخفي آخر .

وهذا مما أطلق عليه علماء الغرب « الأداء المزدوج للغة "The Double Tuske of language" وما ترجمته ملخصاً « اللغة تستعمل للتعبير المباشر عن شعور المتكلم . . ولكن لها استعمالات تعبيرية ، مما نطلق عليه ما وراء الرمز (اللفظ) » (١) .

وهو المعروف في اللغة العربية بالمعنى الثاني ، أو المعنى التركيبي أو التبعي .

فالأساليب التي تكثر فيها وجوه المعنى تحتاج إلى بحث وترو ، وهي نوع من النصوص يجد العقل فيه متسعاً للاستنباط والتأويل ، كثرت في الكتب الدينية « ففيها آيات محكمات للقلوب ، وأمور متشابهات مخبّية للعقول »(٢) .

فالمتشابهات اللفظية تمثل مواقف ــ من جانب المستعملين للغة ــ تثير العديد من الآراء ، مما يجعلها مجالا للتأويل .

وما دعاني إلى القول بالنظر إلى المتشابهات من الناحية اللغوية إلاّ ما أحدثه بعض الفرق من خلط بين المحكم والمتشابه .

فقد كانوا يتناولون المحكم من النصوص مما ليس في حاجة إلى تأويل من الناحية اللغوية ، فأولته حتى يوافق مذهبها .

---

١ ــ Language in thought and Action. By S.L. Hayakawa Landon — 1952

٢ ــ اخوان الصفا وخلان الوفاء ٤/١٦٢ .

ومهما كان من أمر هذه الفرق ، وتشعب الاتجاهات الفكرية فيها ، فقد نتج عن مجادلاتها وحوارها ثراء لغوي لا ينكر ، ونظرة إلى ما قالته المعتزلة في هذا المجال تكفي لمعرفة هذه الثروة الفكرية واللغوية .

« ولم تكن قضية الأخذ بظاهر اللفظ أو بباطنه إلا جهداً آخر لتوكيد دور الدلالات اللغوية في الصراع العقدي والفقهي . . ، وكان شرطاً أساسياً لكل من يسهم في القضايا أن تحسن معرفته باللغة ، بل وأن يكون ذا رأي في الكثير من قضاياها »(١) .

والمجال اللغوي – وغير اللغوي – للتأويل يظهر بشكل واضح في النص الديني .

وإن كان النظر كافياً في فهم المحكمات لوضوحها ، إلا أن المتشابهات تثير خاصية الفكر في الإنسان : وملكة التمييز عنده ، وما أوتيه من معرفة وإدراك .

وكلها عمل يشرف به إذا بحث وراء ما خفي قصده . هذا بالنسبة النص الديني .

أما عند المشتغلين باللغة ، فيورد السيوطي قول أبي حيان « إنما يسوغ التأويل إذا كانت الجادة على شيء ، ثم جاء شيء يخالف الجادة فيتأول »(٢) .

وهذا قول يشير إلى مجال التأويل عندهم : وذلك إذا خالفت ظاهرة لغوية المتعارف عليه من كلام العرب وما ورد عنهم « من طرقهم وأصولهم المرعية ، لزم التأويل في هذه الحالة « فهم يقولون « اللغات مهما كان اختلافها إلا أن كلها حجة »(٣) . وقد يتوصل إلى قرار الحجة عن طريق التأويل إذا لم يف ظاهر اللفظ بذلك .

ففي بيئة أصحاب اللغة مأثورات مرعية « ترد إليها المخالفات اللفظية ، وذلك عندما ترد قاعدة نحوية – مثلا – في أسلوب ما ، وخالفت المأثور من كلام العرب ، فلغة أي قبيلة عندهم تعتبر حجة في الأخذ بها ، وترد إليها تلك الظاهرة عن طريق التأويل .

أما في البيئة الدينية ، فمجال الاستنباط أوسع : ووجود الاحتمال أرحب ، ذلك

---

١ – د. مصطفى مندور : اللغة بين العقل والمغامرة ص ٢٠ ط. منشأة المعارف . الاسكندرية ١٩٧٤ .

٢ – جلال الدين عبد الرحمن السيوطي : المزهر في علوم اللغة وانواعها ٢٥٨/١ .

٣ – نفس المرجع .

لأن النص الديني يحمل من الطاقات الدلالية ما يفيد القوم في حياتهم ، ومناحي تفكيرهم ، فيقبلون عليه بشغف يستمدون منه العون في كل الأمور . وكانت ظاهرة التأويل هي طريق الأخذ ، ومدخل الانتفاع بطاقات النص إذا استخدمت على وجه صحيح .

وخلاصة القول : إن الكلام إذا وضح كقولك : شربت الماء ، وقول العزيز القدير : « حرمت عليكم الميتة »(١) فلا حاجة معه إلى تأويل ، وإنما يستعمل التأويل إذا حدث إشكال في الكلام على أي صورة من صوره .

المحكم والمتشابه في النص الديني :

لما كان المحكم والمتشابه هو المجال اللغوي الذي يحدد دائرة استعمال التأويل اتساعاً وضيقاً ، فقد آثرت أن أتعرض للاتجاهات المختلفة التي تناولت موضوع المحكم والمتشابه عند المشتغلين بالعلوم الدينية من لغويين ومفسرين وأصوليين ومتكلمين وفلاسفة وكذا أصحاب الاتجاه الظاهري .

والآية الكريمة « .. منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا »(٢) .

ثارت حولها مناقشات ، وترددت آراء عديدة ، تدور كلها حول المحكم والمتشابه .

وما يعنينا في تلك الآية الكريمة الآن هو تحديد موقفين :

موقف التأويل من المتشابه والمحكم ، وموقف أهل العلم من التأويل . وذلك لتعلق لفظ الفتنة بالتأويل في الآية ، وتعلق التأويل بما استأثر الله بعلمه من جهة ، وما اختص به أهل العلم من جهة أخرى .

ونتناول الموقف الأول بالبدء في التعريف بالمتشابه :

كان هدف المتشابهات التي وردت في القرآن هو أن يتدبر الفكر الإنساني تلك الآيات ، ويجول العقل آفاق معانيها ، ويستمد الكثير من معطياتها . « إذ لو كان القرآن

---

١ ـ آية ٣ من سورة المائدة .

٢ ـ الآية ٧ من سورة آل عمران .

كله محكماً لا يحتاج إلى تأويل ونظر ، لاستوت منازل الحق ، ولم يظهر فضل العالم على غيره »(١) .

وفي تحديد معنى المتشابه يقول الزمخشري (٢) : اشتبهت الأمور وتشابهت : التبست لأشباه بعضها بعضاً ، وإياك والمتشبهات أي الأمور المشكلات .

فالتشابه هو عدم الوضوح التام : إما المماثلة التي تؤدي إلى صعوبة التمييز بين الشيئين . أو التباس الأمر بحيث يصبح المعنى غامضاً .

وفي الحالتين يصعب القطع بالدلالة . ويُجمل ابن قتيبة أنواع المتشابه في تعريفه : « أصل التشابه أن يشبه اللفظ اللفظ في الظاهر ، والمعنيان مختلفان . . ثم يقال لكل ما غمض ودق متشابه ، وإن لم تقع الحيرة فيه من جهة الشبه بغيره كالحروف المقطعة ، فالتشابه فيها الاشتباه والالتباس . . ومثل المتشابه المشكل وسمي مشكلاً أشكل ، أي دخل في شكل غيره فأشبهه وشاكله »(٣) .

فيضيف ابن قتيبة نوعاً ثالثاً إلى المتشابه ، يمكن أن نطلق عليه « المتشابه التوفيقي » إذا صح لنا هذا الإطلاق ، لأن علمه يتوقف على الله عز وجل ، كفواتح السور وما شابهها . وقد حاول بعض العلماء تفسير ما تعنيه هذه المقطعات إلا أنها آراء لا تتصل بوجوه دلالية تحملها تلك الحروف ، ولكنها ضرب من الظن الخالص .

أما المحكم فهو ما أحكم معناه بحيث لا يحتمل وجوهاً من التأويل ، « فالعرب تقول : حكمت وأحكمت . . بمعنى رددت ومنعت ، والحاكم يمنع الظالم عن الظلم . . وبناء محكم : وثيق يمنع من تعرض له . . وسميت الحكمة حكمة لأنها تمنع الموصوف بها عما لا ينبغي »(٤) .

ويعتبر بعض العلماء المحكم مركزاً دلالياً يرجع إليه في كثير من الأحيان ،

---

١ ـ جلال الدين السيوطي : معترك الاقران في اعجاز القرآن ١/١٥٨ تحقيق علي محمد البجاوي ط. دار الفكر العربي . القاهرة ١٩٦٩ .

٢ ـ ابو القاسم محمود بن عمر الزمخشري : اساس البلاغة ٢١٢/١ ط. الوهبية ١٨٨٣ .

٣ ـ ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ص ٧٤ تحقيق السيد أحمد صقر الحلبي . القاهرة ١٩٥٤ .

٤ ـ الفخر الرازي : اساس التقديس ص ٢١٨ .

إذا نشب خلاف حول المتشابهات من الآي . فهو يستقطب تلك المتشابهات في فلكه ، وسيأتي بيان ذلك .

والمتشابه الذي نتحدث عنه ، هو التشابه من الناحية اللغوية ، وليس المتشابه في نظر المذاهب العقدية ، كما أشرت إلى ذلك عند مدخل هذا الفصل . فقد يكون المتشابه عند بعضهم ، محكماً عند البعض الآخر ، وكذلك العكس .

فتنقلب المعايير في تحديد معنى الإحكام والتشابه ، أمام تلك التيارات العقدية الخاصة بكل مذهب . ويصبح الموقف اللغوي أمام الآيات المتشابهة ، موقفاً ملجياً تسانده تعاليم المذهب وحججه .

وبذا خضع الإحكام والتشابه في الألفاظ للمذاهب ، فاختلف مفهومه ومنهجه « فالمحكم عند السني متشابه عند القدري — مثلا — »(١) .

وأصبحت الفرق الدينية والأحزاب السياسية تعتمد على النص اعتماداً كبيراً تجادل خرئه وتحاور، وتجعل منه طريقاً يسهل عليها تبرير مذهبها ، وإقناع الآخرين به ، وأن هذه هي التعاليم الحقة للدين في نظرهم . كما تتخذ من النص أيضاً حججاً تقف بها في وجه المعارضين .

فاختلط النص المحكم ، بالنص المتشابه ، ولم يكن التعريف اللغوي لهما سوراً منيعاً من سهام تلك المجادلات والمغالطات الكلامية .

يدعي أصحاب المذاهب أن النص ، أو الآية التي توافق مذهبه محكمة ، وإن كانت متشابهة من الناحية اللغوية ، وأن الموافق لخصمه متشابه وإن كان محكماً .

فالمعتزلة (مثلا) تقول في قول الله تعالى « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »(٢) محكم — وإن كان الإحكام قائماً من الناحية اللغوية لوضوح الألفاظ ، ولكنهم لا ينظرون إلى هذا الإحكام بقدر ما ينظرون إلى أن الآية ترمي أصلاً من أصول مذهب الاعتزال وهو « حرية الإرادة » .

كما يقولون في قوله تعالى « وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين »(١) أن ذلك

---

١ — الزركشي : البرهان في علوم القرآن ٢/٧٦ .

٢ — الآية ٢٩ سورة الكهف .

٣ — آية ٣٠ من سورة النساء .

من قبيل المتشابه عندهم ، وإن كنا لا نلحظ تشابهاً لغوياً ، اللهم إلاّ أنّ ما جاء في الآية الكريمة يخالف مبدأ عندهم .

والنص القرآني قد جاء هداية للبشرية جمعاء ، عقيدة وشريعة ، صالحاً للمجتمع الإنساني كله ، وغذاء فكرياً لمن ينشد ذلك « فالبلغاء تعرف من فصاحته ، والفقهاء من أحكامه ، والمتكلمون من براهينه العقلية ، وأهل الآثار من قصصه »(١) ، ولم يأت من أجل طائفة معيّنة ، أو مناصراً لمذهب ما .

أما الموقف الثاني لآية المحكم والمتشابه ، وهو موقف أهل العلم من التأويل .

فنتناول توضيحه في ضوء الآراء التي أثيرت حول الموقف عند لفظ الجلالة « وما يعلم تأويله إلاّ الله » ، أو جعل الواو عاطفة « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم » فيه إشراك العلماء في العلم بالتأويل . فالخلاف حول الوقف والوصل ، يساعد إلى حد كبير على التعرف إلى أي مدى كانت تتسع دائرة المتشابه أو تضيق .

وقد دعى هذا التردد إلى قول العلماء بالتشابه في الآية نفسها ، يقول الزركشي « إن هذه الآية من المتشابه من حيث تردُّد الوقف فيها ، وتردُّد الواو بين الاستئناف والعطف . ولأن قوله تعالى « يقولون آمنا به » متردد بين كونه حالاً فضلة ، وخبراً عمدة »(٢) .

من الآراء من يعتبر حرف الواو للعطف ، وإشراك العلماء في التأويل ، وحجته في هذا أن الله تعالى لم يكلف الخلق بما لا يطيقون ، فلم ينزل الكتاب إلاّ لنفع العباد ، كما أنه لا يسوغ لأحد أن يقول أن رسول الله لم يعلم المتشابه . والقرآن ينطوي على مقاصد أراد الله تعالى بيانها .

ومن ناحية أخرى فالمفسرون ، أو المتناولون النص الديني بعامة لم يتوانوا في الكلام عن المتشابه ، ومحاولة تبيينه وتأويله ، ومعرفة مقاصده .

يقول ابن رشد : « إذا لم يكن أهل العلم يعلمون التأويل ، لم يكن عندهم مزيّة تصديق توجب الإيمان به كما جاء في قوله تعالى « آمنا به كل من عند ربنا »(٣) .

---

١ ـ الراغب الاصفهاني : مقدمة التفسير ، ص ٢٤٠ .

٢ ـ الزركشي : البرهان في علوم

٣ ـ ابن رشد : مناهج الأدلة ص

وأما من اختار الوقف عند لفظ الجلالة ، فيمثل حجتهم السيوطي في قوله « وأما الأكثرون من الصحابة والتابعين وأتباعهم ومن بعدهم خصوصاً أهل السنة فذهبوا إلى أنه لا يعلم تأويله إلا الله . ويؤيد ذلك أن الآية دلت على ذم متبعي المتشابه ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة »(١) .

ومن المعروف أن السلف الأول كفوا عن التأويل ، وقاموا بحمل الآيات على ظاهرها ، وتفويض معانيها إلى الله تعالى ؛ خاصة ما يتعلق بالعقيدة والصفات ، كما قيل في سؤال مالك بن أنس عن الاستواء بالنسبة لله تعالى ؛ فقال : الاستواء معروف ، والكيف مجهول ، ولم يحاول تأويلها . ذكر السيوطي : « أخرج ابن أبي حاتم عن عائشة قالت : كان رسوخهم في العلم أن آمنوا بمتشابهه ولا يعلمونه . ثم جاء السيوطي بحكاية عن رجل يقال له صبيغ قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن ، فأرسل إليه عمر ، وقد أعد له عراجين النخل ، فقال : من أنت ؟ قال : أنا عبد الله بن صبيغ ، فأخذ عمر عرجوناً من تلك العراجين ، حتى دمّى رأسه . فقال الرجل : إن كنت تريد قتلي فاقتلني قتلا جميلا ، فأذن له إلى أرضه ، وكتب إلى أبي موسى الأشعري أن لا يجالسه أحد من المسلمين »(٢) .

ثم يأتي ابن تيمية ؛ ويقرر فصل الخطاب بين المتنازعين في هذا الموضوع ، فيشير إلى أن الله تعالى « لم يقل في المتشابه لا يعلم تفسيره ومعناه إلا الله ، وإنما قال وما يعلم تأويله إلا الله »(٣) .

يفهم من خلال عبارة ابن تيمية أنه يريد أن يقول كيف تنكرون على الناس ــ والعلماء منهم بخاصة ــ أن يصلوا إلى معاني الكتاب ويفهموا منها ، وأن الله جل وعلا ، لم يمنعهم من ذلك والمقصود في الآية ــ حتى في حالة الوقف ــ أن الله يعلم حقيقة الأشياء التي وعد بها ، كيوم القيامة ، ومقادير الثواب والعقاب ، وكيفيتها وأن هذا مما أخفى حقيقته على البشر . وقد دعا ابن تيمية إلى هذا القول ، أن مفهوم التأويل عنده هو حقيقة المخبر به « يوم يأتي تأويله » أي حقيقته أو نفس المخبر به يوم القيامة .

وفي القرآن نفسه ما يثير الهمم إلى معرفة كلام الله كقوله عز من قائل « كتاب

١ ــ السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ٣/٤ .
٢ ــ السيوطي : المرجع السابق ٤/٢ .
٣ ــ ابن تيمية : الاكليل في المتشابه والتأويل ص ٨ .

أنزلناه إليك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب »(١) . والآية هنا لا تشير إلى تدبر المحكم وترك المتشابه ؛ بل تدبّر ، وإعمال فكر لآيات الله كلها

— كما أن الوقف عند لفظ الجلالة لم ينف عن الرسول والتابعين ، وجمهور الأمة العلم بمعناه وتفسيره .

والأمر عند ابن تيمية كله متوقف على الفرق بين مفهوم المعنى ومفهوم التأويل .

فالمعنى : هو تفسير الشيء وفهمه ، وإمكان التعرف إليه . أما التأويل : فهو حقيقة الشيء بل هو الشيء نفسه . وما تؤول إليه هذه الحقيقة من كيفياتها وأزمانها ، وكثير من أحوالها ، لا سبيل لأحد إلى معرفتها ، فهي تتعلق بالغيبيات .

وقد سبق القول بأن ما دار من خلافات حول الوقف والاستئناف ، وحول العطف في الآية الكريمة ، يوسّع من دائرة المتشابه ويضيّقها ، ذلك لأن الذين يقصرون تأويل المتشابه على علم الله تعالى يضيّقون دائرته ، خوفاً من تناوله بالتخمين والعبث ، والتطاول على ما استأثر الله بعلمه .

أما القائلون بإشراك العلماء في التأويل يوسّعون من دائرة المتشابه ، وأن الله سبحانه وتعالى يشرك هؤلاء في معرفة المتشابه بما يتفق ومقدرتهم المحدودة ، وما هم في حاجة إليه لأمر معاشهم ومعادهم .

« وقد روى عن ابن عباس : أنزل القرآن على أربعة أوجه : وجه حلال وحرام لا يسع أحداً جهالته ، ووجه يعرفه العرب ، ووجه تأويله يعلمه العالمون ، ووجه لا يعلم تأويله إلاّ الله »(٢) .

وهذه القسمة التي أتى بها الراغب عن لسان ابن عباس تبين أن المحكم والمتشابه كليهما مجال للتأويل (والمقصود بالتأويل هنا التفسير والتعرف إلى المعاني) ، فمن التأويلات من يعرفها عامة العرب ، ومنها من يعرفها الخاصة وهم الراسخون في العلم ، ومنها ما استأثر الله بعلمه .

---

١ — آية ٢٩ من سورة ص .

٢ — الراغب : مقدمة التفسير ص ٤٢ .

ونجد عند الفخر الرازي كذلك إشارة إلى حاجة المحكم إلى التأويل على أنه يحتمل وجهاً واحداً منه ، أما المتشابه فيحتمل أكثر من وجه . يقول :

« قيل إنه تعالى لما قسم الكتاب إلى قسمين ، محكم ومتشابه ، ودلّ العقل على صحة هذه القسمة من حيث أن حمل اللفظ على معناه الراجح هو المحكم ، وحمله على معناه الذي ليس راجحاً : هو المتشابه ، ثم أنه تعالى ذمّ طريقة من طلب تأويل المتشابه كان تخصيص ذلك ببعض المتشابهات دون البعض »(١) .

فهو يحصر المتشابه في اللفظ الذي تتضارب حوله الدلالات دون قطع بإحداها ، ويتوصل إلى القصد بغلبة الظن .

وفي الحقيقة أمامنا مضطرب واسع من الآراء حول المحكم والمتشابه ، نورد فيما يلي ما أشار إليه السيوطي من هذه الآراء في شكل مختصر « المحكم : ما عرف المراد منه ، إما بالظهور ، وإما بالتأويل ، والمتشابه : ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة ، والحروف المتقطعة في أوائل السور . وقيل المحكم : ما وضح معناه ، والمتشابه : نقيضه . وقيل المحكم : ما لا يحتمل من التأويل إلاّ وجهاً واحداً ، والمتشابه : ما احتمل أوجهاً . وقيل المحكم : ما استقل بنفسه ، والمتشابه ما لا يستقل بنفسه إلاّ برده إلى غيره ، وقيل المحكم ما تنزيله ، والمتشابه : ما لا يدرك إلاّ بالتأويل . وقيل المحكم : الفرائض ، والوعد والوعيد ، والمتشابه : القصص والأمثال »(٢) .

وقد قصدت إلى بيان هذه التعاريف لأتمكن من حصر الآراء المتعددة في تحديد مفهوم الإحكام والتشابه . ومنها يتضح أن المحكم : هو ما ظهرت دلالته ، وثبتت دون حاجة إلى غيره ويشمل ما لا يحتمل التأويل من ألفاظ الفرائض والوعد والوعيد . فهو متن لا اختلاف فيه ولا اضطراب . . .

والمتشابه : هو الذي لا يتحدد معناه ، بل يحتمل أكثر من وجه دون ترجيح . حاجة إلى دليل يسانده ، ويشمل ما يحتمل التأويل من ألفاظ القصص والأمثال وما شابه ذلك .

---

١ ـ الفخر الرازي : أساس التقديس ص ٢٢٤ .

٢ ـ السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ٢/٢ ، طاش كبرى زاده : مفتاح السعادة ٢/٤٣٨ .

ولا يفوتنا أن نشير إلى تطاول الفرق المذهبية على ألفاظ النحيسة والصفات في النص القرآني ، فاتسعت المتشابهات على أيديها اتساعاً كبيراً .

وفي البيئة الأصولية يظهر لنا نوع آخر من تعريفات المحكم والمتشابه .

فالغزالي يقسمها إلى :

أن المحكم هو المكشوف المعنى الذي لا يتطرق إليه إشكال أو احتمال ، ويقابل هذا نوع من المتشابه ، وهو ما يتعارض فيه الاحتمال . ومن المحكم كذلك ما انتظم وترتب ترتيباً مفيداً ، إما على ظاهر ، أو على تأويل ، ما لم يكن هناك تناقض أو اختلاف (وهذا ما يحتمل من التأويل وجهاً واحداً) ، ويقابل هذا أيضاً نوع من المتشابه يسمونه « المثبج (*) والفاسد »(١) .

وقد قام الأصوليون المتأخرون كالإمام الشاطبي (٢) (٧٩٠هـ) بتقسيم آخر ، فيشير إلى محكم خاص : وهو الناسخ ، ويقابله المتشابه الذي يعني المنسوخ .

وهو يتبع في ذلك اتجاه علماء الناسخ والمنسوخ ، الذين يقومون بإحكام الناسخ ، وتشابه المنسوخ دون أن يعول على صحة النسخ .

كما يشير إلى محكم عام : وهو البيّن الواضح الذي لا يفتقر في بيان معناه إلى غيره ، ويقابله المتشابه الذي لا يظهر مراده من لفظه ، فيصبح في حاجة إلى غيره .

وهذا هو ما يعنينا ، لأن تعريف المحكم الخاص ودورانه مع الناسخ والمنسوخ لا يفيدنا في شيء لعدم صلته بالناحية اللغوية أي من ناحية ظهور معنى اللفظ أو غموضه .

ثم يقسّم المتشابه أيضاً إلى نوعين : تشابه حقيقي ، وتشابه إضافي .

والمتشابه الحقيقي ليس ثمة سبيل إلى فهم معناه ، ولا قام دليل على المراد منه . وهذا نوع المتشابه لا يتطرق إليه تأويل سوى مجرد الإيمان به ، وأن هذا المتشابه لا يوجد في القرآن إلاّ قليلا ، وهو ما لا سبيل إلى العلم به .

أما المتشابه الإضافي فإنه لم يكن متشابهاً من حيث وصفة في الشريعة ، فقد حصل

* المثبج : المضطرب من الكلام .

١ ـ يمكن الرجوع الى الغزالى فى المستصفى ١/١٠٦ .

٢ ـ يمكن الرجوع الى الشاطبى فى الموافقات ٣/٨٥ .

بيانه إلاّ أنّ الناظر فيه قصر في الفهم ، أو زاغ عن طريق البيان إتّباعاً للهوى ، ولا يصح أن ينسب الاشتباه إلى الأدلة ، وإنما ينسب إلى الناظرين .

ويهدف النظر الأصولي هنا إلى أن الاشتباه يحدث أمام القاصرين عن الفهم الصحيح عند تطبيق النص أو معرفة المراد منه . وهذا موقف يشبه موقف ابن رشد الفيلسوف .

وتلك حكاية عن الشاطبي تبين هذا القصور في فهم النص :

« عن سفيان قال : سمعت رجلا يسأل جابر بن يزيد الجعفي عن قوله تعالى :

« فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين »

فقال جابر لم يجيء تأويل هذه الآية . قال سفيان : وكذب . قال الحميدي : فقلنا لسفيان : ما أراد بهذا ؟ فقال : إن الرافضة تقول إنّ علياً في السحاب فلا يخرج ، حتى ينادي مناد من السماء (يريد أن علياً هو الذي ينادي) أخرجوا مع فلان ! يقول جابر : فذا تأويل هذه الآية . وكذب ، كانت هذه الآية في إخوة يوسف . قال تعالى :

« فلما استيئسوا منه خلصوا نجياً قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين » (١) .

والآية هنا أمرها واضح ومناسبتها معروفة ، ومعناها ظاهر يدل عليه سياقها ، فلما بترت الآية أصبح الأمر متشابهاً في نظر مؤولها .

وهذا التقسيم الذي رأيناه عند الأصوليين يرجع إلى ما يعنيه المحكم والمتشابه في ذاتهما ، من ناحية وضوح المعنى وغموضه ؛ لأن المتشابه النسبي المتوقف على فهم المخاطب موضوع لا يمكن حصره .

فالإحكام والتشابه عندهم من عوارض الأدلة ، إذ تعتبر درجات الوضوح والخفاء في دلالة اللفظ مناطاً في تقرير الحكم الشرعي ، وعلى ذلك فهم يتبعون تقسيماً آخر أكثر دقة وتنوعاً ، فيقسمون الإحكام إلى :

أولا : النص — وهو يدل على معنى لم يحتمل غيره ، وهو قمة ثبوت الدلالة ووضوحها .

---

١ ـ الشاطبي : الموافقات ٣/٩٣ ، والآية ٨٠ من سورة يوسف .

مثال ذلك : يقول الله تعالى :

« ولكم نصف ما ترك أزواجكم » (١) .

فكلمة « نصف » واضحة الدلالة قاطعتها ، وليس من سبيل للاختلاف في المدلول .

والأصوليون لا يقبلون تعامل النص مع التأويل وينكرون أي تأويل يرفع النص ، إلا إذا ظهر دليل قوي فعندئذ يقبل التأويل ، ويصبح نوعاً من النص يرادف الظاهر .

ثانياً : الظاهر — وهو الذي يدل على معنى راجح إلا أن المراد منه ليس هو المقصود من سياقه ، وإنما معنى زائد على المعنى المتبادر من مدلول الصيغة . كما في قول الله تعالى :

« أحل الله البيع وحرم الربا » (٢) .

فالمعنى ظاهر إلا أن المقصود هو « التفرقة بين البيع والربا » ، وهو معنى قصد إليه الشارع لزيادة الوضوح في معرض الرد على من قالوا « إنما البيع مثل الربا » في أول الآية الكريمة . وهذا النوع يمكن أن يدخل التأويل إليه .

ثالثاً : المفسر — وهو اللفظ الذي لا يحتمل التأويل لوضوح المعنى فيه وتحديده ، وإن كان حكمه يقبل النسخ . كقول الله تعالى :

« فاجلدوهم ثمانين جلدة »

فالعدد هنا لا يحتمل زيادة أو نقصان فلا يدخله التأويل ، ويمكن إلحاقه بالنص من ناحية الوضوح إلا أن النص لا يقبل النسخ .

رابعاً : المحكم — وهو لفظ لا يدخله التأويل ولا يقبل حكمه النسخ ، وهو يشبه النص إلا أنه أقوى منه ، لأنه يتعلق بالأحكام الأساسية من قواعد الدين كالإيمان بالله .

ومن خلال هذا التفاوت ، في مراتب الوضوح ، يمكن معرفة الألفاظ التي تقبل التأويل والتي لا تقبله . وإذا رتبنا هذه الألفاظ من ناحية الوضوح نجد أن أظهرها وأوضحها المحكم ، المفسر ، النص ، الظاهر .

وهذا هو المحكم في جملته عند المدرسة الأصولية ، كما تتفاوت درجات خفاء المعنى في الألفاظ المتشابهة ، وعلى هذا يقسمها الأصوليون كما يلي :

---

١ ـ آية ١٢ من سورة النساء .

٢ ـ آية ٢٧٥ من سورة البقرة .

أولا : الخفي – ما خفي المراد منه ويحتاج في إزالة الخفاء إلى نوع من التأمل ، وإن كان ظاهر الدلالة ، كما في لفظ « السارق » : ؛ فلفظ السارق عند الأصوليين لا يطلق إلاّ على من يأخذ مال الغير خفية من حرز ، أمّا الذي يقوم بسرقة القبور فيسمى «نبّاشاً» ، ومن يسرق مال الغير في حالة التيقظ يسمى « نشّالا » ، وهي أحوال يتوقف على معرفتها وتحديد دلالتها تقرير حكم شرعي .

ثانياً : المشكل – وهو ما خفيت دلالته على المعنى المراد ، لاحتماله أكثر من معنى ، وكلها تشترك في اللفظ بمقدار واحد ، وهنا تصبح الحاجة ماسّة إلى قرينة تبين المراد . كما في كلمة « القرء » واختلاف الآراء حول تحديدها بالحيض أو الطهر أو الوقت ، إذ الأمر قد أشكل عليهم .

ثالثاً : المجمل – وهو لا يدل على المراد منه بصيغته : ولا توجد قرينة تعين المراد ، ولا مجال للعقل في إدراكه . ويتوقف بيانه على الشارع نفسه .

ويرجع هذا إلى دقّة في المعنى – مثلا – كما في قول الله تعالى :

« ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا . قواريرا من فضة قدروها تقديرا » (١) .

أي في صفاء القوارير وبياض الفضة ، فصفاؤها صفاء الزجاج ، وهي من فضة ، وقيل : أرض الجنة من فضة والأواني تتخذ من تربة الأرض (٢) . وليس هناك رأي قاطع في تحديد المعنى المقصود . ومثل كلمات « الصوم والصلاة » وما إليها من الكلمات الشرعية التي نقلت إلى الإسلام بمعان اصطلاحية فهي مجملات قامت السنة بتوضيحها .

رابعاً : المتشابه – وهو لا يدل على المراد منه ، كما أنه تتعذر معرفته ، ولا توجد قرينة تساعد على معرفته : ولم يقم الشارع ببيانه وإنما استأثر بعلمه . وذلك مثل أوائل السور وألفاظ الصفات الواردة في حق الله تعالى .

وعلى هذا تكون درجات الخفاء في الدلالة اللفظية من الشدّة إلى الخفة : المتشابه ، المجمل – المشكل – الخفي . وتلك هي أنواع المتشابه عند الأصوليين .

ومع هذا نجد اتجاهاً في البيئة التشريعية يهدف إلى تقليل المتشابه ، إذ من الواضح أن

---

١ – الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة الانسان .

٢ – القرطبي : التفسير ١٠/٦٩٣٢ .

طبيعة العمل التشريعي تقوم أساساً على التكليف ، ولا يصح أن يعلق التكليف إلاّ على ما يفهم معناه .

ويستدلون على قلة المتشابه في القرآن بالاستدلالات الآتية :

• النص الصريح في قوله تعالى :

« منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات »

فأمّ الكتاب : معظمه ، وعلى هذا يكون قليله مُتشابه .

• لو كان المتشابه كثيراً لكان الاشكال والالتباس كثيراً ، والقرآن بيان وهدى نزل لرفع الاختلاف الواقع بين الناس .

• الناظر عن طريق الاستقراء في أدلة الشريعة يلمس جريانها على اتساق الإحكام ، كما قال الله تعالى :

« كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » (١) .

• إذا كانت الأدلة في معظمها تحتمل وجوهاً من التأويل ، لم يكن من السهل الوقوف على دليل يبرر الحكم .

• الألفاظ المتشابهة التي تحمل معنى العموم ، فُسّرت معظمها على أن المراد بها خصوصي . إذ يقول الأصوليون : ما من عام إلاّ وخُصص .

وربما تكون محاولة التقليل من المتشابه ، مردها إلى ما كانت تثيره المتشابهات من شكوك حول الإلهيات ، والسنن ، وحول التشريع الإسلامي بصفة عامة ، « ومن المعلوم بالضرورة أن هذه الآيات المتشابهات سبب عظيم لضلال الخلق ، ووقوعهم في التجسيم والتشبيه » (٢) .

وعند الفلاسفة نلحظ اتجاهاً آخر في تحديد المتشابه ، إذ يحدّدونه بالنسبة لمتلقى النصوص ، ويصل الأمر لهم إلى حد إنكار المتشابه .

إذ يقول ابن رشد « وأما عند العلماء والجمهور ، فليس في الشرع تشابه ، فعلى هذا المعنى ينبغي أن يفهم المتشابه » (٣) .

---

١ ـ الآية ١ من سورة هود .

٢ ـ الفخر الرازي : أساس التقديس ص ٢٣٠

٣ ـ ابن رشد : الكشف عن مناهج الأدلة ص ٩٦ . صبيح . القاهرة ١٩٣٥ .

فالعلماء الذين يحسنون تأويل القرآن لا يقع نظرهم على متشابه من ألفاظه ، إلاّ عرفوا معناه ، وفهموا مقصده . كما يذهب ابن رشد إلى نفي التشابه في النص أمام عامة الناس ، الذين لا يطلب منهم إلاّ أن يؤمنوا بما يفهمونه من ظواهر النصوص ، دون أن يبحثوا عن معانيها الخفية ومحاولة تأويلها ؛ فهو يعيب على الغزالي تصريحه بالتأويل للجمهور ، خوفاً من الحيرة والشك حول المتشابه .

وأن المراد في قوله تعالى :

« وأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله »

هم أهل الجدل والكلام ، إذ يضعهم — ابن رشد — في منزلة بين العامة والعلماء ؛ وقد عرضت لهم الشكوك فتعلقوا بها ، وحاولوا عبثاً تأويل النصوص الدينية ، فهو ينكر هذا التأويل ، لأنهم أوقعوا الناس في شنآن وتباغض ، ومزقوا الشرع كل ممزق .

ويصبح المتشابه إذن مقصوراً على ما انقطع الرجاء في معرفته ولا يعلمه إلاّ الله ، وهذا شبيه بموقف الأصوليين .

ومعروف أن التأويل في البيئة الفلسفية يدور على أساس لغوي ، إلاّ أنّ ابن رشد في تحديد المتشابه لا ينتبه إلى الناحية اللغوية بقدر ما يتناول المتشابهات العقلية ، ويتفق هذا — بطبيعة الحال — مع عمله كفيلسوف .

أما أصحاب الظاهر : فتجد دائرة المتشابه عندهم تضيق إلى حد كبير . ولم يكن هذا غريباً ؛ فهم ينكرون التأويل ، وبالتالي يحاولون أن يقللوا من المتشابه الذي هو مجال رحب للعمل التأويلي .

يقول ابن حزم ، وهو من أصحاب المدرسة الظاهرية : « فلم نجد في القرآن من المتشابه حاشا الحروف المقطعة التي في أوائل بعض السور ، وحاشا الأقسام التي في أوائل بعض السور أيضاً ، فعلمنا يقيناً أن هذين النوعين هما المتشابه الذي نهينا عن اتباعه » (١) .

وهذان هما نوعا المتشابه عند ابن حزم ، مع نهيه عن تأويلهما . وهو في الواقع يقصد بالمتشابه ما لا سبيل لنا إلى معرفته .

أما المحكم عند أصحاب الظاهر ، فهو ما جاء في القرآن عدا هذين النوعين ودليلهم

---

١ — ابن حزم : الاحكام في أصول الاحكام ١٢٣/٤ .

في ذلك ، أنه لو وجد في القرآن متشابه لأصبح من الواجب أن يقوم العلماء ببيانه للناس ، وعند بيانه يتم العلم به . وحينئذ يصبح محكماً لا متشابهاً .

ونستنتج من الاتجاه الظاهري إنكاراً كلياً للمتشابه ، والمقصود هنا هو المتشابه من آي القرآن .

إلاّ أنه من غير الممكن إنكار المتشابه في اللغة . فأنواعه وأشكاله ثابتة ، وليست بمعزل عن ميدان الاستعمال اللغوي .

ومن هذا نخلص إلى القول بأن التأويل يجد مجالا في الألفاظ التي تحمل أكثر من وجه دلالي ، أما الألفاظ التي يظهر معناها فهي ليست مجالا للتأويل .

ما يحمل أكثر من معنى في اللغة :

تكثر في اللغة العربية الألفاظ التي تحمل أكثر من معنى ، ففي كلمة « العَرْض » — مثلا — تدل على « الجبل » ، وتدل كذلك على « الجيش » ، كما أنها تعني « خلاف الطول » وكذلك « العَرْض » هو « السَّعة » . فمن ذلك قول الله تعالى :

« وجنات عرضها السموات والأرض »

أي « سعتها » ، « وتقول العرب ، وفي الأرض العريضة مذهب — لا يرون العرض الذي هو خلاف الطول ، وإنما يراد السعة » (١) .

إلى جانب العديد من الأنواع التي تحمل أكثر من معنى ، ويمكن أن تكون محلاً للتأويل .

فالتأويل يدخل إلى مثل هذه الالفاظ من منافذ ثلاث : إما من جهة اللفظ او من جهة المعنى ، أو منهما معاً . فأما ما يأتيه التأويل من جهة اللفظ : فهي الألفاظ المشتركة . « والاشتراك العارض في موضع اللفظة المفردة نوعان : اشتراك يجمع معان متضادة ، واشتراك يجمع معان غير متضادة » (٢) .

وعلى سبيل المثال ما جاء في المشترك المتضاد ، « قول الرسول عليه الصلاة والسلام » « قصوا الشارب ، واعفوا اللحى » (٣) .

---

١ — ابن قتيبة : المسائل والأجوبة في الحديث واللغة ص ٩ .
٢ — البطليوسي : الانصاف ص ١١ .
٣ — نفس المرجع : ص ١٨ .

فلفظ « أعفوا » هنا من المشترك المتضاد . قال قوم : معناه « وفّروا وكثّروا » . وقال آخرون : « قصّروا وانقصوا » ، وكلا القولين له شاهد من اللغة .

أما من ذهب إلى التكثير فحجته قول الله تعالى :

« ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا » (١) .

أي كثروا . و « عفا » من الأضداد : عفا — « كثر » ، وعفا — « درس » (٢) .

أما من ذهب إلى التقصير فحجته قول زهير في أول قصيدته :

عفا من دَارِ فاطمــة الجِــوَاء فيُمْــنٌ فالقــوادمُ فالحِسَــاء*

أما المشترك غير المتضاد ، كقول الله تعالى :

« من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل » (٣) .

فقال قوم معناه « من سبب ذلك » كما تقول : فعلت ذلك من أجلك . وقال قوم : معناه « من جناية ذلك وجريرته (٤) .

أما ما يأتيه التأويل من جهة المعنى : فهو جملة الكلام المركب ، وما يتبعه من معنى تركيبي .

١ — فقد يكون سبب ذلك الاختصار في الكلام — كقول الله تعالى :

« وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء » (٥) .

والمقصود في الآية « إن خفتم ألا تعدلوا في مهورهن ، وفي النفقة عليهن ، فانكحوا ما طاب لكم من غيرهن » (٦) .

٢ — وقد يكون سببه بسط في الكلام — كقول الله تعالى :

« ليس كمثله شيء » (٧)

---

١ — الآية ٩٥ من سورة الأعراف .

٢ — القرطبي : التفسير ٢٦٨٨/٤ .

* والمعنى أن : «الجواء ، واليمن ، والقوادم ، والحساء» هي أماكن ، وقد قصر أو قل فيها ماهو من دار فاطمة من أثر أو طلل .

٣ — الآية ٣٢ من سورة المائدة .

٤ — أورد هذه الأمثلة البطليوسي في «الانصاف» ، ص ١٨ — ٢٢ .

٥ — الآية ٣ من سورة النساء .

٦ — القرطبي : التفسير ١٥٨٩/٢ .

٧ — الآية ١١ من سورة الشورى .

فالكاف زائدة ، فلو قيل : ليس مثله شيء ، كان أظهر للسامع » (١) ، ولكن الكاف الزائدة هنا حققت المثلية ، فهي لم تستعمل فيما وضعت له أصلاً وهو التشبيه ، ولكنها حققت عدم تكرار الصورة في غير المتصف بها . وفي ذلك يقول النسفي « إن كلمة التشبيه كررت لتأكيد نفي التماثل ، فتقديره (ليس مثله شيء) . وقيل « مثل » زيادة ، وتقديره (ليس كهو شيء) كقوله تعالى :

« فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به »

وهذا لأن المراد هو نفي المثلية » (٢) .

٣ ـ وقد يكون السبب هو النظم في الكلام : مثال ذلك قول الله تعالى :

« أنزل على عبده الكتاب ، ولم يجعل له عوجا . قيّما لينذر بأساً شديداً من لدنه » (٣)

والتقدير : أنزل على عبده الكتاب قيّما . ولم يجعل له عوجا (٤) .

ما يأتيه التأويل من جهة اللفظ والمعنى معاً :

١ ـ العموم والخصوص ـ مثال ذلك قول الله تعالى :

« لا إكراه في الدين » (٥)

فمن قائل : « هذا خصوص في أهل الكتاب لا يكرهون على الإسلام إذا أدوا الجزية » وقال آخرون : هي عموم ، ثم نسخت بقول الله تعالى :

« جاهدوا الكفار والمنافقين » (٦) .

وما بين القول بتعميمها وتخصيصها يجد التأويل مجالا للعمل .

---

١ ـ السيوطي : معترك الاقران في اعجاز القرآن ١/١٤٤ تحقيق : علي محمد البجاوي . ط. دار الفكر العربي . القاهرة ١٩٦٩ .

٢ ـ ابو البركات عبد الله بن احمد النسفي : مدارك التنزيل وحقائق التاويل ٤/٩٧ ط. صبيح . القاهرة ١٩٤٨ .

٣ ـ الآيتان ١ ، ٢ من سورة الكهف .

٤ ـ السيوطي : معترك الاقران ٢/١٤٤ .

٥ ـ الآية ٢٥٦ من سورة البقرة .

٦ ـ اورد المثال البطليوسي في الانصاف ص ٩٥ .

٢ ــ الوجوب والندب ــ كما في قوله تعالى :

« فانكحوا ما طاب لكم من النساء » (١) .

وقد اشتملت الآية على إباحة تعدد الزوجات حتى الأربع (وهذا هو الندب(*)) . أما الوجوب فهو الاقتصار على واحدة ، إن خيف الجور بالتعدد .

٣ ــ من جهة الزمان ــ كالناسخ والمنسوخ ــ نحو قوله تعالى :

« واتقوا الله حق تقاته » (٢) ، وقوله تعالى « فاتقوا الله ما استطعتم » (٣)

ومن الناس من فهم أن الآيتين متعارضتان ، حتى زعموا أن الثانية نسخت الأولى »(٤) فكانوا يلجأون إلى القول بالناسخ والمنسوخ متخذينه ذريعة في إظهار التعارض والتشابه بين آي القرآن ، تعالى كلام الله القدير عن أباطيلهم .

وبالنظر إلى الناسخ والمنسوخ لا نجد تشابهاً لفظياً ، وإنما يقع التشابه ــ عند من يقولون بالنسخ ــ من ناحية ثبات الحكم ورفعه .

وهذا لا يعني وجود تشابه لفظي في الناسخ والمنسوخ ، ولكن « اللغة شاهدة بحقيقة المحكم والمتشابه ، فأما أن يجعل الناسخ محكماً والمنسوخ متشابهاً فبعيد ، لأن اللغة لاتقتضي ذلك ، وقد يكون المنسوخ مما يدل ظاهره على المراد ، فيكون محكماً فيما أريد به وإن نسخ ، وقد يكون الناسخ غير مستقل بنفسه ، فيكون متشابهاً ، وإن كان المراد ثابتاً » (٥) .

والناسخ والمنسوخ إن كان تاريخهما معلوماً ، فلا اشتباه على من يعلم هذا التاريخ .

ومعروف أن الناسخ ثابت الحكم ، والمنسوخ متروك الحكم وليس في ذلك اشتباه من الناحية اللغوية . أما إذا حدث التشابه من ناحية عدم معرفة التاريخ ، فلن يكون ذلك مبرراً للقول بإحكام لفظ ، وتشابه آخر .

---

١ ــ الآية ٣ من سورة النساء .

* والندب هو المطلوب فعله شرعا من غير ذم على تركه .

٢ ــ الآية ١٠٢ من سورة آل عمران .

٣ ــ الآية ١٦ من سورة التغابن .

٤ ــ تفسير المنار ٤/١٦ .

٥ ــ القاضي عبد الجبار أحمد الهمداني (٤١٥ هـ) : متشابه القرآن ١/٢٠ تحقيق : عدنان محمد . ط. دار التراث . القاهرة ١٩٦٠ .

٤ – من جهة المكان والمناسبة – إذ يقول الله تعالى :

« إنما النسيء زيادة في الكفر » (١) .

والمقصود : شهر كانت تؤخره العرب في الجاهلية ، وهو شهر تحريم القتال ، فتجعله « صفر بدلاً من المحرم » ، وتلك عادة من عاداتهم نهى الله عنها .

فعدم معرفة المناسبة ربما تؤدي إلى خلافات حول مقصد النص ، ولكن لا يعتبر ذلك تشابهاً بين ألفاظه .

أهميـــة الدليـــل :

وبعد أن تكلمنا عن متشابهات النصوص ، التي اعتبرت مجالاً للتأويلات ، أصبحت الحاجة ماسة إلى بيان الدليل الذي يساند التأويل الصحيح ، ويبارك وجهته .

ويصبح الموقف أمام أسلوب الخطاب ، إمّا أن يُعرف هذا الأسلوب بنفسه : وإما أن يعرف بنفسه وغيره ، وإما أن يعرف بغيره .

فالكلام المستقل بنفسه في ظهور المراد منه ليس في حاجة إلى حجة ، أو دليل . أمّا ما أُشكل فهمه ، واحتاج إلى غيره في توضيح ما قصد منه ، فهو إلى الدليل أحوج . وهذا هو المجال التأويلي :

يقول ابن الأثير : « الأصل في المعنى أن يحمل على ظاهر لفظه ، ومن يذهب إلى التأويل يفتقر إلى دليل . كقوله تعالى :

« وثيابك فطهر » .

فالظاهر من لفظ الثياب هو ما يلبس ، تأوّل ذهب إلى أن المراد هو القلب لا الملبوس ، وهذا لا بد له من دليل لأنه عدول عن ظاهر اللفظ » (٢) .

فالدليل يمثل جانب الثقل المرجّح لأحد المعاني المحتملة ، ويعمل على الاقتناع بها وقبولها .

وإخوان الصفاء يمثلون أهمية الدليل في قولهم :

---

١ – الآية ٣٧ من سورة التوبة .

٢ – ضياء الدين بن الاثير . المثل السائر ١/٧٤ .

« ولما كان اختلاف الناس بالحزْر(*) ، والتخمين في مقادير الأشياء الموزونة ، والمكيلة ، دعتهم إلى وضع الموازين والمكاييل . . . ، وكذلك اختلاف العلماء في الحكم بالحزر ، والتخمين على الأمور الغيبية عن الحواس ، دعتهم إلى وضع القياسات ليُرفع الخُلْف بها عند النظر ، ولمّا كان في صحة الوزن والكيل يحتاج إلى شرائط من عبارات الصنجات ، وصحة المكيال والميزان ، وتقويم الكيل والوزن بها ، كذلك حكم القياسات التي يعرف بها الحق من الباطل والصواب من الخطأ والخير من الشر يحتاج إلى شرائط ليصح بها الحكم » (١) .

ومن ذلك نرى أهمية الدليل ، والحاجة إليه في الترجيح (أولاً) ، ثم بيان الشروط اللازمة لصحته كدليل (ثانياً) .

فالأدلة كلها ليست على وزن واحد ، إذ يتراوح الدليل بين القوة والضعف ، مما يترتب عليه الحكم بقرب التأويل وصحته ، أو الحكم ببُعده ، أو عدم قبوله ، وقيام الخلافات حوله .

والأصوليون — وهم أصحاب الدليل — يفصّلون القول في هذا المقام فيذهبون إلى أن الدليل يصبح قادراً على صرف اللفظ المراد تأويله إذا كان قوياً في الظهور عليه ، أما إذا كان الدليل ضعيفاً ، فلا قدرة له حينئذ على مساندة التأويل .

وإذا جاء الدليل مساوياً لظهور اللفظ في الدلالة دون ترجيح ، أصبح الموقف متردداً بين الاحتمالين على السوية .

ومن هنا يظهر حرص الأصوليين على ضرورة الدليل ، فالتأويل البعيد عندهم لا يظهر إلاّ إذا كان الدليل الصارف إليه دليلا ضعيفاً .

ومثال ذلك : ما جاء في تأويل أبي حنيفة لقول الله تعالى :

« واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى »

فقد قال باعتبار الحاجة مع القرابة ، وحرمان من ليس بمحتاج من ذوي القربى . وهذا تأويل بعيد ، لأن ظاهر الآية ينص على إضافة الخُمس إلى كل ذوي القربى بلام التمليك .

---

* الحزر هو التقدير .

١ — أخوان الصفا وخلان الوفاء ١/٣٦٤ .

كما تشير الآية إلى أن مناط الاستحقاق هو الترتيب . وذلك لشرفها وخطرها الذي يظهر في تقديمها في الآية . وما ذهب إليه أبو حنيفة من تخصيص للعموم ، دليل بعيد وضعيف » (١) .

فلا بد من قوة الدليل ، وأن يكون لديه من الحصانة ما لا يمكن أحداً منه ، فيرميه بالضعف ، وعدم القدرة على المساندة ، كما ظهر في المثال السابق ، وإن كان هذا المثال قد سيق لتأويل حكم من الأحكام .

أما ما يتعلق بتأويل لفظي ـ كمن أول لفظ « الخليل » في قوله تعالى :

« واتخذ الله إبراهيم خليلا » (٢)

بالفقير ، ونهج طريقاً لغوياً في الدليل على أن لفظ « الخليل » من « الخلّة » وهي الحاجة . وهذا تفسير لغوي صحيح ، فقد أورد صاحب القاموس (*) أن « الخلّة : الحاجة والفقر » .

وقال آخرون : مأخوذ من الخُلّة وهي المحبة والمودة ، التي تتخلل النفس وتمازجها . ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام « واتخذ الله صاحبكم خليلا ، يعني نفسه » (٣) .

ويسوق كل فريق دليله ، والواضح أنها أدلة صحيحة من الناحية اللغوية فالكلمة تطلق على الفقير ، وعلى الصديق ، فمادتها اللغوية واحدة . وإن كان هذا شأن الكلمات العربية في حملها أكثر من دلالة ، إلا أن سياق الأسلوب يحدد الدلالة المطلوبة .

وإن كان كل فريق منهم يسوق دليلا يظهر فيه الاستعمال اللغوي لكلمة « خليل » ، فالقائلون بمعنى « الفقر » ، احتجوا بما قاله زهير في مدح هرم بن سنان :

وإن أتاه خليل يوم مسغبة ... يقول لا غائب مالي ولا حرم

ومن ذهب إلى معنى المحبة التي تتخلل النفس احتج بقول الشاعر :

قد تخللت مسلك الروح مني ... وبه سمي الخليل خليلا

إلا أن تلك الأدلة التي قيلت هي في الواقع حجة على من قالها ، فالاستعمال وحده هو الذي يحدد معنى كلمة « خليل » في شعر زهير بمعنى : فقير .

١ ـ أورده الآمدي في الإحكام ٢/٢٠٤ .
٢ ـ الآية ١٢٥ من سورة النساء .
* القاموس المحيط : الفيروز أبادي ـ مادة خ ل ل
٣ ـ أورده صاحب تفسير المنار ٥/٣٥٨ .

والاستعمال أيضاً يحدد معنى الكلمة في البيت الأخير بالصديق أو الحبيب . فكيف بسياق الآية القرآنية ! ، وتحديد الدلالة فيها يتطلب – إلى جانب مراعاة السياق – ، أن الكلام في حق الله تعالى يوجب مراعاة أدلة أخرى كالوقوف تأدباً أمام ألفاظ القرآن ، والقول فيها بما يتفق وتنزيه الذات الإلهية عن أفعال الحوادث .

وعلى هذا يسوق صاحب المنار تفسيراً : « إن إبراهيم قد اتخذه الله خليلا بأن منّ عليه بسلامة الفطرة ، وقوة العقل ، وصفاء الروح ، وكمال المعرفة بالوحي ، والفناء في التوحيد » فأين أنتم من ذلك ؟ . . ولا تكاد توجد كلمة في اللغة تمثل هذه المعاني غير كلمة « خليل » ، وأما لوازم هذه الكلمة في استعمال البشر ، التي هي خاصة بهم فتنزه الله عنها بأداة العقل والنقل »(١) .

ومعنى هذا أن دلالة الكلمة على المحبة أيضاً ، لا يمكن تركها على الإطلاق فيما يتعلق بسياق الآية ، فالله جل وعلا : منزه عن معنى الاحتياج ، والاختلاط : فالواضح من مقصود الآية – بعد هذا التحليل – أن الله اصطفى إبراهيم لتوحيده ، وإقامة دينه . وأن الذي اختار غير ذلك دليله ضعيف ، وإن أتى به من اللغة ، إلا أن هناك أدلة أقوى من ذلك أبطلته – كما رأينا .

ولعل الدليل العقلي أقرب الأدلة إلى الإقناع ، والاقتناع به ، يساندنا في هذا قول الرازي « الدلائل النقلية لا تفيد اليقين لأنها مبنية على نقل اللغات »(٢) ، لأن النقل في اللغات طريق مظنونة ، وأن الأدلة اللفظية لا يقطع بحجتها تبعاً لذلك . إذ يشترط اللغويون أنفسهم شروطاً في نقل اللغة كشروط نقل الحديث . يقول ابن فارس « فليتحر آخذ اللغة وغيرها من العلوم أهل الأمانة ، والثقة والصدق ، والعدالة »(٣) .

وينقل عنه (عن ابن فارس) السيوطي في المزهر ، المواطن التي يمكن أن يحتج فيها باللغة – وهي المسائل اللغوية – وينكر حجية اللغة فيما للعقل فيه دليل ، خاصة ما يتعلق بعلوم الشرع ، إذ يقول « لغة العرب يحتج بها فيما اختلف فيه إذا كان التنازع في اسم أو صفة أو شيء مما تستعمله العرب من سننها في حقيقة أو مجاز ، أو ما أشبه

---

١ – تفسير المنار ٥/٢٥٨ .

٢ – الفخر الرازي : معالم أصول الدين ص ٩ ط . الخانجي . القاهرة ١٣٢٣هـ الملحق بكتابي «محصل افكار المتقدمين والمتاخرين» ، «وكتاب تلخيص المحصول» .

٣ – ابن فارس : الصاحبي ص ٣٠ .

ذلك ، فأما الذي سبيله الاستنباط ، وما فيه لدلائل العقل مجال ، أو من التوحيد وأصول الفقه وفروعه ، فلا يُحتج فيه بشيء من اللغة »(١) .

وإذا كان هذا هو شأن الدليل اللغوي ، فإننا نجد الدليل العقلي — كما أشرنا إلى ذلك سابقاً — ينهض بالحجة ، خاصةً إذا لم يوافق ظاهر النص مقتضى الحال .

مثال ذلك : قول الله تعالى : « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلاّ أنفسهم وما يشعرون . في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون »(٢).

ومن الثابت أن هذا التعبير (يخادعون الله) لا يمكن أن يجري على ظاهره بل لا بد من تأويل ، وهنا يأتي دور الدلائل العقلية التي تمنع الأخذ بظاهر اللفظ ، إذ يجب أن نعلم أولاً ، ما المخادعة . . ؟ وما المراد بمخادعة الله . . ؟ ولماذا كانوا يخادعون الله . . ؟

لأن الخديعة مذمومة ، والخديعة إظهار ما يوهم السلامة والسداد ، وإبطان ما يقتضي الإضرار بالغير ، فهي بمنزلة النفاق والرياء ، وهو ما ينكره الدين ؛ لأن الدين يوجب الاستقامة ، والعدول عن الغرور والإساءة ، كما يوجب المخالصة لله تعالى . فكيف أنهم يخادعون الله ، ومخادعة الله تعالى ممتنعة ، وعلى هذا فالمقصود هنا لم يكن مخادعة الله ؛ فقد ذكر الله نفسه ، وأراد به رسوله على العادة في تفخيم أمر الرسول وتعظيم شأنه ، يظهر ذلك في مثل قوله تعالى « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » وقال أيضاً « واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه » ، أضاف ما يخص الرسول إلى نفسه . وعلى هذا فإن المنافقين لما خادعوا الرسول ، قيل إنهم خادعوا الله تعالى(٣) .

ففي اللفظ الوارد في هذا المثال خفاء للمعنى المراد ، وإن لم يكن الخفاء من اللفظ نفسه — لأنه ظاهر في دلالته — لكن الخفاء نشأ من عارض ، وهو علم المخادعة لله تعالى مما يؤكده الدليل العقلي . فالمعنى اللفظي هنا ظاهر ولكن التشابه أتى في مراده .

وظاهره محال في حق الله تعالى ، وهنا تتضح أهمية التأويل ، كما تظهر كذلك قيمة الدليل العقلي .

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن الدعوة إلى تحكيم القرائن في دلالة النصوص دعوة متأخرة

---

١ — جلال الدين السيوطي : المزهر في علوم اللغة وأنواعها ١/٢٥٨ ، تحقيق محمد أحمد وآخرين ط . الحلبي — القاهرة .

٢ — آية ٩ من سورة البقرة .

٣ — يرجع الى الفخر الرازي : التفسير الكبير ٢/٤١٦ ط . الحسينية — القاهرة

في الفكر الإسلامي . فقد كان الناس في الصدر الأول يعرفون المراد من سياق الآيات بلا حاجة إلى دليل .

والدليل إما أن يكون متصلا كالدليل العقلي – الواضح في المثال السابق – وكما يشير إلى ذلك القاضي عبد الجبار ، والدليل العقلي كالمتصل لأن الخطاب يترتب عليه ، فقوله تعالى « يا أيها الناس اعبدوا ربكم » مع الدليل العقلي الدال على أنه لا يكلف من لا عقل له ، أكثر في بابه من أن يقول يا أيها العقلاء اتقوا ربكم »(١) .

وإما أن يكون الدليل منفصلا ، وقد أشار الغزالي إلى تلك الدلائل المنفصلة « وقد يكون ذلك الدليل قرينة ، وقد يكون قياساً ، وقد يكون ظاهراً آخر ، أقوى منه »(٢) . . ورب تأويل لا يظهر إلاّ بقرينة ، ومن هذه التأويلات التي تساندها قرائن منفصلة : قول الرسول عليه الصلاة والسلام « إنما الربا في النسيئة » ، ولا يقع في محمول الحديث تخصيص لنوع معين من الربا ، بل حصر لكل أنواع الربا في النسيئة ، فتظهر الحاجة إلى واقعة يساندها نص ، وتلك هي قول الرسول كذلك « لا تبيعوا البر بالبر إلاّ سواء بسواء » نص في إثبات ربا الفضل (وتلك قرينة منفصلة في إثبات ربا الفضل) ، أما قوله « إنما الربا في النسيئة » يحصر الربا في النسيئة (مفهوم من قوله « إنما ») وينفي ربا الفضل ، فالقرينة التي أثبتت ربا الفضل ، وإن كانت تأويلا بعيداً إلاّ أنها أولى من مخالفة النص (الذي حصر فيه الربا في النسيئة)(٣) .

وقرينة العقل في هذا المثال ولو أنها أتت متصلة إلاّ أنه ساندها نص الحديث . والدلائل العقلية مجالها في الشرعيات متسع .

أما الظاهر الآخر الأقوى ، فيأتي عند احتمال معنيين أحدهما أقوى في الظهور من الآخر ، فيجب الحمل على الظاهر الأقوى . وإذا ظهر دليل قوي أوضح أن المراد هو المعنى الخفي دون المعنى الجلي فيحمل عليه .

وإن كان المعنيان واضحين ، واستعمالهما في اللفظ على الحقيقة ، وليس على المجاز ، فأصل الحقيقة يختلف : إما أن تكون حقيقة لغوية في أحدهما ، وحقيقة شرعية في الآخر ،

---

١ – القاضي عبد الجبار : متشابه القرآن ٣٤/١

٢ – الغزالي : المستصفى ٣٨٧/١

٣ – نفس المرجع . (بتصرف)

فالحقيقة الشرعية أولى بالحمل عليها إلا أن تدل قرينة على إرادة الحقيقة اللغوية . كما أشار إلى ذلك الزركشي(١) .

مثال ذلك : قول الله تعالى « وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم »(٢) . والمعنى : ادع لهم ، إن دعاءك تثبيت لهم وطمأنينة ، لأن لفظ الصلاة يدور بين حقيقة لغوية ، وحقيقة شرعية . ولكن القرينة الحالية بالنسبة للرسول هنا تستوجب حمل اللفظ على الحقيقة اللغوية .

وكذلك إذا دار اللفظ بين الحقيقة اللغوية والحقيقة العرفية ، فالعرفية أولى ، لأن الجاري في الاستعمال والمستقر في عرف الناس أولى بالأخذ به .

وإذا دار اللفظ بين الحقيقة الشرعية ، والعرفية ، فالحقيقة الشرعية أولى لأن الشرع ألزم .

أما إذا لم تختلف حقيقة الاستعمال في اللفظ ، بأن يستعمل استعمالا واحداً . كما في اللفظ المشترك ، فالدليل يعتمد — في هذه الحالة — على مقدرة القائم بالتأويل ، بأن يأتي بالأمارات الدالة على صحة التأويل ، وإذا تعددت الآراء وكثرت الخلافات نتيجة لمحاولات المؤولين ، فإن ذلك لم يكن مذموماً ، لأنه نتيجة اجتهاد أهل العلم في الوصول إلى الحقيقة .

وأود أن ألفت النظر هنا إلى أن صحة التأويل لم تقف عند إظهار الدليل فقط ، ولكنها تمتد أيضاً إلى ما بعد الانتهاء من التأويل ، بشرط موافقة الدلالة الجديدة المؤول إليها اللفظ للتركيب الأسلوبي .

فمناط الصحة في التأويل ، هو الوصول إلى حكم صحيح ، وما عملية التأويل نفسها ، والدليل إلا طرق موصلة إلى هذا الحكم .

ويشير الإمام الشاطبي(٣) إلى ما يجب مراعاته في المؤول إليه :

— بأن يكون راجعاً إلى معنى صحيح في الاعتبار متفق عليه في الجملة .

— وأن يكون موضع اللفظ قابلا للمعنى المؤول إليه من الناحية اللغوية بوجه من

---

١ — الزركشي : البرهان في علوم القرآن ٢/١٦٦ .
٢ — الآية ١٠٣ من سورة التوبة .
٣ — الشاطبي : الموافقات ٣/٩٩ .

وجوه الدلالة حقيقية أو مجازية أو كناية . . جارياً في ذلك على سنن اللغة العربية .

مثال ذلك : من تأول قول الله تعالى : «وعصى آدم ربه فغوى» (١) على أن «غوى» من غوِيَ (بكسر الوسط) بمعنى : بَشِمَ من كثرة الأكل(*). وهذا تأويل غير صحيح ، ومعنى الآية أورده القرطبي «غَوَى» أي فسد عليه عيشه ، حكاه النقاش واختاره القشيري . ويقول أبو جعفر الطبري (فغوى) ، فسد عليه عيشه بنزوله إلى الدنيا . والغيّ : الفساد . وهو تأويل حسن . أما التأويل بمعنى : بَشِمَ من كثرة الأكل ، وإن صح على لغة من يقلب الياء المكسور ما قبلها ، ألفاً — فيقول في : فني ، وبقي (بكسر الوسط) فنَى وبقَى (بفتح الوسط) وهم بنوطي إلا أنه تأويل خبيث »(٢) .

وهذا التأويل ، وإن كان موافقاً للغة من جانب إحدى القبائل ؛ إلا أنه غير مقبول في الدلالة التي لم توافق المقام .

ففي الشرعيات لا بد من تقديم العقل ، ومراعاة ظروف النص ، عند التأويل في المقام الأول ، ثم النظر إلى اللسان العربي بعد ذلك . وإن كانت الأخطاء الواردة في التأويل بصفة عامة ترجع — كما قلنا في غير مرة — إلى المتناول للنص وليس في النص نفسه .

ويتضح لنا مما سبق أهمية الدليل ، باعتباره طريقاً موصلة إلى سلامة النص ، وأنه سياج حوله يمنع تحريف النص ، ويبطل زيف المتعرضين له .

ولذا رغبت في أن أستزيد من بيان أنواع الدليل ، فوجدت أيضاً أن المحكم من الآيات ، قد يُلجأ إليه كدليل على صحة التأويل ، وكذلك صحة الأسلوب دليل على صحة التأويل .

يقول الرازي «واعلم أن الله تعالى لم يذكر لفظ المتشابهات إلا وقرن بها قرينة تدل على زوال الوهم الباطل »(٣) .

فهو بذلك يشير إلى وجود المحكمات التي ترجع إليها عند وجود المتشابه ومن ذلك

---

١ ـ الآية ١٢١ من سورة طه .

* جاء في القاموس المحيط : غوى الفيصل : بشم من اللبن ، أو منع الرضاع فهزل وكاد يهلك .

٢ ـ القرطبي : تفسير القرطبي ٤٢٩٧/٦ .

٣ ـ فخر الدين الرازي : أساس التقديس ص ٢٣٠

ــ مثلا ــ قول الله تعالى « الله نور السموات والأرض »(١) ذكر بعدها « مثل نوره » ، فأضاف النور إلى نفسه ، ولو كان تعالى نفس النور لما أضاف النور إلى نفسه ، لأن إضافة الشيء إلى نفسه ممتنعة .

فكل ما كان محلاً للشبهة ، ومجالاً للتأويل من الآيات القرآنية ــ بالرجوع إلى المحكم منها ــ يمكن أن تزال تلك الشبه ، ويُعرف قصد النص . يقول تعالى : « منه آيات محكمات هن أم الكتاب » . وإلى هذا أيضاً يشير « القاضي عبد الجبار » أن « أقوى ما يُعلم به الفرق بين المحكم والمتشابه أدلة العقول ، وإن كان ربما يقوّى ذلك بما يتقدم المتشابه أو يتأخر عنه ، لأنه هو الذي يبين أن المراد به ما يقتضيه المحكم »(٢) ، وهذا ما أوردنا مثاله سابقاً .

وربما يكون الاعتماد على المحكم ــ كدليل لبيان المراد من التشابه ــ هو حمل المحكم لوجه واحد من الدلالة فلا يتطرق إليه رأي ، ولا تلحقه مظنّة ؛ ولذا يمكن أن يكون دليلا ثابتاً يُرجع إليه إذا اشتبه الأمر ، ونلمس هنا تدخل القرينة العقلية في محاولة التوفيق بين المتشابهات عن طريق المحكمات ، فهي أقوى من دليل اللغة .

إذ يقول الله تعالى « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً »(٣) .

فالمعنى المتبادر من الآية هو « الأمر » بالفسق من لدن العلي القدير ، وهو محال في جانب الله تعالى .

إلاّ أن لفظ « الأمر » يفسر بعدة وجوه :

الأول : (أمّرنا) بمعنى أكثرنا ، يقول صاحب القاموس(٤) : آمرَه الله وأمَرَه ــ لُغيّة ــ : كثّر نسلَه وماشيتَه .

الثاني : الأمر بالمعنى المعروف وهو الطلب ، ويمكن أن يكون « أمرنا » بمعنى « قدّرنا » .

الثالث : يقول الشريف المرتضى (« أمرنا مترفيها » المأمور به محذوف ، فربما

---

١ ــ الآية ٣٥ من سورة النور .
٢ ــ القاضي عبد الجبار : متشابه القرآن ٨/١ .
٣ ــ الآية ١٦ من سورة الاسراء .
٤ ــ القاموس المحيط للفيروز آبادي (أمر) .

يكون الأمر بالطاعة كقولك : أمرته فعصى . (ويرد هذا الوجه) قول الله تعالى في الآية السابقة « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ») (١) .

وربما يكون الوجه الثالث هو أقرب الوجوه إلى تأويل الآية . كما أن من العلماء من يرجع إلى المحكم الذي يحمل معنى شرعياً أو عقلياً واضحاً ، فالآية المحكمة التي يمكن الرجوع إليها بالنسبة للآية السابقة « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون »(٢) .

ومن المعاني المتشابهة التي يُرجع فيها إلى المحكم أيضاً : قول الله تعالى « نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون »(٣) ، والمعنى الظاهر النسيان هو ضد العلم بالشيء ، نتيجة التفريط في تذكره حتى يغيب عن الحفظ .

ويتضح أن الآية تحمل معنى راجحاً هو « النسيان » ، ومعنى مرجوحاً هو « الترك » بمعنى « نسوا الله أن يتقربوا إليه بالإنفاق في سبيله »(٤) فتركوا بذلك حق الله . وهذا هو المعنى الواجب حمل اللفظ عليه ، خاصة وأنه يوافق آية محكمة وهي قوله تعالى « وما كان ربك نسياً »(٥) .

أما شرط موافقة الأسلوب كدليل على صحة التأويل ، فيتضح إذا ما تناولنا لفظاً كلفظ « السجود » ، فاللفظ في حالة إفراده يحمل معنى متشابهاً ، يتحدد هذا المعنى إذا انتظم في أسلوب .

فهناك فرق بين السجود لله ، والسجود لآدم . فالسجود لله عبادة ، والسجود لآدم ليس سجود عبادة .

فيستدل على معاني الألفاظ بما تقدمها من الكلام ، وربما تأخر عليها ، وأحياناً يتمرّد اللفظ على الأسلوب فلا يُسلم قياده للسياق في تحديد معناه . وهنا يلزم التوقف . ومثال ذلك قول الله تعالى « والليل إذا عسعس » : فمعنى « عسعس » الليل أقبل ظلامه

---

١ ـ الشريف المرتضى : أمالي المرتضى ٢/١ .

٢ ـ الآية ٢٨ من سورة الأعراف .

٣ ـ الآية ٦٧ من سورة التوبة .

٤ ـ الآية ٦٤ من سورة مريم .

٥ ـ تفسير المنار ١٠/٤٦٠ .

أو أدبر وهو من الألفاظ المشتركة بالتضاد ، وهي ألفاظ تكثر الآراء بشأنها — كما سبق أن ذكرنا — .

وللسياق في تحديد المعنى أثر كبير ، فهناك من ألفاظ الأمر — مثلا — ما هي على وزن واحد ، ولكنها لا تتساوى في المفهوم طبقاً للسياق . ومن ذلك « أقيموا الصلاة » مفهوم الأمر هنا الفرض . ومنها « أشهدوا ذوي عدل منكم » مفهوم الأمر هنا بيان الحكم ، وقوله تعالى « اعملوا ما شئتم » الأمر هنا للتهديد .

ويستنتج أحدُ علماءِ الغرب اللغويين نظريةً ، توافق ما أثاره العرب حول مناسبة دلالة اللفظ للأسلوب . إذ يقول « حينما نقول بأن لإحدى الكلمات أكثر من معنى في وقت واحد ، نكون ضحايا الانخداع إلى حد ما . إذ لا يطفو في الشعور من المعاني المختلفة التي تدل عليها إحدى الكلمات إلا المعنى الذي يُعيّنه سياق النص »(١) .

فلم يكن هذا جديداً على علماء العربية الذين قالوا به منذ قرون مضت ، إذ استمدوا نظرية النظم من الكتاب الكريم ، وكثرت أبحاثهم حولها .

وكثير من الطاعنين في الإسلام يتخذون من الآيات قطاعات لفظيةً غير متكاملة ، ويمنحونها دلالات غير الدلالات التي نزلت من أجلها .

كما جاء في تأويل قول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً »(٢) . بأخذ جزء من الآية « ولا تقتلوا أنفسكم » ، وبتره عن باقي الآية ، يظهر في هذه الجملة وحدها دون النظر إلى سياقها ، أن النهي إنما هو عن قتل الإنسان لنفسه وهو « الانتحار » . إلا أن مفهوم هذه الجملة من خلال الأسلوب « لا يقتل بعضكم بعضاً » ، واختير هذا التعبير في القرآن للإشعار بتعاون الأمة ، وتكافلها والحفاظ على وحدتها . كما تقدم في نكتة التعبير عن أكل بعضهم مال بعض . كما في أول الآية (٣) .

والواضح أن تلك الدلالات الأسلوبية للكلمات — إذا صح هذا التعبير — هي دلالات

---

١ — ج . فندريس (اللغة) ص ٢٢٨ تعريب د . الدواخلي ، د . القصاص . ط . الانجلو المصرية . القاهرة ١٩٥٠ .

٢ — الآية ٢٩ من سورة النساء .

٣ — أورد هذا المثال صاحب تفسير المنار ٥/٣٦ وتناولته بشيء من التوضيح والتصرف .

مؤقتة تتغير بتغير الأسلوب وظروفه ، وهو موضوع يحتاج إلى حذر و .. ، خاصة عند تناول الأساليب الدينية .

فإذا أغفلت الدلالات في تأويل النص الديني ، سهل على من لا خلاق لهم — من أصحاب المذاهب — العبث بالدلالة القرآنية ، ونصوص الحديث .

وصار كل من يسنح له قول ، أو يخطر بباله شيء ، يلصقه على النص الديني ؛ حتى أصبحت كتب التراث الإسلامي لا تخلو من هذه الضلالات .

وإن كان التأويل هو الذي مهد لهم ، فلا بد من أن نضع تلك الظاهرة موضع العناية ، وأن نحوطها بالأدلة الحازمة ، لترشد إلى كل ما هو صحيح ومقبول عقلا وشرعاً ولغة ، فالدليل يقول عنه ابن حزم أنه « عبارة يتبين بها المراد »(١) .

وإن كنا قد انتهينا من الكلام عن الأسلوب وأهميته في الدلالة القطعية ، فإن هذا قد يدعونا إلى التذييل بكلمة عن أهمية معرفة أسباب نزول النص ؛ فتلك المعرفة قد يتوقف عليها في بعض الأحيان التوصل إلى تأويل صحيح .

فأسباب النزول توضح لنا وجه الحكمة الباعث على تشريع ما ، وهذا بدوره يساعد على توجيه الدلالة ومعرفتها . « فبيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز ، وهو أمر تحصل للصحابة بقرائن تحتف بالقضايا ، ومنها أنه قد يكون اللفظ عاماً ، ويقوم الدليل على التخصيص ، فإن محل السبب لا يجوز إخراجه بالاجتهاد والإجماع »(٢) .

مثال ذلك : قول الله تعالى : (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا »(٣) . أورد « الواحدي » في أسباب النزول ، عن هذه الآية ما نصه « مات أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهم يشربون الخمر ؛ فلما حرمت قال آخرون : كيف لأصحابنا ؟ ماتوا وهم يشربونها ؟ فنزلت هذه الآية »(٤) .

---

١ — ابن حزم : الاحكام فى اصول الاحكام ٣٩/١ .

٢ — الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ٢٢/١ (نقلها عن قول أبى الفتح القشيرى) .

٣ — الاية ٩٣ من سورة المائدة .

٤ — أبو الحسن على بن أحمد الواحدى (٤٦٨ هـ) : أسباب نزول القرآن ص ٢٠٤ . ط . دار الكتاب الجديد القاهرة ١٩٦٩ .

فاللفظ العام هنا يقرر حكماً خاصاً بجماعة بعينها ، ومع هذه المناسبة يقول الزركشي « عن عثمان بن مظعون ، وعمرو بن معد يكرب أنهما كانا يقولان : الخمر مباحة ، ويحتجان بهذه الآية في تحليل الخمر »(١) .

والواضح أن من تأوّل الآية هذا التأويل ، ويتخذ منه ذريعة في تحليل الخمر ، إنما خفي عنه سبب النزول ، وقد أدّاه هذا إلى تأويل فاسد — كما رأينا — . فمن المأثورات : المناسبة أمر معقول ، إذا عرض على العقول ، تلقته بالقبول .

وكانت أسباب النزول من العوامل التي جعلت البعض يمتنع عن التأويل حتى لا يتعرض للخطأ . يقول ابن تيمية خبراً بسنده « سألت عبيدة السلماني عن آية من القرآن فقال : ذهب الذين كانوا يعلمون فيما أنزل »(٢) ومعنى هذا أن معرفة أسباب النزول من أدلة التأويل الصحيح ، فتعيين الظروف المحيطة بالنص تساعد على فهمه .

وخلاصة القول : إن الكلام إذا تيسر حمله على ظاهره ، وتمكن من من الاستقلال بنفسه ، في دلالة واضحة ، يحمل على ما يقتضيه .

أما إذا امتنع حمل الكلام على الظاهر ، ولزم التأويل كضرورة من الضرورات ، وجب البحث عن الوجه الذي يمكن حمل الكلام عليه ، وطلبت في ذلك الأدلة على اختلاف أنواعها ، وأصبحت مساندتها وتأييدها الوجه المحمول عليه الكلام أمراً ضرورياً في الحصول على تأويل صحيح .

نماذج لبعض التأويلات من الناحية اللغوية :

كان طريق اللغة من أهم الطرق التي اتبعها العلماء في التأويل ، فظاهرة التأويل تتعلق أساساً باللفظ ودلالته ، وإن كان العقل أيضاً دخل كبير في إعمال تلك الظاهرة .

إذ المنازعات التي ثارت عن طريق التأويل منازعات لفظية ، حتى إذا تدخّل العقل فإنه يرشد إلى وجه دلالي مقبول ، ونعرض هنا بعض النماذج لنوضح تأويلها من الناحية اللغوية حتى نتعرف على موقف اللغة من التأويل .

أما التأويلات العقلية الصرفة ، ومثالها قول الله تعالى « هو الذي خلق لكم ما في

---

١ — الزركشي : البرهان في علوم القرآن ٣٥/١ .
٢ — ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير ص ٣١ .

الأرض جميعاً »(١) : يقول ابن تيمية « إن أصحاب الجبر يقولون بخلق كل الأفعال كالفساد والظلم ، وما إلى ذلك . كما يدل ظاهر الآية . . . ، وأصحاب الاختيار يقولون : يكون الفعل خلقاً من الله وإبداعاً وإحداثاً ، وكسباً من العبد لوقوعه مقارناً لقدرته »(٢) .

ومن التأويل الذي قاله أصحاب الجبر وأصحاب الاختيار يتضح منه أن الجانب اللغوي لم يتدخل فيما ذهب إليه كل فريق ، فالتأويل هنا عقلي عقدي وليس لغوياً .

وتلك أنواع من التأويل لا تتعرض لها كثيراً إلا إذا لزم الأمر — كالحاجة إلى المقارنة هنا — لأنها لا تدخل في نطاق البحث ، فالبحث يتناول ظاهرة التأويل من ناحية اتصالها باللغـــة .

النموذج الأول : يقول الله تعالى « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسئلن عما كنتم تعملون »(٣) .

يتخذ أهل الجبر هذه الآية على أن الله أجبر العباد على كل شيء حتى أفعال المعاصي ، فينسب من يشاء إلى الضلال ، وينسب من يشاء إلى الهدى . واتجاههم هذا لا يصح في النظر واللغة . إذ لو قام هؤلاء بتحليل الآية تحليلا لغوياً . كما قال ابن قتيبة « لم يكن في ذلك نسبة ... فلو كانت هناك نسبة لأصبح الفعل يضللهم أي ينسبهم إلى الضلال » (٤) . فمن معاني الفعل المضعف الرباعي — ضلل على وزن فعل — « نسبة الشيء إلى أصل الفعل كما يقال : فسقت زيداً ، أي نسبته إلى الفسق »(٥) .

أما الثلاثي ومنه « ضل » وهو المذكور في الآية فلا نسبة فيه ، والمعنى المفهوم « يخذل من علم أنه يختار الكفر ويصمم عليه ، ويلطف بمن علم أنه يختار الإيمان يعني أنه بنى الأمر على الاختيار . . . ولم يبنه على الإجبار » (٦) ، وهذا المعنى أورده الزمخشري ، ومن المعروف أنه معتزلي المذهب : والمعتزلة على النقيض من أصحاب الجبر ، فأتيت

---

١ — الآية ٢٩ من سورة البقرة .
٢ — ابن تيمية : مجموعة الرسائل والمسائل ١٤٢/٥ ، الشهرستاني : الملل والنحل ١٠٨/١ .
٣ — الآية ٩٣ من سورة النحل .
٤ — ابن قتيبة : الاختلاف فى اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة ص ١٤ .
٥ — الاستاذ الشيخ احمد الحملاوى : شذا العرف فى فن الصرف ، ص ٤٣ ط . الحلبى . القاهرة ١٩٦٥ .
٦ — الزمخشرى : الكشاف ٥٣٤/١ .

بتفسير آخر للقرطبي لأنه يمثل موقفاً محايداً «معنى : يضل من يشاء : بخذلانه إياهم عدلاً منه فيهم ، ويهدي من يشاء : بتوفيقه إياهم فضلا منه عليهم»(١) .

فالاتجاه اللغوي واضح في أن الفعل ليس منسوباً ، ولكن الاتجاهات المذهبية : من جبر واختيار أثرت في توجيه الدلالة بما يتفق والمذهب .

فإذا وجد انحراف في التأويل فإنما يكون نتيجة ظروف غير لغوية ، ومن هنا كانت تتمثل جنايات التأويل وخطورته عند من يتناول النص ، ويستغله في أغراض خاصة .

وإلى هذا يشير ابن جني في :

«باب فيما يؤمنه علم العربية من الاعتقادات الدينية . . . أن أكثر من ضل من أهل الشريعة عن القصد فيها ، وحاد عن الطريقة المثلى إليها فإنما استهواه ضعفه في هذه اللغة . . . التي خوطب الكافة بها . . . وأصل اعتقاد التشبيه لله تعالى بخلقه منها ، وجاز عليهم بها وعنها ، وذلك أنهم لما سمعوا قول الله سبحانه وعلا عما يقول الجاهلون علواً كبيراً «يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله» . . . ونحو ذلك من الآيات الجارية هذا المجرى . . . ونعوذ بالله من ضعفة النظر وفساد المعتبر . ولو كان لهم أنس بهذه اللغة الشريفة ، أو تصرف فيها ، أو مزاولة لها ، لحمتهم السعادة بها ، ما أصارتهم الشقوة إليه بالبعد عنها» (٢) .

وابن جني يشير إلى ضرورة الأنس باللغة ، ومعرفة مراميها لمن أراد البعد عن تحريف النصوص أو الوقوع في التشبيه والتجسيم .

النموذج الثاني : فقد ذكروا أن الله تعالى أنزل آيات تدل على أنه جسم يجوز عليه الأبعاض والأعضاء ، قال تعالى :

«ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله» (٣) .

واحتجوا عن طريق اللغة ، بقولهم إن من حق المضاف أن يكون غير المضاف إليه في حقيقة اللغة ، فله تعالى وجه ، ولا يكون الوجه هو نفسه .

والمراد هنا ذاته تعالى ، ويصلح من الناحية اللغوية أن يذكر الوجه ويراد به نفس

---

١ ـ القرطبي : تفسير القرطبي ٢٧٨٨/٦ .

٢ ـ ابن جني : الخصائص ٢٤٥/٣ .

٣ ـ الآية ١١٥ من سورة البقرة .

الشيء ، كما يقال : وجه الطريق ووجه الرأي على سبيل المجاز (١) .

وكما أشار ابن جني لم يكن لهم معرفة بوجوه اللغة ولا إحساس بهديها .

فمن المناسب في هذا المقام القول بما جاء في آخر المثال على التجوز .

وإلى مثل هذه التشبيهات كانت تذهب وجماعة من غلاة الشيعة . . . قالوا : معبودهم صورة ذات أعضاء وأبعاض إما روحانية أو جسمانية ، يجوز عليه الانتقال والنزول والصعود والاستقرار ، ولكن ليس كالأعضاء المعروفة » (٢)

وهذه مواقف عقدية لغوية كان لها خطرها في الدين الإسلامي الذي ارتبط فهم شريعته باللغة ، تلك التي هضم المغرضون حقها في الدلالة ، وكان من الأولى أن يتبع هؤلاء وجهاً مناسباً من وجوهها ، مما لا يدع مجالاً للتشبيه والتجسيم ، خاصة فيما يتعلق بالله تعالى من صفات .

فاتباع نحلة * أو اعتناق مذهب ** لا يبرر تطويع النص الديني إلى ما يتفق وهذه النحلة أو ذاك المذهب . فاللغة لها مقاييس ومعايير لا بد من اتباعها ، كما أن العقل كذلك .

النموذج الثالث : ومن دقائق اللغة ما هو في حاجة إلى معرفة ، يحس بها صاحبها الفروق اليسيرة في مفرداتها .

ومثال ذلك : الحروف المتقاربة التي تختلف في اللفظ فتختلف معها إيحاءات الكلمة يوردها الزركشي « وزاده بسطة في العلم والجسم » (٣) ، « وزادكم في الخلق بصطة » (٤). « يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » (٥) . « والله يقبض ويبصط » (٦) .

---

١ ــ أورد المثال ــ القاضي عبد الجبار : متشابه القرآن ١٠٥/١ • الفخر الرازي : أساس التقديس ص ١٤١ وما بعدها • ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ص ١٩٨ .

٢ ــ ابو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (٥٤٨ هـ) : الملل والنحل ١٣٩/١ ط• الادبية • القاهرة ١٣١٧ هـ •

* النحلة هي الادعاء او الدعوى •

** المذهب هو المعتقد (اما «الملة» فهي الشريعة او الدين) •

٣ ــ الآية ٢٤٧ من سورة البقرة •

٤ ــ الآية ٦٩ من سورة الاعراف •

٥ ــ الآ ٢٧ من سورة الرعد •

٦ ــ الآية ٢٤٥ من سورة البقرة •

فبالسين « السعة الجزئية » التي تتعلق بنوع كالجسم أو العلم أو الرزق ، وبالصاد « السعة الكلية » ، بدليل علو معنى الإطلاق ، وعلو الصاد مع الجهارة والإطباق ، فهي تتعلق بالخلق ، وبمقدرة الله تعالى » (١) .

فاللفظ من خلال السياق المناسب يكتسب إيحاءات معينة ، وربما لا نجدها في المعنى اللغوي الخالص للكلمة ، فقد جاء في القاموس المحيط : بسط معنى بصط (٢) .

أما حروف المعاني ، فقد يختلف المؤولون حولها ، كما في (أو) وهو حرف للتخيير بين شيئين ، كقوله تعالى :

« فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة » (٣) . وقد تأتي بمعنى « واو النسق » كقول الله تعالى :

« فالملقيات ذكرا . عذرًا أو نذرا » (٤) .

يقول القرطبي « . . . يعني الرسل يعذرون وينذرون ، وروى سعيد عن قتادة «عذرا» قال : عذرًا لله جل ثناؤه إلى خلقه ، ونذرًا للمؤمنين ينتفعون به ويأخذون به » (٥) .

ويورد ابن قتيبة من المشكل الحادث من جراء حروف المعنى ، وضرورة مراعاة التأويل الصحيح لها ، فيقول : وأما قوله تعالى :

« وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون »

فإن بعضهم يذهب إلى أنها بمعنى « بل يزيدون » على مذهب التدارك . . . وكذلك قوله « وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب » . . . وليس كما تأولوه ، وإنما بمعنى الواو في جميع المواضع » (٦) .

كما نورد مثالا للبطليوسي (٧) ، يبين فيه إلى أي مدى يلعب المتأولون بالحروف ، وما يؤدي هذا من تغيير في المعنى ، إذ يقول (الآية) وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى

---

١ ـ الزركشي : البرهان في علوم القرآن ٤٢٩/١ .
٢ ـ القاموس المحيط مادة «بسط» .
٣ ـ الآية ٨٩ من سورة المائدة .
٤ ـ الآيتان ٥ ، ٦ من سورة المرسلات .
٥ ـ القرطبي : تفسير القرطبي ٦٩٤٧/١٠ .
٦ ـ ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ص ٤١٤ .
٧ ـ البطليوسي : الانصاف ص ٢٣ .

النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن » قال قوم : معناه وترغبون في نكاحهن لمالهن (الأموال) . وقال آخرون : إنما أراد وترغبون عن نكاحهن لدمامتهن ، وقلة مالهن . وإنما أوجب هذا الخلاف أن العرب تقول : رغبت عن الشيء ، إذا زهدت فيه ، ورغبت في الشيء ، إذا حرصت عليه . . . والحرف يحتمل التأويلين المتضادين .

فصار كقول القائل :

ويرغب أن يبني المعالي خالد ويرغب أن يرضى صنيع الألأم

فهذا البيت يحتمل أن يكون ملحاً وأن يكون ذماً ، فإن جعلت الرغبة الأولى مقدرة « بفي » والثانية مقدرة « بعن » كان ملحاً . وإن جعلت الأولى مقدرة « بعن » والثانية مقدرة « بفي » كان ذماً .

النموذج الرابع : من التأويلات اللغوية كذلك ما يؤثر فيها الاعراب : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يقتل قرشي صبرا (*) بعد اليوم » فمن رواه « بجزم الفعل » أوجب ظاهر الكلام للقرشي أن لا يقتل إن ارتد ، ولا يقتص منه إن قتل ، ومن رواه « برفع الفعل » انصرف التأويل إلى الخبر عن قريش أنه لا يرتد منها أحد عن الإسلام فيستحق القتل » (١) .

وهكذا تؤثر حركة الإعراب في دلالة النص ، وما بين أيدينا نص صاحب الرسالة ، والتأويل يصل به إلى تقرير مبدأ ، أو التصريح بحكم .

النموذج الخامس : معرفة أوجه اللغة أمر ضروري في اختيار ما يناسب النص الديني ، وقصر المعنى على الوجه المراد . فقد قالوا في قول الله تعالى :

« ووجدك ضالاً فهدى » (٢)

فإن لفظة « الضلال » تقع على معان كثيرة ، توقع البعض أنه أراد الضلال الذي هو ضد الهدى ، وزعموا تبريراً لذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام ، كان على مذهب

---

* صبرا : معناها الحبس ، أو الانسان للقتل (اى يحبس ويرمى حتى يموت) أوردها القاموس المحيط مادة (صبر) .

١ ـ ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ص ١٢ .

٢ ـ الآية ٧ من سورة الضحى .

قومه أربعين سنة — وهذا خطأ فاحش — فقد طهّره الله تعالى لنبوته ، وارتضاه لرسالته ، (ومن سيرة الرسول رد على مزاعمهم) فقد سُمّيَ في الجاهلية الأمين ، وكانوا يرتضونه حكماً لهم وعليهم . . . والله سبحانه وتعالى إنما أراد « الضلال » الذي هو الغفلة ، كما قال في مواضع أخرى « لا يضل ربي ولا ينسى » أي لا يغفل (١) .

وهذا هو الوجه الدلالي المناسب في تأويل الآية ، وقد يتمكن الطاعنون في نبوة محمد من اتخاذ الوجه الدلالي الآخر ، سبيلا إلى القول بما لا يُرتضى في حق الرسول .

موقف اللغـــة :

ومن تلك النماذج يتضح إلى أي مدى تساهم معرفة اللسان العربي في حل مشاكل التأويل .

- فقد تؤثر مفردات اللغة بمدلولاتها حسب الوضع في ظاهرة التأويل ، إذ يشار أحياناً إلى دلالة ربما تكون غير مقصودة في السياق ، وهي صحيحة من الناحية اللغوية . وهذا تقصير من متناول النص وليس تقصيراً من اللغة .

- ولفروع اللغة المختلفة دخل كبير ، فقد يتغير المعنى ويختلف باختلاف الإعراب ، وقد تستعمل حروف المعاني بعضها بدلا من الآخر .

والواضح أن التصدي للتأويل يتطلب فهماً صحيحاً بالقرآن الكريم ، ومعرفة ثاقبة باللسان العربي وبوجوهه المختلفة .

أما ما حدث من تحريفات وتأويلات فاسدة فهذا راجع إلى تعنت المؤولين ، وطلبهم دلالة لغوية لا تناسب مؤدى السياق وقصده ، فاللغة العربية بها من أوجه الاستعمال ما يمكن من ذلك .

فقد كانت تأويلات المعتزلة — مثلا — منها ما هو مقبول ، ومنها ما يتعسفون في تأويله ليوافق مذهبهم ، ومع كل هذا فقد كانوا يسلكون مسلكاً لغوياً يُبلون فيه مهارة ونفاذاً ، إلى جانب أن تمكنهم من اللغة جعل بعض تأويلاتهم صحيحة ومقبولة . ويمكن لمن يريد التعرف إلى هذه المحاورات اللغوية للمعتزلة . أن يطلع على « أمالي السيد المرتضى » : الشريف المرتضى .

---

١ — المثال أورده البطليوسي في الانصاف ص ٧٢ (بتصرف)

واللغة — كما قلنا — يكثر فيها الاحتمال ، وهو متفاوت ، ففيها ما هو محتمل في أصل اللغة كالألفاظ المشتركة ، وفيها ما يدل على أمرٍ واحد إلاّ أنه من خلال النظم يمكن أن يحمل على وجه آخر غير ظاهر .

وفي حالة حمل الألفاظ على وجوه أخرى ، يجب أن يكون ذلك الوجه قريباً من دلالة اللفظ . فلا يقبل — مثلا — تأويل لفظ البقرة — بعائشة ، كما قالت الشيعة .

وكل هذه الأمور يحتمها الموقف اللغوي إذا أردنا الحصول على تأويلات صحيحة . فمن لم يضع كل هذه الاعتبارات عند وقوفه أمام النص الديني بخاصة ، ذهب فيه كما ذهب أصحاب الكلام .

واللغة لديها من المقدرة ما يمكنها من علاج تلك المواقف اللغوية التي أفسدها المتأولون — بالبعد عن منطق اللغة وهديها .

وما ذكرناه من تحليلات لغوية مع كل نموذج من النماذج السابقة يوضح موقف اللغة من التأويل .

الموضوع الحادى عشر

أسباب النزول

المحتوى ..

* أهميتها ..
* قرينة معاونة فى الفهم ..
* لمحة تاريخية، وطريق معرفة..
* رأى حول تكرار النزول ..
* مايجب مراعاته ..
* فوائد ..

الأهمية :

إن معرفة أسباب النزول تسهم إلى حد كبير في فهم معاني القرآن ، ويشير العلماء دائما إلى هذه الحقيقة ، إذ يقول الشاطبي ..

«ومعرفة أسباب النزول لازمة لمن أراد علم القرآن ...» (١)

وعلم القرآن يعني به المعرفة الكاملة ، وإدراك ما ترمي إليه الآيات ، ولن يتم الادراك إلا بالتعرف على الأسباب . يقول ابن تيمية ..

«ومعرفة أسباب النزول تعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب...» (٢)

يريد ابن تيمية أن يوضح طريق المعرفة والفهم ، وارتباط ذلك بالأسباب، ومعلوم أن هذا الارتباط قاعدة في تحصيل المعارف عامة .

وفي كلا القولين تصريح يوضح أهمية معرفة الأسباب ، ومدى إسهامها في إدراك وفهم المعاني الدقيقة التي احتوتها آيات القرآن .

وكما أن أسباب النزول تعين على فهم الآيات ، فإنها أيضا تعمل على المعرفة الكاملة بظروف النص ، وملابساته ، وارتباطه بالواقعة ، ووضوح الأحوال عند التنزيل . ومن خلال تلك المعلومات يتبين لنا أن النص القرآني موافق لمقتضيات

---

١) أبو اسحاق الشاطبي : الموافقات في أصول الشريعة ٣/ ٢٤٧ المكتبة التجارية القاهرة .

٢) ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير ص ٤٧ ـ تحقيق د: عدنان زرزور مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٧٢ .

الأحوال ، يلبى مطالب الناس وحاجاتهم .وهذا من ألوان الخطاب الذى يمثل قمة البلاغة المعجزة فى كتاب الله . كما ندرك أيضا أن الآية القرآنية قد جاءت فى ظروف مناسبة وملائمة ! ولاشك أن هذا كله يعمل على كشف الغموض ، والتعرف على الدلالات المقصودة . . .

فإذا كان فهم النص الأدبى تعوزه الحاجة إلى مثل هذه الدراسة . كالتعرف على قائله ، والدواعى التى من أجلها جاء النص ، والهدف المقصود من ورائه ، وكافة الظروف المحيطة به ؛ حتى يتمكن الدارس من إدراكه ، وفهم أبعاده ، وانقشاع كل الملابسات التى قد تعوق توضيحه ، فما بالك بنصوص القرآن !.

وفى مجال البلاغة ـ أيضا ـ تعمل مقتضيات الأحوال على توجيه الأسلوب بما يوافق الظروف والملابسات ، حتى يمكن التعرف على الغرض الذى سيق الأسلوب من أجله . فإذا خرج الاستفهام عن غرضه الأصلى إلى غرض التقريع والتوبيخ ، أو خرج الأمر إلى غرض الإباحة أو التهديد والتعجيز ، وأشباه ذلك . . فإنما يخرج ليوافق الأسباب ، ومقتضى الحال .

ومن المسلم به أن الأسباب عندما تتهيأ حول أمر ما ، أمكن أن نستوعب هذا الأمر ، ويغدو من اليسير أن نتوصل إلى حقيقته ، والإحاطة به إحاطة كاملة ، فمعرفة أسباب النزول لم تكن مقتصرة على ما يحدث فى البيئة الزمانية والمكانية فحسب ، بل هو اتصال وثيق الصلة بالنص القرآنى نفسه ، يعمل على فهم الدلالة المقصودة من وراء الأسلوب .

فإذا قرأنا قول الله تعالى .

«ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم» (الآية ١١٥ من سورة البقرة)

وجدنا ظاهر الآية يدل على أن الإنسان يمكنه أن يصلى إلى أى جهة شاء، وهو أمر يصادفنا كثيراً، وقد يستعين بعض الناس بهذه الآية لتبرير اتجاههم فى الصلاة إلى أى وجهة يريدون .

وقد يفهم من النص بألا ضرورة أن يولى الانسان وجهه شطر المسجد الحرام.

ولكن عندما نعرف سبب النزول يتغير مفهومنا للآية ، التى جاءت من أجلها فهى تعنى حالة السفر خاصة ، أو فيمن صلى باجتهاده فأخطأ الاتجاه الصحيح ، ثم تبين له خطأ الجهة التى قصدها فيتضح آنذاك أن ظاهر الآية غير مراد . وإنما المراد هو التخفيف على المسافر، أو على المجتهد إذا افتقد وسيلة التحديد فصلى وتبين له خطؤه بعد ذلك .

ويسوق النيسابورى سبب نزول هــذه الآية ؛ فيحكى خبرا بسنده عن جابر بن عبد الله . . .

« بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية كنت فيها (أى جابر ابن عبد الله) ، فأصابتنا ظلمة ؛ فلم نعرف القبلة ، فقالت طائفة منا : قد عرفنا القبلة هى ههنا قبل الشمال . فصلوا وخطوا خطوطاً وقال بعضنا: القبلة ههنا قبل الجنوب وخطوا خطوطاً، فلما أصبحوا، وطلعت الشمس ، أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة ؛ فلما قفلنا من سفرنا سألنا النبى صلى الله عليه وسلم عــن ذلك ؛ فسكت ، فأنزل الله تعالى «ولله المشرق والمغرب . . » الآية » (1)

---

1) أبو الحسن على بن احمد الواحدى النيسابورى. أسباب النزول. ص ٢٠ ط. ثانية مطبعة الحلبى ـ القاهرة ١٩٦٨

وهكذا فإن الجهل بالمناسبة يصعب معه الإدراك الكامل لأغراض النصوص، ويحملها – في أغلب الأحيان – إلى غير مقصدها، اذ يتصدى الدارس للنصوص القرآنية محاولا التعرف على معناها، والتفهم لمقاصدها، ولن يتحقق له هذا مالم يكن قد ألم بخلفية التنزيل، ليتعرف على ظروفه الاجتماعية والتاريخية، – ونحو ذلك – مما يعينه على العلم، والفهم الدقيق لهذه النصوص.

فالقرآن جاء وفقا لهذه المقتضيات، ولم يأت دفعة واحدة – كما هو معروف – بل معالجاً، وموضحاً، ومعلماً كلما دعت الحاجة الى ذلك.

«فمنذ اللحظة الأولى لنزول القرآن أصبح لدى النبي الأمي شعور بأن كتابا قد طبع في قلبه، ولكن لم يكن له أن يتصفحه كما يشاء ولا أن يطلع عليه كما يهوى، اذ أنه سيوحى اليه كلما دعت حاجة الرسالة..»(1)

فالمناسبة هي الطريق الاساسي الذي سلكه التشريع الاسلامي، منذ البداية، والدعامة الحقيقية لمنهج الدعوة.

وتبدو أهمية التعرف على أسباب التنزيل واضحة عندما نراها تخالط كل مجالات المعرفة القرآنية. ومما يلفت النظر – في هذا المجال – ماذكره «أبو عبيدة» في كتابه «مجاز القرآن» وان كان عنوان الكتاب دالا على موضوعه، الا أنه لم يغفل ذكر أسباب النزول عند اقتضاء فهم النص اذ تسهم معرفة النزول – أيضا – في فهم الدلالة المجازية، رغم أن الصبغة الغالبة على هذا المؤلف هي الناحية اللغوية والبلاغية. اذ يستعين على توضيح الآيات بما يستشهد به من الشعر العربي

١ – مالك بن نبي. الظاهرة القرآنية ص ١٤٢ دار الفكر – لبنان

الا أنه في بعض الأحيان لايجد الغناء عن ذكر أسباب النزول استدراكا منه لضرورة معرفة هذه الاسباب ، وفاعليتها في فهم الآية القرآنية ، ولقد تعرض «أبو عبيدة» لذلك عندما أراد توضيح الآيات الكريمة في سورة «الكافرون» ، يقول . . .

«لا أعبد ماتعبدون . ولا أنتم عابدون ماأعبد . أي لا أعبد الآن ما تعبدون ، ولا أجيبكم فيما بقى أن أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ماأعبد . (ولبيان المعنى يقوم بذكر القصة) فيقول . التمثيل أن الكافرين دعوا النبي صلى الله عليه وسلم الى أن يعبد آلهتهم ويعبدون إله النبي ، ويؤمنون به فيما مضى والآن ؟ فأنزل الله عليه « لا أعبد ما تعبدون » في الجاهلية ، ولا أنتم عابدون ما أعبد» في الجاهلية والاسلام .» (١)

وهكذا لم نجد أية وسيلة أخرى من وسائل التعرف على أهداف النص - في مثل هذه الحالة - إلا معرفة السبب ، وما احتفت بهذا النص الذي بين أيدينا من ظروف ، كان الكافرون يحاورون فيها الرسول ، وجاءت الآيات توضيحا وبيانا لهذا الموقف .

ونظراً لأهمية أسباب النزول أفرد العلماء لها مؤلفات بكاملها ، ومنهم من أفرد لها بابا ضمن مؤلفه . أما كتب التفسير ، وعلوم القرآن فلا تخلو منها

---

١) أبو عبيده معمر بن المثنى . مجاز القرآن ٢ / ٣١٤ - تحقيق فؤاد سزكين مطبعة الخانجي - مصر

بالضرورة ، ، وقد بين «السيوطي» (1) تصانيف القدماء في هذا الفن ،فقد عرف هذا العلم قديما ، وصنفت فيه كتب كثيرة ، وقـــد أسهمت تلك المؤلفات والأبحاث في الكشف عن الأسباب والعلل التي تؤدي إلى إدراك المعاني المرادة في النص القرآني ؟ ولكن تلك المؤلفات ــ كما يبدو ــ قامت بعرض الآيات القرآنية بطريقة إحصائية ، وتلحق بها سبب نزولها ، وقد كان هذا المنهج مدعاة لتخصيص كتب كاملة ــ كما ذكرنا .

إن ما يعنينا في هذه القضية هو التعرف على كيفية مساهمة الأسباب في فهم النص القرآني ، والتوصل إلى الدلالة الواضحة التي تشعر الدارس بنبضات الآية القرآنية وحركتها ، وتحقيق فاعلية النص .

ولاشك أن تلك المعرفة تعتبر سنداً قويا في توجيه النص إلى ما يفي بالغرض ، ويحقق الهدف ، وإن إهمالها يجعل العملية التفسيرية للقرآن محوطة بالغموض دائــــا .

قرينة معاونة على الفهم

إن التعرف على السبب يعد من القرائن التي تساعد على فهم الدلالة وتحديدها ، وفي ذلك يقول الشيخ مصطفى شلبي : .

> « أما أهمية معرفة أسباب النزول ، فلأن القــرآن نزل بلغة العرب وألفاظها . تختلف دلالتها بسبب الاشتراك ، والحقيقة والمجاز ، وتعدد الأساليب ، فيختلف فهمه حسب

---

(1) انظر . . جلال الدين السيوطي ـ لباب النقول في أسباب النزول ص ٦ ط أولى دار إحياء العلوم ـ بيروت ١٩٧٨

اختلاف الأحوال ، ولا يحدد المراد منه إلا القرائن ، فإذا ذكرت القرينة مع الكلام ، فهم المراد منه ، وإذا لم تذكر معه فلابد من الرجوع إلى سبب النزول الذي يعين المراد غالبا ، وإلا اختلف الفهم ، واضطرب . » (١)

والقرينة لاتعدو أن تكون لفظية تارة ، ومعنوية أو عقلية تارة أخرى ، أما القرينة اللفظية ، فمثالها ماجاء في قوله تعالى . .

« نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقــوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين »

(الآية ٢٢٣ من سورة البقرة)

فكلمة « أنى » تحتمل المكان ، والكيفية ، إلا أن ذكر « الحرث » في الآية قرينة لفظية تعمل على تحديد دلالة لفظ (أنى) ، فيكون معنى الآية (نساؤكم مكان زرعكم ، وموضع نسلكم ، وفي أرحامهن يتكون الولد ، فأتوهن في موضع النسل والذرية ، ولا تتعدوه إلى غيره ، قال ابن عباس : اسق نباتك من حيث نبت .) (٢) ، وعلى هذا يكون المقصود . . كيفما تشاءون ، وليس . . أينما تشاءون .

---

١ ـ محمد مصطفى شلبي : أصول الفقه الاسلامي ص ٩٩ ط . بيروت ١٩٧٤

٢ ـ محمد علي الصابوني . صفوة التفاسير المجلد الاول ص ١٤٢ ط . دار القرآن الكريم بيروت ١٩٨٠

أما إذا لم تتوفر القرينة اللفظية بذكرها فى نفس الآية ، أو فى مكان آخر ، كان سبب النزول آنذاك قرينة معاونة على توضيح النص ، كما سبق أن ذكرنا فى مفهوم سورة « الكافرون » ، إذ كانت معرفة سبب النزول قرينة أتاحت مجال الفهم ، والتوصل إلى المقصود ، وتسمى القرينة حينئذ القرينة المعنوية أو العقلية، فقد يتوصل إليها بتدبر النص ، والإحاطة بما يحتف به من أسباب .

وليس فهم النص ، وإدراك مقصده متوقفا على معرفة الدلالات اللفظية فحسب ، وإنما لمعرفة الأسباب دخل كبير يعين على الادراك الصحيح .

لمحة تاريخية ، وطريق معرفة

إن الجماعة الإسلامية فى أول أمرها ، أشربت روح النصوص القرآنية ، لأنها كانت تعيش التجربة ، وكانت المناسبة القرآنية ، تثير فيها أحاسيس ومشاعر ، مدركة لحقيقة النص ومقصده ، فكان الإدراك أكثر ، والفهم أعمق ، والتفاعل أقوى . لذا نجد أن تلك المرحلة كان لها أثر شـديد فى نفوس من صاحبوا الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقد أدى الإسلام دورة كاملا بينهم .

ونظرا لعمق التجربة فى نفـوسهم وفاعليتها كانوا دائما يظهرون التخوف عما قد يحدث من اختلاف بين الأجيال اللاحقة فى فهم النص لبعد الشقة بينهم وبين جو التنزيل . يقول الشاطبى[١] .

« خلا عمر بن الخطاب ذات يوم، فجعل يحدث نفسه :

كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد ، وقبلتها واحدة ؟

فقال ابن عباس : يا أمير المؤمنين إنا أنزل علينا القرآن .

فقرأناه ، وعلمنا فيم نزل ، وأنه سيكون بعدنا أقوام
يقرأون القرآن ، ولايدرون فيم نزل ، فيكون لهم فيه
رأى ، فإذا كان لهم فيه رأى اختلفوا ، فإذا اختلفوا
اقتتلوا . فزجره عمر ، وانتهره ، فانصرف ابن عباس.
ونظر عمر فيما قال ، فعرفه ، فأرسل إليه ، فقال : أعد
ماقلت ، فأعاده عليه ، فعرف عمر قوله ، وأعجبه ، وأن
ماقاله صحيح فى الاعتبار . » (١)

وهكذا تظهر من آن لآخر أهمية الدور الذى تؤديه معرفة الأسباب فى مجال التفسير والتوضيح فهما وادراكا ، وفى مجال الخلافات — حول مقاصد النص حسما وبيانا .

ومن المسلم به ، أن هؤلاء الذين عاصروا الوحى ، وشاهدوا الأسباب ، ووقفوا عليها ، هم أقدر الناس على تلك المعرفة ، وهم الذين نقلوا إلينا قصة الآى وسبب نزولها .

« ولايحل القول فى أسباب نزول الكتاب الا بالرواية
والسماع عن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب ،
وبحثوا عن علمها ، وجدوا فى طلبها . » (٢)

---

١) أبو اسحاق الشاطبى . الموافقات فى أصول الشريعة ٣ / ٣٤٨ المكتبة التجارية ـ القاهرة

٢) أبو الحسن على بن احمد الواحدى النيسابورى . أسباب النزول ص ٤ تحقيق السيد أحمد صقر ط . أولى ـ دار الكتاب الجديد ـ القاهرة ١٩٦٩

فالصحابة — رضوان الله عليهم — هم الذين نقلوا الينا مشاهداتهم ، ثم انتقلت بعد ذلك عن طريق الرواية، ولا غضاضة في ذلك ، فنشأة العلوم اعتمدت — في أول أمرها — على رواية الخبر ونقله ، وهو منهج انتهجته كل العلوم قبل تدوينها .

ولا مشاحة أن نتحرى الدقة فيما جاء عن الصحابة من أقوال، لنقف على صحة الخبر الذي يحمل سبب النزول ، لأن الطرق في نقـله قد تعددت ، والاقوال كثرت ، والموقف في حاجة إلى فحص وروية، فكم من الأخبار والآثار والأحاديث التي احتوتها الكتب الاسلامية ، منها ماهو موضوع أو ضعيف أو منحول ، ولم يكن التمييز بينها أمراً سهلا .

ومن هنا يتحتم على الباحث في أسباب النزول أن يتوخى الدقة في تقبل الآراء التي وردت بشأنها .

« فموضوع أسباب النزول من أخطـر الموضوعات القرآنية ، وأجدر بعناية المسلم واهتمامه ، ليكون على بينة من معنى مايقرأ من كتاب ربه الذي افترض عليه تدبره وتأمله ، وأي عون على التدبر أقوى من معرفة أسباب نزول الآيات .» (١)

ولم يكن الخبر الذي يحمل سبب النزول موثوقا به مالم يرد من صحابي ، وفي ذلك يقول السيوطي ..

---

١) الواحدي النيسابوري . أسباب النزول ـ المقدمة ص ٣٣ ـ تحقيق السيد أحمد صقر .

« قال محمد بن سيرين ، سألت عبيدة عن آية من القرآن فقال : اتق الله وقل سداداً ، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل الله من القرآن ، وقال غيره : معرفة أسباب النزول أمر يحصل للصحابة بقرائن تحتف بالقضايا ، وربما لم يجزم بعضهم ، فقال : أحسب هـــذه الآية نزلت في كذا .. » (١)

وتلك الفقرة التي أخذناها عن السيوطي يرد فيها ذكر « محمد بن سيرين* » وهو من الطبقة الثانية من التابعين ، وكذا « عبيدة » ** ، فهو أيضا من الطبقة الثانية من التابعين .

والملاحظ هنا أن ثقاة التابعين وعدولهم ، كانوا يتحرجون من القول في أسباب النزول ، لأنهم لم يعايشوا تلك الفترة كما كان الصحابة . حتى الصحابة أنفسهم لم يقطعوا فيها بالقول ــ في بعض الأحيان ــ إلا بعد أن يتأكد لهم ذلك .

---

١) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي . الاتقان في علوم القرآن ١ / ط . ثانية ـ الحلبي القاهرة ١٩٥١ .

* تابعي ، يكنى أبابكر ، وهو مولى أنس بن مالك ، وكان ثقة عاليا ، رفيعا فقيها ، إماماً ، كثير العلم والورع ، وكان به صمم ، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان (انظر .. ابن سعد . الطبقات الكبرى ٧ / ١٩٣ دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٧٨)

** تابعي ، من أهل المدينة ، روى عبد جابر بن عبد الله . (انظر .. المرجع السابق ١٨٦/٥ .)

ويستفاد من هذا كله أن لامجال إذن للاجتهاد فى أسباب النزول ، وأقصد بالاجتهاد هنا أن تحاك القصص والأسباب ، وتختلق المواقف لتناسب الآية وتتفق مع السبب الذى جاءت من أجله . . وإلا تضاربت الأقوال وتصادمت ، ولامانع من وجود الاجتهادات حول طريق معرفة أسباب النزول إما برفض الآراء التى حملتها ، أو التوفيق بينها لقبول الخبر الصحيح .

وقد وضع العلماء عدة ضوابط فى قبول الأخبار الصحيحة :

إذا جاء الخبر عن الصحابى — الذى صاحب الرسول عليه الصلاة والسلام — ، وشهد منازل الوحى ، وعرف مناسبة التنزيل ، ويعلم تمام العلم أن تلك الآية من القرآن نزلت فى كذا .. ، فإنهم يعتبرون هذا الخبر بمثابة الحديث المسند ، * ، فالصحابى هو الراوى الأول للخبر ، ويتصل إسناده بعد ذلك بطريق سليم فى كل حلقة من حلقاته حتى يصل إلى منتهاه . وهو رأى أشار إليه الحاكم النيسابورى فى قوله ..

« .. فإن الصحابى الذى شهد الوحى والتنزيل ،
فأخبر عن آية من القرآن أنها نزلت فى
كذا .. ، فإنه حديث مسند » (١) .

---

* المسند عند أهل الحديث ، هو الذى اتصل إسناده من راويه إلى منتهاه ، وأكثر مايستعمل ذلك فيما جاء عن رسول الله صلى الله علية وسلم ، دون ماجاء عن الصحابة وغيرهم . .

(انظر .. ابن الصلاح : مقدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث ص ٢١ — منشورات دار الحكمة — دمشق ١٩٧٢)

١ — الإمام الحاكم ابو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ النيسابورى : معرفة علوم الحديث ص ٢٦ — منشور بيروت .

ومن أمثال هذا الخبر المسند ، ماأخرجه الامام مسلم بسنده عن جابر ابن عبد الله * ..

وأنه قال : كانت اليهود تقول : من اتى امرأة من
دبرها فى قبلها جاء الولد أحول ، فنزل الله « نساؤكم
حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ... » (١)
(الآية ٢٢٣ من سورة البقرة)

وهذا الخبر كما ترى موقوف على الصحابى ؛ إلا أنه خبر مسند لأنه يحكى قصة الآية عن راويها الأول ، ويأتى فى سند متتابع متصل ، ومع هذا فقد قوبل بتحفظ شديد ، وكان محل نزاع بين العلماء . والموقف حياله متردد: هل يعتبر من قبيل المسند ..؟ ، أو يجرى مجرى التفسير للآية القرآنية ..؟ ، ومرد هذا هو أن يكون السند أو المتن قد تعرض لبعض الشبهات . وإن دل ذلك على شىء فإنما يدل على مدى الدقة فى تقبل الأخبار التى تتناول أسباب النزول ، فإذا لم يثبت صدق الخبر والتوثق منه متنا وسندا ، فليس ثمت مايمنع من اعتباره تفسيرا وتوضيحا للآية ، لاسيما فى نزولها .

---

* هو صحابى من الستة النفر الذين أسلموا من الأنصار ، وأول من أسلم منهم بمكة ، وشهد جابر بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ، وقد روى عن رسول الله أحاديث ، وتوفى وليس له عقب . (انظر .. ابن سعد ، الطبقات الكبرى ٣/٥٧٤ — دار بيروت للطباعة والنشر ١٢٩٨هـ).

١) صحيح مسلم ١٠٠/٢ (باب مايقال عن الجماع) عن ابن المنكور سمع جابراً يقول الحديث ...

تنبيه : سبق الكلام عن هذه الآية فى هذا البحث ص٥١ - فى مجال القرينة .

ومن دواعى اعتبار صحة السبب أن يذكر نزول الآية فى أعقاب سببها ، وفى أمد ليس ببعيد ، يشير السيوطى إلى ذلك فى قوله . .

« . . . إذا ذكر سبب نزلت الآية عقبه ، فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا فى المسند . » (١)

إذ يكون الخبر حينئذ محل قبول ، ومنها يستدل على قرب النزول من وقوع السبب ، فالمحك الأساسى فى سبب النزول هو ربط السبب بالمسبب ، التأكد من تعلق الآية بسببها الذى نزلت من أجله ، فإن الأحداث المتراخية والبعيدة الأمد ، لا تعتبر من أسباب النزول فى شيء ، وعندما يذكر الواحدى سبب نزول سورة الفيل . .

« أنها نزلت فى قصة أصحاب الفيل ، وقصدهم تخريب الكعبة ، وما فعل الله تعالى بهم من إهلاكهم ، وصرفهم عن البيت . . . » (٢)

فإن العلماء ينكرون عليه ذلك ، ولا يعتبرونه من أسباب النزول ، وإنما هو من قبيل الإخبار عن الوقائع الماضية ، كذكر قصة نوح . . وغيرها .

وهو مأخذ له اعتباره ، والاطمئنان إليه .

ويأتى بعد ذلك دور التابعى فى رواية سبب النزول ، فإن العلماء يعتبرون الخبر الذى يأتى من التابعى هو من قبيل المسند من الصحابى ، إلا أنه خبر

---

١ ـ السيوطى الاتقان ٣١/١

٢ ـ الواحدى النيسابورى أسباب النزول ص ٥٠٠ ـ تحقيق السيد أحمد صقر ط . أولى ١٦٩٦

مرسل* ، ولذا فهم يشترطون شروطا فى قبوله .. منها صحة الإسناد : بأن يكون رجال الإسناد من أئمة التفسير الموثوق فيهم ، والآخذين عن الصحابة .. كمجاهد ، وعكرمة .. وأمثالهم .

ومنها : أن يعضد الخبر المرسل بمرسل آخر يسانده ، ويؤكد صحته .

فالخبر الذى يأتى عن التابعى يحاط بشروط ومطالب ، تثبت صحته ، وتبرر الأخذ به .

ومع وجود كل هذه المعايير نجد المفسرين منهم من لا يتحرى الدقة فى قبول الرواية ، وإنما هدفه من ذكر سبب النزول هو بيان الآية وتوضيحها ، وليس تعيينا لسبب نزولها ، وهى محاولة يقومون بها لتفسير النص .

وعندما تتعدد الروايات حول خبر أسباب النزول ، فإن العلماء يحاولون أن يتخيروا أصح الطرق وأصدقها ، وذلك بأن يقارنوا بين هذه الأقوال ، وينقدوها ليصلوا إلى أقربها قبولا .

وخير مثال على ذلك ، ماذكره السيوطى (١) ، عندما أشار إلى خمس طرق تناولت ذكر سبب نزول آية واحدة ، هى نفس الآية عند جميعهم ، إلا أن الأقوال تعددت واختلفت حول سبب النزول .

وهى قول الله تعالى « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم** » .

(الآية ١٠٥ من سورة البقرة)

---

* الخبر المرسل هو الذى يسقط الصحابى من إسناده .

١ - انظر .. السيوطى .. الاتقان ١/٢٠ (بتصرف)

** سبق ذكر هذه الآية فى أهمية سبب النزول لتوضيح معناها والمقصود (راجع .. البحث ص ٢٨)

الطريق الأول :

ما أخرجه ابن جرير ، وأبن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما هاجر الى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ، ففرحت اليهود ، فاستقبلها بضعة عشر شهراً ، وكان يحب قبلة ابراهيم ، فكان يدعو الله وينظر الى السماء * فأنزل الله تعالى :

« ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام
وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون
عليكم حجة الا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم
واخشونى ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون »
(الآية ١٥٠ من سورة البقرة)

فارتاب اليهود من ذلك ، وقالوا ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ؛ فأنزل الله ..

« ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه ... الآية ..

الطريق الثانى :

أخرج الحاكم ، وغيره عن ابن عمر قال : أنزلت ..

« ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله » الآية ..

---

* يقول ابن هشام « وفى شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة ، صرفت القبلة ، إذ كان رسول الله يصلى الى صخرة بيت المقدس قبل أن تحول الى الكعبة » (أنظر .. تهذيب السيرة النبوية لابن هشام محمد عبد العزيز الشيراوى ـ ص ٢٧٠ ـ القاهرة

فى أن تصلى حيثما توجهت بك راحلتك فى التطوع .

الطريق الثالث.

أخرج الترمذى وضعفه ، من حديث عامر بن ربيعة ، قال : كنا فى سفر فى ليلة مظلمة ، فلم ندر أين القبلة .. ؟ فصلى كل رجل منا على حياله ، فلما أصبحنا، ذكرنا ذلك لرسول صلى الله عليه وسلم ، فنزلت

« ولله المشرق والمغرب » الآية..

الطريق الرابع .

أخرج ابن جرير عن مجاهد قال : لما نزلت « وقال ربكم ادعونى استجب لكم .... » (من الآية ٦٠ من سورة غافر) ، قالوا إلى أين ؟ ، فنزلت..

« ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ... » الآية

وهذا خبر مرسل إذ سقط منه الصحابى .

الطريق الخامس

أخرج ابن جرير عن قتادة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن أخا كم قد مات ، فصلوا عليه . فقالوا : إنه كان لا يصلى الى القبلة .. فنزلت ..

« ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله... » الآية

وهو حديث معضل* غريب جداً .

وبعد عرض هذه الطرق يقوم السيوطى بفحصها ليبين لنا الطريق المعتمد الذى يصح الأخذ به .

فالطريق الخامس ، أضعف هذه الطرق، لأنه جاء عن طريق معضل، والمعضل

---

* الحديث المعضل هو ما سقط من إسناده اثنان فصاعداً أو أرسله تابع التابعى

به إبهام شديد ، وهو طريق ضعيف فى نقل الخبر ..

والطريق الرابع ، جاء فى خبر مرسل أى أرسله التابعى ، وأسقط منه الصحابى وهو أيضا من الأخبار الضعيفة .

والطريق الثالث ، ضعفه من أخرجه لضعف رواته

والطريق الثانى ، يعتبر طريقا صحيحاً الا أنه لم يخصص السبب الذى جاءت الآية من أجله ولم يفصل الواقعة ، بل تناول موضوعا عاما .. علما بأن ذكر السبب ، وتفاصيل الواقعة من مرجحات القبول .

والطريق الأول ، هو أصحها ، لأنه صحيح السند ، ومصرح فيه بذكر تفاصيل السبب، وتلك معضدات تعين على صدق الخبر ..

وهكذا نرى كيف تتعرض أخبار أسباب النزول للمعايير العلمية ، والنقد والتحليل ، وهو منهج ليس بغريب عن الدرس الاسلامى ، فقد استخدمه رجال الحديث فى التعرف على الرواية السليمة .

ويمكننا أن نضيف إلى دواعى اعتبار صحة الخبر ، مشاهدة قصة الآية النازلة وماتتضمنه الرواية من إشارات حول وقائعها وتفاصيلها . إذ تظهر العناية بدقة تفاصيل الحادثة فيما تعرضه من تلك الروايات حتى أشار إليها ابن حجر :

أولا .. منها ماجاء فى صحيح البخارى .. فيما أخرجه عن ابن مسعود قـــال:

« كنت أمشى مع النبى صلى الله عليه وسلم
فى حرث بالمدينة وهو يتوكأ على عسيب ،
إذ مر نفر مـــن اليهود فقال بعضهم

لبعض : سلوه عن الروح . فأمسك النبى
صلى الله عليه وسلم ، فلم يرد عليهم ،
فعرفت أنه يوحى إليه ، حتى صعد الوحى
ثم قال ، قول الله تعالى « قل الروح من
ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »
(من الاية ٨٥ من سورة الاسراء)

ثانيا .. ما أخرجه مسلم (عن السبب نفسه) من طريق مسروق عن ابن مسعود (ولكنه قال) .. كان فى نخل بالمدينة . . ولم يأت بتفاصيل أكثر من ذلك .

ثالثا .. لابن مردويه (من وجه آخر) عن الأعمش .. يقول
كان فى حرث للانصار . . . ولم يرد عليه .

رابعا .. لابن مردويه عن طريق داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس قال قالت قريش لليهود أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل ، فقالوا سلوه عن الروح فسألوه ، فأنزل الله . . .

« ويسالونك عن الروح قل الروح من أمر ربى . . . » الاية أهـ (١)
وفى تلك الرواية الأخيرة لم تجد أية تفاصيل عن الواقعة .

والملاحظ فى تلك الروايات أنها قد خلت من ذكر تفاصيل الواقعة ، عدا

---

١ - أنظر .. الحافظ شهاب الدين أبى الفضل العسقلانى المعروف بابن حجر : فتح البارى بشرح البخارى ١٠/١٥ وما بعدها (بتصرف) ط الحلبى - القاهرة ١٩٥٩

الرواية الأولى ، فقد تناولت تفاصيل أكثر دقة وتوضيحا، إذ يحدد ابن مسعود المكان الذى كان يصاحب فيه الرسول عليه الصلاة والسلام أثناء مسيرته ، كما يصف الحالة التى كان عليها الرسول عليه السلام ،وهو يتوكأ على عسيب» ، وما حدث بينه وبين اليهود .. وتلك التفاصيل فى تناول الحادثة ، تساندها وتساعد على ترجيحها ، ولذا فالراوية الأولى هى أقرب تلك الروايات الى القبول .

ولم يخل موضوع أسباب النزول من الهنات التى عرض لها من تناولوه ، أو تكلموا فيه ، وقـــد رأينا جانبا منها يتمثل فى تعدد الروايات، والخلط بين الأقوال التى تحكى أسباب النزول ، مما يفرض على الباحث فى هذا الموضوع أن يتحرى الدقة فى روايات الأسباب ، بعد أن تتهيأ له سبل الترجيح والقبول .

أما الجانب الاخر ، فقد لفت إليه الدكتور عثمان أمين فيما نقله من تنبيه للشيخ محمد عبده فى هذا المجال ، إذ يقول ..

« إن من عجيب شأن رواة أسباب النزول ، أنهم يفككون الطائفة الملتئمة من الآيات القرآنية ، اذ يفصلون بعضها عن بعض أو يفصلون الجمل المؤتلفة فى الآية الواحدة ، فيجعلون كل جملة سبباً مستقلا ، كما يجعلون لكل آية من الآيات الواردة فى مسألة واحدة سبباً مستقلا كذلك ، أما «محمد عبده » فيخالف أولئك المفسرين ، ويرى أن نظرتهم تلك ـ فضلا عن منافاتها لبلاغة القرآن ـ تجعله مفككا مبدداً ، لا اتصال بين أجزائه ، وهو ما يتنزه عنه كلام الله ، ويحاول فى غير موضع اثبات أن بين مختلف الآيات القرآنية اتصالا جوهرياً عميقاً، وينتهى الى التصريح بأننا اذا كنا بحاجة الى معرفة أسباب النزول فى آيات الأحكام ،

فإن معرفة الوقائع والحوادث التي نزل فيها الحكم تعين على فهمه وفق حكمته وسره ، فلا حاجة الى التماس هاتيك الأسباب فى الايات النافية للشرك المقررة للتوحيد ، وهو المقصود الأول من الدين الإسلامى .» (١)

فليس بمقبول كل ما يأتى من أخبار عن أسباب النزول ، وبخاصة تلك الجمل التى تتصل اتصالا وثيقا بالآية ، فتنتزع منه انتزاعا لموافقتها لواقعة ما ، وان هذا ـ بطبيعة الحال ـ ينافى ترابط الكلام فى القرآن الكريم ، ووحدة الموضوع كما أن الآيات التى تتناول التوحيد ، لسنا فى حاجة الى التماس السبب الذى جاءت من أجله ، فإن ذلك هو الهدف الاساسى للدين الاسلامى .

ومن الأمور التى لا يصح التغاضى عنها ما أثير حول ما نزل من القرآن ابتداء ولم يتعلق بسبب معين ، ويعتبرونه قسماً من أسباب النزول ، وينقل السيوطى كلام الجعبرى حول هذا الموضوع فيقول ..

«قال الجعبرى ، نزول القرآن على قسمين قسم نزل ابتداء ، وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال (ويقول السيوطى) ، وفى هذا النوع مسائل (أى القسم الأخير) » (٢)

ونلحظ أن السيوطى لم يرض عن هذا التقسيم ، لأنه أخذ يعدد المسائل التى تتعلق بالنازل فى أعقاب الوقائع أو التساؤلات ، ولم يتناول القسم الآخر ، ويبدو أن هذا التقسيم أمر مبالغ فيه ، إذ من البدهى أن سبب النزول

١ ـ عثمان أمين : رائد الفكر المصرى الامام محمد عبده ص ١٨٧

٢ ـ السيوطى الاتقان ٢٨/١

يعني الآية أو الآيات التي تأتي عقب واقعة معينة أو سؤال يتعلق بها .

وفي زمن التنزيل كان الوحي يلاحق متطلبات الحياة ، ومتجدد الأحداث ، واجابة للتساؤلات ، وكلام الله تعالى بصدد هذه الأشياء كلام فصل ، وماهو بالهزل . يقرر الاحكام ، ويفض المنازعات ، ويشفي غليل النفوس اذا أعوزتها الحاجة الى الحلول والإجابات فيما يعترضها من مشكلات . أما ما نزل ابتداء فلا يندرج تحت هذا الباب ، لانه لم يتعلق بسبب ما .

فما نزل ابتداء لإرشاد الناس : اتباع أمر ، أو نهي عن شيء ، أو بيان للعقائد وواجبات الدين ، وشرائع الله تعالى في الحياة .. هل يسوغ لنا أن نقول إنه جاء بسبب واقعة الهداية والارشاد ؟!!

راى حول تكرار النزول

لم تخل كتب علوم القرآن من الموضوعات التي تتعلق بالتكرار ، فتتناول تعدد الأسباب ، وتكرار النازل .. ومن ذلك :

١ ــ تعدد الأسباب والنازل واحد

تأتي الآية عقب سببين أو أكثر .. مثال ذلك ما أخرجه البخاري بسنده عن ابن عباس ..

« أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : البينة أو حد في ظهرك . فقال : يا رسول الله إذا رأى أحدنا مع امرأته رجلا ، ينطلق يلتمس البينة ؟ ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : البينة وإلا الحد في ظهرك .

فقال هلال . والذى بعثك بالحق إنى لصادق ، ولينزلن الله ما يبرىء ظهرى من الحد ، فنزل جبريل بالآية ..
« والذين يرمون أزواجهن ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين » (١)
(الآية ٦ من سورة النور).

وأخرج الشيخان عن سهل بن سعد قال ..

« إن عويمرا أتى عاصم بن عدى ، وكان سيد بنى عجلان ، فقال كيف تقولون فى رجل وجد مع امرأته رجلا .. أيقتله ، فتقتلونه ؟ .. أم كيف يصنع ؟ ، فسأل عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعاب السائل ، فأخبر عاصم عويمراً ، فقال : والله لآتين رسول الله فلأسألنه ، فأتاه فقال : إنه قد أنزل فيك ، وفى صاحبك قرآن .. » (٢)

وهذان طريقان يرويان واقعتين مختلفتين تظهر فى قصة كل منهما ، إلا أن السبب واحد فى كلا القصتين ، وهنا يجدر بنا أن نقول بتعدد الوقائع والسبب واحد ، والنازل أيضا فيها واحد ، وهى تلك الآية السادسة من سورة النور ، ولا يصح أن يقال تعدد الأسباب بل هو تعدد الحوادث أو الوقائع.

ومع هذا نرى خلافا حول تلك الواقعة يشير إليه ابن حجر ..

---

١ — ابن حجر : فتح البارى فى شرح البخارى ٦٥/١٠ ط. الحلبى — القاهرة ١٩٥٩ .

٢ — نفس المرجع ٦٤/١٠

«من العلماء من رجح أنها (أى الآية) نزلت فى شأن عويمر ، ومنهم من رجح أنها نزلت فى شأن هلال ، ومنهم من جمع بينها ، بأن أول من وقع له ذلك هلال ، وصادف مجىء عويمر أيضا ، فنزلت الآية فى شأنهما معا فى وقت واحد ، ولا مانع من تعدد القصص ويتحد النزول .» (١)

ولا مجال للخلاف هنا ، فسواء نزلت فى شأن عويمر أولا أو هلال ، فإن الموقف يبين أن الآية نزلت فى سببين متشابهين تماما ، وإن اختلف كل منها فى شكل الواقعة لا فى مضمونها ، ولا يمنع من أنها نزلت فى أحدهما وطبق حكمها على الآخر ، أو نزلت فى أعقاب الحادثة الثانية ، خاصة وأن عنصر المصادفة الذى ذكره ابن حجر (فى الفقرة الأخيرة) يظهر تقارب الزمن بين الحادثتين . كما نلحظ — أيضا — أن ابن حجر يقول (ولا مانع من تعدد القصص والنازل واحد) ، ولم يقل تعدد الأسباب ، فكأنه متفق مع ما أشرنا إليه .. ، ففى تصورى أن تعدد الأسباب يعنى اختلاف مضمون الوقائع ، وقد رأينا فى سبب الآية أن المضمون أو السبب واحد إلا أن الوقائع أو القصص هى التى تعددت .

٢ — تعدد النزول لسبب واحد

قد تتعدد النزول بمعنى أن تنزل فى الواقعة الواحدة آيات عديدة ومختلفة فى سور شتى ، ولكنها تتعلق بسبب واحد .. مثال ذلك :

« مما أخرجه الترمذى والحاكم عن أم سلمة أنها قالت :

---

١ — ابن حجر . فتح البارى فى شرح البخارى ١٠/٦٦ .

يارسول الله ، لاأسمع الله ذكر النساء فى الهجرة بشىء ... »
فأنزل الله « فاستجاب لهم ربهم أنى لاأضيع عمل عامل
منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا
وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا
لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها
الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب »
(الآية ١٩٥ من سورة آل عمران) ، (١)

ويقول ابن كثير ..

« روى سعيد بن منصور بسنده عن أم سلمة قالت :
يارسول الله ، لانسمع ذكر النساء فى الهجرة بشىء ، فأنزل
الله تعالى « فاستجاب لهم ربهم .... » الآية .. ، (ثم قال)
على شرط البخارى ، ولم يخرجاه .» (٢)

ويشير السيوطى إلى ماأخرجه الحاكم عنها (أى عن أم سلمة)

« قالت : قلت يارسول الله تذكر الرجال ، ولاتذكر
النساء ، فأنزلت « إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين
والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات
والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات

---

١ ـــ السيوطى : الاتقان ٣٤/١

٢ ـــ محمد نسيب الرفاعى : تيسير العلى القدير لاختصار تفسير ابن كثير/
المجلد الأول ص ٣٤٤ رقم الحديث ٦١١ (ورواه الحاكم فى مستدركه).

والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين

فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات

أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما »(١)

(الآية ٣٥ من سورة الاحزاب)

ويقول ابن كثير ..

«روى عن الإمام احمد عن عبد الرحمن بن أبى شيبة قال:

سمعت أم سلمة (زوج النبى) تقول : قلت للنبى صلى الله

عليه وسلم ، مالنا لانذكر فى القرآن كما يذكر الرجال ؟

قلت فلم يرعنى منه ذات يوم إلا وندائه على المنبر

قالت : وأنا أسرح شعرى ، فلففت شعرى ثم خرجت

الى حجرتى ... ، فجعلت سمعى عند الجريد ، فإذا هو

يقول على المنبر : ياأيها الناس إن الله تعالى يقول « إن

المسلمين والمسلمات ... » (٢) ، ويقول هكذا رواه

النسائى وابن جرير من حديث عبد الواحد بن زياد .

ويذكر السيوطى ما أخرجه الحاكم - أيضا عن أم سلمة أنها قالت ..

« تغزو الرجال ، ولاتغزو النساء ، وإنما لنا نصف

الميراث ، فأنزل اليه « ولاتتمنوا مافضل الله به بعضكم

---

١ - السيوطى : الاتقان ٣٤/١

٢ - محمد نسيب الرفاعى : تيسير العلى القدير لاختصار تفسير ابن كثير

المجلد الثالث ص ٣٦٧ رقم الحديث (٣٥١)

على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما
اكتسبن واسئلوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء
عليما »

(الآية ٣٢ من سورة النساء) (١)

كما يقول ابن كثير ..

« روى الامام احمد عن مجاهد قال ، قالت أم سلمه :
يارسول الله يغزو الرجال ، ولانغزو ، ولنا نصف
الميراث ، فأنزل الله « ولاتتمنوا مافضل الله به بعضكم
على بعض ... » الآية (٢)

وقد عرضت لهذه الروايات التعرف على مختلف الطرق التى تناولت سبباً واحداً ، وجاءت فى أعقابه العديد من الآيات الواقعة فى شتى السور . ومن الملاحظ أن السبب واحد ، ومشترك فيما بينها ، ألا وهو ذكر النساء ورعاية حقوقهن ، فلا غضاضة إذن فى تعدد النازل والسبب واحد ، أو متشابه .

٣ — تكرار النازل والسبب واحد

وهو النوع الثالث من أنواع التكرار ، وقد ذهب إليه ، وقال به بعض العلماء . والتكرار غير التعدد ، فالتكرار هو نزول الآية نفسها مرتين أو

---

١ — السيوطى : الاتقان ٣٤/١

٢ — محمد نسيب الرفاعى : تيسير العلى القدير لاختصار تفسير ابن كثير المجلد الأول ص ٣٨٢ رقم الحديث (٦٩٨)

أكثر ، أما التعدد ، فهو تعدد آيات مختلفة لسبب واحد وهذا ما أشرنا إليه فى النوع الثانى .

وقد أشار الزركشى فى برهانه إلى تكرار النازل ، وأفرد له باباً بعنوان « فيما نزل مكرراً » ، إذ يقول . .

« وقد ينزل الشيء مرتين تعظيما لشأنه ، وتذكيراً به عند حدوث سببه خوف نسيانه ، وهذا كما قيل فى الفاتحة نزلت مرتين : مرة بمكة ، وأخرى بالمدينة . . (ثم يستطرد القول بياناً لحكمته) ، والحكمة فى هذا كله أنه قد يحدث سبب من سؤال أو حادثة تقتضى نزول آية ، وقد نزل قبل ذلك ما يتضمنها ، فتؤدى تلك الآية بعينها إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، تذكيراً لهم بها ، وبأنها تتضمن الحكم فى تلك الواقعة ، وإن لم تكن خطرت له تلك الحادثة قبل ، مع حفظه لذلك النص ، وما يذكره المفسرون من أسباب متعددة لنزول الآية قد يكون من هذا الباب . . . »(1)

وتطبيقاً لهذا القول نشير إلى بعض الروايات التى تتناول سبب نزول خواتيم سورة النحل ، منها ما ذكره الواحدى . .

« ما روى عن أبى هريرة ، أن النبى صلى الله عليه وسلم

---

١ ــ الزركشى : البرهان ٢٩/١ وما بعدها .

أشرف على حمزه فرآه صريعاً ، فلم ير شيئاً أوجع لقلبه
منه، وقال : والله لأقتلن بك سبعين منهم ؛ فنزل بجبريل
(والنبى واقف) بخواتيم سورة النحل* ... » (١) .

ومن المعروف أن مقتل حمزه كان فى غزوة أحـــد ، وقد وقعت فى السنة الثالثة من الهجرة . ويدل ذلك على أن الآيات الثلاثة فى آخر سورة النحل مدنية، ونزلت بعد الهجرة على أثر ماقيل حول مصرع حمزه .

ويذكر السيوطى قول ابن الحصار ..

« ويجمع أنها نزلت (أى خواتيم سورة النحل)
أولا بمكة ، ثم ثانيا بأحد ، ثم ثالثا يوم الفتح.. » (٢)

ويتضح فى هذا الخبر أن خواتيم سورة النحل نزلت ثلاث مرات ، أولها بمكة قبل الهجرة ، وثانيها بأحد فى السنة الثالثة من الهجره ، وثالثها يوم الفتح فى السنة العاشرة . ونجد المصاحف منها مايذكر أن سورة النحل كلها مكية ، ومنها مايذكر أنها مكية عدا الآيات الثلاثة الأخيرة فمدنية .

وحول نزول هذه الآيات — أيضا — أخرج الترمذى والحاكم بسنده ..

« عن أبى بن كعب ، لما كان يوم أحـــد أصيب من
الأنصار أربعة وستون رجلا ، ومن المهاجرين ستة منهم .

---

* خواتيم سورة النحل هى الآيات الثلاثة الأخيرة ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ .

١ — أبو الحسن الواحدى : أسباب نزول القرآن ص ٢٩ . ط . أولى — القاهرة ١٩٦٩ .

٢ — انظر .. السيوطى : الاتقان ٣٢/١

حمزة ، فمثلوا بهم ، فقالت الانصار : لئن أصبنا منهم
يوماً لنربين عليهم ، قال : فلما كان يوم فتح ، فأنزل
الله (خواتيم سورة النحل) الآيات الثلاثة .. «(١)

ويشير الترمذى إلى أن الحديث حسن غريب من حديث أبي بن كعب ، كما يقول الحاكم إن هذا الحديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه أي البخارى ومسلم . والرواية تشير إلى نزول الآيات يوم الفتح .

ويقول القرطبى فى شأن هذه الآيات الثلاثة ..

« إنه أطبق جمهور أهل التفسير أن هذه الآيات مدنية ،
نزلت فى شأن التمثيل بحمزه يوم أحد .»(٢)

ويذكر الطبرى بسنده ..

« عن عطاء بن يسار قال : نزلت سورة النحل كلها
بمكة ، وهى مكية ، إلا ثلاث آيات فى آخرها نزلت فى
المدنية ، حيث قتل حمزه ومثل به ...»(٣)

وهكذا تتردد الأقوال وتختلف ، إلا أنها تجمع على تعلق تلك الآيات

---

١ — انظر .. سنن الترمذى ٥/٢٩٩ ، ٣٠٠ ط. الحلبى ـ القاهرة ١٩٦٥ انظر الحاكم النيسابورى ، المستدرك ٢/٣٥٩ ط. مجلس المعارف النظامية ـ الهند ـ ١٣٤٢هـ .

٢ — تفسير القرطبى ١٠/٢٠١ ط. دار الكاتب العربى ـ القاهرة .

٣ — تفسير الطبرى ١٤/١٩٥ ط. ثانية ـ الحلبى ـ القاهرة ١٩٥٤ وانظر أيضا .. الشوكانى : فتح القدير ٣/١٩٧ ط. أولى ـ الحلبى ـ القاهرة .

بسبب ماقيل فى مقتل حمزة يوم أحد ، وأضحى من المستبعد أن تكون قد نزلت بمكة قبل وقوع الحادثة التى تتعلق بها ، أو يوم الفتح بعد سبع سنوات مضت على مقتل حمزة ، وهو أمد ليس بقليل .

أما مايتعلق بتكرار نزول هذه الآيات ثلاث مرات ، فهو واضح عند ابن الحصار - دون غيره ممن أوردنا ذكرهم - ، وقد لاحظنا أن السيوطى يشير إلى هذا الاتجاه بقوله ..

« ... أنه لايمكن ذلك ... »(1)

والمسألة هنا تحتاج إلى تدبر وروية ، فإن القول بتكرار النازل نفسه أكثر من مرة ، أمر غير مقبول . وربما أراد العلماء به التوفيق بين الآراء المتعددة ، أو أن تعدد الطرق فى تناول الخبر حدا بهم إلى القول بتكرار النازل .

ومن العلماء المحدثين الذين كتبوا فى علوم القرآن من أشار الى هذا التكرار وارتضاه ، إذ نرى صاحب مناهل العرفان يقول :-

« إن هنالك حكمة عالية فى هذا التكرار ، وهى تنبيه العلماء ، ولفت نظرهم إلى مافى تلك الآيات المكررة من الوصايا النافعة ، والفوائد الجمة التى هم فى أشد الحاجـــة إليها . فخواتيم سورة النحل ، نلاحظ أن الحكمة فى تكرارها هى تنبيه الله لعباده على العمل بما احتوته من الاشارات السامية فى تحرى العدالة ، وضبط النفس عند الغضب ،

---

١ - السيوطى : الاتقان ٢٢/١ .

ومراقبة الخالق حتى فى القصاص من الخلق ...»(١)

إن هذه الأقوال التى أشار اليها العلماء ـ قديمهم ومحدثيهم ـ تحمل تبريرات لايسهل الأخذ بها ـ فيما يبدو ـ ، ولن يطمأن إليها تمام الاطمئنان .

وقد رأينا العديد من الروايات التى تعرضنا لها ، منها ماهو ضعيف ، ومنها مالايقبل الأخذ به ، وربما ينتهى بنا الامر الى الأخذ برواية واحدة متفق عليها . ولن تندفع إلى القول بتكرار النازل ، قبل أن نتحرى الدقة فى قبول الرواية .

ألم تكن الغاية من القرآن هى تلك الحكمة العالية فى تنبيه الناس ، ولفت أنظارهم الى الوصايا النافعة ، والفوائد الجمه ، والاشارات السامية ! ؟

أفلا يتحقق هذا كله إلا بتكرار الآى أكثر من مرة ؟! ، حتى يقتنع الناس به ، ويعملوا بما جاء فيه ؟!

وقد أمرنا الله بتدبر القرآن ، وتناوله بقلوب مفتوحة ، وعقول واعية ، « إنه لقول فصل . وماهو بالهزل » (الآيتان ١٣، ١٤ من سورة الطارق) ، هو تلك الكلمة الفاصلة التى لامزايدة فيها ، تفصل بين الحق والبـــاطل ، وقد بلغت الغاية فى البيان ، لالهو فيها ولاعبث ، فهى كلمة أحكم الحاكمين ، جدير بالقارىء أن يتعظ بها ويستنير بتوجيهاتها وإرشاداتها .

وإذا سلمنا بالقول بالتكرار ـ هـذا ـ لانتفت الحكمة من القرآن كله ، مالم تكرر آياته بهذا الشكل .

---

١ ـــ محمد عبد العظيم الزرقانى : مناهل العرفان فى علوم القرآن ١/١١٤ ط. الحلبى ـ القاهرة ١٩٤٣

ومن الملاحظ أن الدراسة فى أسباب النزول قد تكون منعطفاً ينـــعدنا عن طريق الجادة إذا لم تتفحص ماأثير حولها من آراء ، وماتعدد من أخبار وأقوال أو منزلقاً قد يهوى بنا الى القول بما لايطمأن اليه أو يسهل الأخذ به ، والى ذلك يشير الباقورى عند قوله :

« إن معرفة أسباب النزول من المواضع الصعبة ، ووجه الصعوبة فيها اختلاف المتقدمين والمتأخرين حولها .. »(١) .

فإن ماتحفل به قضية أسباب النزول من آراء وخلافات أوجدت كثيراً من المشكلات التى يتعرض لها الباحث . ومرد هذه الخلافات كما يشير الباقورى (٢) الى مانقله عن الدهلوى - يرجع إلى ماجاء من تعبيرات عن الصحابة والتـابعين عند التعرض للأسباب ، إذ يصل بهم الحرص فى بعض الاحيـــان إلى عدم استعماله (نزلت الآية فى كذا ..) ، أى القطع بسبب نزولهـا ، إلا إذا كان هناك تأكيد بما تصدق عليه الآية ، أو بعضها ما يتعلق بالواقعة سواء أكان ذلك فى زمنه صلى الله عليه وسلم أم بعد زمنه ، ويصلح تطبيق الحكم على الواقعة .

وقد استعملوا تعبيراً آخر إذ يقولون (نزلت فى كذا ..) دون ذكر لفظ (الآية) ، وهنا لايلزم إلا تطابق أصل الحكم على الواقعة ، وإن لم تكن الآية تتعلق بسبب تلك الواقعة بشكل مباشر . وأحيانا يشيرون إلى حادثة معينة تكون قد وقعت أمام النبى صلى الله عليه وسلم ، واستنبط النبى حكمها من

١ ـ احمد حسن الباقورى : مع القرآن ص ١٥٥ (نقلاً عن الامام الدهلوى) ط . القاهرة ١٩٧٠

٢ ـ نفس المرجع ص ١٥٦ ومابعدها (بتصرف)

آية قرأها فى هذا الباب ، دون أن تكون الآية قد نزلت لهذا السبب ، فتجدهم يقولون (فأنزل الله قوله .. كذا ..) يريدون بذلك أنه استنباط الرسول صلى الله عليه وسلم - وإن لم يصرحوا بذلك - فقد تكون الآية قد ألقيت فى خاطره صلى الله عليه وسلم حينذاك ، وقد صرح بها فيما عرض له من مواقف ، وهو نوع من أنواع الوحى . اهـ .

وذلك شبيه بما كان يجرى فى بعض الأحاديث النبوية التى يلهمه الله إياها حلا لمشكلة ، أو حكما فى واقعة ، أو رداً على سؤال .

وربما يكون ذلك هو الدافع إلى القول بتكرار النازل ، فعندما يذكر الرسول صلى الله عليه وسلم آية أو آيات لسبب ما شبيه بما أنزلت فى شأنه من قبل ، إنما هو تطبيق لعموم الحكم وليس تكراراً للنازل بما تحمله تلك الكلمات من معنى التكرار أكثر من مرة . وقد يكون هذا موافقا لما أشار إليه الزركشى فيما ذكرناه من قبل* ، ولكن لم يكن مقبولا منه أن يندرج هذا تحت عنوان (ما نزل مكرراً) .

أما مسألة الخلط فى موضوع أسباب النزول ، فقد ساعد عليها ، وتوسع فيها رجال التفسير ، فذكروا فى أعقاب الآيات أحداثا لم تكن من أسباب النزول فى شىء ، وألحقوها سببا فى نزولها ، وذلك كاستشهاد الصحابة فى مناظراتهم أو تمثيلهم بآية ، ومثل تلاوة الرسول صلى الله عليه وسلم الآية للاستشهاد بها ، ومثل رواية حديث وافق الآية فى أصل الغرض ، ويمكن أن يعد هذا كله من قبيل التفسير الذى يساعد على توضيح الآية وبيانها .

---

* راجع البحث ص ٥٤،٥٣ (الفقرة الأخيرة من كلام الزركشى) .

إنه لما يلفت النظر فى هذا الباب ما ذكره العلماء عن جواز تقدم نزول الآية على الحكم . إذ نجد برهان الدين الزركشى يقول . .

« واعلم أنه قد يكون النزول سابقا على الحكم ، وهذا كقوله تعالى « قد أفلح من تزكى » آلآية ١٤ من سورة الأعلى فإنه يستدل بها على زكاة الفطر » (١)

كما تعرض الزركشى — أيضا — إلى القول بأن البغوى* فى تفسيره ، أجاز بأن يكون النزول سابقا على الحكم . .

« كما فى قوله تعالى « لا أقسم بهذا البلد . وأنت حل بهذا البلد » (الآيتان ١ ، ٢ من سورة البلد) ؛ فالسورة مكية ، وظهر أثر الحل يوم فتح مكة ، حتى قال عليه الصلاة

---

١ — الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ٣٢/١

* هو أبو الحسن بن مسعود بن محمد البغوى — الفقيه الشافعى — صاحب كتاب (مصابيح السنة) فى الحديث ، وكتاب (معالم التنزيل فى التفسير) توفى ٥١٠ هـ (انظر.. ابن خلكان ١٤٦/١)

والسلام* : أحلت لى ساعة من نهار . »(١)

ولا يخفى على أحد أن معنى « سبب النزول » هو : الواقعة التى جاء النازل فى أعقابها ، ومن أجلها . وإن هذا القول السابق لهو مغالطة لا يمكن قبولها ، وأن ما أشار إليه الزركشى ، أو ما نقله عن البغوى فيما جاء من تنزيل سابق على الحكم أو الواقعة لا يستقيم مع مفهوم أسباب النزول ، وما يضيرنا لو قلنا إنه من قبيل الأخبار المستقبلية ، التى يشير إليها القرآن دوما ، كما ذكر القرآن انتصار الروم على الفرس بعد غلبتها فى قول الله تعالى :

« غلبت الروم . فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون » (الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الروم) .

وإن هذا الاتجاه قد دفع ببعضهم إلى القول بأن ما نزل ابتداء هو قسم من أسباب النزول ، وقد سبق أن ناقشنا هـــذا الاتجاه **.. فإن قول الله تعالى « قد أفلح من تزكى » وقد استدلوا به على زكاة الفطر - كما قال الزركشى — فإن معناه : قد فاز من طهر نفســـه بالإيمان ، وأخلص عمله للرحمن . وليس

---

١ — انظر .. الزركشى البرهان ٣٢/١

* وقد ورد بذلك الحديث المتفق عليه (أن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة ، ولا يعضد شجره — أى لا يقطع — ، ولا يختلى خلاه — الا ينزع نباتة الرطب — ، وإنما أحلت لى ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها بالأمس ألا فليبلغ الشاهد الغائب) انظر .. مختصر تفسير ابن كثير المجلد الرابع ص ٣٩٢ (محمد نسيب الرفاعى) .

** راجع البحث ص ٤٧، ٤٨ .

هناك ما يدعو للتعسف فى تناول النص بتأويله إلى الاستدلال على زكاة الفطـــر » .

ويقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية .. .

« قـد أفلح من تزكى » .. روى أبو بكر البزاز بسنده عن جابر بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : من شهد أن لا إله الا الله ، وخلع الانداد ، وشهد أنى رسول الله . » (١)

وليس من شك فى أن نزول القـــرآن كان حسب المقتضيات ، وفى أعقاب الأحداث ، وهو أمر جعله مصدراً يعمل على بعث الحياة فى حضارة وليدة ــ حضارة الاسلام ــ وفكر حى يتجدد من آن لآخر .

« فالحركة التاريخيــة والاجتماعية التى نهض بأعبائها الإســـلام لا سر لها إلا فى هــذا التنجيم ... يتجلى لنـــا بمراجعتنا الزمن والأحداث شرطاً أساسياً ضرورياً لانتصار الدعوة المحمـدية ... ولن يشق علينـا أن نجد فى هذا المنهج التربوى ... طابع العلم العلوى الذى أملى كلمة الله بطريق التنجيم» (٢).

---

١ ــ تيسير العلى القدير لاختصار تفسير ابن كثير المجلد الرابع ص ٢٨٢ (محمد نسيب الرفاعى) رقم الحديث ٥١١.

٢ ــ مالك بن نبى : الظاهرة القرآنية ص ٢٢٢ . ترجمة عبد الصبور شاهين

ومما يلزم مراعاته أيضا ..

« كأن تقع حادثة فيها إيمان المؤمنين ، ونفاق المنافقين ، كما وقع فى أحد والأحزاب ، وقد أنزل الله تعالى مدح هؤلاء ، وذم أولئك ، ليكون فيصلا بين الفريقين ، وربما يقع فى مثل هذا من التعريض بخصوصيات الحادثة ما يبلغ حد الكثرة ، فيجب أن يذكر شرح الحادثة مختصراً ليتضح سوق الكلام فى نظر القارئين ... » (1)

وهذا معناه أن لا يطغى حدث على آخر حتى عند بلوغه حد الكثرة ، فإذا تناولت الآية بعض خصوصيات الواقعة ، فلن يقتصر على ذكر السبب المتعلق بهذه الجزئية فقط، ولكن من الأفضل أن يشار إلى الحادثة الأساسية بشكل مختصر ليتسنى توضيح الموقف ، ومعرفة النص وفهمه .

وكثيراً ما يتعرض المفسرون لذكر الأسباب التى لم تكن إلا سرداً للآثار المناسبة للآية التى يقومون بتفسيرها . وغالباً ما يكون معنى هذه الآية واضحاً بعمومها ، ولن يجدى العلم بالسبب شيئاً ، أو يضيف إليها زيادة معرفة ، أو أن الحكم فيها عاما لا يتعلق بسبب بعينه .

ومن الواجب أن يؤخذ بعين الاعتبار ما يستعمله الصحابة والتابعون من مصطلحات ..

« وقد تحقق أن الصحابة والتابعين كثيراً ما كانوا

---

١ — احمد حسن الباقورى: مع القرآن ص ١٥٧ .

يقولون : نزلت الآية فى كذا .. وكذا .. ، وغرضهم من ذلك تصوير ما تصدق عليه الآية (وإن لم يكن سببها المباشر) ، وذكر بعض الحوادث التى تشملها بعمومها، سواء تقدمت القصة أو تأخرت ، وسواء كان ذلك اسرائيلياً أو جاهلياً أو إسلامياً ، وسواء استوعبت جميع قيود الآية أو بعضها ، وبهذا يعلم أن للاجتهاد فى هذا القسم مدخلا ، وأن للقصص المتعددة هناك سعة .. فمن استحضر هذه النكتة تمكن من حل اختلاف أسباب النزول بأدنى عناية .. » (١)

فإن كثيراً من المصطلحات التى استعملها سلفنا الصالح — فى هذا الباب بخاصة — تحتاج إلى إعادة نظر ، وتحديد ما كانوا يقصدون إليه ، لأنها هيأت مسلكا للاجتهاد بكثرة الآراء ، وأباحت دخول كثير من القصص .

وأود أن أشير هنا إلى أن الاجتهاد (الذى يشير إليه العلماء) فى هذا الموضوع إنما هو اجتهاد حول التوفيق بين الحوادث والنصوص ، وليس اجتهاداً فى إيجاد الحادثة أو خلق قصتها — كما قلنا* — وإن عدم وجود نص ثابت فى سبب النزول هو الذى أتاح المجال للمجتهدين .

فوائد

إن المدلول الحقيقى الذى يقصد إليه النص القرآنى ، لا يتأتى ، ولا يكتمل

---

١ — احمد حسن الباقورى : مع القرآن ص ١٥٨ (نقلا عن الدهلوى) .

* راجع البحث ص ٣٨ .

الا بمعرفة أسباب النزول ، تلك المعرفة التى جمعت من الفوائد ما لا غنى عنه للباحث فى مجال فهم القرآن .

من هذه الفوائد ..

أولا : إدراك الدلالة اللفظية ، ومعرفة المعنى المراد ففى قول الله تعالى ..

« حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » .

(الآية ٢٣٨ من سورة البقرة)

ويقول الشاطبى ..

« القنوت يحمل وجوهاً من المعنى ... فإذا عرف السبب تعين المراد . » (١)

أما الوجوه التى يحملها لفظ (القنوت) ، فهى : الخشوع ، وعدم الالتفات ، والذكر ، والطاعة ، والسكوت ، والمعنى الذى ترمى إليه الآية هنا هو عدم تكليم الناس بعضهم بعضا كما كان يحدث قبل نزول الآية .

يقول ابن كثير ..

« روى الامام أحمد بن حنبل عن زيد بن أرقم ، قال :
كان الرجل يكلم صاحبه فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم
فى الحاجة ، فى الصلاة ، حتى نزلت هذه الآية ...
فأمرنا بالسكوت . » (٢)

---

١ — الشاطبى : الموافقات ٣٤٨/٣

٢ — تيسير العلى القدير لاختصار تفسير ابن كثير المجلد الأول ص ٢٠٦ (محمد نسيب الرفاعى) رقم الحديث ٣٨٧ .

ثانياً : معرفة خصوصية الدلالة اللفظية ، وإن جاءت فى صورة العمومية :

من ذلك قول الله تعالى ..

« الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم
فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل »
(الآية ١٧٣ من سورة آل عمران)

ويشير تفسير الجلالين ..

« قال لهم الناس » أى نعيم بن مسعود الأشجعى
« إن الناس » أى أبو سفيان . « (١)

كما يقول ابن كثير :

« وقال مجاهد فى قوله تعالى « الذين قال لهم الناس
إن الناس ... » ، قال : هذا أبو سفيان » (٢)

والقصة معروفة بأن هناك من أشاع الخبر بين صحابة الرسول أن أبا سفيان قد جمع رجالا ليخرج إلى بدر فى العام التالى للغزوة ، وذلك لقتال الرسول مرة أخرى ،وكانت هذه شائعة لم تكن صحيحة أو مؤكدة، وخرج الرسول وصحابته إلى بدر فى شعبان (من العام التالى لغزوة بدر الكبرى) ليقابل رجال المشركين ويحاربهم ، ولكنهم لم يخرجوا خوفاً من الهزيمة .

---

١ — جلال الدين السيوطى وجلال الدين المحلى : تفسير الجلالين ص ٦١ تحقيق د. شعبان محمد أسماعيل ط. الأنوار المحمدية القاهرة ١٣٢٧ هـ

٢ — تيسير العلى القدير لاختصار تفسير ابن كثير المجلد الأول ص ٣٣٥ (محمد نسيب الرفاعى)

وعلى أثر ذلك نزلت الآية المذكورة . فمن الواضح إذن أن معرفة سبب النزول أضحت عاملا هاما من عوامل تحديد دلالة لفظ (الناس) وهو لفظ عام من الناحية الشكلية ، إلا أنه من الناحية الموضوعية يراد به الخاص .

ثالثا : التعرف على دلالة النص جملة ، وبيان مقصده .

ومثال ذلك ما ذكره البخاري . . .

« عن مروان بن الحكم أنه بعث إلى ابن عباس يسأله : لئن كان امرىء فرح بما أوتى ، وأحب أن يحمد بما لم يفعل.. معذبا ،لنعذبن أجمعون !!. فقال ابن عباس: هذه الآية نزلت فى أهل الكتاب، ثم قرأ قول الله تعالى « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون . لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » (١٨٧، ١٨٨ من سورة آل عمران) قال ابن عباس : سألهم النبي عن شىء فكتموه ، وأخبروه بغيره ، فخرجوا ، وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه فاستحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما أتوا من

كتمانهم ما سألهم عنه ..... (١)

وبمعرفة تلك الواقعة التي تتعلق بالآية الكريمة ، اتضح قصدها ، وقد استدعى ذلك — أيضا — النظر في السياق بضم الآية السابقة مع الآية التي أخطىء فهمها ؛ فعرف منها أن أهل الكتاب هم المقصودون بذلك ، لفعلتهم مع رسول الله والتي تتضح من خلال حكاية ابن عباس للواقعة (سبب نزول الآية)، ولهذا فقد أتى الوعيد في آخر الآية الثانية مرتبا على أثر الأمرين المذكورين وهما « الفرح بما أتوا به من الكتمان » ، « وحب الحمد بما لم يقوموا به » ، وليس مرتبا على الأمرين نفسيهما أي « الفرح في ذاته » ، « وحب الحمد في ذاته » كما فهم ذلك مروان بن الحكم في أول الأمر .

رابعا : التعرف على عمومية الحكم أو خصوصيته .

وهو موضوع طالما اختلف العلماء حوله ؛ فمنهم من يرى أن العبرة بخصوص السبب ، ومنهم من يرى عمومية اللفظ . ولا شك أن معرفة الأسباب تعين — إلى حد كبير — على تحديد مثل هذه المواقف.

ويشير السيوطي إلى ذلك عند قوله ..

« هل العبرة بعموم اللفظ أو بخصوص السبب ، والأصح عندنا الأول .... » (٢)

---

١ — صحيح البخاري ٤/١١٥ (باب التفسير)

السيوطي : لباب النقول في أسباب النزول ص٦٢ ط أولى دار إحياء العلوم بيروت ١٩٧٨

٢ — السيوطي : الاتقان ١/٢٩

وهو دليل على تردد الأمرين أمام كثير من العلماء ، وإن كان السيوطى يرجح الأخذ بعموم اللفظ ، إلا أننى أرى أنه من الأحوط أن يتم التعرف على السبب أولا ، وعندئذ يمكن تحديد العمومية أو الخصوصية .

ومثال ذلك ما نزل من الآيات فى أسباب ، واتفق على تعديها إلى أسباب أخرى تماثلها ، كآية الظهار . .

« أخرج الحاكم وصححه عن عائشة قالت .

« تبارك الذى وسع سمعه كل شىء ، إنى لأسمع

كلام خولة بنت ثعلب ، ويخفى على بعضه ،

وهى تشتكى زوجها (أوس بن الصامت)

إلى رسول الله ، وتقول يارسول الله أكل

شبابى ، ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبر

سنى ، وانقطع ولدى ، ظاهر منى . . فما

برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات « قد

سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى

إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع

بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم

ماهن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم

وإنهم ليقولون منكراً من القول وزورا إن

الله لعفو غفور . والذين يظاهرون من

نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة . .

الآية ، (١) (الآيات ١، ٢، ٣ من سورة المجادلة)

وقد جاءت الآيات عقب حادثة بعينها ، إلا أنها تناولت حكما عاماً يمكن أن يطبق على هذا الموقف (المذكور) ، وعلى التماثل من وقائع أخرى ، إذ أن عمومات الكتاب والسنة لم تكن مختصة بشخص معين ، وإنما هى بنوع ذلك الشخص . أما معرفة سبب النزول هنا ، فلا تعنى وقوف الآيات عند تلك الحادثة بعينها ، ولكنها تعالج كافة المواقف المماثلة .

أما إذا نزلت الآية فى معين ، ولم تتناول اللفظ فى عمومه ـ وهذا ماتحدده معرفة سبب النزول ـ أمكننا معرفة خصوصية الدلالة

ففى قول الله تعالى . .

« وسيجنبها الأتقى » (الآية ١٧ من سورة الليل)

يجمع العلماء أنها تعنى الخصوصية لأنها نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه .

يقول ابن كثير . .

« وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك ».(٢)

وتلك الفوائد ـ التى ذكرناها ـ ليست على سبيل الحصر ، ولكن لابد من معرفة علم الأسباب لمن أراد أن يتزود فى علم القرآن ، وإلا حار بين الشبه والمشكلات التى يتعذر الخروج منها إلا بهذه المعرفة .

---

١ ـ السيوطى : لباب النقول فى أسباب النزول ص ٢٠٦

٢ ـ تيسير العلى القدير لاختصار تفسير ابن كثير المجلد الرابع ص ٣٩٩

وتقتضى الضرورة أن نعرف الحقيقة وافية من كتاب الله ؛ فهى التى تحدد منهج السلوك الإنسانى ، وتلك أمور رهنية بالإدراك السليم والواعى .

إن التشريع الاسلامى بطبيعته لم يكن مستبدأً أو طاغيا ، وإنمـــا يشرع عندما تصبح الحــاجة ملحـــة فى معرفة الحل الشافى الذى يحقق المصلحة ، ويعالج الأمور .

الموضوع الثانى عشر

المناسبة

* المناسبة فى النظم

* مناسبة الفاصلة

التقديم والتعريف بالمناسبة

تتعدد أوجه الإعجاز في النص القرآني، وتتنوع، ومن تلك الأوجه مايلفت اليه النظم القرآني في ترتيب كلمات القرآن، وآياته، وسوره من مناسبة معقودة بينها. وقد سلك النظم القرآني مسلكا مخالفا لنظم العرب ونثرهم، في مطالعه، ومقاطعه، وفواصله.

ويشير بعض المفسرين إشارات خاطفة إلى تلك المناسبة، وقد أكثر الفخر الرازي في هذا المجال، يظهر ذلك في قول الزركشي "وقد قل اعتناء المفسرين بهذا النوع لدقته، ومن أكثر فيه الإمام فخر الدين الرازي وقال في تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط، وهذا النوع يهمله بعض المفسرين أو كثير منهم". (١)

إن إدراك المناسبة المعقودة في النظم القرآني تفيد كثيراً في حسن التأويل ودقة الفهم والإحساس بترابط وتناسق السياق القرآني.

---

(١) الزركشي: البرهان في علوم القرآن ٣٦/١ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية ـ الحلبي ـ القاهرة ١٩٥٧، (الطبعة الاولى).

والمناسبة بما تتسم به من بلاغة فى النظم إلاّ أنها أكثر دقـة ، وأوضح تلاؤما بين توارد الكلم وسياقات الأساليب ، كما تبدو فى المناسبة دلالات ، تظهر من خلال الترتيب والربط فى النص القرآنى زائدة على دلالات الألفاظ ذاتها بما يتفق مع السياق القرآنى ، وتكشف المناسبة عن روعة البيان القرآنى وحسنه ، وتسهم فى إدراك اتساق المعانى، فالمناسبة لون من ألوان إعجاز القرآن البلاغى يظهر فى إحكام نسجه ، وانتظام كلامه ، وروعة أسلوبه .

ويمكن إدراك المناسبة إذا توفرت الاعتبارات والكيفيات التى تساعد على ظهورها فى الأسلوب وهى دقة ورود الكلم فى موضعه ، وموسيقى اللغة ووقعها المتهادى وترتيبها المتناسق على مناط الذوق من كل نفس بما يبعث على اطمئنان النفس، وارتياحها عند سماع الأسلوب أو قراءته ، وهذا مالا نجد له نظيراً فى أسلوب آخر لا تتوفر فيه تلك الكيفيات . ولاغرو فى ذلك والحديث هنا يدور حول أسلوب القرآن أروع أساليب العربية فصاحة وبيانا ، فتتصل تلك الاعتبارات بحركات النفس وانفعالاتها ، مما يدل على أن نظم القرآن مادة فوق الصنعة ، ومن وراء الفكر ، وكأنها صبت على الجملة صبّاً ، فيخفف على النفس أن تجرع الأدلة العقلية ، ويرقّه عن المعقول باللفتات العاطفية ، وفى هذا يقول الرافعى " لو تدبرت ألفاظ القرآن فى نظمها لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجرى فى الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هى له من أمر الفصاحة فيهيئ بعضها لبعض ، ويساند بعضها بعضا ، ولن تجدها إلاّ مؤتلفة مع أصوات الحروف ، مساوقة لها فى النظم

الموسيقى حتى ان الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيهاكان ، فلا تعذُبُ ولا تُساغ ، وربما كانت أوكس النصيبين في حظ الكلام من الحرف والحركة ، فإذا هي استُعملت في القرآن رأيت لها شأنا عجيبا ورأيت أصواتَ الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدتْ لها طريقا في اللسان واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقى ، حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيءٍ وأرقه ، وجاءت متمكنة في موضعها ، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة من ذلك لفظة " النُذُر " جمع نذير فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معاً ، فضلا عن جسأة هذا الحرف ونبوّه في اللسان ، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام ، فكل ذلك مما يكشف عنه ويُفصح عن موضع الثقل فيه ، ولكنه جاء في القرآن على العكس وانتفى من طبيعته في قوله تعالى " ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر " ، فتأمل هذا التركيب وأنعم ثم أنعم على تأمله ، وتذوق مواقع الحروف ، وأجر حركاتها في حس السمع ، وتأمل مواضع القلقلة في دال (لقد) ، وفي الطاء من (بطشتنا) وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء الى واو (تماروا) ، مع الفصل بالمد ، كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات إذا هي جرت على اللسان ، ليكون ثقل الضمة عليه مستخفاً بعدُ ، ولتكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الأحماض في الأطعمة ، ثم ردد نظرك في الراء من (تماروا) فإنها ما جاءت إلا مساندة لراء (النذر) حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها

منَ مثلها ، فلا تجف عليه ولا تغلظ ولا تتيو فيه ، ثم أعجب لهذه الغنّة الـــتى سبقت الطاء فى نون (اتذرهم) وفى ميمها والغنّــة الأخرى التى سبقت الذال فى النـــذر ». (١)

وقد تكون الاعتبارات من باب التشريع والتقنين ، فيرد الأسلوب علـــى نمط تفصيلى فى تحديد الأحكام ودقتها ، وبيان كيفية التدرج فيها عندمـــا يواجه الأمور وتناسبها بما تمليه الحاجة وتتطلبه الحالـــة . من ذلك آيـــة المحرمات من النساء ، فى قوله تعالى : " حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكـــم من الرضاعة .. إلى آخر الآية .. "

ينتظم السياق كلمات مرتبة متناسبة مع الغرض الذى سيقت من أجلـــه تتناول درجات القرابة حسب أهميتها ، فقد عددت الحالات المحرمة بدرجـــة القرابة العصبية ، فبدأت بالأم والبنت والأخت ثم بنت الأخ وبنت الأخت مـــن القرابة المباشرة ، والمرضعة وأخت الرضاعة من القرابة الرضاعية .. وهكـــذا .

وباستقصاء النظم القرآنى فى ظل هذه الاعتبارات يتأكد لدينا أنـــه أسلوب لم يشذ مرة واحدة عن مراعاة أدق كيفية أو اعتبار ومن هنا يخـــرج ــ لاشك ــ عن نطاق الكلام البشرى ذلك الكلام الذى لايوجد منه نمط واحـــد

---

١) مصطفى صادق الرافعى : اعجاز القرآن ، مطبعة الاستقامة ــ القاهـــرة ١٩٥٢ ، ص ٢٥٧ ــ ٢٥٨ .

يخلو من الهنات ، وإغفال الاعتبارات أو إهمال الكيفية ، وعندما يخلو الأسلوب القرآني بهذا كله لهو مقياس من مقاييس الإعجاز فيه ، وهو مقياس لا تختلف فيه الطوائف أو الأوساط ، فمقياس علم البيان (مثلا) تختلف فيه الأذواق باعتباره متعلقا بالتصرف فى فنون القول وضروبه فى التعبير عن الفكرة التى يراد أداؤها ومقياس التشريع قد تختلف فيه الأجناس بالطواعية والعناد ، إلا أن هذا القياس المتمثل فى النظم القرآنى هو مقياس تتفق فيه الآراء وتتعانق فيه الأذواق ولا تقوى أعتى الطبائع عنادًا على إنكاره وعدم الاستجابة لجمال البيان فى أطوائه ـ سواء ما تعلق بنصح وإرشاد ، أو بحدود وأحكام .

لقد أنكر كفار مكة مميزات القرآن ، ولكن أثره فى الذوق هو الذى جعل " الوليد بن المغيرة " وهو من العالمين باللغة وبالشعر العربى يعلن على الملأ وصفه للنظم القرآنى " إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمونق ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو بقول بشر " .

فهل كان إحساس الوليد نابعا من عظمة التشريع أو من جودة التشبيه أو نضرة الاستعارة ، لم يكن شيئا من هذا هو مصدر إعجاب العرب ممثلا فى الوليد ، بل هو الذوق الذى لا ينتشى إلا من مراعاة الملابسات والكيفيات والاعتبارات .

وقد اهتم بموضوع المناسبة طائفة من العلماء ، فممن صنف فيه أبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن الزبير الأندلسى النحوى الحافظ المتوفى ٨٠٧ فى كتاب

أسماه " البرهان فى مناسبة ترتيب سور القرآن " وللشيخ برهان الدين البقاعى كتاب فى هذا أسماه " نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور (وتوجد نسخة خطية بدار الكتب المصرية منه) .

ويشير العلماء إلى أن " أول من أظهر ببغداد علم المناسبة ، ولم نكن سمعناه من غيره هو الشيخ الامام ابو بكر النيسابورى * ، وكان غزير العلم فى الشريعة والأدب ، وكان يقول ... لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه ؟ وما الحكمة فى جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يزرى (زرى عليه فعله : عابه) على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة " (١)

ومن هنا يمكن أن نقول إن موضوع المناسبة الذى نحن بصدده هو عبارة عن تساوق الكلمة القرآنية ، وعن وجه الارتباط بين الجملة والجملة فى الآية الواحدة ، وبين الآية والآية فى الآيات المتعددة ، أو بين السورة والسورة .

وإدراك المناسبة يؤكد لنا قوة الارتباط بين أجزاء الكلام الذى يأخذ بعضه بأعناق بعض ، فيبدو التأليف وكأنه بناء محكم متلائم الأجزاء .

---

* هو أبو بكر عبد الله بن محمد زياد النيسابورى الفقيه الشافعى الحافظ .. رحل فى طلب العلم الى العراق والشام ومصر ، وقرأ على المازنى ، ثم سكن بغداد وصار اماما للشافعية بالعراق وتوفى ٣٢٤ هـ (طبقات القراء ١/٤٤٩ ، شذرات الذهب ٢/٣٠٢ .

(١) الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ، ١/٣٦ .

وهو أمر يعتمد على تدبر النظم القرآني ، وبلغ التذوق لإعجاز القرآن وأسراره البلاغية ، وأوجه بيانه .

ومن اللطائف المقبولة في المناسبة بيان دقة المعنى ، بما ينسجم مع السياق ، ويتفق مع الأصول اللغوية .

ولا غرو في ذلك : فإن العلماء في كل عصر وآن يشيرون إلى أن القرآن لا يخلو من الحكم العظيمة والعلوم الجمة ، والأسرار التي تحتاج إلى فكر وروية حتى نصل إلى معرفتها ، وإن كان يتعذر على الفكر البشري أن يلم بتلك الحكم والعلوم والأسرار التي لا تخلق ولا تنتهي .

" إن كلمات القرآن كلمة كلمة كانت معروفة للعرب ، جارية على ألسنتهم في شعرهم ونثرهم ، حتى لقد كان الشعر الجاهلي مرجعا عتيداً عند العلماء في الاستدلال على بعض غريب القرآن من مفردات وتراكيب ، هناك إذن حرّضت عليه هذه الكلمات القرآنية ، وجعل لها هذا السلطان الآسر على القلوب ، وهذه الغلبة القاهرة على العقول ، وهذا الجلال القائم على كل نفس ، تقرؤه أو تستمع اليه ... " (١)

(١) عبد الكريم الخطيب : الاعجاز في دراسات السابقين ، ص ٦٦ ، دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ ١٩٧٤ .

ولتكن المناسبة سر من الأسرار الكامنة فى النص القرآنى والكشف عنها إنما يزيدنا بهذا النص المعجز معرفة تشع من بين حروفه وكلماته .

وعندما نتأمل القرآن ، نجد أن أجزاء الكلام فيه آخذ بعضه بأعناق بعض فى تماسك يجعل النص القرآنى وكأنه بناء واحد ...

والموضوع فى غاية الدقة .. إذ تكمن لطائف القرآن فى ترتيباته وروابطه ، وهى من علامات الحسن فيه .

والمناسبة .. تعنى فى اللغة : المقاربة ، ومن مشتقاتها (النسيب) وهو القريب المتصل كالأخوين وابن العم ونحو ذلك . وهما متناسبان بمعنىً رابطٍ بينهما وهو القرابة .

والمناسبة فى الكلام تعنى أن الكلمة تتفق مع المكان الذى وضعت فيه وتتفق فى ذلك مع ماقبلها وما بعدها ، بحيث لو وضعت فى مكان آخر لما أفادت ماتقصد إليه ولاختل النظم وما أدت المعنى الذى وضعت من أجله فى دقته وحسن سياقه .

ويقولون إن المناسبة أمر معقول ، إذا عرض على العقول تلقته بالقبول .

يقول الجرجاني " اعلم أن لكل نوع من المعنى نوعا من اللفـــظ هو به أُخص وأولى ، وضروبا من العبارة هو بتأديته أقوم ، وهو فيه أجلى ، ومأخذًا إذا أُخذ منه كان إلى الفهم أقرب وبالقبول أخلق ، وكان السمـــع له أوعى والنفس إليه أميـــل ... " (١)

وبهذا يشير الجرجاني الى أُن المعنى قد تتغير صورته ، وتفسد معالمه إذا لم يتوازن معه اللفظ الذى يليق به ، ويقدر على حمله بكـــل مافيه من ألوان واضحة أو خفيـــة ، وبهذا يتفاضل الكلام ، فتتقدم بعـــض صوره على بعض بحسب ملاءمتها للمعنى وموازنتها له ..

والتعرف على المناسبة ينبنى على إدراك اتساق المعانى ؛ وهو سمة من سمات الإعجاز البلاغى فى القرآن ـــ كما اشرنا ـــ ، ومظهر من مظاهـــر البيان المحكم ، وانتظام الكلام وروعة الاســـلوب .

ولم يكن موضوع المناسبة أمرًا غريبا على اللغة العربية ، أو أُنه قـــد أُقحم عليها ، إذ أُن المنكرين للمناسبة يدعون أُنها نوع من التزيّد ، فلا داعى للبحث عنهـــا .

وقد تكون المناسبة أمرًا مطلوبا فى اللغة ، فقد تتطلب المناســـبة خروجا على القواعد والاصول ، فهى ليست أُسيرة القاعدة او محجور عليهـــا

---

١) خلف الله ، د . سلام : ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ـــ الرسالـــة الثانية لعبد القاهر الجرجانى ، ص١١٧ ، دار المعارف المصريـــة ١٩٦٨ .

بما تقتضــــيه الأصـــول .

وقد ألّف الشيخ شمس الدين الصائغ الحنفي كتابا أسماه " إحكـــام الرأى فى أحكام الآى " قال فيه : اعلم أن المناسبة أمر مطلوب فى اللغـــة العربية ". (١)

ومن هنا ــ وفى مدرسة النحو ــ يمكن التصرف فى بعض حركات الكلمة أو بنيتها لتناسب الموضع الذى وضعت فيه .

ولما كانت المناسبة تعنى توارد الكلام فى سياق له دلالاته مــــن وراء تناسق النظم وتعانقه سواء فى نظم الكلمات القرآنية أو ترابط الآيـــات أو ترتيب السور ، إلا أنها أيضا فرضت نفسها فى مجال النحو ، فقـــد لجأ علماء النحو إلى التصرف فى بنية الكلمة وحركتها حتى تتناسب فى صوتيتها وتبعد عن جسأة اللفظ فى صلابته وخشونته وغلظته إلى سهولة وانسيابيـــة فى النطق ، كما يحدث (مثلا) فى ياء المتكلم : إذا قلنا " إن قلمـــى يكتب ما أمليه عليه " . فكلمة قلمى منصوبة بفتحة مقدرة على الميم منع مـــن ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة ، فالكسرة هى الحركة التى تناسب الياء فى نطقها ، وهى الظاهرة فى الحرف السابق على ياء المتكلم لتناســب نطق الكلمتين فى صوتية متناغمة لتكون أسهل جرياً على اللسان وأخف نطقاً كما يتلقاها المستمع بارتيـــاح .

---

(١) السيوطى : معترك الأقران فى اعجاز القرآن ص ٢٢/١ [illegible] الفكـــر العربى ط القاهرة ١٩٦٩م .

المناسبة في النظم

تظهر المناسبة في إتيان الجملة بيانا وتفسيرا وتوضيحا لما قبلها ، كما في قول الله تعالى : " فقاتل في سبيل الله لاتكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلا ✱ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شيء مقيتا " ٨٤ ، ٨٥ / النساء •

يتضح في الآية الأولى أن الله تعالى أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بأن يحث الأمة ويحرضها على الجهاد والقتال وهو من الأعمال الطيبة والطاعات الشريفة ، فهو تحريض لهم على القيام بالحسنى •

وجاءت الآية التالية لتبين جزاء هذا العمل وأن القائم به إنما يستحق الجزاء الطيب ، فأشارت إلى أن من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها — وكما يتضح — هو بيان وتفسير لأجر الجهاد في سبيل الله ، والتحريض عليه أيضا •

ومن الدلالات التي تظهر من خلال النظم أنه تعالى لما امر رسوله بتحريضهم على الجهاد وبعث هممهم على مناجزة الأعداء ، فإذا ماتوا نعوا

أو عصوا وتمردوا فلن يكون العيب عيبه ، وإنما الجزاء كل الجزاء لهم يعود عليهم بالخير والحسنات لا على أحدٍ سواهم . وإذا لم يقبلوا تحريضهم على القتال ، فلن يكون من عصيانهم عتاب للرسول ، وإن أطاعوك حصل لك من طاعتهم حسن الثواب ، وهو ترغيب من الله تعالى لرسوله في أن يجتهد في تحريض الأمة وحثها على الجهاد .

والآية التي أشارت إلى الشفاعة لها تعلق بالجهاد ، وإلا لكانت منقطعة عما قبلها ، وهكذا تبدو المناسبة في تساوق النظم الذي يرتبط فيه الكلام وقد جاءت كل كلمة في موضعها وفي ترتيبها لا خلل ولا اضطراب . كما تأتي الدلالة متناسبة ترتبط معانيها وموضوعاتها بعضها ببعض ، وتوضح أمام المتصدي للتفسير إذا ما وعى المناسبة — صورة متكاملة للموضوع الذي يتناوله .

كما تظهر الموضوعات المتناسبة حينما ترد الآيات فتذكر الأحكام ثم تذكر القصص لتفيد الاعتبار للسامع ، كما في قول الله تعالى : " وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم * من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون " ٢٤٤/٢٤٥ البقرة .

ويمكن أن يكون الاعتبار حثا على ترك التمرد والعناد ، ويزيد من الخضوع والانقياد ، فيأتي ذكر الأمر بالقتال أولا ثم الأمر بالإنفاق

باعتباره نوعاً من أنواع الجهاد . ثم يذكر القرآن فى الآيات من ٢٤٦ وما بعدها قصة بنى إسرائيل عندما أمروا بالقتال نكثوا وخالفوا ، فذمهم الله ونسبهم إلى الظلم .

واللفت فى هذه الآيات أن المأمورين بالقتال لايصح أن يخالفوا أمر الله وأن يستمروا فى القتال مع اعداء الله .

وهذا الانتقال فى الخطاب من لون إلى لون ، إنما يتناسب فيه السياق فيأتى المثل أو القصة على سبيل العبرة والاتعاظ ، فعندما يثار موضوع الجهاد بالنفس والمال يلفت إلى الاعتبار بما حدث مع بنى اسرائيل عندما وعدوا بالقتال فى سبيل الله ، فلما كتب عليهم القتال تولوا ولم يوفوا بما وعدوا بل نكل عن الجهاد اكثرهم والله عليم بهم .

وهكذا الانتقال من حكم إلى مثل أو قصة توافقها فيما تهدف إليه يكون أوقع فى أن تقبل النفس الإنسانية هذا الحكم عن قناعة ورضى .

وقد تظهر المناسبة فيما يأتى من اعتراض فى الأسلوب (تذييلا) يضيف الى السياق مفاهيم تعمل على تهيأة السامع واستعداده لقبوله والاقتناع به .

ومن ذلك ماجاء فى سورة " ص " إذ جاء الترتيب بها على أحسن مايكون أسلوب المحاجّة .....

جاء فى أول السورة بيان محاولة الكفار فى تنكرهم لمحمد عليه الصلاة والسلام " وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب " ٤ / ص ٠

وإثبات كذبه ٠٠ فيما ساقه إليهم من توحيد الله سبحانه وتعالى فى قوله تعالى : " أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشىء عجاب " ٥ / ص ، وما يتعلق بالنبوات (أءنزل عليه الذكر من بيننا بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب) ٨ /ص ٠

وكانوا يستنكرون نبوته صلى الله عليه وسلم ويقولون بفساد القول بالحشر (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) ١٦ /ص ٠

وبهذا جاءت السورة تحكى عن المستهزئين من الكفار أنهم بالغوا فى إنكارهم ولم يذكر القرآن بعد ذلك الجواب على ما كانوا يدعون ٠٠ بل تطرق الأسلوب إلى ذكر داود (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ٠٠) ١٧ /ص ، ولا تعلق لذكر داود عليه السلام بما سبقها من الآيات ومع هذا فقد أسهب الأسلوب القرآنى فى قصة داود ، ثم يذكر بعد ذلك " وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار " ٢٧ /ص ٠

وما علاقة هذا المعنى الذى يثبت حكمة الله فى خلق السموات والأرض وأنه خلق لايعتريه باطل — بقصة داود ، ولكنها سياقات متناسبة ، وإذا لم تدرك المناسبة فى مثل هذه السياقات المعقودة فى هذا الأسلوب لظهر لنا أنها فصول متباينة ، والقرآن لم يكن يأتى بفصول متباينة أو أساليب متنافرة ، ولكن المناسبة تظهر فى أن من ابتلى بخصم جاهل يستنكر ويكابر ، ويمعن فى إنكاره وإصراره . وجب أن يقطع الكلام عليه إذ كلما كان الخوض فى تقريره كلما كانت نفرته أشد ، وصده أقوى .

ومن الأجدى أن يشغل خاطره بكلام آخر — فى موضوع آخر — ويمكن أن يستطرد فى هذا الموضوع حتى يمكن صرفه عن الموضوع الأول على أن يتطرق الموضوع الجديد إلى عرض مقدمات وأمثلة تناسب الموضوع الذى ترك أولاً ، حتى تتهيأ النفس لقبوله بعد ذلك وحينئذ يصير الخصم منقطعاً مفحماً .

وهنا نجد الكفار الذين بالغوا فى إنكار الحشر والقيامة حتى قالوا على سبيل الاستهزاء " ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب " ، فتطرق الأسلوب القرآنى إلى ذكر قصة داود ، وذكر فى آخرها "يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ... " . وعندما أمر الله تعالى ، يشير القرآن إلى أن الله تعالى — مع أنه رب العالمين — لايقيم إلا الحق

ولا يقضى بالباطل ، وعندما يسلّم الخصم أن حكم الله يجب أن يكون بالحق لا بالباطل فيسلم بصحة القول بالحشر .

وهكذا تبدو المناسبة فى النظم القرآنى وإدراكها على جانب كبير من الأهمية فهى تظهر لنا إدراكات ومفاهيم يمكن أن نصل إليها من خلال تساوق هذا النظم المعجز ، وتلك البلاغة التى لا تطاولها بلاغة .

وقد تستدعى المناسبة الخروج على القواعد والاصول فى كثير من الأساليب من ذلك :

١ـ تقديم المعمول :

أـ إما على العوامل

كما فى قول الله " يوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون " ٤٠ / سبأ .

" وخطاب الملائكة هنا تقريع للكفار ، وقد علم تعالى أن الملائكة منزهون برآء مما وجه إليهم من السؤال وإنما ذلك على طريق توقيف الكفار وقد علم سوء ما ارتكبوه من عبادة غير الله وأن من عبده متبرئ منهم ، وهؤلاء (مبتدأ) وخبره (كانوا يعبدون) و إياكم (مفعول يعبدون) ، ولما تقدم انفصل ، وإنما قدم لأنه أبلغ فى الخطاب " (١)

---

١) ابو حيان : التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط ، ص ٢٦١ ، الجزء السادس ، نشر مكتبة ومطابع النصر الحديثة ـ السعودية

ب ـ أو معمول آخر أصله التقديم ، كما في قوله تعالى : " لنريك من آياتنا الكبرى " ٢٣ / طه ، إذا أعربنا (الكبرى) مفعول نُرى ، أو على الفاعل نحو " ولقد جاء آل فرعون النذر " ٤١ / القمر .

ومنه تقديم خبر كان على اسمها ، نحو " ولم يكن له كفوا أحد "

وبيانها كما يقول صاحب تفسير الدر اللقيط : " وذلك أن قوله (ولم يكن له كفواً أحد) ليس الجار والمجرور فيه تاما إنما هو ناقص لا يصلح أن يكون خبرا لكان ، بل هو متعلق (بكفواً) وقدم عليه فالتقدير (ولم يكن أحدٌ كفواً له) أي مكافئة فهو في معنى المفعول متعلق (بكفوا) ، وتقدم على (كفواً) للاهتمام به ، إذ فيه ضمير الباري تعالى : وتوسط الخبر ، وإن كان الأصل التأخير لأن تأخير الاسم هو فاصلة فحسن ذلك .. وعلى هذا الذي قررناه يبطل إعراب (مكى) وغيره ، أن " له " الخبر (وكفوا) حال من (أحد) لأنه ظرف ناقص لا يصلح أن يكون خبرا ، وبذلك يبطل سؤال "الزمخشري" وجواب "سيبويه" إنما تكلم في الظرف الذي يصلح أن يكون خبراً ويصلح أن يكون غير خبر . قال سيبويه ، وتقول (ما كان فيها أحد خير منك) (ما كان أحد مثلك فيها) (وليس أحد فيها خير منك) .

إذا جعلت فيها مستقرا ولم تجعله على قولك "فيها زيد قائم" أجريت الصفة على الاسم فإن جعلته على (فيها زيد قائم) نصبت فتقول "ماكان فيها أحد خيرا منك " وماكان أحد خيراً منك فيها" إلا أنك إذا أردت الإلغاء فكلما أخرت المعنى كان أحسن ، وإذا أردت أن يكون مستقرا فكلما قدمته كان أحسن، والتقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربي جيد كثير قال تعالى " ولم يكن له كفواً احد " (١)

٢ـ تقديم الفاضل على الافضل :

"فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى " ٧٠/ طه

" تأخير موسى عند كلامهم لرعاية الفواصل ، وقد جوز أن يكون ترتيب كلامهم أيضا هكذا : إما لكبر سن هارون عليه السلام وإما للمبالغة في الاحتراز عن التوهم الباطل من جهة فرعون وقومه حيث كان فرعون قد ربى موسى عليه السلام في صغره ، فلو قدموا موسى ربما توهم اللعين وقومه من أول الأمر أن مرادهم فرعون باعتباره ربى موسى " . (٢)

وقيل " لأن فرعون كان قد ربى موسى فبدءوا بهما ليزول تمويه فرعون أنه ربى موسى ، فيقول أنا ربيته وقالوا رب هارون وموسى ، ولم يكتفوا بقولهم برب العالمين للنص على أنهم آمنوا برب هذين ، وكان فيما قيل يزعم (أي فرعون) أنه رب العالمين " . (٣)

١) تفسير الدر اللقيط من البحر المحيط ، تاج الدين بن مكتوم ٥٢٧/٨ .
٢) تفسير ابى السعود ، ٢٦/٤ .٣
٣) تفسير البحر المحيط : ابن حيان الاندلسى ٢٦٠/٦ .

ومن الملاحظ أن آيات القرآن التي تناولت ذكر موسى وهارون يتقدم ذكر موسى على هارون في كل هذه الآيات ماعدا هذه الآية (٧٠/طه) تقدم فيها ذكر هارون على موسى ، وفيما سبق كان هو التعليل الذي ذهب اليه المفسرون حينما بحثوا عن المناسبة والحكمة في تقديم ذكر موسى على هارون.

٣ـ تقديم الضمير على مايفسره :

" فأوجس في نفسه خيفة موسى " ٦٧/طه ، " وتأخر فاعل أوجس ، وهو " موسى " بين يقول إنها فاصلة . والضمير العائد عليه أي على موسى تقدم في كلمة نفسه وإن كان القياس تأخر الضمير ". (١)

٤ـ ايراد الجملة التي ورد بها ماقبلها على غير وجه المطابقة في الاسمية والفعلية :

كقوله تعالى : " ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين " ٨/البقرة . لم يطابق بين قولهم (آمنا) (جملة فعلية) ، وبين ماورد به فيقول (لم يؤمنوا) ، أو (ما آمنوا) (أي جملة فعلية أيضا) ما هم بمؤمنين " ما حجازية فان جواز دخول الباء في خبرها لتأكيد النفي اتفاق بخلاف التميمية .. وايثار الجملة الاسمية على الفعلية الموافقة لدعواهم المردودة للمبالغة في الرد بافادة انتفاء الايمان عنهم في جميع الازمنة لافي الماضي فقط ، كما تفيده

---

١) تفسير النهر الماد من البحر المحيط : تاج الدين بن مكتوم القيسي ، ص ٦٢/٦ .

الفعلية .. ولايتوهمن أن الجملة الاسمية الإيجابية تفيد دوام الثبوت فعند دخول النفى عليها يتعين الدلالة على نفى الدوام فإنهـا بمعونة المقام تدل على دوام النفى قطعاً ، كما أن المضارع الخالى عن حرف الامتناع يدل على استمرار الوجود، وعند دخول حرف الامتناع عليه يدل على استمرار الامتناع ، لاعلى امتناع الاستمرار ، كما فى قوله تعالى " ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم " .

فإن عدم قضاء الأجل لاستمرار عدم التعجيل لاعدم استمرار التعجيل وإطلاق الإيمان عما قيدوه به للإيذان بأنهم ليسوا من جنس الإيمان فى شئ أصلا ، فضلا عن الإيمان بما ذكروا وقد جوز أن يكون المراد ذلك ، ويكون الاطلاق للظهور .. ومدلول الآية الكريمة أن من أظهر الأعيان واعتقاده بخلافه لايكون مؤمنا فلا حجة فيها للكرامية القائلين بأن من تفوه بكلمتى الشهادة فارغ القلب عما يوافقه أو ينافيه مؤمن .. " يخادعون الله والذين آمنوا ... " بيان ليقول .. وتوضح لما هو غرضهم مما يقولون ، أو استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق اليه الذهن كأنه قيل مالهم يقولون ذلك وهم غير مؤمنين ، فقيل .. يخادعون .. " (١)

---

١) تفسير أبى السعود ٤٨ ، ٤٩ / ١ .

٥ ـ ايراد أحد القسمين غير مطابق للآخر كذلك :

نحو " فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين " ٣/ العنكبوت بالفاء لترتيب مابعدها على مايفصح عنه ماقبلها من وقوع الامتحان واللام جواب القسم والالتفات إلى الاسم الجليل لإدخال الروعة وتربية المهابة ، وتكرير الجواب لزيادة التأكيد والتقرير أى فوالله ليتعلقن بالامتحان تعلقا حاليا يتميز به الذين صدقوا فى الايمان الذى أظهروه والذين هم كاذبون فيه مستمرون على الكذب ، ويترتب عليه أجزيتهم من الثواب والعقاب ، ولذلك قيل المعنى ليميزن وليجازين ، وقرئ وليعلمن من الاعلام أى وليعرفنهم الناس " (١)

٦ ـ الاستغناء بالافراد عن التثنية :

نحو " فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى " ١١٧/ طه

والمراد نهيهما عن أن يكونا بحيث يتسبب الشيطان إلى إخراجهما منها بالطريق البرهانى كما فى قولك (لا أرينك ههنا) .

والفاء لترتيب موجب النهى على عداوته لهما ، أو على الإخبار بها (فتشقى) جواب للنهى ، وإسناد الشقاء اليه خاصة بعد تعليق الإخراج الموجب له بهما معاً لأصالته فى الأمور ، واستلزام شقائه

(١) تفسير ابن السعود ٢٥٠/٤ .

لشقائها وقيل المراد بالشقاء التعب فى تحصيل مبادئ المعاش وذلك من وظائف الرجال ". (١)

٧ـ الاستغناء بالافراد عن الجمع ...

نحو " واجعلنا للمتقين إماما " ٧٤/ الفرقان . أى اجعلنا بحيث يقتدون بنا فى إقامة مراسم الدين بإفاضة العلم والتوفيق للعمل ، وتوحيده للدلالة على الجنس وعدم الالتباس ، كقوله تعالى " ثم يخرجكم فيها طفلا " أو لأن المراد واجعل كل واحد منا "إماما " أو لأنهم كنفس واحدة لاتحاد طريقتهم واتفاق كلمتهم كذا قالوا ... وانت خبير بأن مدار الكل صدور هذا الدعاء إما عن الكل بطريق المعية ، وأنه محال لاستحالة اجتماعهم فى عصر واحد ، فما ظنك باجتماعهم فى مجلس واحد واتفاقهم على كلمة واحدة ، وإما عن كل واحد منهم بطريق تشريك غيره فى استدعاء الإمامة ، وأنه ليس بثابت جزما بل الظاهر صدوره عنهم بطريق الانفراد وإن عبارة كل واحد منهم عند الدعاء ، واجعلنى للمتقين اماما خلا أنه حكيت عبارات الكل بصيغة المتكلم مع الغير للقصد إلى الايجاز على طريق قوله تعالى " يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا " وأبقى "إماما " على حاله ، وقيل الإمام جمع

---

١) تفسير ابى السعود ٤٩٤/٣ .

" آمّ " بمعنى قاصد ، أى قاصدين لهم مقتدين بهم ، وإعـــادة الموصول فى المواقع السبعة ، مع كفاية ذكر الصلات بطريق العطف على صلة الموصول الأول للإيذان بأن كل واحد مما ذكر فى خير صلة الموصولات المذكورة وصف جليل على حياله له شأن خطير حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل ، ولا يجعل شىء من ذلك تتمة لغيـــره ، وتوسط العاطف بين الموصولات لتنزيل الاختلاف العنوانى منزلـــة الاختلاف الذاتى .. " (١)

٨ـ الإتيان بالتثنية بدلا من الافراد ..

نحو قوله تعالى : " ولمن خاف مقام ربه جنتان " ٤٦ /الرحمن (جنتان) جنة للخائف الإنسى ، وجنة للخائف الجنى ، فـــإن الخطاب للفريقين ، فالمعنى لكل خائفين منكما ، أو لكل واحد جنـــة لعقيدته وأخرى لعمله ، أو جنة لفعل الطاعات ، وأخرى لترك المعاصى أو جنة يثاب بها ، وأخرى يتفضل بها عليه ، أو روحانية وجسمانيـــة ، وكذا ماجاء مثنى بعد " فبأى آلاء ربكما تكذبان " وقوله تعالـــى : " ذواتا أفنان " صفة (لجنتان) ، وما بينهما اعتراض وسط بينهمـــا تنبيها على أن تكذيب كل من الموصوف والصفة موجب للإنكار والتوبيخ و " الأفنان " إما جمع " فن " أو ذواتا أنواع من الأشجار والثمار ،

---

١) تفسير أبى السعود ، ١٥١/٤

أو جمع " فنن " أى ذواتا أغصان متشعبة من فروع الشجر، وتخصيصها بالذكر لأنها التى تورق ، وتثمر وتمد بالظل ... "(١)

وقال الفراء : أراد جنة .. التثنية لأجل الفاصلة قال : والقوافى تحتمل الزيادة والنقصان ما لا يحتمله سائر الكلام ونظير ذلك قول الفراء أيضا : " إذ انبعث أشقاها " ١٢/ الشمس فإنهما رجلان قدار وآخر معه ولم يقل أشقياها للفاصلة .

وقد أنكر ذلك " ابن قتيبه " وأغلظ فيه ، وقال : إنما يجوز فى رؤوس الآى زيادة هاء السكت ، أو الالف أو حذف همزة أو حرف ، فإما ان يكون الله تعالى وعد جنتين فيجعلهما جنة واحدة لاجل رؤوس الآى ، فمعاذ الله !! وكيف هذا وهو يصفهما بصفات الاثنين . قال " ذواتا أفنان " ٤٨/الرحمن ثم قال " فيهما " ، وأما ابن الصائغ فإنه نقل عن الفراء أنه أراد جنات ، فاطلق الاثنين على الجمع لأجل الفاصلة ، ثم قال : وهذا غير بعيد .. قال : وإنما أعاد الضمير بعد ذلك بصيغة التثنية مراعاة للفظ .

---

١) تفسير ابى السعود ٦٦٦/٤

٩ـ التقديـــــم :

نحو " إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون " ٢٢/الانفال ·
فى تقديم لفظ " الصم " على " البكم " ·

من أول الآية ــ استئناف مسوق لبيان كمال سوء حال المشبه بهم مبالغة فى التحذير ، وتقريراً للنهى إثر تقرير أى إن شــــر مايدب على الارض ، أو شر البهائم " عند الله " أى فى حكمـــــه وقضائه " الصم " الذين لايسمعون الحق " البكم " الذيــــــن لاينطقون به ، وصفوا بالصم والبكم لأن ماخلق له الأذن واللسان إلا لسماع الحق والنطق به ، وحيث لم يوجد فيهم شئ من ذلــــك ، صاروا كأنهم فاقدون للجارحتين رأسا ، وتقديم " الصم " علـــــى " البكم " أى أن صممهم متقدم على بكمهم ، فإن السكوت عن النطـــق بالحق من فروع عدم سماعهم له كما أن النطق به من فروع سماعـــــه ثم وصفوا بعدم التعقل ، فقيل " الذين لايعقلون " تحقيقا لكمـــال سوء حالهم ، فإن الأصم الأبكم إذا كان له عقل ربما يفهم بعـــــض الأمور ، ويفهمه غيره بالاشارة ، ويهتدى بذلك الى بعض مطالبـــه ، وأما إذا كان فاقدا للعقل أيضا فهو الغاية فى الشرية وســــوء الحال ، وبذلك يظهر كونهم شرا من البهائم حيث أبطلوا ما بــــه يمتازون عنها ، وبه يفضلون على كثير من خلق الله عز وجل فصـــاروا أخس من كل خسيس ، (١)

---

(١) تفسير ابى السعود ، ٣٥٣/٢

١٠ــ اجراء غير العاقل مجرى العاقل ..

قوله تعالى : " وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون " ٣٣/ الانبياء

" اللذين هما آيتاهما بيان لبعض تلك الآيات التى هم عنها معرضون بطريق الالتفات الموجب لتأكيد الاعتناء لفحوى الكلام أى هو الذين خلقهم وحده ، " كل " أى كل واحد منهما ، على أن التنوين عوض عن المضاف اليه " كل فى فلك يسبحون " أى يجرون فى سطح الفلك كالسبح فى الماء والمراد بالفلك الجنس ــ كقولك ــ كساهم الخليفة حلة ، والجملة حال من الشمس والقمر ، وجاز انفرادهما بها لعدم اللبس ، والضمير لهما ، والجمع باعتبار المطالع ، وجعل الضمير واو العقلاء لان السباحة حالهم " (١)

وأيضا نحو قوله تعالى " ... احد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين " ٤/يوسف . واستئناف ببيان حالهم التى رآهم عليها كأن سائلا سأل فقال : كيف رأيتهم ، فأجاب بذلك ، وإنما اجريت مجرى العقلاء فى الضمير لوصفها بوصف العقلاء أعنى السجود وتقديم الجار والمجرور لإظهار العناية والاهتمام بما هو الأهم مع مافى ضمنه من رعاية الفاصلة " (٢)

---

١) تفسير ابى السعود ٣/٥١٥

٢) تفسير ابى السعود ٣/٧٩ .

١١ـ الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ...

نحو " ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى " ١٢٩/طه
" وأجل مسمى " عطف على " كلمة " أى ولولا أجل مسمى لأعمارهم أو لحسابهم يوم القيامة ، لما تأخر عذابهم أصلا ، والفصل الموجود بين المعطوف والمعطوف عليه إنما هو للمسارعة إلى بيان جواب " لولا " ، وللإشعار باستقلال كل منهما بنفى لزوم العذاب ، ومراعاة فواصل الآى الكريمة ، وقد جوز عطفه على الكائن فى كان (كينونة العذاب أو الحساب) العائد إلى الأخذ العاجل المفهوم من السياق تنزيلا للفصل بالخبر منزلة التأكيد أى لكان الأخذ العاجل وأجل مسمى لازمين لهم ، كدأب عاد وثمود وأضرابهم ، أى لولا هذه العدة لكان مثل إهلاكنا عاداً وثمود ، ولم ينفرد الأجل المسمى دون الأخذ العاجل والفصل عما عطف عليه للإشعار باستقلال كل منهما ، بنفى لزوم العذاب ومراعاة فواصل الآية الكريمة .

١٢ـ وقوع مفعول موقع الفاعل ..

قول الله تعالى : " جنات عدن التى وعد الرحمن بالغيب إنه كان وعده مأتيا " أى موعوده كائنا ما كان ، فيدخل فيه الجنات الموعوده دخولا أوليا ، ولما كانت هى مثابة يرجع إليها قيل (مأتيا) أى يأتيه من وعد له لامحالة ، بغير خلف ، وقيل هى

مفعول بمعنى فاعل ، وقيل مأتيا أى مفعولا منجزا من أتى اليه إحسانا أى فعله » (١)

٣ ـ وقوع فاعل موقع مفعول ..

نحو " ماء دافق " ٦/ الطارق ، " استئناف وقع جوابا عن استفهام مقدر وكأنه قيل " مم خلق " فقيل " من ماء ذى دفق " وهو صب فيه دفع وسيلان بسرعة ، والمراد به الممتزج من الماءين فى الرحم ، كما ينبئ عنه قوله تعالى " يخرج من بين الصلب والترائب " أى من صلب الرجل ، وترائب المرأة وهى عظام صدرها » (١).

فاسم الفاعل أكثر مناسبة لما يحمل من قوة الدفع وسرعة السيلان ..

٤ ـ الفصل بين الموصوف والصفة ..

كقوله تعالى : " أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى " أى أنبت مايرعاه الدواب غضا طريا يرف ، فجعله بعد ذلك " غثاء أحوى " أى دريناً أسود ، وقيل " أحوى " حال من المرعى أى أخرجه أحوى من شدة الخضرة والرى ، فجعله غثاء بعد ذلك » (٢)

---

١) تفسير أبى السعود ، ٨/٥٨/٤
٢) نفسه ، ٨٦/٤ .

١٥ـ استعمال صيغة الاستقبال بدلا من صيغة المضي ..

كقوله تعالى : " ... ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون " ٨٧/البقرة

" ... تقديم كلمة " فريقا " في الموضعين للاهتمام وتشويق السامع إلى ما فعلوا بهم لا للقصر ، وإيثار صيغة الاستقبال في القتل لاستحضار صورته الهائلة أو للإيماء إلى أنهم بعد على تلك النية حيث هموا بما لم ينالوه من جهته عليه السلام ، وسحروه وسموا له الشاه ، حتى قال (صلى الله عليه وسلم) " ما زالت أكلة خيبر تعاودني " . (١)

" ... لقائل ان يقول : هلا قيل وفريقا قتلتم ، وجوابه من وجهين ، أحدهما : أن يراد الحال الماضية لأن الأمر فظيع فأريد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب .

الثاني : أن يراد " فريقا تقتلونهم " بعد لأنكم حاولتم قتل محمد (صلى الله عليه وسلم) ، لولا أني أعصمه منكم ، ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة ، وقال عليه السلام عند موته " ما زالت أكلة خيبر تعاودني " . (٢)

---

١) تفسير ابي السعود ، ١٥٣/١ .
٢) التفسير الكبير : الفخر الرازي ٤٠٥/١ ، المطبعة الحسينية المصرية .

وفى قول الله تعالى : " فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولايرد بأسه عن القوم المجرمين " ١٤٧ / الانعـــام.

مع أن ظاهر الخطاب " ذو عقوبة شديدة " ، وإنمـــا قال ذلك نفيا للاغترار بسعة رحمة الله تعالى فى الاجتراء على معصيته ، وذلك أبلغ فى التهديد ، ومعناه : لاتغتروا بسعة رحمة اللـه تعالى فى الاجتراء على معصيته فإنه مع ذلك لايرد عذابه عنكم " (١)

---

١) الزركشى : البرهان ٩١/١.

مناسبة الفاصلة

يقول ابن خلدون " ان القرآن ، وإن كان من المنثور الا أنه خارج عن الوصفين (وصفى النثر وهما السجع والمرسل) وليس يسمى مرسلا مطلقا ، ولا مسجعا ، بل تفصيل آياته ينتهى إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ، ثم يعاد الكلام فى الآية الأخرى بعدها ، ويثنى من غير التزام حرف لايكون سجعا ولاقافية ، ويسمى آخر الآيات فواصل ، إذ ليست أسجاعا ، ولا التزام فيها مايلتزم فى السجع ولا هى قوافٍ ... " (١)

ولسنا هنا بصدد البحث عن الفاصلة وتعريفها أو مقارنتها بغيرها من قوافى الشعر والنثر كما يحدث فى دراسة الفاصلة ، ولكن مايعنينا هو مناسبة الفاصلة لأسلوب الآية القرآنية ، فالبحث يتناول الكلام عن المناسبة وما تنم عنه من أغراض بلاغية تبين صورة الارتباط وهدفه بين الآية والفاصلة التى تنتهى بها .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٠٥ كتاب التحرير ـ القاهرة ١٩٦٦ .

وفى مجـــال المناســـبة نرى أن الفاصلة تعمل على مايسمى " التمكين " ومعناه تمكين المعنى فى الآية وكأن الدلالات فـــى الآية القرآنيـــة تتمكن وتستقر فى أسلوبها حين تربط الفاصـــــلة هذه الدلالات فى النص وتمكنها من ألفاظه وأسلوبه •

وإن كانت الآيـــة فى سياقها تمهد لهذه الفاصلة حتى تأتـى تلك الفاصـــلة متمكنـــة فى قرارها مطمئنـــة فى موضعها ، لانفـــور بينها وبين ألفـــاظ الآيـــة ، الفاصلة من جانب آخر تحكم ألفـــــاظ الآيـــة بعضها ببعض وتمكنها ، فتقدمها فى حكمة مســـاقـــــة أو حكم مترابط ، أو نصـــح أو ارشـــاد يتعانق فيه الكلم ويشـــد بعضـــه بعضـــا •

ويقـــول الزركشـــى " ••• وحق الفاصـــلة ••• تمكـــين المعنى المسوق اليه "(١) ، والتمكين من وجهين : تمكين معنـــى الآيـــة ، واستقرار الفاصلة فى مكانها • كما قيل أيضا إن الفاصلة " تقع ••• عند الاستراحة فى الخطاب لتحسين الكلام بهـــا وهى الطريقة التى يباين القرآن بها سائر الكلام • "(٢)

---

١) الزركشـــى : البرهان ٨٨/١ •
٢) نفســـه ، ٥٤/١ ،
السيوطى : الاتقان ٩٧/٢ •

من ذلك قول الله تعالى : " ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون " ٤٠/سبأ .

(وخطاب الملائكة تقريع للكفار ، وقد علم تعالى أن الملائكة منزهون برآء مما وجه عليهم من السؤال ، وإنما ذلك عن طريق توقيف الكفار على سوء ما ارتكبوه من عبادة غير الله تعالى وأن من عبدوه مفترى عليهم .

وهؤلاء ... مبتدأ وخبره (كانوا يعبدون) ، (إياكم) مفعول يعبدون لما تقدم ، انفصل ، وإنما قدم لأنه أبلغ في الخطاب ، ولكون يعبدون فاصلة فلو أتى بالضمير متصلا كان التركيب " يعبدونكم " ، ولم يكن فاصلة ، واستدل بتقديم هذا المعمول على جواز تقديم خبر كان عليها إذا كان جملة ... " (١)

ونلحظ أن الفاصلة لا تخلو من الائتلاف والتعلق بمعنى الكلام الذي جاءت فيه تعلقا تاما ، بحيث لو طرحت لاختل المعنى واضطرب الفهم ، ولو سكت عنها لتمكن السامع من أن يكملها بطبعه ، إذ يشهد الذوق باقتضاء الكلام عندها ـ كما أشار ابن خلدون ، حين ذكرنا قوله في مستهل هذا الكلام .

---

(١) التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط لابن حيان الأندلسي ج ٧ / ٢٠٠ ، مكتبة ومطبعة النصر الحديثة ـ السعودية ـ الرياض (بدون تاريخ) .

وتعد البلاغيون هذا الاسلوب سمة من سمات فصاحة الكلام وبلاغته ، ومن بديع المعنى وأناقته ، واطلقوا عليه (التمكين) الذى يمثل ائتلاف نهاية الكلام .

ومن ذلك قول الله تعالى " قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرنا ان نترك مايعبد آباؤنا أو أن نفعل فى اموالنا ما نشاء انك لأنت الحليم الرشيد " ٧٨/هود .

تتناول الآية ذكر العبادة ، وتلا ذلك ذكر التصرف فى الاموال ، اقتضى ذلك ذكر الحلم والرشد على ترتيب ، لان الحلم يناسب العبادات والرشد يناسب الاموال ..

كذلك قول الله تعالى " اولم يهد لهم كم اهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون . أولم يروا أنا نسوق الماء الى الارض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وانفسهم أفلا يبصرون " ٢٦،٢٧ / السجده ، والواضح أن الفاصلة فى الآية الأولى " أفلا يسمعون "وهى توافق الموعظة التى وردت فى مستهل الآية ، لأن الموعظة مسموعة ، فهى إخبار عن ما حدث للقرون الاولى .. كذلك الفاصلة فى الآية الثانية " أفلا يبصرون " لأن الآية هنا تشير إلى صورة مرئية ، وهى التى تتفق مع الأبصار والمشاهدة وكلا الفاصلتين تناسب ماجاء فى كل آية .

وفى قول اللـــه تعالى " ولقد خلقنا الانســان من سلالـــة من طـين ، ثم جعلنـاه نطفـة فى قرار مكين ، ثم خلقنـا النطفـة علقـة فخلقنــا العلقـة مضغـة فخلقنا المضغـة عظاما فكسونا العظـام لحمـا ثم أنشـأناه خلقا آخر فتبـارك الله أحسن الخالقين " ١٢ ، ١٣ ، ١٤ / المؤمنـــون ، والفاصلة " فتبارك الله أحسن الخالقين " جـاءت فى تمكين تام مناسب لما قبلها تمامـا •

ـــ ال ويحكى أن إعرابيا سمع قارئـا يقرأ " فان زللتم من بعـد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله غفور رحيم " ٢٠٩ / البقـرة ،

ولم يكن يقرأ القرآن ، فقال : إن هذا ليس بكلام الله الله لايذكر الغفـــران عند الزلل ، لانه اغـراء بـــه " (١)

وصحـــة الفاصلة فى الآية " عزيز حكيم " أى أن الله غالـــب على أمره لايعجزه الانتقـام منكم ، ولايترك ماتقتضيه الحكمـة من مؤاخـذة المجرمين المعتصين على أوامره ، وهو مايوافق معنى الآية التى جـاءت تلك الفاصلة فى آخرهـــا ••

---

١) السيوطى : معترك الاقران فى إعجاز القرآن ، ص ٤٠ تحقيق محمـــد على البجاوى ، دار الفكر العربى ، ١٩٦٩ ـ القاهرة •

وفى ذلك يقول الفخر الرازى " ... لقائل أن يقول إن قوله تعالى " فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات .. " إشارة إلى ذنبهم وجرمهم فكيف يدل قوله إن الله عزيز حكيم على الزجر والتهديد (الجواب) إن العزيز من لا يمنع عن مراده ، وذلك إنما يحصل بكمال القدرة ، وقد ثبت أنه سبحانه وتعالى قادر على جميع الممكنات ، فكان عزيزا على الإطلاق ، فصار تقدير الآية ، فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله مقتدر عليكم لا يمنعه مانع عنكم فلا يفوته ما يريده منكم ، وهذا نهاية فى الوعيد ، لأنه يجمع من ضروب الخوف ما لا يجمعه الوعيد بذكر العقاب ، وربما قال الوالد لولده .. إن عصيتنى فأنت عارف بى ، وأنت تعلم قدرتى عليك ، وشدة سطوتى ، فيكون هذا الكلام فى الزجر أبلغ من ذكر الضرب وغيره .. فإن قيل هل هذه الآية مشتملة على الوعد كما أنها مشتملة على الوعيد ... قلنا : نعم ، من حيث أتبعه بقوله " حكيم " فإن اللائق بالحكمة أن يميز بين المحسن والمسيء .. فكما يحسن من الحكيم إيصال العذاب إلى المسيء ، فكذلك يحسن منه إيصال الثواب إلى المحسن ، بل هذا أليق بالحكمة وأقرب للرحمة " (١)

---

١) الامام محمد الرازى فخر الدين : التفسير الكبير ، ٢/١٩٢ ، الطبعة الحسينية ــ القاهرة .

ومعروف أن الرازى من المفسرين الذى يعتدون بالمناسبة ، ويتكلمون عنها ، وهو يريد أن يوضح هنا مدى موافقة الفاصلة لمعنى الآيـة ..

ومن ذلك أيضا قول الله تعالى " قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولاتقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم وإياهم ولاتقربوا الفواحش ما ظهر منها ومابطن ولاتقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون " (١٥١/ الانعام) .

تشير الآيـة إلى الاشراك بالله وأن هذا لعدم استكمال العقل الدال على توحيده وعظمته ، كذلك عقوق الوالدين لايقتضيه العقل ، فالوالدان قد سبق لهما الاحسان التام الى الولد بكل طريق ووسيلة ..

كذلك قتل الاولاد خوفا من الفقر إنما هو تصرف غير عاقل لأن الله تعالى هو الرازق الحى ، وإن ذلك لم يكن مبررا لقتلهم ، وإتيان الفواحش أمر لايقره ولايقتضيه عقل ، وكذا قتل النفس لغيظ أو غضب ، فحسن بعد هذا كله أن تشير الآيـة الى العقل "لعلكم تعقلون " حتى تصبح هذه الوصايا محل النظر العقلى ، ولاشك أن العقل يرفضها ولايقبلها ..

والاية التالية يقول اللـه فيها " ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لانكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ".(١٥٢/الانعام) .

وتتعلق تلك الآية بالحقوق المالية والقولية ، فإن من علم أن له أيتاما يخلفهم من بعده لايليق به أن يعامل أيتام غيره الا بما يجب أن يعامل به أيتامه ، ومن يكيل أو يزن أو يشهد لغيره لو كان ذلك الأمر له لم يحب ان يكون فيه خيانة ولابخس وكذا من وعد له وعد لم يحب أن يخلف ، ومن أحب ذلك عامل الناس به ليعاملوه بمثله ، فترك ذلك انما يكون لغفلته عن تدبر ذلك وتأمله .. لذلك كانت الفاصلة " لعلكم تذكرون " .

وفى الآية الثالثة " وأن هذا صراطى مستقيما " فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون " .(١٥٣/الانعام) .

وتعنى الآية أن ترك اتباع شرائع الله الدينية يؤدى إلى غضبه وإلى عقابه فحسن " لعلكم تتقون " أى تتقون عقاب الله بسبب ذلك .

وقد تأتى الآيات متفقة فيما تتحدث عنه ، والفاصلة تختلف فى كل منها ، وفى ذلك تحدد الفاصلة الهدف من الآية الكريمة حتى لا يبدو تكراراً لنفس الغرض فى أكثر من آية ..

مثال ذلك ما جاء فى سورة ابراهيم ، " وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار " (الآية ٣٤ / ابراهيم) .

وفى سورة النحل " أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم " (الآيتان ١٧ ، ١٨ / النحل) .

وفى هذه الحالة يمكن القول بأن الفاصلة تبين مقصد الآية بما يتفق والغرض العام فى السورة كلها ..

ولترشيح هذا الموقف نجد أن " سورة ابراهيم " تتكلم أساسا عن " الرسالة والرسول " وتتناول دعوة الرسل بشىء من التفصيل ، وتوضيح معنى وحدة الرسالات السماوية ، إذ الانبياء قد جاءوا لتشييد صرح الايمان ، وتعريف بالاله الحق الذى تخضع له وجوه الناس جميعا ، ومهمة الرسل أيضا هى إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، فهدفهما هو الإنسان ، وبيان التشريع للإنسان

عن طريق الرسل إنما هو نعمة من نعم الله عليه ، لذا جاءت الفاصلة "... إن الانسان لظلوم كفار"، وكذلك .. إذ في بداية الآية " وآتاكم من كل ما سألتموه .... " فتصف المنعم عليه وهو الإنسان ، وبين عدم وفائه بشكر تلك النعم ..

أما سورة النحل ، فتقرر مبدأ " وحدانية الله " يلفت الأنظار إلى قدرته تعالى ، حتى يتجه الناس إلى ذلك بعقولهم ليستنيروا بما يرونه من آثار صنع الله ، وتأتى الآيات فى بيان صفات الله وإثبات ألوهيته .

وتأتى الفاصلة هنا " لغفور رحيم " وهو فى وصف المنعم جل وعلا .. والآية السابقة عليها رقم (١٧) ، " أفمن يخلق كمن لا يخلق " تبين أن الكلام عن الله تعالى .. وفى موضع آخر فى سورة الشورى يقول الله تعالى " من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد " (٤٦ / الشورى) .

والآية قبلها ... " ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب " (٤٥ / الشورى) .

وفى سورة الجاثية يقول الله تعالى " من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون " (١٥/ الجاثية) .

والآية قبلها .. " قل للذين آمنوا يغفروا للذين لايرجون أيام الله ليجزى قوما بما كانوا يكسبون " (١٤/ الجاثية) .

فى الآية الأولى تأتى الفاصلة مناسبا لمضمونها ، فالله سبحانه لايظلم أحدا وهو العادل الحاكم بالعدل ، كما يفهم من الآية السابقة عليها " ولولا كلمة سبقت من ربك .. " إن الله سبحانه وتعالى أراد أن يقوم العدل بين الناس .

وفى الآية الثانية تأتى الفاصلة مناسبة للآية ، لأن المضمون فى الآية السابقة عليها يتعلق بإنكار البعث ، فالذى يناسبه هو فاصلة تتعلق بموضوع البعث .. " إلى ربكم ترجعون " وأن العدالة لابد أن تتحقق فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ..

وكذلك يقول الله تعالى فى سورة النساء .. " إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما " (٤٨/النساء) .

وفى موضع آخر من نفس السورة " ان الله لايغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا " (١١٦ / النساء) .

وفى الآية الاولى .. يقول المفسرون " ان لايغفر الشرك ويغفر ما سوى ذلك من الذنوب لمن شاء من عباده ، ومن يشرك بالله فقد افترى اثما عظيما " .

أى من اشرك بالله فقد اختلق اثما عظيما .. قال الطبرى .. " فقد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة ، ففى مشيئة الله ان شاء عفا عنه ، وان شاء عاقبه عليه ، مالم تكن كبيرته شركا بالله " . ثم ذكر تزكية اليهود أنفسهم مع كفرهم وتحريفهم الكتاب .. فقال " ألم ترالى الذين يزكون أنفسهم " اى لم يبلغك خبر هؤلاء الذين يمدحون أنفسهم ، ويصفونها بالطاعة والتقوى ؟ والاستفهام للتعجب من أمرهم .. " (١)

" قال قتادة : ذلكم اعداء الله اليهود زكوا انفسهم .. فقالوا (نحن ابناء الله وأحباؤه) ، وقالوا : لاذنب لنا (بل الله يزكى من يشاء) اى ليس الامر بتزكيتهم بل بتزكية الله فهو أعلم

---

١) تفسير الطبرى ، ٨/٤٥٠ .

بحقائق الأمور وغوامضها يزكي المرتضين من عباده وهم الأطهار الأبرار لا اليهود الأشرار" (١) .

ومن الواضح أن جو الآيات يتناول الكلام عن اليهود ، فهم الذين افتروا على الله ماليس فى كتابه ،فوافقت الفاصلة هذا الجو ٠٠فكانت (افترى اثما عظيما) اى جاء بذنب عظيم ٠٠

أما الآية الثانية فتتكلم بشكل عام عن الشرك بالله ،وانه بُعْدٌ عن طريق الحق والسعادة ، فكانت الفاصلة (ضل ضلالا بعيدا) توافق مايكون عليه الناس حالة الشرك بالله ٠٠

وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة المائدة :
" إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولاتشتروا بآياتى ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون " (٤٤/المائدة) .

والآية التى بعدها " وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص ،فمن

---

١) محمد على الصابونى ٠٠ صفوة التفاسير ١/٢٨١ .

تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون " (المائدة / ٤٥) .

وفى آية أخرى فى نفس السورة ..

" وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ، الآية ٤٧ ، الآية الاولى " ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون " والخطاب عام بمعنى أن من لم يحكم بذلك مستهينا به منكرًا له كما يقتضيه ما فعلوه من تحريف آيات الله تعالى اقتضاء بينًا ، (فأولئك) إشارة إلى (من) والجمع باعتبار معناها ، كما أن الإفراد فيما سبق باعتبار لفظها " هم الكافرون " لاستهانتهم به " وهم " إما ضمير الفصل أو مبتدأ ، وما بعده خبره ، والجملة خبر لأولئك ، والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها أبلغ تقرير وتحذير عن الإخلال به أشد تحذير ، حيث علق فيه الحكم بالكفر بمجرد ترك الحكم بما أنزل الله تعالى ، فكيف ، وقد انضم إليه الحكم بخلافه لاسيما مع مباشرة ما نهوا عنه من تحريف ، ووضع غيره موضعه وادعاء أنه من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا .. " . (١)

وفى الآية الثانية " فأولئك هم الظالمون " .. أى المبالغون فى الظلم المتعدون لحدود الله الواضعون للشئ فى غير موضعه ،

---

١) تفسير ابى السعود ، ٢/٤٨ .

والجملـــة تذييل مقرر لايجاب العمل بالاحكام المذكورة في الآيـــة .

والآية الثالثة " فأولئك هم الفاسقون " ... أى " المتمردون الخارجون عن الإيمان ، والجملة تذييل مقرر لمضمون الجملة السابقـــة ، ومؤكد لوجوب الامتثـــال بالأمر ، وفيه دلالة على أن الإنجيل مشتمـــل على الأحكام ، وأن عيســـى عليه السلام كان مستقلا بالشرع مأمـــورا بالعمل بما فيــــه من الأحكام قلت أو كثرت لابما في التوراة خاصة ، وحمله على معنى " وليحكم بما أنزل الله فيه من ايجاب العمل بأحكام التوراة خلاف الظاهـــر ... " (١)

ومن الفواصل مايظهر في قول الله تعالى " إن تعذبهـــم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم " المائدة / ١١٨ ..

قد يبدو في هذه الفاصلة أنها لاتوافق الآية ، وإن قولـــه تعالى " ... وإن تغفر لهم ... " يقتضى أن تكون الفاصـــلة (الغفور الرحـــيم) .

إلا أن الحكمة في ذلك .. أنه لايغفر لمن استحق العـــذاب إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه .. فهو العزيز أى الغالب ، والحكيم

---

١) تفسير أبى السعود ، ٢/٤٩ .

هو الذي يضع الشيء في محـــله ، وقد يخفي وجه الحكمة على بعض الضعفاء في بعض الأفعال فيتوهم أنه خارج عنها ، وليس كذلك ، فكـــان في الوصف (بالحكيم) احتراس حكيم حسن .

" والمعنى .. إن تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب ، فـــلا معترض عليك لأحد في ذلك ، والحكمة فيما فعلته ، وقيل .. لا يجـــوز " الغفور الرحيم " لأن الله تعالى قطع لهم بالعذاب في قوله تعالـى " إن الله لا يغفر أن يشـــرك به ... " (في الآيتين ٤٨ ، ١١٦ من سورة النســـاء) .

وقيل لأنه مقام تبرّ ، فلم يذكر الصفة المقتضية لاستمطـــار العفو لهم ، وذكر صفة العدل في ذلك بأنه العزيز الغالب ، وقولـــه (الحكيم) الذي يضع الأشياء مواضعها فلا يعترض عليه إن عفا عمـــن يستحق العقوبـــة .

وقيل ليس هو على مسألة الغفران ، وإنما هو على معنى تسليم الأمر إلى من هو أملك لهم ، ولو قيل " فإنك أنت الغفور الرحـــيم " لأوهم الدعاء بالمغفرة ، ولا يسوغ الدعاء بالمغفرة لمن مات على شـــركه .

وأما قوله " فإنهم عبادك " وهم عباده عذبهم أو لم يعذبهم فلأن المعنى إن تعذبهم تعذب من العادة (أي من حكم من العادة) أن تحكم عليه ، وذكر العبودية التي هي سبب القدرة كقول رؤبة :

يا رب إن أخطأت أو نسيت ... فأنت لاتنسى ولا تموت *

والله لايضل ولاينسى ولايموت ، اخطأ رؤبة او أصاب ،فكأنه قال إن اخطأت تجاوزت لضعفى وقوتك ونقص وكمالك " (١)

" ومن ذلك أيضا قول الله تعالى " والخامسة أنّ غضب الله عليها إن كان من الصادقين ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم " ٩ ، ١٠/النور .

فإن الذى يظهر فى أول النظر أن الفاصلة (تواب رحيم) لأن الرحمة مناسبة للتوبة ،وخصوصا من هذا الذنب العظيم ،ولكن هاهنا معنى دقيق من أجله قال (حكيم) وهو أن ينبّه على فائدة مشروعية اللعان** ، وهى الستر عن هذه الفاحشة العظيمة ،وذلك من عظيم الحكم ، فلهذا كان (حكيم) بليغا فى هذا المقام دون (رحيم) " (٢)

---

* ديوان رؤبة ،ص ٢٥ : مطلع ارجوزة يمدح فيها سليمان بن عبد الملك .
١) الزركشى : البراهن ، ٨٩ ، ٩٠/١ .
** اللعان : أن يقذف الرجل المرأة أو يرميها برجل أنه زنى بها .
٢) الزركشى : البرهان ، ٩٠/١ .

" وأما قولــه تعالى : " تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا " ٤٤ / الاســراء .

فإن قيل ما وجه الختام بالحلم والمغفرة (أى فاصلة الآية) عقيب تسابيح الأشياء وتنزيهها ؟ .. أجاب صاحب الفنون (ذكره صاحب كشف الظنــون) بثلاثة أوجه : ـ

١) إن فسرنا التسبيح على ما درج فى الأشياء من العبر، وأنها مسبحات بمعنى .. مودعات من دلائل العبر ودقائق الإنعامات، فإن حكمه مايوجب تسبيح المعتبر المتأمل ، فكأنه القول يعنى (أنه كان من كبير إغفالكم النظر فى دلائل العبر مع امتلاء الأشـياء بذلك ، وموضع العتب .. قولــه تعالى : " وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضـون " ١٠٥ / يوسف .

كذلك موضع المعتبة قوله " ... ولكن لاتفقهون تسبيحهم ... " وقد كان ينبغى أن يعرفوا بالتأمل مايوجب القربة لله مما أودع مخلوقاته بما يوجب تنزيهه ، فهذا موضع حلم وغفران عما يجرى فى ذلك من الإفراط والاهمـال ..

٢) إن جعلنا التسبيح حقيقة فى الحيوانات بلغاتها فمعنـاه : الاشياء كلها تسبحه وتحمده ، ولا عصيان فى حقها وانتم تعصـون

فالحلم والغفران للتقدير فى الآية ، وهو العصيان • وفى الحديث (لولا بهائم رتع ، وشيوخ ركع ، وأطفال رضع لصبّ عليكم العذاب صبّا) •

٣) إنه سبحانه قال فى أولها " تسبح له السموات والسبع والأرض ومن فيهن وإن من شئ الا يسبح بحمده " ٤٤/ الاسراء • أي أنه كان لتسابيح المسبحين حليما عن تفريطهم غفورا لذنوبهم ، ألا تراه قال فى موضع آخر " والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض إلا أن الله غفور رحيم " ٥/الشورى ، وكأنها اشتملت على ثلاث معان :

إما العفو عن ترك البحث المؤدى إلى التفهيم ، لما فى الأشياء من العبر ، وإنتم على العصيان • أو يريد بها الاشياء كلها تسبحه ، ومنها مايعصيه ويخالفه ، فيغفر عصيانهم بتسابيحهم • (١)

" وكذلك قول الله تعالى " هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شئ " عليم " ٢٩/ البقرة •

---

١) الزركشى : البرهان ٩٢ ، ٩٣/ ١ •

وفى سورة آل عمران " قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات والأرض والله على كل شئ قدير " ٢٩ /آل عمران .

وعند النظر إلى الآيتين ، يمكن أن يقال يقتضى أن تكون الفاصلة فى الآية الاولى (قدير) ، والفاصلة فى الآية الثانية (عليم) لمناسبة ما تشير إليه الآيتان ..

ولكن المناسبة المقصودة فى القرآن تقتضى أن تكون التلاوة على ما هو عليه ، ولذلك نجد أن آية البقرة لما تضمنت الاخبار عن خلق الأرض وما فيها على حسب حاجات أهلها ومنافعهم ومصالحهم وخلق السموات خلقا مستويا محكما من غير تفاوت .

والخالق على الوصف المذكور يجب أن يكون عالما بما فعله كليا وجزئيا ، مجملا ومفصلا ، ناسب ختم الآية بصفة العلم

أما الآية الثانية ـ آية آل عمران ـ فهى فى سياق الوعيد على موالاة الكفار ، وكان التعبير بالعلم .. (.. يعلمه الله ويعلم ما فى السموات ..) شركناية عن المجازاة بالثواب والعقاب وذلك ناسب ختم الآية بصفة القدرة ..

وقد تأتى الفاصلة تحاكى اللفظ فى صدر الآية ، ويقولون عن ذلك (التصدير فى الفاصلة) ...

" فالتصدير هو أن تكون اللفظة (الفاصلة) بعينها تقدمت فى أول الآية ، وتسمى أيضا رد العجز على الصدر " (١)

كما فى قول الله تعالى : " ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون " ١٠/ الأنعام .

فالفاصلة هنا توافق أول كلمة فى الآية .. ومن هذه الفاصلة ما تأتى موافقة لكلمة متأخرة قليلا فى صدر الآية .

---

(١) السيوطى : معترك الأقران ، ص٤٨ .

كقول اللـــــه تعالى " لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزلـــــه بعلمـــه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا " ١٦٦/النساء .

كما تأتى هذه الفاصـــلة (آخر كلمة فى الآيـــة) توافق كلمـــة فى منتصف الآيـــة (مثـــلا) كقول الله تعالى : " ربـــنا لاتـــزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهـــاب " ٨/آل عمـــران .

ومن هذا التصـــديرـ كما ذكر الزركشى فى برهانه ـ قول الله تعالى " وقال لهم موسى ويلكم لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعــذاب وقد خاب من افترى " ٦١/ طـــه .

وقوله تعالى " خلق الانسان من عجـل سأريكم آياتى فـــلا تستعجلون " (١) ٣٧/ الانبيـــاء . ومن الواضح أن ما أثير عـــن التصدير فى الفاصلة هو أن الفاصلة تأتى لتوافق كلمة فى الآيـــة من ناحية

---

١) الزركشـــى : البرهان ١/٩٤ .

اللفظ ، سواء أكانت هذه الكلمة تتصدر الآية أو تأتى فى وسطها أو قريبا من آخر الآية . ومن ذلك أيضا التوشيح فى الفاصلة ..

وهو من أنواع ارتباط الفاصلة بالآية .. " والتوشيح هو أن يكون فى أول الكلام ما يستلزم نهاية الآية .. والفرق بين التوشيح والتصدير هو أن التصدير فيه اتفاق لفظى بين كلمة فى الآية وبين الفاصلة .. والتوشيح فيه اتفاق معنوى بين لفظ من ألفاظ الآية والفاصلة . من ذلك قول الله تعالى " إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين " ٣٣/آل عمران .. فإن اصطفى تدل على أن الفاصلة (العالمين) لا باللفظ ، وإنما بالمعنى ، إذ يعلم أن من لوازم اصطفاء شىء أن يكون مختارا على جنسه ، وجنس هؤلاء المصطفين (العالمين) "(١)

وكقوله تعالى : " وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون " ٧ /يس ، عندما نجد فى صدر الآية

---

١) السيوطى : معترك الأقران ، ص٤٩ .

انسلاخ النهار من الليل ، كان من المناسب أن تكون الفاصلة (مظلمون) ، لأن من انسلخ النهار عن ليله أظلم .. أى دخل فى الظلمة ... " ولذلك سمى توشيحا ، لأن الكلام لما دل أوله على آخره نزل المعنى منزل الوشاح " (١) .. بمعنى أن الكلام أصبح مكسوا بالجمال ، ولأن الاسلوب صيغ صياغة فيها توافق وتناسب..

ولشدة ما بين الكلام هنا من مناسبة .. يقولون : إن الفاصلة تعلم قبل ذكرها * ، وهذا يدل على تساوق الأسلوب القرآنى ، وعلى المناسبة المعقودة بين كلماته وعلى تعلق الفاصلة بالآية وكلمات الآية ، تعلقا يوحى بترابط الكلمات القرآنية .

ومن ذلك ايضا الايغال فى الفاصلة وتأتى الفاصلة بما يسميه علماء علوم القرآن " إيغال " بمعنى أنها تبلغ بمعنى الآية منتهاه ، وتزيد عليه ، فتأتى بمعنى يزيد فى

---

١) السيوطى : معترك الاقران ، ص ٤٩ .

* الزركشى : البرهان ١/٩٥

الايضاح ، ويوغل فيه ..

يقول الله تعالى " أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون " ٥٠/ المائدة ، فإن الكلام تم بقوله (ومن أحسن من الله حكما) ثم جاءت الفاصلة تناسب القرينة الاولى فلما أتى بها أفاد معنى زائدا " (١)

وأود أن أشير هنا بأن المقصود بالمعنى الزائد ليس زائدا عن حاجة الأسلوب ، ولكنه زيادة في الايضاح وفي البيان لأن القرآن لم تخف ولم تغمض معانيه بل هناك الكثير من الاساليب المتنوعة التي تعمل على وضوح المعنى ، وبيان ما فيه *

وكذلك قول الله تعالى " إنك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين " ٨٠/ النمل .

يمكن ان يتم المعنى عند قوله " انك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاء ... " ، ثم يأتي تمام الكلام بالفاصلة (إذا ولوا مدبرين) .. فما معنى (مدبرين) ؟ وقد أغنى عنها (ولوا)

---

١) الزركشي : البرهان ، ١/٩٦ .

* يرجع الى كتابنا (قضايا علوم القرآن) قضية الاظهار والابانة ٢٥٢ .

وهذا القول مردود عليه .. لأن (ولوا) لاتغنى عن (مدبرين) لأن التولّى قد يكون بجانب دون جانب ، ولاشك أن الله سبحانه وتعالى لما أخبر عنهم أنهم صم لايسمعون ، أراد تتميم المعنى بذكر توليهم فى حال الخطاب ، لينفى عنهم الفهم الذى يحصل من الإشارة ، فإن الأصم يفهم بالإشارة مايفهم من يسمع بالعبارة .. والتولى قد يكون بجانب ، ويمكن أن يلحظ بالجانب الآخر ، فيحصل له ادراك بعض الاشارة ، فكانت الفاصلة (مدبرين) ليعلم أن التولى كان بجميع الجوانب .. فخفيت الإشارة عن عينه والعبارة عن سمعه فحصلت المبالغة من عدم الإسماع بالكلية .. فوافقت الفاصلة وناسبت الأسلوب تمام المناسبة ..

" وهذا الكلام وإن بولغ فيه بنفى الأسماع البتة ، فهو من إيغال الاحتياط ، الذى أدمجت فيه المبالغة فى نفى الاستماع - (١)

---

١) الزركشى : البرهان ، ١/٩٧

ويتكلم الزركشي عن " إيغال الاحتياط " فيشير إلى أنه يأتي من مجموع جمل متفرقة في ضروب من الكلام شتى يحملها معنى واحد .. كقوله تعالى " قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ... " ٨٨ /الاسراء ..

وفي سورة البقرة " وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ... " ٢٣ /البقرة .

وفي سورة هود " أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات .. " ١٣ /هود (كما يقال : لايستحق علي درهما ولاحبة ، ولا كثيرا ولا قليلا ، ولوقال " مايستحق علي شيئا " لأغنى في الظاهر ، لكن التفصيل أدلّ على الاحتياط وعلى شدة الاستبعاد في الانكار " (١)

---

١) الزركشي ، البرهان ، ١/٩٧ .

وتأتى المناسبة فى النص القرآنى فى مواضع عديدة ولايفوتنا أن نقول إن المناسبة حينما تأتى إنما توضح كذلك ربط الأسلوب والكلم بعضه مع بعض مما يظهر شدة تماسك الألفاظ فى القرآن الكريم وكأنه نسيج واحد .

- من أساليب الاستطراد :

مايظهر فى قول الله تعالى " يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون " ٢٦/ الاعراف .

ويشير السيوطى إلى قول الزمخشرى : هذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقب ذكر بدو السوءات وخصف الورق عليها ، إظهاراً للمنة فيما خلق من اللباس ولما فى العراء وكشف العورة من المهانة والفضيحة ، وإشعاراً بأن الستر باب عظيم من أبواب التقى " (١).

---

١) معترك الاقران فى اعجاز القرآن .. للسيوطى - القسم الاول ، ص ٥٩ .

والآيــة وردت بعد آيات ذكر فيها آدم وحواء عندمـــا وسوس إليهما الشيطان ليبدى لهما سوآتهما ، حتى تظهر منّة اللــه تعالى على بنى آدم ، فيما خلق لهم من لباس يتجملـــون به ، ثم استطرد القول .. إن خير لباس هو خشية الله تعالـــى ويقال هو السمت الحســن ..

وهذا الاستطراد يناسب ما قبل الآيـة من آيات فى هـذا الموضوع .. والاستطراد هنا أيضا يعمل على ربط الأسلوب الســابق باللاحــق .

ومن أمثلة الاستطراد .. قول الله تعالى :

" لــن يستنكف المسيح ان يكون عبداً لله ولا الملائكــة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليـه جميعـــا "
١٧٢ /النســاء

ويظهر فى هذه الآية ذكر الرد على النصارى الزاعمين بنـّوة المسيح ثم استطراد الرد على العرب الزاعمين بنوّة الملائكة .

والآية السابقة على تلك الآية التى ذكرناها ... " يا أهل الكتاب لاتغلوا في دينكم ولاتقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته القاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولاتقولوا ثلاثة انتهوا خيرًا لكم ،إنما الله واحد سبحانه ان يكون له ولد له مافى السموات ومافى الارض وكفى بالله وكيلا " ١٧١/النساء .

وعندما تذكر الآية التى بعدها " لن يستنكف " هو استئناف مقرر لما سبق من التنزيه فى الآية السابقة .. عن أن يكون عبداً لله مستمرا فى عبادته وتلك وظيفة العبودية ، كيف وأن ذلك أقصى مراتب الشرف "(١) .

وهكذا بعد آية التنزيه تأتى الآية المناسبة فى مكانها المناسب لتذكر أو تستطرد الكلام عن التنزيه ،وتشير الى أن المسيح لن يستنكف

---

(١) تفسير ابى السعود ، ٦١٤/١

أن يكون عبداً لله ، ولا القائلين إن الملائكة بنات الله كما كانوا يدعون ، فالله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد أو بنت ...

وحينا تأتى المناسبة فيما يسمى " حسن التخلص " وهو أن ينتقل مما ابتدأ به من الكلام الى المقصود على وجه سهل يختلسه اختلاسا دقيق المعنى ، بحيث لايشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع عليه الثانى لشدة الالتئام بينهما " (١) .

ويشير السيوطى مرة أخرى إلى أنه قد غلط ابو العلاء فى قوله : لم يقع منه فى القرآن شىء لما فيه من التكلف ، وقال إن القرآن إنما وقع رداً على الاقتضاب الذى هو طريق العرب من الانتقال إلى غير ملائم " (٢)

---

١) معترك الاقران .. للسيوطى ، القسم الاول ، ص ٦٠ .

٢) نفس المرجع .

وهكذا قد أحسن السيوطى عندما رفض هذا القــول ، فالتكلف لا يقع مع كلام الله تعالى ، وإنما يقع من البشـر ، فكــلام الله تعالى إنما يأتى فى سرد معلم ، فمنه أخذنا الصورة الكاملــة لبلاغــة اللغة العربيــة ، وتضمنــا القرآن وجوه الفصاحــة والبيــان ، وأخذ علم البلاغة كل هذه الدروس وصاغها علما لــه تقسيماته وقضايــا

اما الاحتجــاج بأن القرآن جاء بهذه الصورة (حســن التخلص) ليرد على أسلوب الاقتضاب عند العرب حينما ينتقلون إلــى غير ملائم ، فهو احتجاج مردود عليه (فى نفس الوقــت) لأن القــرآن هنا بمثابــة المعلم يبين لهم كيفية الانتقــال من أسلوب إلى أسلــوب وكيــف يكون التخلص فى هذا الانتقــال حسناً مقبولا عند السامــع وهذا لا ينبغــى أن نتكلم عن " حسن التخلص " فى القرآن ، وتعتبــره لونا من الوان المناســبة .

ومن أمثلة ذلك أيضا ما جاء فى سورة الأعراف ـ وهى تذكر بالتفصيل قصص الأنبياء والقرون الماضية والأمم السالفة ، ثم ذكر موسى إلى أن قص حكاية السبعين رجلا ، ودعائه لهم ولسائر أمته .. بقوله تعالى : " واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون " ١٥٦/الأعراف .

والآية التى تليها .. يقول الله تعالى " الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ... " ١٥٧/الأعراف .

وهنا نلاحظ تخلصا من الآية السابقة الى الآية التى تليها بذكر سيد المرسلين .. بعد التخلص فى قوله تعالى : " قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون " ثم تكلمت الآية عن صفات المتقين ، ثم تخلص

إلى أنهم هم الذين يتبعون الرسول النبى الأمى ، وأخذت الآية تعدد الصفات الكريمة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وهكذا تنتقل الآيات فى تخلص حسن ، تستطرد وتوضح ، ومن هنا تتضح أمامنا ظاهرة التناسب بين الآيات ، فى تنقل وربط يوحى بإعجاز القرآن فى بلاغته وفصاحته .

والفرق بين التخلص والاستطراد ... أن التخلص تترك ما كنت فيه بالكلية وتقبل على ما تخلصت إليه .

والاستطراد تمر بذكر الأمر الذى استطردت إليه مرورا خاطفا ثم تتركه وتعود إلى ما كنت فيه كأنك لم تقصده وإنما عرض عروضا .

وحسن التخلص ، إنما يكون بالانتقال من حديث إلى حديث آخر تنشيطاً للسامع .

وهكذا حينما نتعرض للمناسبة ، إنما تتضح ألواناً من بلاغة القرآن وفصاحته بما يساعدنا على فهم الدلالات وما توحى به ،

فننظــــر مثـــلاً إلى الغرض الذى سيقت السورة من أجلـه، وننظر مايحتاج إليــه ذلك الغرض من المقدمات ، وننظر كذلك إلــــى مراتب تلك المقدمــات فى القرب والبعد من المطلوب، وفـــى الانتقــال والتخلص من مقدمة إلى أخـــرى يصل الأسلوب إلــى مايستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة لــه وهو ماتقتضيه البلاغة والفصاحـــة ، وهذا هو الأمر الكلــى المعين على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن ، وهنا يظهـــر وجــه النظم مفصــلا بين كل آية وآية ، فى كل ســورة وسورة .

إن التعرف على المناسبة المعقودة بين نصوص القرآن أمر ملح إلى حد كبير إذ التعرف على المناسبة وإدراكها يمكن أن يصل بنا إلى دلالات كثيرة قد تغيب عنا إذا أهملنا دراسة المناسبة . خاصة وأن القرآن يتميز بتناوله للأحكام العامة والقضايا الموضوعية ، والقرآن ذو وجوه (كما يقولون) .

ولا شك أن المناسبة في النص القرآني سلاح ذو حدين ، فعندما نبحث عن المناسبة ونلمس أبعادها وندرك ملامحها فهي تؤدى بنا إلى إدراك الترابط الذي يتحقق في النص القرآني - كما قلت - وإظهار ما فيه القرآن من البلاغة والفصاحة والبيان . كما أن إدراكها يؤدي إلى ما يمكن أن يوجه من طعون إلى القرآن إذا اختفت هذه المناسبة ، ومن هنا فقد ذكر السيوطي في كتابه " معترك الأقران في إعجاز القرآن " * إن بعض الرافضة زعموا

---

* القسم الاول ، ص ٦٣

أنـه سـقط من سـورة (القيامـــة) شـئ ، لعدم تعلق الآية السـادسة عشرة " لاتحرك به لسـانك لتعجل به " بما قبلها .

وهى محاولة للطعن فى القرآن ، والسبب ان المناسـبة لم تكن ظاهرة أو منعقـدة فى هذا النحو . وأنه حكم سـريع من قبـل الرافضــة .

وقد حكـى الفخر الرازى ـ محاولا عقد المناسـبة حينما أشار إلى أنها (أى السـورة) نزلت فى الإنسان منـذ بداية السـورة ، عند قولـه تعالى " ينبـأ الانسان يومئـذ بما قـدم وأخر . بل الانسان على نفسه بصيـرا "

١٣، ١٤ / القيامة

يقول : يعرض عليـه . أى على الانسان ـ كتابه فإذا أخـذ فى القراءة تلجلج خوفـا ، فأسرع فى القراءة ، فيقال له : لاتحـرك به لسـانك لتعجـل به . . إن علينا ان نجمع عملك وأن نقـرأ

عليــــك ،فإذا قرأناه عليــــك فاتبع قرآنــــه بالإقرار بأنك فعلت ..
ثم إن علينــــا بيان أمر الانســــان وما يتعلق بعقوبته ..

وواضح أن هذا يخالف ما أجمع عليه المفســــرون مــــن أنها نزلت في تحريــــك النبي (صلى الله عليه وسلم) لســــانه حالة نزول الوحــــي ..

والمناسبة سمة من السمات البلاغية التي يذخر بها كتاب الله تعالى بين نصوصه ،ولا علينا أن نغــــالي في البحث عنهــــا وتوفرها بين كل حرف وكلمــــة ،فقد يؤدي هذا إلى تفســــيرات غريبة ،وإلى تأويلات بعيــــدة قد تخرج بالنص عن مألوف التفسير، ورأي الجمهور فيــــه ،كما نرى عند الفخر الرازي حينما انفرد بتفسير (سورة القيامة) ، حتى يتحقق موضوع المناسبة الذي يثيره دائما في تفســــيره ..

عندما تعرض لتفسير قول اللــــه تعالى " ولاتحرك بــــه لسانك لتعجل بــــه ... " وما حدث من قبل الرافضة ــ كمــــا أوضحنا من قبــــل ــ .

وإن مثل هذه الاتجاهات قد حدث بالأقدمين ما بين مؤيد لموضوع المناسبة ومنكر له ..

ولكن المناسبة باعتبارها لوناً من ألوان البلاغة العربية ، فهي متوفرة في النص القرآني ، وهي سلاح ذو حدين تظهر بلاغة القرآن في جانب وفي جانب آخر ربما تكون مجالا من مجالات الطعن فيه . ولذلك فالموضوع جد خطير ، وعلى المتصدى للنص ألا يغالى في موضوع المناسبة فقد يسىء إلى النص أكثر تارة يشير إلى أنه لا صلة له بما قبله من الآيات وما بعده ، وتارة يذهب في تفسيره شططاً ليطوع تفسير النص في تحقيق المناسبة المطلوبة ، وكلاهما أمر خطير خاصة وأننا نتعرض لنص قرآني العمل من خلاله على جانب كبير من الخطورة والأهمية .

عليــــك ،فإذا قرأناه عليــــك فاتبع قرآنـــــه بالإقرار بأنك فعلت ..

ثم إن علينـــا بيان أمر الانســـان وما يتعلق بعقوبته ..

وواضح أن هذا يخالف ما أجمع عليه المفســرون مــن

أنها نزلت في تحريـــك النبي (صلى الله عليه وسلم) لســـانه

حالة نزول الوحـــي ..

والمناسبة سمة من السمات البلاغية التي يذخر بها كتاب

الله تعالى بين نصوصه ،ولا علينا أن نغـالي في البحث عنهــا

وتوفرها بين كل حرف وكلمـــة ،فقد يؤدى هذا إلى تفســيرات

غريبة ،وإلى تأويلات بعيــدة قد تخرج بالنص عن مألوف التفسير،

ورأى الجمهور فيــه ،كما نرى عند الفخر الرازى حينما انفرد بتفسير

(سورة القيامة) ، حتى يحقق موضوع المناسبة الذى يثيره دائمـا

في تفســيره ..

عندما تعرض لتفسير قول اللــه تعالى " ولاتحرك بــه

لسانك لتعجل بــه ... " وما حدث من قبل الرافضة ـ كمـــا

أوضحنا من قبــل ـ .

وإن مثل هذه الاتجاهات قد حدث بالأقدمين ما بين مؤيد لموضوع المناسبة ومنكر له ..

ولكن المناسبة باعتبارها لوناً من ألوان البلاغة العربية ، فهي متوفرة في النص القرآني ، وهي سلاح ذو حدين تظهر بلاغة القرآن في جانب وفي جانب آخر ربما تكون مجالا من مجالات الطعن فيه . ولذلك فالموضوع جد خطير ، وعلى المتصدي للنص ألا يغالي في موضوع المناسبة فقد يسيء إلى النص أكثر تارة يشير إلى أنه لا صلة له بما قبله من الآيات وما بعده ، وتارة يذهب في تفسيره شططاً ليطوع تفسير النص في تحقيق المناسبة المطلوبة ، وكلاهما أمر خطير خاصة وأننا نتعرض لنص قرآني العمل من خلاله على جانب كبير من الخطورة والأهمية .